

شريف سامي

مختصر تاريخ أوروبا

سيرة القارة العجوز قبل أن تصبح
أوروبا التي نعرفها

مكتبة

Telegram Network



دار ذون



مختصر تاريخ أوروبا
«مكتبة  النخبة»

شريف سامي: مختصر تاريخ أوروبا، كتاب
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٣
رقم الإيداع: 2022/ 28757 - الترقيم الدولي: 8 - 357 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.
© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com www.Dardawen.com

شريف سامي مختصر تاريخ أوروبا

سيرة القارة العجوز قبل أن تصبح
أوروبا التي نعرفها



إهداء

إلى أولئك الذين لم يفقدوا الأمل في عالمٍ أفضل،
ضاربين شعاع نور في دُجنة الظلام...

قبل أن تقرأ..

الحقيقة أن التاريخ هو رسالة الماضي إلى المستقبل البعيد، وهو المُعلِّم الأول الذي يمتلك قدرًا كبيرًا من الحكمة مهما اختلفت عليه الآراء وتعددت حوله الأفاويل، وفي تاريخ القارة الأوروبية تفاصيل حروبٍ عديدة بدأت وانتهت وتسببت في تحطم الكثير من آمال القادة والأباطرة الذين حكموها على مدار قرونٍ من الزمن؛ صراعات وأزمات ورغبات شديدة في التوسع والمد واستعادة الهيبة التي فُقدت مرارًا في هذا الطريق الذي حمل في طياته عددًا لانهائيًا من الأسرار.. إضافةً إلى محاولات استثنائية في الحفاظ على حضارات شكلت هوية كل بلدٍ من البلدان حتى وقتنا هذا.

فالحكاية حكاية عن السلام والحرب والبذور الأولى لحضارات أوروبا القديمة التي تكونت وتشكلت بتأثير كبير من حضارات الشرق، الأمر الذي لا زال مثيرًا للجدل حتى الآن.. فالحقيقة أن أوروبا - قبل أن تصبح أوروبا التي نعرفها - لم تكن مهديًا لأي ديانة سماوية، إلا أنها أبت ألا يكون لها دور بارز أو قيادي في التاريخ، وكان هذا هو المشروع الذي ساروا على نهجه واستطاعوا من خلاله الحفاظ على أراضيهم واستعادة ثقفتهم ونهضتهم، حتى صاروا من أهم قارات العالم التي تحكمت في مصائر قارات غيرها، بغزو العديد من الدول بالفعل؛ حيث إن دولة مثل إنجلترا أو المملكة المتحدة وحدها كانت قد غزت كل بلاد العالم عدا ٢٢ دولة فقط⁽¹⁾.

وبرغم كل العثرات التي تعرضت لها، والتحديات التي مرت بها الحكومات والأنظمة الاقتصادية والسياسية فيما بعد، إلا أن أوروبا ما زالت تمتلك القوة العسكرية والاقتصادية والثقافية والوحدة الأممية التي تُبقيها في مقدمة السباق العالمي؛ حيث إنه من بين دول أوروبا هناك ٥ دول مُدرّجين في قائمة العشرة الأوائل كأكبر الاقتصادات الوطنية في الناتج المحلي الإجمالي للعالم منذ عام ٢٠١٧م، وهم: ألمانيا، وإنجلترا، وروسيا، وفرنسا، وإيطاليا⁽²⁾.

ورغم أن أوروبا تحتل ثاني أصغر مساحة بعد أستراليا على المستوى القاري، إلا أن تاريخها حافل بفتراتٍ طويلة ومختلفة من العصور؛ منها المُظلم، ومنها الذي كان بداية لتقدم غير مسبوق في كل شيء، الأمر الذي جعلها نداءً لكافة القوى العظمى المتحكمة في مصائر بقاع كبيرة من الكوكب الذي نعيش فيه.

وفي هذا الكتاب سنتعمق في تفاصيل كل فترة فارقة في تاريخ أوروبا، بداية من عصور الجهل والمرض، وحتى العلوم والفلسفة والنهضة، والإمبراطوريات التي حاولت الحفاظ على عروشها وأمجادها بأثمانٍ غالية للغاية.

تعريف بالقارة العجوز

هنا من بين سكانٍ بلغ عددهم ٧٤٦.٤ مليون نسمة تقريبًا (٢٠١٨م)، الذين يمثلون نسبة ١١٪ من سكان العالم، يوجد ١٩١ مليون شخص عجوز^(٣)^(٤)، ربما لأن النمو السكاني في أوروبا منخفض، ومتوسط العمر مرتفع؛ فأوروبا الحالية تعيش في حالةٍ من ضعف الخصوبة، مما يعني أن كل جيل جديد (مولود) أقل كثافة سكانية من الأقدم، فحقًا اسمها على مسمى؛ فهي القارة العجوز من ناحية القدم والعراقة، ومن ناحية عُمر الأرض، وعمر الإنسان، وكل شيء.

هنا القارة ذات الوجه العريض أيضًا، والتي يقال عنها أن اسمها مشتق من وجهها، فكلمة أوروبا أصلها إغريقي، وتعني: الوجه العريض^(٥).. ولا يُعرف بالضبط سبب تسمية أوروبا بهذا الاسم، لكن يوجد العديد من النظريات المفسرة له، ولعل أهمها هي نظرية المنهج اللغوي لأصل الكلمة، وقد قالوا إن اسم أوروبا هو اسم واصف لها، واستنتجوا بأنه الوجه العريض كما ذكرت، فبالبحث في اللغة اليونانية القديمة لتحليل جذور الاسم؛ ستجد كلمة eurys معناها "واسع"، وكلمة ops لها معنيان وهما: "الوجه" أو "العين"، ومن خلال ذلك إذا دُمجت الكلمتان في كلمة واحدة كما هو حالها؛ ربما ستنتج أن معنى كلمة أوروبا: "الوجه الواسع أو العريض"، وإلى حد كبير، هو وصف مناسب لجغرافيا هذه القارة، التي تتميز بهذا الخط الساحلي العريض؛ كما كانت تُرى من وجهة نظر البحارة اليونانيين القدامى^(٦)، وفي النهاية يمكننا تفسير كلمة أوروبا بأنها تعني "الامتداد".

وبما أننا الآن في أوروبا أرض الميثولوجيا، فقد كان لهذا الاسم حكايات أسطورية متوارثة:
تقول الأسطورة الأولى:



هنا ولدت أوروبا الفينيقية التي سميت باسمها القارة العجوز بحسب الميثولوجيا اليونانية إن أوروبا قد سُميت على اسم أميرة جميلة تُدعى أوروبا، كانت قد نزلت بها في بداية الإعمار، ثم اختطفها "زيوس"⁽⁷⁾ وهي على هيئة ثور أبيض؛ ليذهب بها إلى جزيرة كريت اليونانية ويتركها هناك⁽⁸⁾، وبحلول عام 500 ق.م امتد المقصود من الكلمة ليشمل الأراضي الواقعة شمال اليونان⁽⁹⁾.
بينما تقول الأسطورة الثانية:

إن أوروبا هي ابنة "آجينور"⁽¹⁰⁾ ملك صيدا وصور الفينيقي (لبنان حاليًا)، وقيل إن القارة الأوروبية سُميت على اسمها، الذي يعني "غروب الشمس"، وتقول الأسطورة إنها هي الأميرة ذاتها التي أحبها زيوس، وأصبحت أشهر عشيقاته، وسمّى مملكته - أي قارة أوروبا - باسمها، وبعد أن علم آجينور أرسل أولاده وزوجته للبحث عنها وإرجاعها⁽¹¹⁾⁽¹²⁾.

هنا بوابة الأرض الشمالية، حيث شبه جزيرة كبرى، والتي تبدأ من الجزء الشرقي المسمى "أوراسيا"⁽¹³⁾، بين جبال الأورال⁽¹⁴⁾ وجبال القوقاز⁽¹⁵⁾ وبحر قزوين، وتنتهي من الغرب بالمحيط الأطلسي. أما من الشمال فيشققها المحيط المتجمد الشمالي، ومن الجنوب منطقة القوقاز والبحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط. وتمتاز أوروبا بساحلها الغير منتظم الذي يحتوي على العديد من التعاريج⁽¹⁶⁾. ويتنوع مناخها ما بين مناخ معتدل، ومناخ بارد،

ومناخ محيطي.



تضاريس قارة أوروبا

ونجد بها جميع أشكال الطبيعة الخلابة؛ أنهار طبيعية: كنهر الدانوب، ونهر الفولغا، ونهر الدون، ونهر الراين.
وسلاسل جبلية بارزة: كجبال الأورال، والقوقاز.
وأشباه الجزر الكبيرة والصغيرة: كجزيرة صقلية، والبليار، والجزر البريطانية، وفارو، وشبه جزيرة البلقان، وشبه الجزيرة الإسكندنافية، وشبه جزيرة إيبيريا، وشبه جزيرة الأبنين.
وبها بحار وبحيرات: كبحر قزوين المالح، وبحيرة لادوجا.
ومن أهم زراعاتها: الزيتون، والأخشاب، والقمح، والذرة، والشمندر السكري، والشعير، والحمضيات، والأرز، والعنب، والقطن.
ومن أهم ثرواتها المعدنية: الحديد، والنحاس، والرصاص، والمنغنيز، والنيكل، والزنك... وغيرهم.
هي ثالث أكبر قارة من حيث عدد السكان بعد آسيا ثم أفريقيا. وأكبر دولة

بها من حيث السكان والمساحة هي روسيا، التي تحتوي على حوالي ١٤٣ مليون نسمة، وتحوز على حوالي ٤٠٪ من مساحة اليابسة في أوروبا قاطبة⁽¹⁷⁾. وإذا رميت بصرك هناك ناحية الشرق الروسي، ستجد ١٣٠٠٠ قرية مهجورة بسبب ظروف الجو القاسية... أما أصغر دولة في أوروبا، فهي الفاتيكان⁽¹⁸⁾، وأقدم دولة لم يتم تغيير اسمها منذ القدم هي بلغاريا منذ سنة ٦٨١م، وفيها أكبر جزيرة في العالم "جرينلاند"⁽¹⁹⁾.

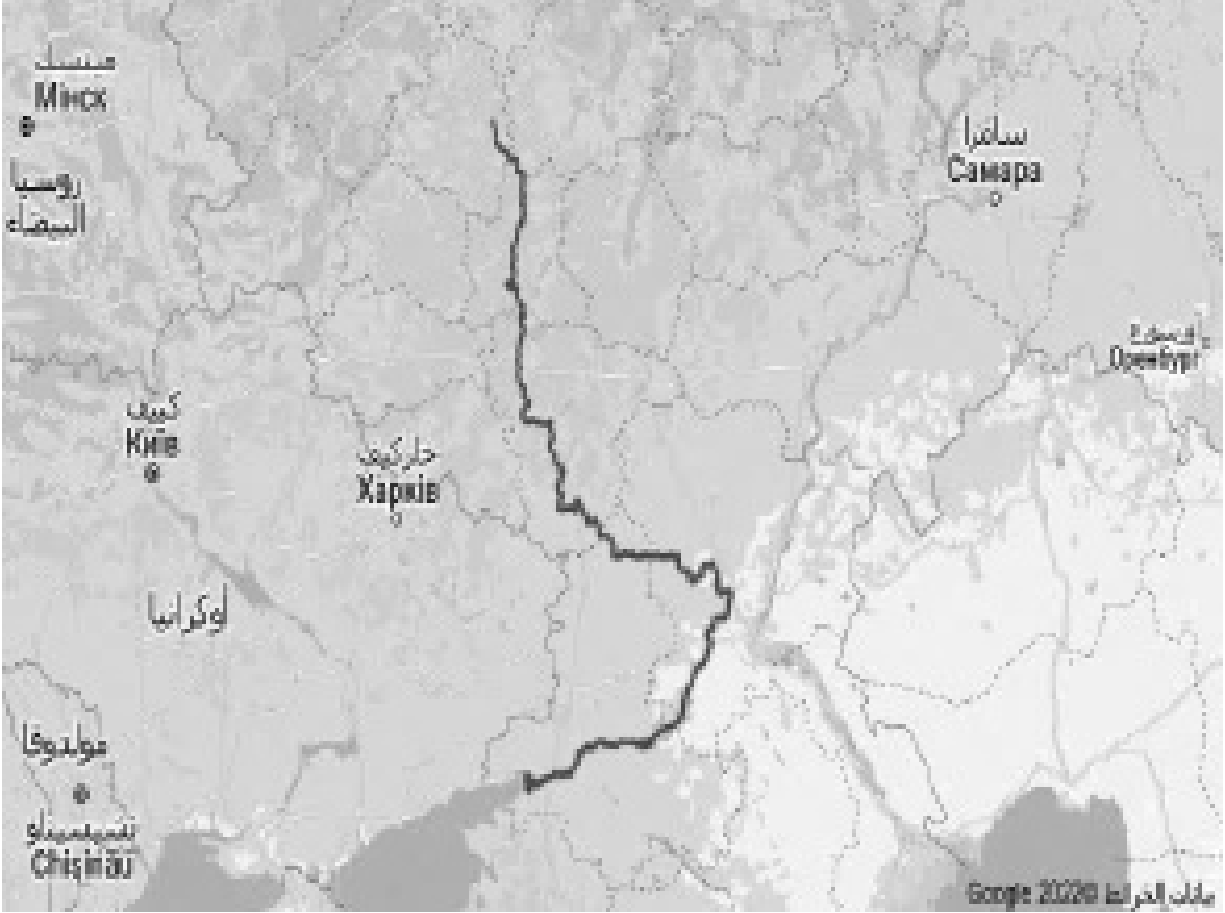
أطول نهر فيها هو نهر الفولغا، الذي يصل طوله إلى حوالي ٣.٥٣١ كيلومترًا⁽²⁰⁾، وأكبر البحيرات هي بحيرة "لادوغا" التي يصل حجمها إلى حوالي ١٧.٨٩١ كيلومترًا مربعًا⁽²¹⁾، وبحر قزوين المالح هو أضخم بحر مغلق على وجه الأرض⁽²²⁾⁽²³⁾، وأعلى قمة جبلية فيها هي قمة "إلبروس" على جبال "القوقاز"، التي يبلغ ارتفاعها حوالي ٥.٦٤٢ مترًا⁽²⁴⁾، وأكثر دولة في أوروبا تتعرض لوبلات الزلازل والبراكين والكوارث البيئية هي دولة آيسلندا.

أول استخدام تم تسجيله في التاريخ لمصطلح أوروبا كتعريف جغرافي قد وُجد في "ترانيم هومري"⁽²⁵⁾ إلى "ديليان أبولو"، وهي واحدة من ثلاث وثلاثين ترنيمة يونانية قديمة مجهولة تحتفل بالهة فردية، وقد ذُكرت كلمة "أوروبا" في ترنيمة موجّهة للإله "أبولو"⁽²⁶⁾، وكان المقصود بها وصف تلك الأرض الواقعة على الشاطئ الغربي لبحر إيجه.

أما وُرودها في سجلات التاريخ كاسم لجزء متعارف عليه ومعلوم، كان بعد استخدام اسمها لأول مرة من قبل الفيلسوف "أناكسيماندر"⁽²⁷⁾، والمؤرخ "هكتيوس الملطي"⁽²⁸⁾.



نهر رايوني (فاسيس) غرب جورجيا الذي كان أول حد شرقي لأوروبا قديمًا



نهر الدون غرب روسيا، الذي كان ثاني حد شرقي لأوروبا قديمًا حدد الفيلسوف أناكسيماندر الحدود الفاصلة بين كل من آسيا وأوروبا على طول نهر رايني، الموجود في غرب جورجيا، والذي ينبع من جبال القوقاز، ويصب في البحر الأسود، ويمر من مدينة كوتايسي، ومن مدينة كولخيس الأثرية بجورجيا، ثم يتفرع إلى غرب القوقاز، والذي كان يسمى نهر "فاسيس".

استمر هذا الاستخدام كقاعدة لرسم الحد الفاصل بين أفريقيا وآسيا، حيث استخدمه بعد أناكسيماندر العديد من الرحالة والباحثين، ومن بينهم المؤرخ الشهير "هيرودوت" الذي استخدم هذا الترسيم في القرن الخامس قبل الميلاد⁽²⁹⁾، لكن هيرودوت قال وقتها أيضًا إن هناك طائفة حينها اعتبرت أن الفاصل بين القارتين هو نهر الدون الواقع غرب روسيا، وأنه هو بوابة أوروبا من الشرق، وليس نهر رايني كما كان متعارفًا في أزمنتهم السابقة. ومن أولئك الذين استحسنوا هذا الترسيم كان عالم الجغرافيا والمؤرخ اليوناني "سترابو"، الذي اعتمد على تعريف الحد الشرقي لأوروبا بأنه يبدأ من نهر الدون، وكان ذلك في القرن الأول الميلادي.



أوروبا في أول خريطة للعالم حسب أناكسيماندر (القرن السادس قبل الميلاد، وتظهر فيها ليبيا أي أفريقيا، وكما هو واضح إن حدود أوروبا مع آسيا نهر الرايوني، وحدود أفريقيا مع آسيا نهر النيل وقد ذكر هيرودوت أن العالم قد قُسم من قبل أشخاص مجهولين إلى ثلاثة أجزاء، وهي: أوروبا وآسيا وليبيا (أفريقيا)، مع تكوين كلٍّ من نهر النيل ونهر رايوني؛ ليكونا هما الحدود الفاصلة بين الثلاث قارات، كما هو موضح في أول خريطة للعالم التي صممها الفيلسوف أناكسيماندر لأول مرة، والموجودة أمامك. وكما ذكرْتُ في كتابي السابق "الأرض بعد طوفان نوح" أن المعتقدات اليهودية والمسيحية، وبعضًا من المصادر الإسلامية، أقرّوا بأن هذه القارات كانت قد قُسمت بين أبناء نوح الثلاثة "سام" و"حام" و"يافت"، كميراث للأرض بعد الطوفان.

أما الحدود التي أقر بها هيرودوت وغيره في زمانه، وبعض الأزمنة التي سبقته والتي تلتها، أن أوروبا تمتد من أعمدة هرقل⁽³⁰⁾ عند مضيق جبل طارق، الذي هو الحد الفاصل بين أوروبا وشمال غرب أفريقيا، ثم بامتداد شاطئ البحر المتوسط إلى نهر الدون، الذي يفصل أوروبا عن آسيا.



خريطة أوروبا بتقسيمها الدولي الحالي

كما تحتوي هذه القارة على عدد 51 دولة، من بينهم 5 دول مُقسمة جغرافيًا بين آسيا وأوروبا، أو على الأقل أجزاء منها؛ وهي: روسيا، تركيا، كازاخستان، وأذربيجان، جورجيا.



لافتة باسم المدينة الأطول اسمًا

ومن الطريف أن أوروبا فيها أطول ثاني اسم لمدينة بالعالم، وهي مدينة: Lanfairpwllgwyngyllgogerychwyrndrobwlllantysiliogogoch، وهي مدينة في دولة ويلز، ومعنى الاسم: "كنيسة سانت ماري في الغور من أشجار البندق الأبيض بالقرب من الدوامة الشرسة لسانت تيزليو في الكهف الأحمر"، وقد سميت بهذا الاسم من أجل الشهرة والترويج ولفت الأنظار في ستينيات القرن التاسع عشر⁽³¹⁾، وهذا الاسم يحتوي على ٥٧ حرفًا، وبذلك يُعتبر أطول اسم لمكان في أوروبا بأشهرها، وثاني أطول اسم رسمي مُسجّل من كلمة واحدة في العالم⁽³²⁾.

هنا سنتحدث عن أوروبا المتنوعة فكريًا والمتفاوتة ثقافيًا؛ فمناطقها الخمس وهي: أوروبا الشمالية، وأوروبا الغربية، وأوروبا الشرقية، وأوروبا الوسطى، وأوروبا الجنوبية، ليسوا على عادات ثقافية أو مجتمعية واحدة بشكل متشابه؛ فقارة أوروبا يتألف مجتمعها الإنساني من ٨٧ مجموعة عرقية، يُشكل ٣٣ منها غالبية السكان في دولة مهيمنة واحدة على الأقل، في حين أن الـ٥٤ المتبقين يُشكلون الأقلية⁽³³⁾، ومن أكبر هذه المجموعات العرقية على الإطلاق: العرق الروسي السلافي الشرقي. تحتوي أوروبا على سلسلة من الثقافات المتداخلة والمتنوعة، ففي هذه القارة وحدها عشرات التركيبات الثقافية المتعارضة مع بعضها، فهناك لا يوجد إلى حد كبير مفهوم الثقافة أو القيم المشتركة؛ ففي الغرب هناك ثقافات، وفي الشرق ثقافات أخرى تتشابه بعضها إلى حد كبير

مع ثقافات آسيا. وقد ذاقت بعض دول أوروبا المستضعفة نيران احتلال بعض دول أوروبا المتكبرة، بدايةً من العصور الوسطى، لنهايتها، وحتى القرن العشرين، ومنهم ما هو خاضع إلى الآن إليها.

وجدير بالذكر أن طائفة كبيرة من دول أوروبا كانت تُسيطر على العديد من الدول الأمريكية والأفريقية والآسيوية، وتقودهم، وتتمتع بخيراتهم، وتستفيد من خدماتهم. ولكن الغريب والمثير للدهشة، هو تحولهم من البدائية الشديدة، إلى القوى العظمى التي تحكمت في مصير العالم...

وقبل الحديث عن تفاصيل هذا التحول، يجب أن نتعرف أولاً على الحكاية القديمة والعتيقة لهذه القارة.

* * *

الفصل الأول

أوروبا القديمة

١- أوروبا ما قبل التاريخ (الزمان العتيق)

لم تكن أوروبا عامرة منذ فجر التاريخ، وإنما جاءت الهجرات البشرية من أفريقيا الشمالية ومن آسيا ومن الشرق الأوسط، ثم بعد ذلك، ومع وجود الإنسان البشري العاقل، تكونت الحياة البدائية: أكواخ مغطاة بجلود الحيوانات بعضها شامخٌ من يومها إلى الآن في مولدوفا، ومدافن أخرى بدائية تعود لأول مراسم خاصة بالدفن عرفها الإنسان البشري الأول.

في هذا الزمان البعيد فرض الإنسان العاقل نفوذه على كافة أراضي القارة الأوروبية، واتجه شرقًا وغربًا، وتوغل في أعماقها، ووصل إلى إنجلترا التي كانت متصلة بياسة القارة آنذاك، وهناك استشعر بصعوبة الحياة بسبب الجو العاصف، فاستطاب العيش بعيدًا عن الشمال.

وفي وسط الجليد يتربص الصيادون بكمائتهم وأدواتهم الحجرية؛ من أجل صيد الرّنة⁽³⁴⁾ والماموث⁽³⁵⁾ ووحيد القرن والحصان؛ أحدهم يمسك قوسًا، وغيره يحمل نيلة، وآخر يحمل خطأً من العظام... لقد كانت حياة قاسية تمامًا.

هذه الفترة الغامضة شغلت بال الباحثين على مر العصور، فإلى الآن لا توجد تواريخ مؤكدة للفئات الثقافية التي عاشت في هذا الزمان التليد، فربما عاشت الأسرة الأورينياسية في ذات الوقت الذي عاشت فيه الأسرة الجرافيتية، ولم يكن هذا معلومًا بشكل كافي⁽³⁶⁾.

في حوالي ١٦٠٠٠ قبل الميلاد، شهدت أوروبا ظهور ثقافة جديدة، تُعرف باسم "المجدلانيون"⁽³⁷⁾، ربما تكون متجذرة من الأسرة الجرافيتية من الأساس، سرعان ما حلت هذه الثقافة محل منطقة سولتارين وجرافيتي في فرنسا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا وبولندا والبرتغال وأوكرانيا، ثم سادت ثقافة هامبورغ في شمال أوروبا في الألفين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، كما فعل كريسوبلان (سكان العصر المجدلي البريطاني المتأخر) بعد فترة وجيزة في الجزر البريطانية، ثم في حوالي ١٢٥٠٠ قبل الميلاد، بدأ الجليد في الانحسار ببطء.

انحسار الجليد

عاش المجدلانيون - صائدو الرّنة - يُصارعون الحياة، ومع نهاية العصر

الحجري القديم ازدهرت حياة الإنسان الأوروبي المجدلي؛ فقد طوّر سكنه، وظهرت أكواخ مستطيلة متطورة، وأخرى دائرية ذات منظر جمالي. وكان المجدليون من قبل يُغطون أكواخهم بالتراب لكي يقيهم البرد، ومع تحسن الطقس انتشرت أكواخ أخرى خفيفة؛ كتلك الأكواخ التي أنشأها الهنود الحمر بعد زمنهم بأزمان، وقد شهد الإنسان حينها النظام الاجتماعي المستحدث، وترك الفردية، واندمج داخل الجماعة المترابطة، وقد أنتج هذا الترابط الأيدلوجية الفنية لدى الحياة المستقرة، والتي ظهرت في كهوف لاسكو وألتماير، ثم تطلّع إلى التحضر في أشكال الزينة، ومراسم الدفن، وطقوسه السحرية وعبادته للجمام.

وقد شهد المجدلانيون أجواء التحول الطقسي مع نهايات العصر الجليدي الأخير في عام ١٢٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً⁽³⁸⁾، حيث خرجوا من كهوفهم الدافئة مندهشين من التغير المناخي؛ فعالمهم الجديد أكثر راحةً من ذاك القاسي المنتهي.



هكذا كان شكل أوروبا خلال العصر الجليدي الأخير قبل نحو ٢٠.٠٠٠: ١٠.٠٠٠ سنة تقريباً بدأت الطيور تُحلق في السماء بأصواتٍ غير أصوات الطقس المخيف الذي كان يُسمَع من قبل.. أشرقت الشمس بعد غياب، وتنفست السماء، وارتفع متوسط درجات الحرارة بشكل كبير، وارتفع معه مستوى سطح البحر؛ مما أدى إلى فيضان المحيطات بسبب ذوبان الجليد، ومن هنا انفصلت الجزر

البريطانية، وتكون بحر البلطيق. وبعد نهاية هذه الأهوال، تكيف الإنسان مع الطبيعة الحديثة؛ فالواقع الجديد مكنهم من الانتشار وإعمار مناطق الشمال التي كانت مهجورة من قبل، فوصلوا إلى سهول ألمانيا والسويد والدنمارك.



صورة أثرية لصالة الثيران الكبيرة بكهف لاسكو بفرنسا (قبل نحو ١٧.٥٠٠ سنة).

في الشمال عاش الإنسان على صيد الأيائل⁽³⁹⁾ واليحمور⁽⁴⁰⁾ والخنزير البري، بالإضافة إلى صيد السمك والرخويات؛ حينها عرفت بعض الجماعات تطويع الخشب بعد قطع الأشجار، وتكوين أشكال هندسية بدائية لأكواخهم الصيفية، والتي مثلت شكلاً بيضاوياً، أو على شكل حدوة الفرس، بتدعيمها بصفائح خشبية.

بعد اعتدال الطبيعة وهدوئها، ظهرت آثار الإنسان الأول العاقل التي تعود للعصر الحجري القديم⁽⁴¹⁾، بعد انحسارات الجليد بوضوح؛ وذلك ما بين ٢٥ ألفاً إلى ١٠ آلاف عام، وتلك الآثار باقية إلى الآن في أكثر من ٢٠٠ كهف، معظمهم في فرنسا وإسبانيا.

تروي جدران هذه الكهوف عجائب حياة هذا الإنسان البشري الأول، وتصف لنا شكل واقعه ويومه الشاق، الذي بدأ بركوضه في البراري من أجل صيد واقتناص الحيوانات والطيور بين الغابات والمرتفعات، وكان الناس في هذا الزمن البارح كثيري التنقل بحثاً عن الطعام، وكانوا على شكل جماعات أو

مجموعات ما بين ٢٠ إلى ٣٠ فردًا في المجموعة⁽⁴²⁾. ينحدر أغلب السكان الأصليين الحديثون في أوروبا، إلى ثلاث سلالات متميزة؛ السلالة الأولى: الصيادون والجامعون من العصر الحجري الوسيط، وهم من أسلاف سكان كرو ماجنون (الإنسان الأوروبي الحديث المبكر) في أوروبا. السلالة الثانية: المزارعون الأوروبيون الأوائل الذين هاجروا من الأناضول خلال ثورة العصر الحجري الحديث. السلالة الثالثة: رعاة ثقافة اليامنايا الذين امتدوا إلى أوروبا في سياق التوسع الهندي الأوروبي⁽⁴³⁾، وكانوا نتيجة الاختلاط الجيني بين أحفاد الصيادين في أوروبا الشرقية، والأشخاص المرتبطين بالصيادين وجامعي الثمار من القوقاز⁽⁴⁴⁾، أحد مكونات الأجداد التي غالبًا ما يطلق عليه "أصل السهوب"، مع خليط إضافي يصل إلى ١٨٪ من المزارعين الأوروبيين الأوائل⁽⁴⁵⁾.

يعود تاريخ أقدم استيطان دائم في أوروبا إلى الألفية الثامنة قبل الميلاد في منطقة البلقان، فبعد أن مرت الأيام، وتطور هذا الإنسان، وحاول إخضاع الطبيعة لصالحه؛ وصل العصر الحجري الحديث (٩٠٠٠-٤٥٠٠ ق.م)⁽⁴⁶⁾⁽⁴⁷⁾ إلى وسط أوروبا في الألفية السادسة قبل الميلاد، وأجزاء من شمال أوروبا في الألفية الخامسة والرابعة قبل الميلاد، وفي هذا العصر شهدت المنطقة ثورة ثقافية جديدة وافدة من الأفارقة والآسيويين⁽⁴⁸⁾؛ هذه الثورة الأفروآسيوية الواردة مكنت الإنسان الأوروبي من تعلم أساليب الزراعة، وتعلم إعمار الأرض، والاستفادة من خيراتها وأنهاها العذبة، وتوغلت الزراعة في أوروبا حتى وصلت إلى غرب القارة مع دخول الألفية السادسة قبل الميلاد⁽⁴⁹⁾، حينها استقر الإنسان بعد أن ضمن كيفية الحصول على قوته بفلاحة الأرض، بدلًا من مطاردة الثيران في الأوحال، وكان هذا التطور المبكر قد نشر الاستقرار في المنطقة، وأدى إلى ظهور حضارات قصيرة الأمد يمكننا أن نسميها ثقافات، فلا جدال في أن الحضارة والثقافة لا يظهران إلا مع الاستقرار، بعكس حياة الإنسان الأوروبي الأول الذي كان دائم التنقل بحثًا عن سد جوع جوفه وإملاقه⁽⁵⁰⁾.

استقر الإنسان الأوروبي البدائي العاقل وعرف بناء البيوت والقرى، ثم تطورت بعضها وأصبحت مهياة لأن تكون مهدًا لحضارات مستقبلية، ومع الاستقرار تطور الفكر الديني والثقافي والصناعي، وانتشرت صناعة الفخار، وكان الهدف من ذلك استخدامه في الحياة اليومية؛ للتخزين والطبخ وتطوير نمط الحياة التقليدي.

كانت أول الأماكن التي عرفت الاستيطان الدائم، والتي بُنيت عليها المستوطنات الأولى؛ هي تلك المنطقة التي كان لها سبق في إحلال الإعمار، إنها منطقة البلقان، وخاصةً حول نهر الدانوب، فقد دلت الآثار

الموجودة أن منطقة البلقان حول نهر الدانوب هي أقدم منطقة تم إعمارها في أوروبا، وهي النطفة الأولى للثقافات الأوروبية القديمة⁽⁵¹⁾.

في بداية الألفية الخامسة قبل الميلاد، بدأ "العصر الحجري الأوروبي الحديث" في التلق، وبدأ الإنسان القديم يُعَيَّر من نمط حياته، ويمارس نشاطات إبداعية، والتي من مظاهرها إقامة التُّصَب الحجرية الضخمة، وما بين أعوام ٤٧٠٠-٤٢٠٠ قبل الميلاد، ازدهرت مدينة سولنيتساتا (ببلغاريا حاليًا)، التي يُعتقد أنها أقدم مدينة ما قبل التاريخ في أوروبا⁽⁵²⁾.

بدأت الهجرات الهندوأوروبية في حوالي ٤٢٠٠ ق.م، عبر مناطق البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان في شرق وجنوب شرق أوروبا، وتم تشكيل التركيب الجيني للمتحدثين من عائلة اللغة الأورالية في شمال أوروبا، من خلال الهجرة من سيبيريا التي بدأت منذ ٣٥٠٠ عام على الأقل، وفي الـ ٣٠٠٠ سنة التالية توسعت اللغات الهندوأوروبية عبر أوروبا.

في الوقت الذي عرفت فيه أفريقيا وآسيا حضارات ممتدة ومستقرة، كانت هذه الأرض تشهد صراعات، لكنها في الوقت ذاته شهدت ثقافات حضارية بعكس ما هو شائع، حيث كان لهذه الثقافات طقوس خاصة وأدوات فريدة؛ منها من عرف الكتابة البدائية والاستقرار والتكنولوجيا وتطويع الذهب والنحاس في أوان قبل الأوان، فعلى سبيل المثال: في مقبرة فارنا ببلغاريا (موقع دفن من ٤٥٦٩-٤٣٤٠ ق.م، وواحد من أهم المواقع الأثرية في عصور ما قبل التاريخ)، تم العثور على أقدم كنز ذهبي في العالم⁽⁵³⁾ عمره حوالي ٦٥٠٠ عام، وبرغم أن أوروبا نفسها فيها مواقع أقدم؛ إلا أن ذهب فارنا في الغالب هو الأكبر والأكثر تنوعًا.

وغير فارنا كان هناك العشرات والعشرات من الثقافات، كانت في نُهَيَّة الطريق النواة التي كونت حضارات اليونان والرومان والحضارة الغربية.

* * *

٢- أوروبا القديمة (الحضارة اليونانية)

مع ظهور الكثير من الثقافات في أماكن شتى بأوروبا، ظهرت أول حضارة معروفة، وهي ما تُعتبر "الحلقة الأولى في السلسلة الأوروبية"⁽⁵⁴⁾، إنها حضارة المينويين.

الحضارة المينوية

كانت الحضارة المينوية حضارة من العصر البرونزي، نشأت في جزيرة كريت، وقد بدأت هذه الثقافة الحضرية المعقدة حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ثم تراجعت في حوالي عام ١٤٥٠ قبل الميلاد، ثم انتهت للأبد في حوالي عام ١٠٥٠ قبل الميلاد خلال العصور المظلمة اليونانية المبكرة. وهذه الثقافة تمثل أول حضارة متقدمة في أوروبا⁽⁵⁵⁾؛ بسبب أنها شهدت عددًا كبيرًا من مجتمعات البناء الضخمة، والفنون المتطورة، وعرفت نظامًا لا بأس به من الكتابة، وبسبب طبيعتها الجغرافية، كان لها حظ وافر من الاستفادة الاقتصادية من شبكة التجارة حول جزء كبير من البحر الأبيض المتوسط. مع الوقت، أصبح لها تأثير ثقافي على كل الجزر اليونانية وقبرص وكنعان، والساحل الشرقي والأناضول، وكذلك مملكة مصر القديمة، وبرغم هذا التأثير والتوسع الثقافي، لم يُعرف إلى الآن الجوانب الخاصة بالحكم والدين في هذه الإمبراطورية.

أسباب الانحدار البطيء لهذه الحضارة، الذي بدأ منذ حوالي ١٥٥٠ قبل الميلاد، هو من الأمور الغامضة والمجهولة، لكن برّر بعض العلماء أن من أسباب الانحدار الغزوات الميسينية من البر الرئيسي لليونان، أو ربما بسبب ذلك الانفجار البركاني الكبير الذي وقع في سانتوريني⁽⁵⁶⁾، تم استبدال حضارة المينوية بالحضارة الميسينية.

الحضارة الميسينية

كانت اليونان الميسينية (أو الحضارة الميسينية) هي المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي في اليونان القديمة، وامتدت في الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٠٥٠ ق.م تقريبًا⁽⁵⁷⁾، وهي تمثل أول حضارة يونانية متقدمة ومميزة في البر الرئيسي لليونان، من حيث الفخامة وتنظيمها الحضري وأعمالها الفنية، وكذلك نظام الكتابة⁽⁵⁸⁾.

كان الميسينيون شعوبًا يونانية من البر الرئيسي، ومن المحتمل أنه قد تم تحفيزهم من خلال اتصالهم مع جزيرة مينوان كريت المعزولة، وثقافات البحر الأبيض المتوسط الأخرى؛ لتطوير ثقافة اجتماعية وسياسية أكثر تطورًا خاصة

بهم.

وقد قدّم هؤلاء الإغريق المسيحيون لأوروبا العديد من الابتكارات في مجالات: الهندسة والعمارة والبنية التحتية العسكرية، وكانوا متميزين بالتجارة التي كانت ضرورية للاقتصاد المسيحي، كذلك هم أول من ترك تسجيلات مكتوبة باللغة اليونانية الهندوأوروبية.

بدأت العصور المظلمة اليونانية بعد انهيار ثقافة العصر البرونزي في شرق البحر الأبيض المتوسط؛ لتلتهم الحضارة اليونانية المسيحية، وهي فترة انتقالية غير مسبوقه أدت إلى اليونان القديم، حيث حدثت تحولات كبيرة في أشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للقصر إلى اللامركزية (بما في ذلك الاستخدام المكثف للحديد)⁽⁵⁹⁾.

وتم اقتراح نظريات مختلفة لنهاية هذه الحضارة، من بينها الغزو الدوري، وهم مجموعة عرقية من الشعب اليوناني القديم، قدّموا لاستعادة البيلوبونيز، في حدثٍ وصفته الأسطورة اليونانية بأنه عودة للهركليين أبناء الإله هرقل، أو ربما انتهت هذه الحضارة بسبب الأنشطة المرتبطة بـ"شعوب البحر"، كما تم اقتراح نظريات إضافية مثل: الكوارث الطبيعية والتغيرات المناخية.

وقد أصبحت هذه الفترة المسيحية فيما بعد، لها مكان تاريخي للعديد من العصور القديمة للأدب اليوناني والأساطير، بما في ذلك ملاحم طروادة. الحضارة الهيلينية

بعد ما يقرب من ثلاثة قرون من انهيار العصر البرونزي المتأخر لليونان المسيحية، ونهاية العصور المظلمة اليونانية، ظهرت هذه الحضارة الإغريقية شمال شرق البحر الأبيض المتوسط، وعلى إثر ذلك بدأت المدن اليونانية في الظهور والتلعلع في القرن الثامن قبل الميلاد، كإعلانٍ لبدء العصر القديم لاستعمار حوض البحر الأبيض المتوسط.

تبع ذلك عصر اليونان الكلاسيكية، وهي فترة زمنية مدتها نحو ٢٠٠ عام، بدأت في القرن الخامس قبل الميلاد، بالتعدي والتطاول على الكثير من اليونان الحديثة، وضمها من قبل الإمبراطورية الفارسية الأخمينية⁽⁶⁰⁾، حتى استقلالها اللاحق في القرن الرابع قبل الميلاد، وتضمنت هذه الفترة العصر الذهبي لأثينا، واحتوت على مجموعة فضفاضة من الثقافات، بعد أن ضمت دولٌ مدناً ذات صلة لغوية، وأقاليمٍ أخرى، ثم تم توحيد معظم هذه المناطق رسمياً مرة واحدة فقط، لمدة ١٣ عامًا، تحت حكم إمبراطورية "الإسكندر الأكبر"، من ٣٣٦ إلى ٣٢٣ ق.م، باستثناء عدد من المدن اليونانية الخالية من ولاية الإسكندر في غرب البحر الأبيض المتوسط، حول البحر الأسود وقبرص وبرقة⁽⁶¹⁾.

وقد أدت فتوحات الإسكندر المقدوني إلى انتشار الحضارة الهيلينية من غرب البحر الأبيض المتوسط إلى آسيا الوسطى، وبوفاة الإسكندر بدأت

الفترة الهلنستية.

الحضارة الهلنستية

بدأت هذه الحقبة بعد غزو الإسكندر المقدوني للإمبراطورية الفارسية الأخمينية في عام ٣٣٠ ق.م، وإنشاء الممالك الهلنستية في جميع أنحاء جنوب غرب آسيا (الإمبراطورية السلوقية، مملكة بيرغامون)، وشمال شرق أفريقيا (المملكة البطلمية)، وجنوب آسيا (اليونان - مملكة باكتريا، المملكة الهندويونانية)⁽⁶²⁾. أدى ذلك إلى تدفق المستعمرين اليونانيين، وتصدير الثقافة اليونانية واللغة لهذه العوالم الجديدة، وتأثرت هذه الممالك الجديدة أيضًا بالثقافات الأصلية، حيث تبنت الممارسات المحلية بشرط أن تكون مفيدة أو مناسبة؛ لثُمَّل الثقافة الهلنستية اندماجًا بين العالم اليوناني القديم، وعالم غرب آسيا، وجنوبها الغربي، وشمال شرق أفريقيا⁽⁶³⁾.

تم التعرف تدريجيًا على الكلمة اليونانية القديمة "هيلاس" على أنها اسم ليونان، ومن هنا جاءت كلمة "هلنستيك"⁽⁶⁴⁾، والفرق بين كلمة "الهلنستية" وكلمة "الهيلينية" هو أن: الهيلينية تُشير إلى اليونان نفسها، بينما تشمل الهلنستية جميع الأراضي القديمة الواقعة تحت التأثير اليوناني، ولا سيما الشرق بعد غزوات الإسكندر.

خلال الفترة الهلنستية، أصبحت الثقافة اليونانية قوية ومميزة، فارضة تأثيرها على البحر الأبيض المتوسط وما وراءه، وعرفت الشعوب الازدهار والتقدم في الفنون والأدب والمسرح والعمارة والموسيقى والرياضيات والفلسفة والعلوم، وشهدت الفترة الهلنستية ظهور الكوميديا الجديدة كواحدة من الأشكال الدرامية الرئيسية الثلاثة الأخيرة في مسرح اليونان الكلاسيكي، وكذلك الشعر السكندري الذي تطور في المركز الثقافي الهلنستي بالإسكندرية، بالإضافة إلى جهود الترجمة مثل: السبعينية، التي تُعتبر أقدم ترجمة يونانية لكتب من الكتاب المقدس العبري، وفلسفات الرواقية التي هي فلسفة أخلاقيات الفضيلة الشخصية المستتيرة من خلال نظامها المنطقي وأرائها حول العالم الطبيعي، وكذلك الفلسفة الأبيقورية التي تأسست على أساس تعاليم الفيلسوف اليوناني القديم "أبيقور"، وكذلك الأفلاطونية والبيرونية. أما في العلوم، فلو ذُكرت الرياضيات حتمًا سيُذكر "إقليدس" و"أرخميدس". وكذلك توسع المجال الديني ليشمل آلهة جديدة، مثل: الإله اليوناني المصري "سيرابيس"، والآلهة الشرقية مثل "أتيس" و"سبييل". وكذلك الانصهار بين الثقافة الهلنستية والبوذية في منطقة باكتريا وشمال غرب الهند، وغيره وغيره.

وعن نهاية هذه الحضارة، انقسم العلماء حول الحدث الختامي، فبالرغم من أن الغالبية تقول إن الهلنستية قد بدأت منذ وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م، حتى ظهور الإمبراطورية الرومانية، وهزيمة "كليوباترا السابعة"

و"ماركوس أنطونيوس" على يد "أوكتافيوس"، في معركة أكتيوم في ٢ سبتمبر عام ٣١ ق.م، وغزو الرومان للبطالمة، وغزو مصر في العام التالي (65)؛ تجد مقترحات أخرى ترى أن الحدث الختامي هو غزو روما النهائي للمناطق اليونانية الرئيسية في عام ١٤٦ ق.م، بعد حرب أخائين. ومنهم من يقول إن الحدث الختامي هو نقل الإمبراطور الروماني "قسطنطين الكبير" عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى القسطنطينية اليونانية عام ٣٣٠م (66). بينما هناك رأي ثالث يرى أن الحدث الختامي هو الذي أنهاه المؤرخ الكلاسيكي "أنجيلوس شانيوتيس"، وهو وفاة الإمبراطور الروماني "هادريان" في عام ١٣٨م، حينما تم دمج الإغريق بالكامل في الإمبراطورية الرومانية (67).

على كل حال، لا شك في أن الثقافة اليونانية الكلاسيكية، وخاصة الفلسفة، كان لها تأثير قوي على روما القديمة، والتي حملت نسخة منها في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط ومعظم أوروبا؛ لذلك تُعتبر اليونان الكلاسيكية بشكل عام مهد الحضارة الغربية كلها، والثقافة الأساسية التي يستمد منها الغرب الحديث العديد من النماذج والأفكار التأسيسية في السياسة والفلسفة والعلوم والفن (68).

وبهذا الشكل ظهرت الحضارة الرومانية كامتداد للحضارة اليونانية القديمة.

* * *

٣- صعود روما (من المَلَكِيَّة، إلى الإمبراطوريَّة)

كانت روما قديمًا مملكة، تتميز بنموذج الحُكم الملكي لحكومة مدينة روما ومقاطعاتها، وتقول القصة التقليدية: إنه بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وقع صراع بين أفراد الأسرة الحاكمة والنبلاء؛ حيث قام الابن الثاني للملك "سكستوس تاركينيوس" باغتصاب امرأة نبيلة اسمها "لوكريشيا"⁽⁶⁹⁾، وبعدما عَلم بعض النبلاء الرومان بسرّها، أقدمت على قتل نفسها من العار، فتأثر الشارع بهذه الواقعة، وحصل النبلاء الرومان بقيادة "لوسيوس جونيوس بروتوس"⁽⁷⁰⁾، على دعم الطبقة الأرستقراطية الرومانية ومعهم الشعب؛ من أجل طرد الملك وعائلته، وإنشاء جمهورية رومانية حرة وغير مَلَكِيَّة، وبالفعل تَدخَلَ الجيش دعمًا لبروتوس، وزج بالملك إلى المنفى، ونجح الشعب الروماني في إنشاء الجمهورية، وانتُخب بعد ذلك قنصلان سنويًا لحكم المدينة.

ولكن العديد من العلماء المعاصرين يرفضون هذه الرواية؛ باعتبارها قصة خيالية، ويقولون إن تفاصيل تحويل المملكة إلى جمهورية لا يوجد عنه أخبار واضحة، ومع ذلك لا يوجد أي دليل ملموس لصالح هذه القصة أو ضدها. وقد كانت روما في ظل حكم مجلس الشيوخ (الجمهورية الرومانية)، شكلاً من أشكال عصر الحضارة الرومانية الكلاسيكية؛ بسبب إدارتها من خلال التمثيل العام للشعب الروماني، وبدأت روما في التوسع بعد فترة وجيزة من تأسيس الجمهورية الرومانية في القرن السادس قبل الميلاد، على الرغم من أنها لم تتوسع خارج شبه الجزيرة الإيطالية حتى القرن الثالث قبل الميلاد⁽⁷¹⁾. وبعد إتمام التوسع، أصبح نفوذ روما يبدأ من محيط المدينة المباشر، وصولاً إلى الهيمنة على عالم البحر الأبيض المتوسط بأكمله بعد قرنين من الزمان، من خلال التحالفات والحروب في أن واحد، مستفيدةً من عدم قدرة أعدائها على الاتحاد، فلم يقابل صعودها أيُّ تحديات، باستثناء التحدي الوحيد الذي جاء من مستعمرة قرطاج الفينيقية، لكن هزائمها في الحروب البونيقية الثلاثة مثلت بداية الهيمنة الرومانية، ثم استوعبت الدولة الرومانية الوليدة الكثير من التعلم اليوناني في شتى المجالات.

وبالوصول إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، اجتاحت الحرب الأهلية الدولة الرومانية؛ أولًا: بين "يوليوس قيصر" و"بومبي"، وأخيرًا: بين "أوكتافيوس" و"ماركوس أنطونيوس"، حيث هُزم أنطونيوس في معركة أكتيوم عام ٣١ ق.م، وفي عام ٢٧ ق.م نصَّب مجلس الشيوخ أوكتافيوس إمبراطورًا، وأطلقوا عليه "الإمبراطور أوغسطس"؛ ليكون ذلك إعلانًا عن

الفترة الأولى من تاريخ الإمبراطورية، وليتخذ جميع الأباطرة اللاحقين هذا الاسم باعتباره اللقب الإمبراطوري.

كان خلفاء أوغسطس، وخلف سلالة جوليو كلوديان التي أسسها، غير مكتملين الموهبة، وهم: "تيبيريوس"، و"كاليجولا"، و"كلوديوس"، و"نيرون" الذي انتحر في عام ٦٨م بعد الميلاد. ووصولاً لعام ٦٩ بعد الميلاد، المُسمى بـ"عام الأباطرة الأربعة"، وقع اضطراب شامل، عبارة عن أول حرب أهلية للإمبراطورية الرومانية، حكم خلالها أربعة أباطرة على التوالي، وهم: الإمبراطور الروماني السادس "جالبا"، والسابع "أوثو"، والثامن "فيتليوس"، والتاسع "فيسباسيان" (72).

وبوصول فيسباسيان، انتهى عام الأباطرة الأربعة الذي مزقته النزاعات، وانتقلت السلطة من سلالة جوليو كلوديان، أول سلالة إمبراطورية، إلى سلالة فلافيان القصيرة التي أسسها فيسباسيان، وانتهت بذلك فترة التمردات والمطالبين، وتغيرت الولاءات والاضطرابات واسعة النطاق في روما والمقاطعات.

حكمت بعد ذلك سلالة نيرفا أنطونين، التي أنتجت "الأباطرة الطيبون الخمسة" كما وصفهم المؤرخون، وهم: "نيرفا"، و"تراجان"، و"هادريان"، و"أنتونينوس بيوس"، والإمبراطور الفيلسوف "ماركوس أوريليوس"، واستمر حكمهم في التكامل حتى شارك ابن الفيلسوف ماركوس، الشاب "كومودوس" أباه في الحكم، وبعد وفاة أبيه أصبح هو الإمبراطور. ومن وجهة نظر المؤرخ اليوناني المعاصر للأحداث "لوسيوس كاسيوس ديو كوكايانوس" (73)، كان انضمام الإمبراطور كومودوس في عام ١٨٠م بعد الميلاد بمثابة علامة على الانحدار "من مملكة من الذهب، إلى مملكة من الصدا والحديد" (74)، وهذه الجملة التاريخية الشهيرة قادت بعض المؤرخين لتدوين تاريخ حكم كومودوس كبداية لانهايار الإمبراطورية الرومانية.

وعندما تَسَلَم "كاراكلا" الإمبراطورية، أصدر قرارًا في عام ٢١٢م بمنح الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية المولودين أحرارًا، وبعدها بسنوات قليلة، وتحديداً في عام ٢١٧م قُتل كاراكلا، واستولى قائد الحرس الإمبراطوري "ماكرينوس" على السلطة لمدة أربعة عشر شهرًا، وشاركه في الحكم ابنه "ديادومينيان"، وتلاه الإمبراطور "إيل جبل" لفترة تقل عن أربع سنوات، ثم وصل الحكم إلى "سيفيروس ألكسندر"، والذي تم اغتياله على يد قواته في عام ٢٣٥م؛ لتبدأ أزمة إمبراطورية كبيرة، سُميت بـ"أزمة القرن الثالث"، واستمرت خلال فترة الخمسين عامًا التالية، وشهدت فيها الإمبراطورية ضغوطًا مشتركة من الغزوات البربرية والهجرات إلى الأراضي الرومانية، والحروب الأهلية، وتمردات الفلاحين، وعدم الاستقرار السياسي، مع العديد من المغتصبين المتنافسين على السلطة، أدى هذا إلى تدهور

العملة والانهيار الاقتصادي، بالإضافة إلى طاعون سيبريان⁽⁷⁵⁾. أصبحت القوات الرومانية أكثر اعتمادًا بمرور الوقت على التأثير المتزايد للمرتزقة البربريين المعروفين باسم "فوديراتي"، أما القادة الرومان فقد أصبحوا مستقلين بشكل متزايد. وبحلول عام ٢٦٨م، انقسمت الإمبراطورية إلى ثلاث دول متنافسة: الإمبراطورية الغالية (بما في ذلك المقاطعات الرومانية في بلاد الغال، وبريطانيا، وإسبانيا لفترة وجيزة)، وإمبراطورية الميرين (بما في ذلك الولايات الشرقية؛ سوريا وفلسطين ومصر)، وبينهما الإمبراطورية الرومانية المتمركزة حول إيطاليا. وتآزمت الأوضاع بشكل حاد، لدرجة أنه كان هناك ما لا يقل عن ٢٦ من المطالبين بلقب الإمبراطور، ومعظمهم من جنرالات الجيش الروماني البارزين، وقد أعلنوا سيطرتهم على أجزاء من الإمبراطورية، وبالفعل تم قبولهم من قبل مجلس الشيوخ الروماني كأباطرة خلال هذه الفترة، مما يعني أنهم كانوا أباطرة شرعيين. انتهت أزمة القرن الثالث بعد أن قام "أوريليان" في عام ٢٧٠م، بإعادة توحيد الإمبراطورية عسكريًا، ومن بعده صعود "دقلديانوس" للسلطة كإمبراطور موحد، وعلى يديه انتهت الأزمة، مع إعادة هيكلته للحكومة الإمبراطورية في ٢٨٤م، وانتهى الاضطراب الذي أدى إلى تغييرات عميقة في مؤسسات الإمبراطورية، والمجتمع، والحياة الاقتصادية، والدين؛ مما استدعى معظم المؤرخين إلى اعتبار أن هذه الفترة حددت الانتقال بين الفترات التاريخية للعصور القديمة الكلاسيكية، وأواخر العصور القديمة⁽⁷⁶⁾، ويُنظر إلى هذه الأزمة عادةً على أنها إيذان ببداية الإمبراطورية الرومانية اللاحقة⁽⁷⁷⁾. وبرغم هذا التعديل الواضح، إلا أن دقلديانوس بادر بالقيام بعمل اعتبره المؤرخون فيما بعد سببًا من أسباب دخول الإمبراطورية في اضمحلال، وبالتالي دخول أوروبا كلها في نفق مظلم، سُمي بالعصور الوسطى المظلمة، والتي سنقرأ عنها الآن أسرارًا كانت السبب في تغير مصائر القارة بالكامل.

* * *

٤- أوروبا نحو الظلام (ما قبل الكارثة)

لم يعلم الرومان أنهم على موعد جديد مع القدر، وأن إخفاقاتهم ستكون هي الممر التاريخي لإعادة تشكيل الواقع الأوروبي كله، وإعادة ترسيم للحدود القديمة.

بعدها بدأت الإمبراطورية الرومانية بتلك التغييرات الاجتماعية والثقافية والتنظيمية، وطُمَس الهويات التي غيرت منهاج كل شيء، والتي ابتدعها "دقلديانوس"، تعافت الإمبراطورية بالفعل، لكن دقلديانوس أقدم على عمل واحد أفسد كل هذه الإصلاحات، وجعل النظم والسياسيات بعد ذلك تهتز وتترنح، كلعبة سقوط أحجار الدومينو؛ إذا وقع أول حجر فيها حتمًا ستصل الهشاشة للحجر الأخير، فـ"دقلديانوس" هو الذي ابتدع تقليد الفيدرالية المبكرة؛ حيث شرع في تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى عدة أجزاء في الشرق والغرب، يحكمها العديد من الأباطرة في آن واحد، مما سيمزق الوحدة الرومانية بالفعل.

أما هناك ناحية الشرق الآسيوي، فقد وُلدت إمبراطورية قوية فارسية ساسانية في بلاد فارس، وحلت محل الإمبراطورية التي سبقتها على نفس البلاد التاريخية؛ إنها الإمبراطورية البارثية (الفرثية ٢٤٧ ق.م - ٢٢٤م)، والتي ما لبست أن تبلورت قوتها حتى بدأت مناوشاتها مع الكيان الروماني، وعلى إثر ذلك انغمست الإمبراطورية الرومانية في سلسلة حروب فارسية جديدة، لكنها من نوع جديد أشد شراسة؛ والسبب أنهم - الساسانيون - وبعد مجموعة عوامل قد بشرت بالضعف، أصبحت الانقسامات بين الشرق والغرب قادمة لا محالة، ولا تحتاج لمُنجمين.

أما دقلديانوس، فأصبح فيما بعد لم يُرهقه التفكير في السياسة وفي مستقبل الإمبراطورية، بقدر ما يُرهقه التفكير في اضطهاد الدين الوليد؛ فبعد أن وُلد المسيح، وأنارت رسالته سماء البسيطة، تصدى دقلديانوس - كأسلافه وأقرانه الأباطرة - للمسيحيين، وكان خطرهم أشد خطرًا من جُعبة الفُرس الأشداء، فأزهق أرواح الكثير، وعدَّب كل من أعلن أنه يحمل عقيدة يسوع المسيح، وقد كان دقلديانوس من ضمن الأباطرة العشرة الجبارين، الذين اضطهدوا المسيحية، فيما يُعرف بالاضطهادات العشر الكبرى⁽⁷⁸⁾.

على كل حال انتهى اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين في أوائل القرن الرابع على يد الإمبراطور الروماني "غاليريوس"، الذي فاجأ الجميع بإصدار مرسوم التسامح في سيرديكا ببلغاريا عام ٣١١م، على الرغم من أنه كان معارضًا قويًا للمسيحية⁽⁷⁹⁾، والذي منح المسيحيين الحق في ممارسة شعائر دينهم،

لكنه لم يُعد لهم أي ممتلكات⁽⁸⁰⁾.

لقد جاء "قسطنطين الكبير"، وتبدل كل شيء؛ فعلى يديه أصبحت المسيحية هي الديانة الشرعية لكل الإمبراطورية، لكنها برغم ذلك لم تكن الديانة الرسمية لعموم البلاد، رغم أنه أضاف لها تفضيلاً إمبراطورياً مُعلناً، ودعمها بامتيازاتٍ سخية⁽⁸¹⁾.

تعامل قسطنطين مع الأمر بحظر شديد، وكان يرى أن الأباطرة ليس من تخصصهم تسوية مسائل العقيدة بأنفسهم؛ بل يجب عليهم بدلاً من ذلك استدعاء المجالس الكنسية العامة لهذا الغرض. ولكن هناك آراء غريبة أخرى فسّرت هذا المبدأ بتفسيراتٍ مختلفة، وهي محل خلاف قائم إلى الآن؛ فمنهم من رأى أنه كان قد اعتنق المسيحية بالاسم فقط، وكان يمارس الوثنية طيلة عمره، ولم يُعمّد إلا في آخر حياته، ولم يعتنق المسيحية بحقٍ إلا على فراش موته.. ومنهم من رأى أنه تبنى مسيحية والدته "هيلينا" في شبابه، ومنهم من رأى أنه تبنّاها تدريجياً على مدار حياته⁽⁸²⁾.

وبرغم كل هذه الآراء، وبالإضافة إلى مرسوم التسامح السابق بـ"سيرديكا" عام ٣١١م، أُصدر بعد ذلك بفترة وجيزة مرسوم ميلانو في عام ٣١٣م، معلناً فيه شرعية المسيحية في الإمبراطورية الرومانية كلها⁽⁸³⁾؛ ليصبح قسطنطين شخصية رئيسية في العديد من الأحداث المهمة في التاريخ المسيحي كله؛ فقد دعم المسيحية بشكل لم يسبق له مثيل، وعقد وحضر بالفعل أول مجلس مسكوني للأساقفة في نيقية عام ٣٢٥م، بغرض توحيد العقيدة⁽⁸⁴⁾، وفصل في المناظرة الشهيرة التي وصل الخلاف فيها حدّ الضرب، بين القسيس الإسكندري بربريُّ الأصل "أريوس" من جهة، والقديس "الإسكندر" الإسكندري و"أثناسيوس الأول" (بابا الإسكندرية) من جهة، وفيها أنكر أريوس أزلية وأبدية يسوع، وقال إنه يعتقد بأن المسيح لم يكن موجوداً قبل ذلك، واعتبره ربيعاً بين مخلوقات الله ومن صنّعه، وأنه لا يشترك مع الآب في صفة الأزلية، كما اعتبر أن الروح القدس من صنّع الله أيضاً، وعارضه أثناسيوس وقال إن طبيعة المسيح هي من نفس طبيعة الله، وتغلب رأي أثناسيوس بالاقتراع، ورفض أريوس واثنان من القساوسة التوقيع على هذه العقيدة، وهذان الاثنان - جنباً إلى جنب مع أريوس - نُفيا إلى إيليريا⁽⁸⁵⁾⁽⁸⁶⁾، ونُصِر رأي أثناسيوس، وحُرقت كتب أريوس، وسُمي مذهبه ببدعة أريوس، ويُذكر أن أتباعه إلى اليوم يُطلق عليهم "أعداء المسيحية".

أما قسطنطين، فقد شارك حينها في مسائل مهمة، مثل توقيت قيامة المسيح وعلاقتها بعيد الفصح، وبجانب استرداد المسيحيين لممتلكاتهم، دعم قسطنطين بناء الكنائس والمقدسات المسيحية، وأكبر شاهد على ذلك: كنيسة القيامة في القدس.

أما روما، فكان قد استعادها هذا الإمبراطور بحزم، وحفظها من التقسيم الذي كان على وشك التنفيذ، لقد استعادها تحت راية الصليب في عام ٣١٢م. بالإضافة إلى ذلك، تم اختيار موقع جديد لبناء روما الجديدة عام ٣٣٠م، ورأى أن تكون العاصمة مدينة بيزنطة اليونانية؛ ليعلن عن إنشاء الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، وتقل قسطنطين رسميًا عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى مدينة بيزنطة⁽⁸⁷⁾، والتي أطلق عليها اسم "نوبا روما"، والتي سميت فيما بعد القسطنطينية نسبةً له (مدينة قسطنطينة).

أدخل قسطنطين تغييرات جوهرية على المؤسسات العسكرية والنقدية والمدنية والدينية للإمبراطورية، أما فيما يتعلق بسياساته الاقتصادية، فقد اتهمه البعض بـ"الطائش"، لكن ما عزّزه أن الذهب الصلب الذي أدخله أصبح عملة مستقرة غيرت الاقتصاد وعززت التنمية في كل ربوع الإمبراطورية⁽⁸⁸⁾. بعد الانتصار على الخصوم، لا سيما "اليسينوس" وحلفائه، وبعد بناء القسطنطينية، وبعد توحيد العقيدة؛ بدأت حملات التبشير تغزو العالم من أجل نشر الدين المسيحي في كافة أركان المعمورة، وانضم للمبادرة "تيريدات الثالث" الأرساكي⁽⁸⁹⁾ ملك أرمينيا (٢٩٨-٣٣٠م)، الذي يعتبر هو ودولته أول المتنصرين، (ففعليًا أرمينيا هي أول دولة تعتنق المسيحية رسميًا)⁽⁹⁰⁾، وتبعه "ميريان الثالث" من إيبيريا، فوفقًا للسجلات الجورجية المبكرة، وسير القديسين في العصور الوسطى، يُعتبر ميريان أول ملك مسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية⁽⁹¹⁾، ويُنسب إليه إنشاء المسيحية كدين للدولة في مملكته، وتعتبره الكنيسة الأرثوذكسية الجورجية قديسًا، وبالفعل تم تقديسه⁽⁹²⁾، ثم تبعه "إيزانا" (عيزانا) من أكسوم الأفريقية، والتي كانت واقعة حينها بإريتريا وإثيوبيا بحدودنا الحالية (٣٢٠ق.م - ٣٦٠م)⁽⁹³⁾، والذي غزا فيما بعد مملكة كوش، وانتهى مجدها القديم على يديه⁽⁹⁴⁾.

توقف بعد ذلك صعود المسيحية لفترة وجيزة، خاصةً على يد الإمبراطور "يوليانوس"⁽⁹⁵⁾ عام ٣٦١م؛ فقد وصفه المؤرخون بأنه كان رجلًا حادًا على الدين الجديد، عاشقًا للوثنية؛ لذا لم يتردد المسيحيون في نعته باسم "يوليان المرتد"⁽⁹⁶⁾. وقد قُتل يوليان في عام ٣٦٣م في حروب الشرق، عندما كان يسير على حافة نهر دجلة للتنزه، وقيل إن فارسًا مسيحيًا من فرسانه رماه بسهم وقضى عليه.

بعد وفاته تجدد التوسع الديني، حتى جاءت نهايات القرن الرابع الميلادي، الذي شهد الإعلان عن أن نيقية المسيحية هي كنيسة الدولة الإمبراطورية الرومانية في عهد "ثيودوسيوس الأول"، وبرغم أن هذا الإمبراطور هو أول من جعل المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية استمراريًا

لسياسات قسطنطين الكبير⁽⁹⁷⁾؛ إلا أنه سيكون آخر إمبراطور يترأس إمبراطورية رومانية موحدة.

بدا الأمر مستتبًا لفترة، ولكن سرعان ما جاءت قوات من الشرق ومن الغرب، فمن الشرق ترصد الفُرس الساسانيون، أما الغرب فحكايته حكاية ليس لها مثل..

إذ ظهرت فيه هجرات وافدة لأقوام برابرة⁽⁹⁸⁾، جاءوا من أماكن متفرقة، وفي الحقيقة لم تكن تلك الهجرات أمرًا مستحدثًا في ذاك الزمان؛ فهذه الهجرات قد حدثت منذ زمن طويل، ففي الماضي قام بعض الأباطرة باستقطابها عدة مرات، ولم يكن غرضهم من ذلك سياسيًا، لكن في الغالب كان استقدام المهاجرين لأغراض اقتصادية أو زراعية أو عسكرية، ولم تكن الهجرات بالغزارة التي نتج عنها؛ بل هي هجرات كان من الممكن السيطرة عليها، ولكن العديد من الأحداث والحوادث في القرن الرابع حتى القرن الخامس هي التي زادت الأمر تعقيدًا⁽⁹⁹⁾.

في الماضي كانت المناوشات قائمة، حيث تعود القصة إلى بدايات القرن الثالث الميلادي، عندما قررت الشعوب الجرمانية⁽¹⁰⁰⁾ ترك الشمال الإسكندنافي والهجرة للجنوب، وحينما وصلت ناحية البحر الأسود، عارضهم السارماتيون⁽¹⁰¹⁾ في منطقة داسيا برومانيا، ولأول مرة قرر رجال هذه القبائل الجرمانية الاتحاد، ومكنهم اتحادهم من التصدي لمضايقات السارماتيين. وعلى السهوب شمال البحر الأسود، تمدد المهاجرون بعد مشقة السفر والقتال، وخرج من هؤلاء الجرمان البرابرة شعبين: الشعب القوطي الشرقي الذي تمكن من إنشاء مملكتين على السهوب، وهما ثيرفينج وجروثونج⁽¹⁰²⁾، والشعب القوطي الغربي الذي اختار مسارًا مستقلًا، بعيدًا عن شعب القوط الشرقي الذي كان أكثر عصبية؛ لكي يتقي شر مضايقاته.

سُمعت أصوات أقدام الخيول وصهيلها فجأة بين براري السهوب، ووقف فارس شرس وحوله جنود أشداء؛ ليصرخ فيهم قائلاً: "من جاء بكم إلى هنا؟! هذه الأرض تابعة لقبائل الهون الأشداء"، وعاد بالخبر لزعيمة "أتيلا" الهوني المتوحش من أجل تدبير الرد، وانتظر اتحاد قبائل الهون وأوامره بتأهب. والهون كانوا عبارة عن اتحاد كونفدرالي لقبائل آسيا الوسطى، وهم شعب من البدو الرحّل الذين عاشوا في آسيا الوسطى والقوقاز وأوروبا الشرقية بين القرنين الرابع والسادس الميلادي، وكان مقر حكمهم شرق نهر الفولغا، في منطقة كانت جزءًا من سيثيا في ذلك الوقت.

لقد وصل أتيلا الهوني وجنوده بالفعل، وقضوا على ممالك الشعب القوطي الشرقي بالسهوب بسهولة واضحة، في هذه الأثناء فر القوط الشرقيون من بطش الهون، واتجهوا نحو الأراضي التي استقر فيها القوط الغربيون، وقتها

لجأ القوط الغربيون بدورهم إلى الأراضي الرومانية هربًا من بطش القوط الشرقيين عام ٣٧٦م، وعلى غير المتوقع وافق الرومان وسمحوا لهم بالإقامة بالبلقان، بشرط أن يدخل المهاجرون كلاجئين ومستوطنين منزوعي السلاح، ولكن بادر الكثير من شعب القوط الغربي برشوة حرس حدود الدانوب للسماح لهم بإحضار أسلحتهم سرًا.

وبعد مرور الوقت اشتكى القوط اللاجئون بسبب سوء المعاملة؛ مما أدى ذلك إلى تمرد واسع النطاق، لدرجة أنهم في عام ٣٧٨م تمكنوا من هزيمة الجيش الميداني الروماني الشرقي في معركة "أدريانوبل"، وانتهت المعركة بفرار الرومان وصدمتهم الكبيرة، فما حقيقة هؤلاء، وماذا يريدون؟! وبرغم إدراك مدى خطورتهم، ما كان لدى الرومان أيُّ خيار غير التفاوض، وبالفعل جلسوا للصلح، مما أسفر ذلك عن الاستيطان الشرعي للقوط الغربيين داخل سماء الإمبراطورية، بل والأعظم بالنسبة للقوطيين: أنهم سيكونون مستقلين، وسيكون زعيمهم منهم⁽¹⁰³⁾.

إنه حدثٌ له توابع تاريخية مهمة؛ فدخول البرابرة لأراضي الإمبراطورية، وانتصارهم في معركة "أدريانوبل"، كان إعلانًا لدخول فيروس فتاكٍ سيتمكن من عظام الدولة.. دخولهم وانتصارهم كان إعلانًا لبداية النهاية..

* * *

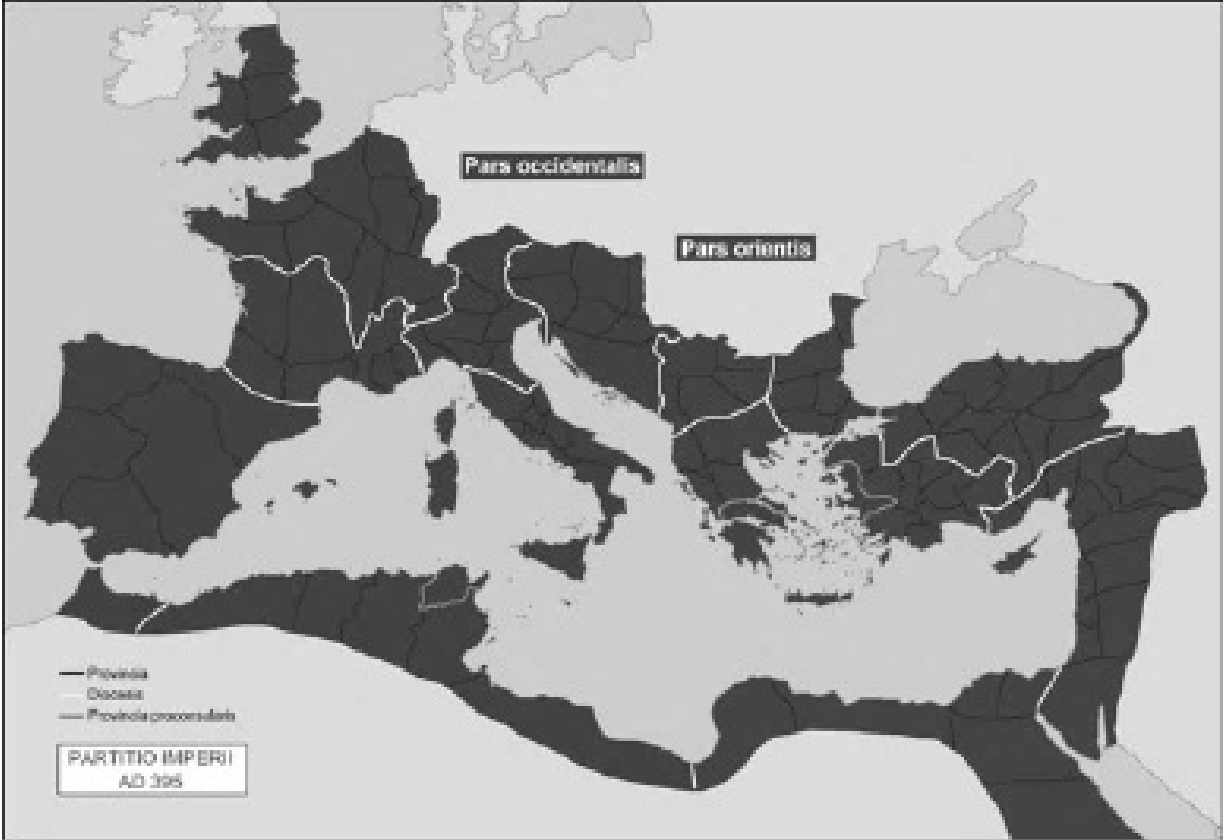
الفصل الثاني

العصور الوسطى الأولى (المُبكرة)

٥- يوم أن سقطت روما (الإبحار نحو المجهول)

تحركت الإمبراطورية من سقوطٍ إلى آخر، وكأنها تسقط بإرادتها، وفي هذا الشأن يقول المؤرخ "أرنولد تونبيي"⁽¹⁰⁴⁾ في كتابه "دراسة التاريخ" الذي يستكشف فيه عوامل نهوض ٢٨ حضارة وانهيارها، إن الحضارات العظيمة تحمل في طياتها أسباب زوالها، وهذا ما قد حدث هنا؛ فبرغم وجود عوامل خارجية قد ساهمت في إسقاط حضارة روما العظيمة، تجد أن الحضارة نفسها قد سمحت باجتياز ومرور تلك العوامل الخارجية، حتى يُشعرُ هذا بأن الحضارة قد انحدرت من تلقاء نفسها نحو الاضمحلال بنسبة كبيرة.

لم يكن انهيار الإمبراطورية وليدَ هذه اللحظة، بل كانت هناك أسباب كثيرة؛ منها خلافات الشرق مع الغرب، وكذلك الحروب الخارجية الكثيرة، وكذلك الاشتباكات التي اندلعت مع الجرمان خارج الإمبراطورية قبل ذلك بعقود. كان الوافدون الغرباء من صفاتهم: الهمجية، وكانوا محبين للفوضى، ولا يعرفون إلا العنف⁽¹⁰⁵⁾. وكيف يلومهم التاريخ على مثل هذه الأفعال، وهم كانوا بلا حضارة؟! لقد استمر الغرباء في الوفود طامعين في ثروات الرومان، وها هو "ثيودوسيوس الأول" قد تُوفي في عام ٣٩٥م، ولكن قبل أن يموت كان قد أفاد المسيحية بسلسلة من المراسيم الرسمية في عامي ٣٩١ م و٣٩٢م، حظّر فيها بشكل أساسي الديانة الوثنية في كل مكانٍ تحت سماء هذه الإمبراطورية، وتم حظّر الأعياد والتضحيات الوثنية، ومنع الوصول إلى جميع المعابد الوثنية ودُور العبادة⁽¹⁰⁶⁾.



خريطة توضح تقسيم الإمبراطورية الرومانية لقسم شرقي وقسم غربي عام ٣٩٥م عند وفاة ثيودوسيوس الأول.

مات ثيودوسيوس ليكون رسمياً آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة؛ فقد ترك المنصب الإمبراطوري بشكل مشترك لأبنائه: "أركاديوس" في الشرق، و"هونوريوس" في الغرب، حيث تولى أركاديوس مقاليد الحكم في بيزنطة، وكان معروفاً باسم "ثيودوسيوس الثاني" (107)، وعلى يديه نجا الجزء الشرقي من الإمبراطورية إلى حد كبير من الصعوبات التي واجهها نظيره الغربي، ويرجع ذلك جزئياً إلى الثقافة الحضرية التي كانت أكثر رسوخاً، والموارد المالية الأكبر في الشرق، مما سمح بإرضاء الغزاة بالجزية ودفع أجور المرتزقة الأجانب؛ حيث كان ثيودوسيوس الثاني ملزماً بدفع جزية سنوية هائلة لأتيلا الهوني، ولكن لما مات ثيودوسيوس الثاني، واستلم خليفته "مارقيان"، أعلن الأخير بكل جرأة عدم الاستمرار في دفع الجزية، ويبدو أن أتيلا رفض الصدام به وقتها، أو على الأقل قرر تأجيل الصدام، وركز انتباهه حينها نحو الإمبراطورية الرومانية الغربية الضعيفة.

لقد توفي أتيلا زعيم الهون عام ٤٥٣م، ومن ثم انهارت إمبراطورية الهون، وغالباً ما تم توظيف العديد من الهون المتبقين كمرتزقة من قبل القسطنطينية في الشرق، وبعد سقوط أتيلا المُقزَع ومملكته الهونية، شعرت الإمبراطورية الشرقية بفترة من السلام، أما في الغرب الضعيف، استمرت

تلك الهجرات تنطلق، وأصبحت الإمبراطورية الرومانية الغربية مطمئناً لمجموعات قبليّة أخرى بعد تجرؤ القوط الغربيين، فها هم قبائل "آلان" قادمون نحو البلقان بعد سقوط مملكة الهون التي كانت تحكمهم، وتبعهم قبائل "وندال" (الفاندال) المخربون، وتمكنت هجراتهم من التوغل داخل بلاد الغال⁽¹⁰⁸⁾ بين ٤٠٥ و٤٠٧م، وعبور نهر الراين. وعلى الرغم من أن البرابرة المنتشرين حول نهر الراين تم إخضاعهم وإدارتهم من قبل الإمبراطور "قسطنطين الثالث" (الذي حكم ٤٠٧-٤١١م)، لكن مع نهاية حكمه اشتد الصراع الروماني الداخلي، وتمكنت القبائل البربرية من اختراق أراضيه، والتوغل في بلاد الغال.

لقد نجح المهاجرون والمتسللون في الانتقام من الرومان، بعد أن كانوا رعايا لاجئين يذنبون حقدهم تجاه الإمبراطورية الرومانية التي تستضيفهم بسبب تصديها لهجراتهم، وحرمانهم من القدرة على الاندماج بشكل صحيح في الإطار الإمبراطوري؛ فبعد فشل الإمبراطورية في التصدي لهذه الموجات الغزيرة، دعا هؤلاء بعضهم للانتقام من غرورها، وقاموا بتجميع أنفسهم لتنفيذ طلباتهم.

مع مزيد من التهاون، تم التسامح مع الملوك البربريين الأوائل، وتمت الموافقة على إنزال الممالك المبكرة، مثل ممالك السويبي والوندال، إلى هسبانيا⁽¹⁰⁹⁾، وخاصة إلى أطراف المقاطعات الأقل أهمية. وفي عام ٤١٨م وافق الإمبراطور "هونوريوس" ابن "ثيودوسيوس"، الذي يحكم الإمبراطورية الرومانية الغربية، على نزول القوط الغربيين جنوب بلاد الغال، وكان هذا بمثابة إعلان عن ميلاد مملكة القوط الغربيين، والتي سيطرت على شبه جزيرة إيبيريا أو هسبانيا، بعدها تملص ملكهم "واليا" من التبعية الرومانية، واستقل بالمملكة، وفرض الضرائب على شعبه، وسك عملةً باسمه⁽¹¹⁰⁾.

كانت عمليات توحيدهم وإنشائهم للمالك البربرية عمليات معقدة، وربما كانت غير مقصودة؛ فمع استيطان هؤلاء البرابرة داخل الحدود الإمبراطورية بأعداد كبيرة، كانت المرحلة الثانية في تشكيل الممالك البربرية المستقبلية هي القبول الروماني للوضع الراهن، وعلى الرغم من أن الرومان لم يروا وجود الحكم القبلي البربري أمراً مرغوباً فيه؛ لكنهم على كل حال بدأوا في التسامح معهم ما بين أعوام ٤٢٠ و٤٣٠م⁽¹¹¹⁾، وموافقة الرومان لحكمهم القبلي لم يكن معناه رضاهم باستبدال الحكومة الإمبراطورية وتعيين عوالم داخل الدولة، ولكنه كان على شكل تملص من منح الحكام البرابرة المدعومين من شعوبهم الغفيرة، مكافئاً داخل أنظمة الإمبراطورية الرومانية.

كان يظن الرومان الغربيون، أن هذه المستوطنة التي تم منحها لشعب القوط الغربي، هي مجرد تسوية مؤقتة من أجل أن يكونوا عملاء مخلصين للحكومة الإمبراطورية، وأنهم حلفاء يمكن الاعتماد على دعمهم في

الصراعات الداخلية؛ لكنهم لم يكونوا حينها يرون أن هذا تنازل عن الأرض، بل كانوا يظنون أن حكمهم سيستمر قائمًا عليها. وعلى الرغم من أن الجنرالات الرومان في وقت هونوريوس، قد عملوا على كبح نفوذ وسلطة الملوك البرابرة، ومحاولة تقييدهم؛ إلا أن عدد الحروب الأهلية التي أعقبت وفاة هونوريوس، جعلت مكانة البرابرة مصدر قلق ثانويًا، وبرغم هذا فبدلاً من أن يجمع الحكام الرومان الملوك البربريين، كان الأباطرة والمغتصبون ينظرون إليهم على أنهم لاعبون داخليون مفيدون؛ لتحقيق أغراضهم الخاصة في حروبهم الأهلية⁽¹¹²⁾.

بسبب هذه السياسة الغير ناضجة، مع مجموعة من غرباء طامعين، خرج الزعيم القوطي "ألاريك الأول" (٣٩٥-٤١٠م) مقترحًا على عشيرته اللاجئة بأن يصبحوا قوة نشطة في السياسة الإمبريالية، أي أنهم سيرتبطون ارتباطًا وثيقًا فقط بالحكومة الإمبراطورية نفسها، وسيحكمون أنفسهم بأنفسهم، ولن يأخذوا الأوامر ممن هو أقل من ذلك⁽¹¹³⁾.

كانت المرحلة الثالثة من تمكين البرابرة من نفوذ الإمبراطورية، هي إجبار الحكومة بالاعتراف للإمبراطورية الرومانية الغربية بأنها لم تعد قادرة على إدارة أراضيها بشكل فعال، وبعد أن كَوَّن البرابرة عروشًا وعوالم قبليّة صغيرة، أدى ذلك إلى تنازل الإمبراطورية عن السيطرة الفعالة على المزيد من الأراضي للملوك البربريين، وما يزيد الرؤية تعقيدًا بالنسبة لك، هو أن هذا لا يعني أن الأراضي الواقعة داخل حدود الإمبراطورية السابقة لم تعد جزءًا من الإمبراطورية⁽¹¹⁴⁾!

ولكن بكل اختصار...

هم حكام ممالك داخل إمبراطورية، وهذا كان واضحًا من المعاهدات المبرمة مع القوط الغربيين في ٤٣٩م، وكذلك مع الوندال الذين غزوا شمال أفريقيا حينها؛ ففي ٤٤٢م اعترفت الإمبراطورية فعليًا بحكام تلك الشعوب كحكام إقليميين لأجزاء من الأراضي الإمبراطورية، وهذه المعاهدات أرسدت بالفعل أسس ممالك إقليمية حقيقية.

وبناءً على وصفنا لانسلاخ الحكام البرابرة من القانون الإمبراطوري، لم يكن الملوك مرتبطين بشدة بالرجوع للرومان في أي مكان تقريبًا في الغرب، حتى أواخر القرن الخامس أو حتى بعد ذلك، وهذه بمثابة المرحلة الرابعة والأخيرة في تشكيل الممالك البربرية، ألا وهي قيام الملوك البربريين بدور الأباطرة في اتخاذ القرار؛ ليصبحوا ملوكًا إقليميين مناسبين⁽¹¹⁵⁾.

لم تكن هذه الممالك قوية بالشكل الذي نتخيله في سابق عهدها، وبرغم ذلك أضحت روما مستضعفة ومحاطة بالخطر؛ فبعد تعرضها لهجمات متكررة من قبل الجيوش الغازية القبليّة البربرية، جاء اليوم الذي تآكل فيه جدار السفينة، وفقدت القوة الرومانية جناحها الغربي في عام ٤٧٦م، على يد

الجرمانيين البرابرة، بعد أن تآمروا عليها، واتحدوا من أجل إسقاطها بالسلاح، ومحاربة الإمبراطور "رومولوس أوغسطس".
وبعد صراع عنيف، من بين الأشلاء، وقف الجرمانيون يُلوحون بعلامات النصر، مجتمعين حول زعيمهم الجرمانى "أودواكر"، بعد أن هزم "رومولس" آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الغربية، وأذله وأجبره على الاستسلام، بعد عام من اغتصاب الأخير المنصب في الأساس من "يوليوس نيبوس" ⁽¹¹⁶⁾.
وهكذا سقطت روما وحُربت؛ لتبدأ العصور المظلمة القادمة...

* * *

٦- بداية العصور الوسطى المبكرة (روما ومحاولات الاستيلاء)

بدأت حِقْبَةُ إنسانية لم يأتِ مثلها في حوليات أوروبا كلها، فترة العصور الوسطى المظلمة التي استمرت خلالها التوترات بشكلٍ جليٍّ، وارتبط اسمها بالندرة النسبية للإنتاج الأدبي والثقافي لغالبية المؤرخين على مدى قرونٍ طويلة.

فهذه المدة من تاريخ البشرية، يكتب عنها الكثير من المؤرخين، بدايةً من سقوط روما عام ٤٧٦م في القرن الخامس، إلى بداية الفترة الحديثة المبكرة في القرن السادس عشر، والتي تميزت بظهور الدول القومية⁽¹¹⁷⁾⁽¹¹⁸⁾، (بعض المؤرخين حددها قبل ذلك، وبعضهم حددها مع بداية القرن السادس مباشرةً). أما أنا فأرى أن سقوط روما حدثٌ جلل، واختيار موفق لبداية تلك الحقبة؛ حيث سقطت عاصمة عظيمة ودُمرت، ولم يبق للبلاد أي قائمة، وخار النظام المركزي، وتساقطت المؤسسات، ونُسفت القوانين. من وسط الرماد انبعثت القبائل البربرية المهاجرة، وغزت تلك المناطق الشاسعة، وكونت لنفسها أوطانًا ما كانت يومًا تحلم بها، وانهار ميزان الإمبراطورية الغربي.

لم يتردد العلماء في وصف هذا الانهيار بتسميته "ممالك ما بعد الرومان"⁽¹¹⁹⁾؛ فنهاية روما هي نهاية للرومان الغربيين، والدخول في متاهة ستظل مظلمة لقرون، فهؤلاء المهاجرون الغرباء تمكنوا من تأسيس العديد من الممالك غير الرومانية⁽¹²⁰⁾، لقد كَوَّنُوا مجموعة من الممالك الإقليمية البربرية الغير متحدة، بجانب مملكة أريان أو أريوس المسيحية القوطية، التي حكمت روما بعد أن انطلقت من مقاطعة رافينا، عقيدة القسيس سابق الذكر، المسيحي السكندري "أريوس"⁽¹²¹⁾.

وعلى الرغم من تقسيم الممالك البربرية إلى عدة عوالم أصغر؛ فقد حافظ سكان الممالك البربرية على روابط ثقافية ودينية قوية مع بعضهم البعض، واستمروا في التحدث باللغة اللاتينية، وبسبب تمسكهم بهويتهم، بذلوا جهودًا لترسيخها، لكنهم لم يتمكنوا من صنع أي ثقافة مستقلة؛ فلم يُوجد لهم أي ملامح خاصة، وما طبع على ثقافتهم فيما بعد، كان نتاجًا للانصهار الثقافي بين اليونانيين والرومانيين.

برغم نهاية الإمبراطورية، أبقى البرابرة على جهاز الحكومة الإمبراطورية الرومانية السابقة بشكلٍ أساسي، واستمر الجهاز المركزي يعمل في الغرب؛ حيث تبنت الحكام البرابرة الجدد العديد من جوانب الإدارة الرومانية المتأخرة⁽¹²²⁾، وظل القانون الروماني هو النظام القانوني السائد في الغرب

خلال القرنين الخامس والسادس، وبدا واضحًا الاختلاف الساطع بين الإدارة الإمبراطورية الرومانية، والإدارات المملكية الجديدة التي تهدف إلى تقليدها وتكرارها. ولكن بسبب قلة حجم الممالك، اضطر الحكام البرابرة لربط حكومات مقاطعاتهم المختلفة والمتصارعة معًا، بدون محكمة مركزية تفصل بينهم، ولا حتى ضباط قائمين، ولا حتى قادة منظمين، مما بعث الفوضى بين المقاطعات؛ فعلى الرغم من أن هذه القوى الغاصبة فرضت نفوذها على أماكن شاسعة، لكن إذا قارنتها بنظام الدولة الرومانية المتمدينة ستخسر المقارنة بلا شك؛ فقد كانوا عاجزين عن إدارة المؤسسات والمناطق والمحليات.

وكانت تلك الممالك دائمة الخلاف على أمور غير تنظيمية، فدائمًا ما كانوا يتنازعون على الحدود وعلى العوائد، أما بالداخل فكانت الرقابة منعدمة، وظهر في داخل الداخل حكام ومنظمون إقطاعيون، وبرغم ذلك - مقارنةً بالإمبراطورية المركزية - فسنجد أن حكومات الممالك البربرية كانت أقل عمقًا وأقل تعقيدًا بشكل ملحوظ، أما اقتصاديًا فقد كان لهذا الانهيار في النظام الروماني آثار جانبية، أدت إلى انخفاض ملحوظ في مستويات المعيشة، فضلًا عن انهيار ملحوظ في التعقيد الاقتصادي والاجتماعي⁽¹²³⁾.

مع الوقت اندمج الرومانيون الغربيون مع الطبقة الحاكمة البربرية، مما أدى إلى الاختفاء التدريجي للهوية الرومانية في الغرب⁽¹²⁴⁾، وبالتالي تفككت الهوية الرومانية رويدًا رويدًا، مما أدى في النهاية إلى ظهور ما يسمى علميًا بالشعوب الرومانسية الحديثة واللغات الرومانسية.

وملخصًا لما حدث، فقد كانت هذه المقاطعات الغربية فريسة قد اقتسمها ثلاث قوى بربرية عظمى حينها؛ أولهم: القوطيون الشرقيون، فقد استولوا على الأراضي التاريخية الإيطالية وأجزاء من غرب البلقان؛ ليُكوّنوا مملكة القوط الشرقيين، وبعثوا قيامها في (٤٩٣-٥٥٣م)، أما شبه الجزيرة الإيبيرية فظلت كما هي من نصيب القوط الغربيين، الذين كانوا قد حافظوا على استقلالهم عن الرومان منذ وقت سابق (٤١٨-٧١١م)، أما الأراضي التاريخية لفرنسا وألمانيا فقد وقعت في يد الفرنجة أولاد سلالة ميروفنجيون (٤٨١-٨٤٣م).

لكن من هم الفرنجة؟

مملكة الفرنجة هي من تأسيس سلالة الميروفنجيون⁽¹²⁵⁾، وهم قوم انتهزوا فرصة سقوط روما، ففرضوا سيطرتهم على المقاطعات الرومانية السابقة في بلاد الغال، بعدما تمكّن "كلوفيس الأول" من توحيد كل قبائل الفرنجة، وكان أول ملكٍ عليهم⁽¹²⁶⁾. وبعد التوحيد، حكم كلوفيس منطقة شاسعة تمتد من ما يعرف الآن جنوب هولندا إلى شمال فرنسا، بما يتوافق مع المصطلحات الرومانية إلى غاليا بلجيكا⁽¹²⁷⁾.

قرر كلوفيس مواجهة مستوطنات الإمبراطورية الرومانية الغربية، واشتبك مع القوات الرومانية بقيادة حاكم ولاية سواسون الرومانية "سيغريوس"، في معركة سواسون عام ٤٨٦م، واقتنص الفرنجة نصرًا بارعًا، واستولوا على ولاية سواسون، وتعتبر هزيمة سيغريوس على يد كلوفيس نهايةً للحكم الروماني الغربي خارج إيطاليا؛ ليصبح هو آخر قائد عسكري روماني في جيش غاليا⁽¹²⁸⁾.

بعد أن أسس كلوفيس هيمنته العسكرية على الدولة الرديئة للإمبراطورية الرومانية الغربية المجزأة، ظهرت شوكة الفرنجة، فغزا كلوفيس أيضًا قبائل ألمانيا في شرق بلاد الغال، وهي تلك القبائل التي كونت اتحادًا كونفدراليًا للقبائل الجرمانية التي انتشرت من على نهر الراين الأعلى⁽¹²⁹⁾، وامتد نفوذها ليصل إلى الألزاس الحالية⁽¹³⁰⁾ وشمال سويسرا، وهذه القبائل هي التي أنشأت اللغة الألمانية العليا القديمة في تلك المناطق⁽¹³¹⁾.

هزمهم كلوفيس في المعركة المعروفة باسم توليباك عام ٤٩٦م، وبعدها فرض نفوذه على أراضيهم كلها، وغزا العديد من ممالك الفرنجة الأصغر في الشمال الشرقي من بلاد الغال، بما في ذلك بعض الأجزاء الشمالية (ما يعرف الآن بفرنسا)، وكذلك غزا كلوفيس مملكة القوط الغربيين في الجنوب الغربي، وبعد ذلك تحول كلوفيس الأول إلى المسيحية؛ مما وضع الأساس لإمبراطورية الفرنجة، والتي ستعتنق المسيحية خلقًا له. كل هذه الحملات أضافت بشكل كبير إلى مجالات كلوفيس، ورسخت سلالته كوجود سياسي وعسكري رئيسي في أوروبا الغربية منذ ذلك الوقت.

أما الشرق البيزنطي، فقد انزعج مما حدث مع نظيره، وشدد على الهوية الرومانية الفريدة، وشرع في شن حملاتٍ على الغرب المحتل؛ من أجل فرض الهوية على فترات، لكن دون تأثير ملموس..

ولكن هناك سؤال أهم: كيف كان حال أوروبا الشرقية، وهل تجرأ البرابرة فيها للتطاول على إمبراطورية الشرق كما حدث مع إمبراطورية الغرب؟

* * *

٧- نظرة على شعوب أوروبا الشرقية (لعبة الكراسي الموسيقية)

بينما تدور الدوائر وتتغير المقادير، تعسف الظروف بالقوي فجأة، فسيد الموقف اليوم ينهار أرضًا؛ ليأتي بعده الأكثر قوة، بينما يحاول كل شعبٍ منهم الركض لاقتناص السلطة والنفوذ، فيجلس القوي منهم على الكرسي، ويعلن انتصاره على كل المتسابقين، وهو يفكر في عظمة طموحاته التي وصلت لمناطق الرومان الشرقيين.

لكن الإمبراطورية الشرقية كانت أشد ذكاءً في التعامل مع الشعوب البربرية، أو شعوب آسيا الوسطى الذين استوطنوا البلقان ومناطق أوروبا الشرقية، فعلى مراحل كان غالبيتهم حلفاء أو خاضعين، ونادرًا ما كان لهؤلاء ضرر جامع على نفوذ الإمبراطورية البيزنطية، على الأقل حتى هذه اللحظة، بدايةً من الهون الذين كانوا سادةً على نهر الفولغا، ومنها أذلوا مناطق كثرًا من أوروبا القارية، ثم تفككوا وانتهوا في الماضي وقبل هذه الوقائع، فلو كان الهون موجودين بقوتهم أثناء سقوط روما، لكانوا اقتنصوا من التركة نصيبًا.

الهون

بحلول عام ٣٧٠ بعد الميلاد، وصل الهون إلى نهر الفولغا، وبحلول عام ٤٣٠م كان الهون قد أسسوا سيطرة واسعة في أوروبا، وقهروا القوط والعديد من الشعوب الجرمانية التي تعيش خارج الحدود الرومانية، وتسببوا في فرار الكثيرين إلى الأراضي الرومانية الغربية، هربًا منهم في الشرق. قام الهون، وخاصة تحت حكم الملك "أتيلا الهوني"، بغارات متكررة ومدمرة على الإمبراطورية الرومانية الشرقية، لكن الإمبراطورية صمدت أمام كل هذه التجاوزات، ولعلم أتيلا بقوة الرومان في الشرق وضعفهم في الغرب؛ قرر في عام ٤٥١م التوغل غربًا، وغزا الهون مقاطعة الغال الرومانية الغربية، وقاتل ورفاقه جيشًا مشتركًا من الرومان والقوط الغربيين في معركة الحقول الكاتالونية، وفي ٤٥٢م غزوا إيطاليا لبعض الوقت.

وبعد وفاة أتيلا عام ٤٥٣م، تولى قيادة الإمبراطورية الهونية من بعده ابنه "إيلاك"، بعد أن تصارع مع أخويه "إرناك" و"دينغيزيتش" على السلطة، وتجمع بجيشه الهوني شمال شرق الدانوب؛ لاستكمال فتوحات أبيه، وهناك تقابل مع القبائل الجرمانية في "معركة نيداو" في مقاطعة بانونيا الرومانية في عام ٤٥٤م، وعلى إثرها هُزمت الإمبراطورية الهونية في هذه المعركة، وانهارت بعدها للأبد، وقُتل إيلاك على يد الجرمانيين بقيادة الملك أرداريك (ملك الغبيديين)⁽¹³²⁾.

الآلانيون

بعد انهيار الهون، أسس هؤلاء الآلانيون الذين كانوا تحت حكم الهون، مملكة

آلانيا القوية (فيما بعد) في شمال القوقاز، ويَعتبر العديد من علماء أوسيتيا أن هؤلاء الآلانيين هم أسلاف أوسيتيا⁽¹³³⁾ الحديثون⁽¹³⁴⁾. كان الآلانيون شعبًا بدويًا إيرانيًا قديمًا من الرّحّل في العصور الوسطى في شمال القوقاز، بعد أن هاجروا غربًا وأصبحوا مهيمين على سهوب بونتيك-قزوين، وقد ذكرت المصادر الرومانية الآلانيين في القرن الأول الميلادي⁽¹³⁵⁾، حينما استقروا في المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود، وداهموا بشكل متكرر الإمبراطورية البارثية، ومقاطعات القوقاز التابعة للإمبراطورية الرومانية، وقد كانوا قبل اتحادهم مع الهون يشعرون بالضعف؛ فبين عام ٢١٥ و٢٥٠م تمكّن القوط من كسر قوتهم على سهوب بونتيك⁽¹³⁶⁾، ولاحقًا تم إخضاعهم للفرنجة على يد كلوفيس كما ذكرنا.

أول خاقانات تركية داخل أوروبا

كذلك أقيمت في أوروبا الشرقية خاقانات تركية، يشار إليها أيضًا باسم الإمبراطورية التركية الأولى⁽¹³⁷⁾، وكانت الخاقانات التركية - أو جوكتورك خاقانات - قد أسستها عشيرة أشينا من جوكتورك في آسيا الداخلية في العصور الوسطى، تحت قيادة "بومين قاغان" (٥٥٢م) وأخيه "استامي"، وقد نجحت أول خاقانية تركية في روران خاقانات كقوة مهيمنة للهضبة المنغولية، وسرعان ما وسعت أراضيها في آسيا الوسطى، وأصبحت أول إمبراطورية عابرة للقارات في آسيا الوسطى من منشوريا إلى البحر الأسود⁽¹³⁸⁾. ثم انهار اتحادهم في عام ٦٠٣م، بعد سلسلة من الصراعات والحروب الأهلية التي قسمت النظام السياسي إلى شرق خاقانات التركية، وغرب خاقانات التركية.

خاقانات التركية الغربية

هي متتالية لسابقتها، فهي عبارة عن مجموعة خاقانات تركية في أوراسيا بعد الانقسام، تشكلت نتيجة الحروب في بداية القرن السابع، وتحديدًا منذ عام ٥٩٣، وحتى عام ٦٠٣م، بعد انشقاق خاقانات عشيرة أشينا، وكان هذا الاتحاد كله يسمى أونكيو، أي "عشرة سهام"، وقد تم تنظيم الأتراك الغربيين في عشر فرق⁽¹³⁹⁾.

كان لخاقانات التركية الغربية عاصمتان: نافيكات (العاصمة الصيفية)، وسياب (العاصمة الرئيسية)، وكلاهما يقع على وادي نهر تشوي⁽¹⁴⁰⁾، وقد بلغ غرب خاقانات ذروته تحت حكم "تونغ يابغو قاغان" (حكم ٦١٨-٦٣٠م)، وبعد مقتل تونغ، ظهرت الصراعات، وظهر العديد من الخاقانات قصيرة العمر، ومنهم خرج ترك جوكتروك بأول إمبراطورية في السهوب التي كانت على اتصال بثلاث حضارات حضرية عظيمة: بيزنطة، وبلاد فارس، والصين. وعن أساليبهم العسكرية، فإن توسعهم غربًا من منغوليا الحديثة موثق

بشكل سيئ، ويبدو أن هؤلاء قد اندمجوا في الآفار الذين قادهم جوكتورك عبر نهر الفولجا عام ٥٥٨م، والذين عبروا السهوب الغربية ووصلوا إلى المجر بحلول ٥٦٧م، ثم تحول الأتراك إلى الجنوب الشرقي. وبين عامي ٥٦٧-٥٧٦م استولى الأتراك على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وفي ٥٦٨م أخذوا جزءًا من باكتريا⁽¹⁴¹⁾، وكانوا قد حكموا واستعبدوا شعب الآفار بعد اندماجهم سويًا.

الآفار

المقصود هنا آفار بابونيا، وقد تم تسميتهم هكذا لتمييزهم عن آفار القوقاز الذين لم يُذكروا إلا بين القرنين الخامس والثاني عشر، عندما تم إدخال المسيحية الأرثوذكسية الجورجية إلى وديان آفار.

أما آفار بابونيا المقصودون، فقد كانوا تحالفًا من عدة مجموعات من البدو الأوراسيين من أصول مختلفة⁽¹⁴²⁾، أسسوا آفار خانقات التي امتدت على حوض بانونيا ومناطق كبيرة من وسط وشرق أوروبا، من أواخر القرن السادس إلى أوائل القرن التاسع، وقد بدأ ظهور الآفار في المشهد التاريخي في منتصف القرن السادس على سهوب بوتنيك-قزوين، عندما كان شعبًا يريد الهروب من حكم جوكتورك الذي امتلكهم كعبيد له، وقد اشتهر هؤلاء بغزواتهم وتدميرهم في حروب الآفار البيزنطية من ٥٦٨ إلى ٦٢٦م، فيما سيأتي ذكره مع الأحداث، وقد أوضحت الدراسات الحديثة والأدلة اللغوية والأثرية وجود مكون إيراني كبير بين الآفار المهاجرين⁽¹⁴³⁾، وكان لهم دور كبير في الهجرة السلافية للبلقان، حيث تكون العمود الفقري لآفار خاقانات من القبائل السلافية.

الهجرات السلافية الأولى للبلقان

بدأت الهجرات السلافية إلى البلقان في منتصف القرن السادس، والعقود الأولى من القرن السابع في أوائل العصور الوسطى، وأعقب الانتشار الديموغرافي السريع للسلاف تبادلًا سكانيًا واختلاطًا وتحولًا للغة من وإلى السلافية، ومع اكتمال سيطرتهم على البلقان لاحقًا كانوا مؤثرين في الأحداث، فيما سيرد ذكرهم⁽¹⁴⁴⁾.

الخرز

كان من هؤلاء الأتراك الغازين شعب شبه رحل، اسمه شعب الخزر، وتمكن في أواخر القرن السابع الميلادي من تأسيس إمبراطورية تجارية كبرى تغطي القسم الجنوبي الشرقي من روسيا الأوروبية الحديثة، وجنوب أوكرانيا، وشبه جزيرة القرم، وكازاخستان. لقد أنشأوا ما كان لفترة وجوده أقوى نظام سياسي ظهر منذ تفكك غرب خاقانات التركية⁽¹⁴⁵⁾، وقد أصبحت الخزرية واحدة من الإمبراطوريات التجارية الأولى في أوائل العصور الوسطى؛ حيث قادت المسيرات الغربية لطريق الحرير، ولعبت دورًا تجاريًا رئيسيًا كمفترق

طرق بين الصين والشرق (146).

خدمت القبائل الخزرية لفترة طويلة كوكيل وكدولة عازلة بين الإمبراطورية البيزنطية، وكل من البدو الرحّل في السهوب الشمالية، وكذلك الإمبراطورية الساسانية من قبل، وبعدها الخلافة الأموية والخلافة العباسية فيما سيرد ذكره.

البيشنيق (البيشنيغ)

هو شعب عرقي تركي شبه رحّل من آسيا الوسطى، تحدثوا لغة البيشنج التي تنتمي إلى عائلة اللغة التركية (147)، وهم من الشعوب الآسيوية التي كانت خاضعة لولاية خاقانات التركية الشرقية، وكان موطن البيشنيغ يقع بين بحر آرال (148)، والمسار الأوسط لنهر سيحون (149)، على طول طرق التجارة المهمة التي تربط آسيا الوسطى بأوروبا الشرقية، ويربطها بولاية كانغار (150)، وقد وُصف عرق الأوغوز فيما بعد بأنه يتكون من ٢٢ فرعًا، كان البيشنيق هو التاسع عشر.

الهنغاريون (المجريون)

الهنغاريون هم الشعب الأصلي لما يُعرف الآن بدولة المجر، وما يتبعها من أراض تاريخية تتشارك في ثقافة وتاريخ ونسب ولغة واحدة، والمجريون يتحدثون اللغة المجرية التي تنتمي إلى عائلة اللغة الأورالية. ويعود تاريخ هؤلاء إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد، حينما انقسمت الشعوب الناطقة باللغة الأورالية التي كانت تعيش في المناطق الوسطى والجنوبية من جبال الأورال (151)، وقتها تفرّق البعض في اتجاه الغرب والشمال الغربي، وتواصلوا مع المتحدثين باللغة التركية والإيرانية الذين انتشروا شمالًا، ومنذ عام ٢٠٠٠ ق.م على الأقل فصاعدًا، أصبح المتحدثون الأوغريون متميزين عن بقية المجتمع الأورالي؛ حيث كان أسلاف المجرين الأوائل الذين يقعون في أقصى الجنوب، هم الأكثر عددًا، بعد أن تفاعلوا مع ثقافة هندية إيرانية وآسيوية (152).

ومع مرور الزمن، وتحديدًا في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، انتقل المجريون إلى الغرب من جبال الأورال، إلى المنطقة الواقعة بين جبال الأورال الجنوبية ونهر الفولغا، والمعروفة باسم باشكيريا (باشكورتوستان) (153) وبيرم كراي (154)، وفي أوائل القرن الثامن، انتقل بعض المجريون إلى نهر الدون، في منطقة تقع بين أنهار الفولغا والدون وسيفيرسكي دونيتس (155)، (وفي الوقت نفسه، ظل أحفاد المجرين الذين مكثوا في باشكيريا هناك حتى وقت متأخر من عام ١٢٤١م).

حينما كان المجريون حول نهر الدون، كانوا تابعين لترك خزر خاقانات، وكانوا جيرانًا للبلغار البدائيين والألابيين، وكان المجريون منظمين في اتحاد

كونفدرالي من سبع قبائل.

سلاف شرقيون (السلاف الروس)

للأسف هناك افتقار في السجلات عن توضيح ما قد حدث في روسيا في هذه الفترة ومن قبل؛ فلا يوجد أي أخبار عن السلاف الشرقية قبل عام ٨٥٩م، وهو التاريخ الذي فيه بدء حساب الوقائع والأحداث الابتدائية، والسبب في ذلك هو الغياب الواضح للغة مكتوبة (السجلات السيريلية، المنشأة حوالي عام ٨٦٣م، اعتمدها الشعوب السلافية)، ولا شك في أنهم كانوا متواجدين في روسيا في هذه الأثناء، طبقاً للقليل الذي ورد من قلة نادرة من الحفريات الأثرية، وروايات المسافرين الأجانب عن أرض روس، والتحليلات اللغوية المقارنة للغات السلافية⁽¹⁵⁶⁾.

ومن المؤسف أنه لم يتبق سوى عدد قليل جداً من وثائق روس الأصلية، التي يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الحادي عشر (لا شيء قبل القرن العاشر قطعاً)، وقد ذكرت أقدم مخطوطة رئيسية تحتوي على معلومات عن تاريخ الروس (قبل قيام كييف روس فيما سيأتي ذكره)، أنهم كانوا عبارة عن اثني عشر اتحاداً قَبَلِيًّا سلافياً، استقر ما بين البوك الغربي ونهر دنيبر والبحر الأسود، وكانت هذه الاتحادات القَبَلِيَّة: الكريفيكية، الفياتيقية البولنيَّة، الدريفليَّة، الدريجوفيقية، الراديميشية، السلوفينية، الدوليب (عرفت لاحقاً الفولينية والبوزينية)، الكروات البيض، السيفيرية، الأوليشية، والتيفرتسي. البلغار

وقت سقوط روما تقريباً، كان البلغار قد شرعوا في محاولة بناء مملكة خاصة بهم، بعد أن ظهر عرقهم بقوة، وقد تكوَّن هذا العرق من قوميات مختلفة، بعضها من أصول سلافية، والبعض من أصول تركية جاءوا في هجرات منتظمة للأراضي البلغارية من دول مجاورة، كجمهورية مقدونيا واليونان البلقانية، في هذه الفترة وقبلها بقليل⁽¹⁵⁷⁾.

* * *

كانت هذه أبرز الشعوب والأقوام التي عاشت في البلقان وأوروبا الشرقية حتى هذا الوقت، وإلى حد كبير رغم إحداثهم الفوضى والتملص من تبعية الإمبراطورية الرومانية لبعض الوقت، لم يتمكن أحدهم من تهديد أمن الإمبراطورية البيزنطية التي فرضت نفوذها على أوروبا الشرقية وأجزاء كبيرة من الوسطى حتى الآن فقط، وما كان لهم دور سوى تحالفات بعضهم مع بيزنطة، أو حتى مع أعداء بيزنطة.

ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وتحديدًا الغرب الشمالي، سنعرض الحال هناك، خاصةً بعد سقوط إمبراطورية الغرب.

* * *

٨- الأنجلوسكسون يلتهمون بريطانيا (تداعيات فراغ السلطة الرومانية)

قرر البرابرة الانطلاق للسيطرة على كل أوروبا؛ شرقها، وسطها وغربها، ثم جاء دور الجزر البريطانية وأيرلندا؛ إذ إنه منذ العصر الحديدي، استوطنت قبائل كلتية داخل إنجلترا قادمة من أوروبا الوسطى، وعاشوا في مجتمع قبلي، قال بطليموس إن عدد القبائل كان عشرين، وكانت اللغة البريثونية⁽¹⁵⁸⁾ هي اللغة الموجودة بإنجلترا خلال هذا الوقت، وكانت تشتهر بالزراعة بسبب محاربتهم المميزة التي ظهرت بعد صهر الحديد⁽¹⁵⁹⁾.

أما الفترة التاريخية التي تلت العصر الحديدي، فهي إلى الآن غامضة؛ لأن البريطانيين كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة خلال تلك الفترة، وعندما قامت الإمبراطورية الرومانية، تمتعت بريطانيا بروابط تجارية مع الرومان، إلى أن جاء "بوليوس قيصر" وحاول غزو بريطانيا مرتين في عام ٥٥ ق.م، لكن محاولاته باءت بالفشل، وبرغم ذلك استطاع أن يبني داخل بريطانيا نظامًا ملكيًا عمليًا تابعًا له، من قبيلة ترينوفانتس.

تمكن بعد ذلك الرومان من غزو بريطانيا عام ٤٣م، على يد الإمبراطور "كلوديوس قيصر أوغسطس"، وأصبحت بريطانيا مقاطعة رومانية واسمها: مقاطعة بريتانيا، ومن الهولة الأولى قاومت القبائل هذا الغزو، لكن تم إخماد ثوراتهم بالقوة⁽¹⁶⁰⁾، وتمكن الرومان من نشر ثقافتهم بشكل موسع داخل القبائل البريطانية، فعلموهم القانون، وفنون العمارة الرومانية، وأنظمة الصرف الصحي، وأنشأوا لهم المدارس، وطوروا من محاصيلهم الزراعية، وأدويتهم الطبية⁽¹⁶¹⁾.

وقد قيل إن المسيحية دخلت بريطانيا لأول مرة عن طريق "يوسف الرامي" (الذي قيل إنه من دفن يسوع بعد أن قام بطلب جسد يسوع من بيلاطس، فأذن له بيلاطس بأن يأخذه، فقام الرامي بإنزاله عن الصليب ودفنه في قبر كان قد نحته لنفسه في بستانه⁽¹⁶²⁾)، بينما قال آخرون إن المسيحية دخلت بريطانيا بعد ذلك بزمانٍ طويل، وتحديدًا في عام ٤١٠م، على يد "لوسيوس البريتاني"⁽¹⁶³⁾، وفي بريطانيا امتزجت المسيحية بالثقافة السلطية القديمة في حساسيتها ونظامها السياسي وممارساتها ولاهوتها، والتف الجميع حول الرهبان كسادة للمجتمع أشبه بزعماء القبائل⁽¹⁶⁴⁾.

كان القادة الرومان على السلت البريتاني دائمًا ما يعانون من مشاكل أمنية بسبب غارات مجموعات البيكتس⁽¹⁶⁵⁾ على الساحل الشرقي لإنجلترا، فقرر هؤلاء القادة الاستعانة بالمرتزقة الأنجلوسكسونيين القابعين على الأطراف،

وفي حوالي عام ٤٤٢م لم يتلقَّ الأنجلوسكسون رواتبهم المتفق عليها، فقاموا بتمرد عنيف، وعبثوا بمصالح المواطنين في بريطانيا الرومانية، فتجمع الأهالي وكتبوا مناشدة⁽¹⁶⁶⁾ للقائد الروماني للإمبراطورية الغربية "أيتيوس".

ومع الوقت غادر الرومان الجزيرة؛ للدفاع عن حدود الإمبراطورية في أوروبا القارية، والمهددة من كل اتجاه، خاصة بعد ضعف الدولة بسبب معاناتها وحروبها الأهلية الداخلية، وأدت هذه الانسحابات إلى ترك فراغ سياسي في الداخل البريتاني، مما جعله عُرضةً للغزو من قبل المحاربين الوثنيين والملاحين البحريين من شمال غرب أوروبا القارية، وعلى رأسهم السكسونيون والجوت والفريزيان، وجميعهم شعوب جرمانية، لا سيما بسبب ترقبهم وتحفزهم لذلك منذ فترة طويلة؛ فهم قابعون على الحدود، كثيرًا ما داهموا سواحل المقاطعة الرومانية، وطالما استقدمهم القادة الرومان للداخل، وما بين القرنين الخامس والسادس، استقرت هذه المجموعات بشكل كثيف ببريتانيا، وكانت أول المناطق التي سكنوها الجزء الشرقي من البلاد⁽¹⁶⁷⁾.

ثم أعقب ذلك عدة سنوات من القتال بين البريتانيين والأنجلوسكسون، حتى تلاقوا في معركة جبل بادون، وأنزل البريطانيون هزيمة قاسية للأنجلوسكسون، ولكن لا يوجد يقين بشأن تاريخ دقيق للقتال أو مكانه أو تفاصيل هذه المعركة حتى نقلها لكم⁽¹⁶⁸⁾، لكن وفقًا لتاريخ راهب من القرن السادس يُدعى "جليداس"، والذي اعتمده الغرب في معرفة تاريخ البريتانيين قبل وأثناء مجيء السكسونيين، نجد أن الانتصار وقتها كان مذبذبًا بين الشعبين، وقد ذكر جيلداس أن معركة جبل بادون وقعت في عام ٥٠٠م، وبسببها توقفت الهجرة الأنجلوسكسونية مؤقتًا⁽¹⁶⁹⁾، وقال جيلداس إن هذه المعركة دارت "أربعة وأربعين عامًا وشهرًا واحدًا" بعد وصول السكسونيين، وإنها كانت أيضًا سنة ولادته، وكذلك ذكر أنه تبع ذلك وقتٌ ازدهار عظيم، لكن باعتهم السكسون فجأة، وفي السنوات التي تلت ذلك، أرهق البريتانيون أنفسهم بالحرب الأهلية والخلافات الداخلية والاضطرابات العامة، والتي كانت مصدر إلهام لكتاب جيلداس المذكور: De Excidio Britanniae (خراب بريطانيا)⁽¹⁷⁰⁾.

كانت البداية التاريخية للممالك الأنجلوسكسونية المختلفة (التي اندمجت في النهاية لتصبح إنجلترا)، قد تأسست عندما وصلت أساطيل صغيرة من ثلاث أو خمس سفن من الغزاة الأنجلوسكسونيين، إلى نقاط مختلفة حول ساحل إنجلترا؛ لغزو البلاد والسيطرة على أراضيهم، ثم اجتاحت القبائل السكسونية الأراضي المنخفضة الخصبة لبريطانيا، وقلصت المنطقة الواقعة تحت حكم بريتونيك⁽¹⁷¹⁾، وتمكنوا من السيطرة على سلسلة من الجيوب

المنفصلة في البلاد بحلول نهاية القرن السادس. وحول عدد المهاجرين السكسونيين الأوائل، لا تزال المناقشات والتحليلات مستمرة، وما إذا كانت مجموعة صغيرة من النخبة من الأنجلوسكسون جاءت وتولت إدارة البلاد، أم هجرة جماعية للشعوب التي طغت على البريطانيين⁽¹⁷²⁾.

كان وادي سيفيرن أحد المفاتيح العسكرية لبريطانيا، فهو من أهم الأماكن الاستراتيجية للانطلاق نحو الأراضي؛ لذا اشتعلت بعض المعارك الحاسمة للغزو السكسوني للسيطرة عليه، وفي عام 577م، تقدم "سيولين" من وادي التايمز عبر كوتسولدس؛ للاستيلاء على المنطقة، وكسر قوة البريطانيين في منطقة سيفرن السفلى، ووصف بعض المؤرخين المعركة بعد دراسة حديثة، بأن السكسونيين ربما شنوا هجومًا مفاجئًا، واستولوا على حصن التل في معسكر هينتون هيل⁽¹⁷³⁾؛ لأنهم سيطروا على وادي أفون، وعطلوا الاتصالات شمالًا وجنوبًا بين باث وبلداتها الرومانية البريطانية المجاورة غلوستر وسيرنسيستر⁽¹⁷⁴⁾.

بسبب هذا الاحتلال أُجبر البريطانيون في تلك المدن الثلاث على التوحد والقيام بمحاولة مشتركة لطرد الغزاة؛ فشلت محاولتهم، وقُتل الملوك البريطانيون الثلاثة المعارضون وهم: "كوماجيل" ملك جلوستر، و"كونديدان" ملك سيرنسيستر، و"فارنماجيل" ملك باث، واستطاع سيولين السكسوني الاستيلاء على سيرنسيستر وجلوستر وباث في معركة ديرهام⁽¹⁷⁵⁾، وبالتالي تم دفع القوات المهزومة شمال نهر سيفرن وجنوب باث، وهناك تكاثفت القوات النازحة من المعركة، وبدأوا في حفر خندق طويل، وهو من الأعمال الترابية الدفاعية المسماة (Wansdyke)⁽¹⁷⁶⁾، التي تتألف من خندق وجسر مرتفع من حفريات الخندق، وكان غرضهم من حفره إيقاف زحف العدو السكسوني الذي قهقروهم للخلف؛ لمنع فقدان المزيد من الأراضي، لكن كانت محاولتهم هذه محكومًا عليها بالفشل، فقد جاء السكسونيون واجتاحوا الخندق والجسر.

وبري الخبراء أن الملوك الثلاثة لم يتمكنوا من الهروب بسبب الحصن الذي بنوه بأنفسهم؛ حيث تم دفع القادة البريطانيين الثلاثة وجسمهم الرئيسي إلى الحصن، بينما كان السكسون المحيطون يقودونهم إلى الأمام ويجتاحون خلف الرعن الذي يقف عليه الحصن، فالموقف الأخير في هذا الصراع من شأنه أن يفسر سبب عدم تمكن أيٍّ من القادة البريطانيين الثلاثة من الفرار، حيث حوصروا في خندقهم الذي بنوه بأنفسهم⁽¹⁷⁷⁾.

لا شك في أن هذا النصر كان انتصارًا عسكريًا وثقافيًا واقتصاديًا كبيرًا لمملكة ويسيكس المبكرة، وضربة للبريتانيين الرومان، أو كما يسمون أشباه

الرومان، وخسارة مجموعة من المدن البريطانية، كما أدت المعركة إلى الفصل الثقافي والعِرقي الدائم لدومينونيا (ديفون وكورنوال) من ويلز. وبرغم ذلك، تشير الأدلة الأثرية إلى أن هذه المدن المُحتلة قد هُجرت إلى حد كبير في أوائل القرن الخامس، وأصبحت في حالة خراب بحلول أواخر القرن السادس⁽¹⁷⁸⁾، حتى أصبحت في نهاية المطاف ملكًا لمملكة هويس الإنجليزية الأنجلوسكسونية الصغرى.

انتهى هذا التوسع في ويسيكس فجأة، عندما بدأ الأنجلوسكسون المنتشرون داخل النفوذ البريطاني بممالكهم القتال فيما بينهم، وأدت هذه الاشتباكات بينهم إلى انسحاب "تشاولين" إلى أراضيهم الأصلية، ثم تم استبداله بـ "سيول" (الذي ربما كان ابن أخيه، أو ابنه)، قُتل سيولين في العام التالي، لكن السجلات لم تحدد من قُتل من؟⁽¹⁷⁹⁾، أصبحت سيرنيسستر فيما بعد مملكة أنجلوسكسونية تحت سيطرة المرسيانيين، بدلًا من ويسيكس⁽¹⁸⁰⁾.

عاش السلتيك ببريطانيا من بعدها في سنوات مظلمة غوغائية، وحاولوا التمسك بثقافتهم ولغتهم السلتيّة حتى في المناطق الخاضعة للسيطرة الأنجلوسكسونية، ولكن سرعان ما تم استبدال المسيحية التي يهيمن عليها الرومان بشكل عام في الأراضي المحتلة بالوثنية الأنجلوسكسونية، ولكن أُعيد تقديم المسيحية مرة أخرى من قبل المبشرين من روما بقيادة "أوغسطين" منذ عام 597م فصاعدًا⁽¹⁸¹⁾، وكان الوافدون يتحدثون الإنجليزية القديمة، على مدى القرون القليلة التالية؛ لتهيمن في جميع أنحاء ما يعرف الآن بإنجلترا، على حساب اللغتين السلتيّة البريطانية واللاتينية البريطانية.

عندما تمكن الأنجلوسكسون من السيطرة على الأراضي البريطانية بعد انسحاب الغزو الروماني السابق، قاموا بتجزئة الأراضي إلى مناطق قَبَلية، وكان لكل قبيلة طبيعة خاصة، ومع حلول القرن السابع اندمجت هذه الأراضي في ما يقرب من اثني عشرة مملكة، بما في ذلك نورثمبريا، مرسيا، ويسيكس، إيست أنجليا، إسيكس، كنت وساسكس، على مدى القرون التالية استمرت عملية التوطيد السياسي هذه، وسيشهد القرن السابع صراعًا على الهيمنة بين نورثمبريا وميرسيا، والذي سيفسح المجال في القرن الثامن لتفوق مرسيان⁽¹⁸²⁾.

وبالسفر مرةً أخرى ناحية الشرق بعد أن مرت الأعوام والحكم البيزنطي قائم، سنجد أن الحروب البيزنطية الساسانية لم تتوقف، والوضع في الغرب قد بعث توتراته للشرقيين الرومان، حتى جاء الإمبراطور البيزنطي "جستنيان الكبير"، الذي دارت التساؤلات حوله، وحول قدرته على تحرير الغرب واستعادة أمجاد الرومان.

* * *

٩- محاولة الخروج من الهزّولة

(حلم يتبدل بكابوس)

لقد أصابت عدوى الضعف الغربي المعسكر الشرقي مع رياح الصباح الغربية؛ إذ يبدو أن مجد الحضارة الرومانية القديمة قد بدأ في التلاشي، لكن لكل حِقبة بطل، وهذه أيام جستينيان.

جاء "جستينيان الأول" أحد أهم الشخصيات في العصور القديمة المتأخرة، وربما آخر إمبراطور روماني يتحدث اللاتينية كلغة أولى⁽¹⁸³⁾، جاء جستينيان والإمبراطورية غارقة في الأزمات منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، فحاول أن يرمم ما قد حُرِب، ولكن على مراحل، فبدأ بإصلاحاته الداخلية الشهيرة المسماة بـ"قانون جستينيان" خلال لجنة تريبونيان، والذي يشكل أساس القانون المدني للعديد من الدول الحديثة⁽¹⁸⁴⁾.

وجاءت المرحلة الثانية، وهي التوسع العسكري، وكذلك زواجه وشراسته مع الإمبراطورة "ثيودورا" التي كان لها تأثير كبير⁽¹⁸⁵⁾... رأى جستينيان الكبير أن التوسع العسكري واستعادة أراضي الإمبراطورية في الغرب هو أولى بالاهتمام أولاً؛ ولذلك لم يتردد في إبرام معاهدة سلام مُذلة في عيون معارضيه، مع "كسرى الأول" الفارسي الساساني في عام ٥٣٢م، في محاولة منه لتأمين حدوده الشرقية لحين ترتيب الصف الغربي، ووافق على دفع جزية سنوية كبيرة للساسانيين، مقابل أن لا يهاجموه، وفي نفس العام اندلعت ثورة في الداخل القسطنطيني⁽¹⁸⁶⁾، تمكن جستينيان من النجاة منها، بل واستطاع أن يعزز سلطته، بعد أن انتهت بمقتل ما بين ٣٠ إلى ٣٥ ألفاً من مثيري الشغب، بناءً على أوامره⁽¹⁸⁷⁾.

بعد أن أمّن جستينيان الأجواء في الشرق وفي الداخل، انطلقت حملاته الكاسحة في عام ٥٣٣م ناحية الغرب، وتمكنت من فعل ما قد عجز عنه الأباطرة السابقون؛ فقد تمكن هذا الرجل من إسقاط مملكتي القوط الشرقيين والفاندال، لقد أرسل الجنرال "بيليساريوس" لاستعادة مقاطعة أفريقية السابقة من الفاندال، الذين كانوا يسيطرون هناك منذ ٤٢٩م، وجعلوا من قرطاج عاصمة حصينة لهم⁽¹⁸⁸⁾، وبرغم الفرع الذي كان يمتلك الجميع عند ذكر اسم الوندال أو الفاندال، تمت عملية الانتصار عليهم بسهولة مذهشة، ولكن لم يتم إخضاع القبائل المحلية الرئيسية هناك حتى عام ٥٤٨م، لقد نشر الإمبراطور نفوذه على روما والكثير من إيطاليا وشمال أفريقيا، وتمكن جستينيان من نصره إكسرخسية رافينا المسيحية الرومانية التي كانت تقاوم

طول الوقت، مما يضمن ما يسمى بالبابوية البيزنطية⁽¹⁸⁹⁾. بعد أن انتصر جستنيان في الحرب القوطية (530-504م)، التي سُنت ضد مملكة القوط الشرقيين، تطورت الآمال البيزنطية في انتصار مبكر وسهل، إلى حرب استنزاف طويلة، أدت إلى نزوح جماعي للسكان وتدمير للممتلكات، وفي ظل هذه الأوضاع وفي منتصف القرن السادس، استطاع الإمبراطور تحمّل كل العقبات، رغم ظهور شيخ جديد، وهو شيخ الشتاء البركاني بالعصر الجليدي الصغير المتأخر، بين أعوام 530 و536م، وبعده بسنوات قليلة تعلق شيخ آخر اسمه "الطاعون الأول" (المسمى في العصور الحديثة بطاعون جستنيان 541)، لقد تعقدت الأوضاع، وهبطت عزيمة جستنيان، وما زاد الأمر سوءًا إصابته هو نفسه بذاك الطاعون الدبلي⁽¹⁹⁰⁾، وفي غضون أقل من عام، توفي ما يُقدر بنحو 200 ألف شخص بالقسطنطينية، أي بمثابة اثنين من كل خمسة من سكان المدينة، وتشير التقديرات إلى أن طاعون جستنيان قتل ما يصل إلى 100 مليون شخص في جميع أنحاء العالم⁽¹⁹¹⁾.

لقد أدت هذه الأحداث المأساوية إلى انتشار المجاعة (538-542م)، وعلى الرغم من أن الإمبراطورية البيزنطية انتصرت في النهاية، إلا أن الانتصار أثبت أنه انتصار باهظ الثمن؛ حيث تسببت كل هذه العوامل في انهيار سكان شبه الجزيرة الإيطالية، وتركت الأراضي المحتلة فقيرة جدًا، وتعاني من نقص شديد في السكان، لقد تبدل الحلم إلى كابوس!

مات جستنيان في نوفمبر 565م، وماتت معه أحلامه، وتولى من بعده خليفته "جاستن الثاني"، الذي رفض الاستمرار في دفع الجزية للساسانيين، وفي فترة حكمه بدأت توترات الشرق في الظهور مجددًا.

أما في الغرب، فيتربق هناك الفرنجة، ذاك الشعب الجرمانى الواقف على حافة الإمبراطورية الغربية المنهارة⁽¹⁹²⁾، يبدو أنهم يريدون أن يلعبوا دورًا مصيريًا في تلك المنطقة، كان حماسهم ظاهرًا من الوهلة الأولى؛ فقد قرروا غزو إيطاليا بعد هذا الانهيار الكبير، ووافق غزوهم وصول بعض القبائل الحليفة للقوط الشرقيين من أجل الدعم، لكن من وسط هؤلاء وهؤلاء وصل شعب جرمانى برى آخر نصب سيطرته على الأجواء كلها بعد إتمام عملية هجرة كبيرة وواسعة النطاق؛ إنه شعب اللومبارد، والذي كان متحالفًا في السابق مع الإمبراطورية البيزنطية، الكل يتصارع من أجل الاقتناص ببقايا الإمبراطورية الرومانية العظيمة، ولكن في النهاية مالت كفة اللومبارد بسبب كثرة عددهم.

بدأ اللومبارد زحفهم في ربيع عام 568م، بقيادة ملكهم "ألويين"، منطلقين من بانونيا غرب المجر حاليًا، بعد أن نقضوا تحالفهم مع البيزنطيين، وسرعان ما هزموا الجيش البيزنطى الصغير الذي تركه الجنرال "نارسيس"⁽¹⁹³⁾

لحراسة إيطاليا، وبعد أن وصلوا وانتزعوا أراضي القوط الشرقيين، أسسوا شكلاً عسكرياً لا بأس به، وتمكنوا من تفتيت الوحدة السياسية لشبه الجزيرة الإيطالية، وأصبحت شبه الجزيرة ممزقة الآن بين الأراضي التي يحكمها اللومبارديون والبيزنطيون⁽¹⁹⁴⁾.

تم تقسيم اللومبارديين الذين وصلوا حديثاً إلى منطقتين رئيسيتين في إيطاليا: لانجوبارديا مايور، والتي كانت تتألف من شمال إيطاليا التي تجتذب حول عاصمة مملكة لومبارد وتيسينوم (مدينة بافيا الحديثة في منطقة لومباردي الإيطالية)، ولانجوبارديا الصغرى، والتي تضمنت دوقية سبوليتو وبينيفينتو اللومباردية في جنوب إيطاليا.

أما الأراضي التي ظلت تحت السيطرة البيزنطية، فكانت تسمى "رومانيا" (منطقة رومانيا الإيطالية الحالية) في شمال شرق إيطاليا، وكان معقلها في إكسرخسية رافينا، وفي إيطاليا فرض اللومبارديون سيطرتهم بقوة، وفرضوا أنفسهم في البداية على أنهم الطبقة المهيمنة بدلاً من السلالات السابقة، أما بقية السلالات فقد تم إخمادهم أو نفيهم فيما بعد⁽¹⁹⁵⁾.

في ظل هذه الأوضاع المهيبة، رأى المتربصون هناك ناحية الشرق، أن الوضع مناسب للاقتناص، فجدد هؤلاء الساسانيون الحرب مع الإمبراطورية البيزنطية بحجة الامتناع عن دفع الجزية، فكبدوها خسائر فادحة في ممتلكات الشرق، وفي ظل انشغال الرومان البيزنطيين بصد العملاق الفارسي، عمت الفوضى في الداخل القسطنطيني، بعد أن تخبطت السياسات، وضعف أداء الحكومة، وظهر أعداء من الداخل، لدرجة أن فرقتين رياضيتين قررا إعلان نفسيهما حزبين سياسيين لاستغلال الموقف؛ إنهما حزبا الزرق والخضر، والأهم من كل ذلك أن السلاف استغلوا انشغال الإمبراطورية بضعفها، وازدادت هجراتهم داخل منطقة البلقان أكثر مما سبق، لدرجة أنهم أصبحوا على وشك الاستيلاء التام عليها.

وبهذا الشكل نرى أنه قد تأثر الشرق البيزنطي بهذه الأحداث التي وقعت في الغرب، وحتى إن لم يتأثر، فكان هناك ما يكفي من الضغوط والحروب الفارسية التي أنهكته، وأيضاً لنا أن نتخيل حجم الحروب التي تتعرض لها الإمبراطورية البيزنطية من الشرق والغرب والجنوب والشمال والداخل؛ فبعد أن ظهر الطموح والحلم لدى جستنيان، تبدل الحلم لكابوس، ولكن السعي نحو الاستفاقة واستعادة الهيبة لم يتوقف أبداً..

١٠- استفاقة نحو الشرق (استعادة صليب المسيح)

إلى هذه اللحظة لم تر أوروبا خطرًا أشد من الخطر الفارسي، فالبرابرة في الغرب أخذوا أكثر مما كانوا يحلمون، فقد يتمنون الإعانة على ما اقترفوه، قبل أن يفكروا في توسيع نفوذهم والصدام مع إمبراطورية الشرق البيزنطي، أما أعداء الداخل فقد كانوا يتصارعون على الحكم وعلى المناصب السياسية، ولكن الخطر الشرقي كان يتصارع من أجل مسح الهوية، من أجل احتلال أوروبا، بل من أجل احتلال العالم إن مكنته ظروفه من ذلك.

كانت تلك الحروب الرومانية الساسانية مستمرة منذ عام ٢٨٥م، أي لمدة تعادل الثلاثة قرون ونصف قرن؛ إنها سلسلة من الحروب الطويلة والمرهقة التي لن تتكرر كثيرًا في التاريخ، فكان الصراع بينهما على شكل عدة حملات صغيرة، ومعاهدات سلام تستمر لسنوات في كل مرة، ثم يتم اختراقها من أحد الجانبين.

لقد تسلم الإمبراطور البيزنطي "موريس" (موريكيوس) في عام ٥٨٢م، وكان رجل حرب بجدارة، أثبت جَلده في إثبات النصر على الجيوش الساسانية المعادية، والأروع من ذلك أن الإمبراطورية في عهده قد توسعت شرقًا وتوغلت في جنوب القوقاز، وقد أجبر الفُرس على عدم المطالبة بالجزية، ولا الحرب من أجلها⁽¹⁹⁶⁾.

قام موريس بحملة مكثفة في البلقان ضد الآفار بحلول عام ٥٩٩م، كان غرضه إجبارهم على التقهقر عبر نهر الدانوب، كانت هذه محاولة جريئة منه، لم يقم بها أسلافه لأكثر من قرنين من الزمان، وبسبب حملاته أصبحت مناطق واسعة من البلقان خالية من السكان، بالإضافة إلى أنه قد تمكن من إنشاء مقاطعتين كبيرتين شبه مستقلتين في غرب الإمبراطورية الغربية، وعيّن عليها حكامًا تابعين له، وفي تحدٍّ تام للومباردين قام بتأسيس إكسرخسية رافينا في عام ٥٨٤م، وبعدها أنشأ إكسرخسية قرطاج عام ٥٩٠م، من أجل تعزيز قوة الإمبراطورية البيزنطية في غرب البحر الأبيض المتوسط.

أما عن انتصاراته على الفرس، فقد انتهت الحرب السابقة بين القوتين في عام ٥٩١م، وكاد "كسرى الثاني" الفارسي أن يفقد عرشه، ولكن أنقذه الإمبراطور البيزنطي موريس نفسه.

تدخل موريس البيزنطي في حرب أهلية فارسية كان غرضها إعادة حاكم الأعداء كسرى الثاني إلى عرشه، بغرض الزواج من ابنته، وبالفعل نجح في ذلك، وأبرموا معاهدة سلام جديدة.

أدت معاهدة موريس مع صهره الجديد إلى توسيع أراضي الإمبراطورية إلى

الشرق، وسمحت للإمبراطور النشيط بالتركيز على البلقان، وبحلول عام ٦٠٢م تمكنت أخيرًا سلسلة من الحملات البيزنطية الناجحة من زحزحة الآفار والسلاف عبر نهر الدانوب كما كان يخطط⁽¹⁹⁷⁾، حينها عرض شعب الآفار على الإمبراطور تحرير الأسرى الرومان المحتجزين لديهم مقابل فدية يدفعها الإمبراطور موريس، ولكن رَفَضَ موريس دفع أية فدية، بل وأمر قواته قضاء فصل الشتاء في نهر الدانوب، هذه الأمور قد أغضبت الناس، فانخفضت شعبيته، واندلعت ثورة عارمة تحت قيادة ضابط يُدعى "فوكاس" (فوقاس) عام ٦٠٢م، الذي عاد بالقوات إلى القسطنطينية، وعلى إثر ذلك شرع في خلع الإمبراطور موريس، واقتاده هو والثوار مع أبنائه الستة، وقتلهم أثناء محاولتهم الهرب⁽¹⁹⁸⁾.

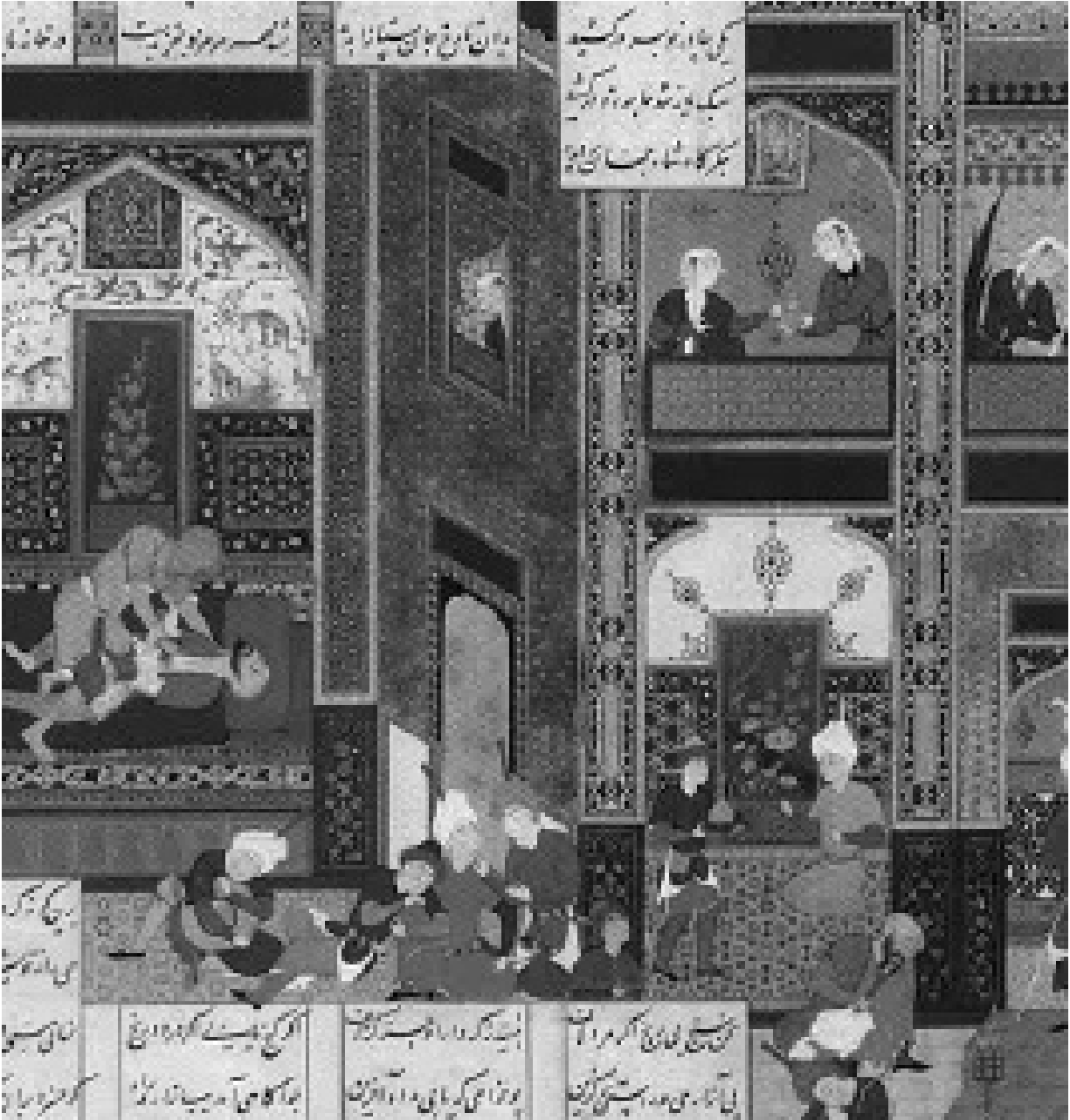
استخدم كسرى الفارسي حجة قتل صهره موريس لانتهاز فرصة الفوضى العارمة، وشن حملة موسعة على أراضي الإمبراطورية البيزنطية الرومانية؛ لاستعادة مقاطعة بلاد ما بين النهرين⁽¹⁹⁹⁾، وقد خدمته الأوضاع في حصد انتصاراتٍ عديدة، أكثر مما كان يخطط، لدرجة أنه في النهاية قادته جراته إلى حصار عاصمتهم القسطنطينية بالتعاون مع الآفار عام ٦٢٦م، لكنه فشل في ذلك، فكيف يحدث ذلك وحينها كان للدولة إمبراطور اسمه هرقل (هيرقليس). كان والد هرقل، المعروف بهرقل الأكبر، قائدًا عسكريًا ناجحًا، وبعد أن صعد موريس المقتول للحكم، قام بتعيينه في أعقاب الحرب نائبًا إمبراطوريًا على إكسرخسية أفريقيا، وكان مقر حكمه في قرطاج، وهناك أنجب المذكور هرقل الابن، والذي قضى طفولته وصباه هناك. جاء هرقل للقسطنطينية، وقاد ثورة ناجحة ضد الإمبراطور فوكاس الذي خلع وقتل موريس، وما سهّل فعل ذلك أن فوكاس كان حاكمًا مكروهًا، لا يحظى بشعبية، ولم تتردد المصادر البيزنطية بوصفه "طاغية"، وكان هدفًا لعدد من المؤامرات التي قادها مجلس الشيوخ. تم خلعه في النهاية في عام ٦١٠م، من قبل هرقل، الذي أبحر إلى القسطنطينية من قرطاج بأيقونة مثبتة على مقدمة سفينته⁽²⁰⁰⁾، وهرقل يعتبر هو مؤسس السلالة الهراقلية، التي استمرت في حكم الإمبراطورية البيزنطية حتى عام ٧١١م.

نظر هرقل بحقد إلى أحوال الحروب الساسانية البيزنطية، وانزعج بسبب الضعف الذي بدا على أحوال العسكرية، بسبب خسارة غالبية الأراضي الشرقية؛ فقد تزامن صعود الإمبراطور هرقل مع النكسات الأولية للإمبراطورية، وقد أثبت الفُرس نجاحهم إلى حد كبير خلال المرحلة الأولى من الحرب منذ عام ٦٠٢م وحتى عام ٦٢٢م، فبنهاية هذه التواريخ كان هؤلاء قد تمكنوا من السيطرة على جميع أنحاء الشرق الأوسط: في مصر، والمشرق، وبلاد ما بين النهرين، والقوقاز، والأناضول، وأرمينيا، وبحر إيجه. لقد دخل كسرى القدس، وسرق صليب المسيح الذي صُلب عليه يسوع (وفقًا

للمعتقدات المسيحية)، ونقله إلى قسطنطينون⁽²⁰¹⁾، بل وقادته جرأته إلى شن غارات جديدة وصلت نحو أسوار القسطنطينية نفسها. رَمَّم هرقل أحوال العسكرية، لقد اتحدت العائلات الإقطاعية في الإمبراطورية البيزنطية، وموّلت حملات هرقل من أجل استرداد الصليب، ويبدو أن حماس هرقل ورجاله كان له عامل كبير على أرض الواقع؛ فقد أجبرت حملات هرقل في الأراضي الإيرانية منذ عام ٦٢٢م وحتى عام ٦٢٦م الفرس على أخذ وضع دفاعي، واستفاق البيزنطيون وعادت لهم الثقة، وعلى إثر ذلك علم الفُرس أن حروب التحالفات لها جدوى، فراحوا يتحالفون مع قبائل الآفار والسلاف أعداء الماضي البيزنطي، وقاموا بمحاولة أخيرة للاستيلاء على القسطنطينية عام ٦٢٦م، لكنهم هُزموا هناك، بعد أن كان البيزنطيون يدافعون على أسوار القسطنطينية ويهتفون باسم المسيح، وقد نُسب هذا الانتصار إلى أيقونات العذراء التي قادها البطريرك "سرجيوس" في موكب حول أسوار المدينة⁽²⁰²⁾.

وفي عام ٦٢٧م تحالف هرقل هو الآخر مع الأتراك في الشرق، وقاد هرقل هجومًا مضادًا محفوفًا بالمخاطر في قلب بلاد فارس⁽²⁰³⁾، مكنه من احتلال منطقة القلب، ولم يتمكن هرقل من هزيمة كِسرى الثاني العنيد نهائيًا إلا حوالي سنة ٦٢٨م في موقعة نينوى. كان الهجوم المضاد الذي شنّه هرقل شبيهًا بالحروب المقدسة، فقد قاد جيشه الذي كان على مقدمته صورة المسيح، كتكرار للمشهد الذي حدث أثناء الدفاع عن القسطنطينية بعد أن نُسب الانتصار إلى أيقونات العذراء⁽²⁰⁴⁾.

يبدو أن القدر قد تبسم لهرقل؛ لقد اندلعت الحرب الأهلية في بلاد فارس، لقد جُلِع كِسرى الثاني عن العرش، وبمساعدةٍ من مَنْ؟ من ابنه "قباد الثاني" الملقب بشيرو.



لوحة عن اعدام كسرى الثاني في مخطوطة شاهنامه شاه طهماسب ١٥٣٥

لقد احتجز الابن أباه في القصر، بعد أن استعان بقائد الجيش "أسباد"، للاستيلاء على العاصمة قطيسفون، وفي عُجالة جهز الابن بالتنسيق مع أسباد لائحة طويلة، تضم مجموعة تُهم موجهه لأبيه الشاه، ثم أوقف الابن أباه أمام المحكمة وقام بإعدامه على الملأ، وكذلك قتل جميع إخوته، وقد أدت هذه الاغتيالات إلى تجريد السلالة الساسانية من حاكم كفاء في المستقبل، لقد

قضى عليهم شيرو بوحشية؛ لذلك وُصف بأنه "هياج مجنون" و"طائش"⁽²⁰⁵⁾ بلغت الحرب أوزارها، وخلف موت كسرى الثاني للساسانيين الفوضى والحرب الأهلية، واضطر الفُرس لسحب جميع القوات المسلحة، وإعادة

مصر والقدس والشام وبلاد ما بين النهرين وأرمينيا، وتقلص النفوذ الفارسي، لما كان قبل خرق معاهدة ٥٩٥م، كل هذا ضاع في عهد قباذ الثاني الذي رُفِع على العرش بعد قتل أبيه في فبراير ٦٢٨م، وتوقفت الحرب بعد طلب قباذ الثاني التفاوض لكي يتمتع بالحكم في سلام، ولكن لم يكتمل حلمه، نتيجة موته بعد بضعة أشهر من بداية حكمه، وظهرت الخلافات القَبَلية على توزيع ثروات البلاد(206).

في النهاية، بعد أن تمكن هرقل المحارب المغوار من تدمير القوة الساسانية في عقر دارهم، في نينوى عام ٦٢٧م، أعاد هرقل الصليب الحقيقي إلى القدس في عام ٦٢٩م في احتفال مهيب اهتزت له كل أركان الإمبراطورية.

يصف التاريخ عهد هرقل بالذهبي؛ لأنه برغم العثرات، حافظ على هذه الإمبراطورية وأنقذها من الضعف والزوال، ووسَّع رقعتها، وفرض هيبتها على العالم، ولكن إلى هنا لم تنتهِ أشكال المخاطر التي كانت تهدد زوال إمبراطوريته، وإنما ظهرت قوى أخرى عظيمة قادرة على تسلم النزاع بعد الفرس.

* * *

١١ - صعود الإسلام (خطرٌ شرقيٌّ أعظم)

ظهر الإسلام في مكة قبل أن يهزم هرقل كسرى الثاني ويسترد الصليب، بحوالي ١٧ أو ١٨ عامًا، حينها كان أتباع الدين الوليد يتابعون حرب هرقل المقدسة مع كسرى، وكان المسلمون حزانى في بداية الأمر بسبب خسارة البيزنطيين الروم؛ فأتباع الدين الجديد أشدَّ عداوةً للفرس المجوسيين الوثنيين، بعكس البيزنطيين المسيحيين؛ حيث اعتبروهم إخوة، أصحاب رسالة إبراهيمية سماوية.

كان المسلمون في بلاد العرب تصلهم أخبار الحرب، حينها جاءتهم بشرى في القرآن الكريم بنصرة البيزنطيين المستقبلية في سورة الروم⁽²⁰⁷⁾، وفي غضون أقل من عقدين، أكمل هرقل حربه المقدسة ضد الفرس، وانتصر عليهم كما ذكرنا.

وخلال سنوات حرب هرقل مع الفُرس، كانت دولة الإسلام تنمو، تُحارب وتنتصر، وأصبح لها قوانينها الخاصة، القائمة على أساس ديني، وكذلك جيش باسل واقتصاد لا بأس به، وغير ذلك من مقومات الدولة الناجحة، ووقت ظهورها كانت بمثابة خطر عظيم على الحضارة البيزنطية المسيطرة على الشرق، فُقِدَّ لهما الصِّدام بعد حوالي ثمانية أشهر من حصار الطائف⁽²⁰⁸⁾.

فبعد أن وصلت سيرة انتصارات المسلمين لأبعد مدى، وبعد أن أرسل نبي الإسلام محمد رسائله لقادة العالم من أجل دعوتهم للإسلام، وبعد انتصاره على الغساسنة الشاميين المسيحيين في غزوة مؤتة؛ عليم الرومان البيزنطيون أن هناك قوة وليدة تنافسها وتهدد نفوذها في المنطقة، فقرروا تأديبها مبيكرًا بُغية كسر هيبتها، فأمر هرقل بتجهيز جيش عتاده أربعون ألف مقاتل، وأمرهم بالتوجه نحو بلاد العرب بشبه الجزيرة، في شهر رجب من عام ٩هـ⁽²⁰⁹⁾، الموافق أكتوبر من عام ٦٣٠م.

علم نبي الإسلام محمد، أن هناك قوات بيزنطية تتمركز في شمال شبه الجزيرة العربية بنية غزوها⁽²¹⁰⁾، فجهز جيشًا عتاده ثلاثون ألف مقاتل، وقاده إلى تبوك شمالًا في شمال غرب المملكة العربية السعودية الحالية، وربط الجيش هناك قرابة عشرين يومًا⁽²¹¹⁾، في معركة عُرفت بعد ذلك في سجلات المسلمين باسم "غزوة تبوك".

كان الانطلاق خطوة استباقية من جيش المسلمين لصد الغزو من بعيد، بعد تنسيق وترتيب كبير، فهذه المعركة كانت الأولى من نوعها للمسلمين؛ فالرومان هم مستوى أعلى من المعارك السابقة، وأعداد جيوشهم أكبر، بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعدادًا خاصًا؛ فهم عدو يختلف في طبيعته

عن الأعداء الذين واجههم المسلمون من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرائتهم بالحرب كبيرة ومتطورة، وقدرتهم القتالية فائقة⁽²¹²⁾.

ولكن حدث ما لم يتوقعه أحد؛ لقد هرب الجيش البيزنطي وتراجع إلى الخلف، وانتهت المعركة دون عراق⁽²¹³⁾؛ إذ تبَدَد جيش الرومان وتشتت وخاف من المواجهة، وأخلى موقعه للمسلمين، وكان هذا بمثابة وصمة عار على جبين البيزنطيين الأثداء، وإعلان قويٍّ لهيبة المسلمين، الذين تهافت عليهم الحلفاء بعدها كقوة أولى في المنطقة، بعد أن تخلوا عن محالفة البيزنطيين بسبب هروبهم خوفًا من لقاء المسلمين، وكانت هذه المعركة نقطة فاصلة سياسيًا في الفترة القادمة على الشرق الأدنى؛ فقد استفاد منها المسلمون بكل المقاييس؛ فهي تُعد انتصارًا بلا قتال، وهيبة وإثبات قوة بلا خسارة، وكسب تحالفات جديدة بلا تنازلات، وإخضاع للمستعمرات المسيحية التي كانت تُقر بولائها للروم دون إراقة دماء، كإمارة دومة الجندل، وإمارة إيلة. وبعد خضوعهم، اجتمع النبي بهم، وكتب بينه وبينهم كتابًا يحدد ما لهم وما عليهم، وانضموا لحدود دولة المسلمين الصاعدة⁽²¹⁴⁾.

وفي ظل خيبات البيزنطيين بسبب الخسائر السياسية في المنطقة، اعتظم جيش المسلمين في وقت قليل، الذي سيصبح من أهم وأعظم الجيوش الموحدة في تاريخ العالم⁽²¹⁵⁾، بسبب الوفود الغزيرة التي دخلت في الإسلام، وبسبب روح الجنود القتالية وبسالتهم المتناهية.

قرر المسلمون نشر الدين الجديد خارج شبه جزيرة العرب، وبعد موت نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، وبناءً على تعاليمه، لم تتوقف الفتوحات، واستكمل الخليفة الأول "أبو بكر"، ما رتب إليه النبي، وبعد خوض مجموعة معارك داخلية عُرفت في السجلات الإسلامية بـ"حروب الردة"، اصطدم جيش المسلمين مع الساسانيين الذين كانوا يملكون حدودًا مشتركة مع دولة الخلافة الجديدة، بعد أن تمكنت الإمبراطورية الساسانية من لملمة جزء كبير من أشلائها في وقت قياسي.

وفي عهد الخليفة الثاني عمر الأول، "عمر بن الخطاب"، تمكن المسلمون من دخول العراق، المركز السياسي والاقتصادي للإمبراطورية الساسانية، وبعد عدة حروب كبيرة تمكّن القائد "خالد بن الوليد" عام ٦٣٣م من فتح العراق كله بالكامل⁽²¹⁶⁾، ثم نُقل خالد بعد ذلك إلى الجبهة الرومية بالشام لاستكمال الفتوحات بأوامر عُليا من الخليفة عمر، حينها ظهر الوحش الساساني مجددًا، وانقض على جيوش المسلمين في العراق، وشن هجومًا مضادًا، استرد به كل ما قد تحصل عليه خالد، وعلى الفور عُيّن القائد "سعد بن أبي الوقاص" على زُمرة الجيش في سنة ٦٣٦م، وبدأ سعد سلسلة حروبه مع الساسانيين.

أما في الجبهة الرومية، فقد تمكّن خالد المنتدب حديثًا، من التعمق في

المستعمرات الرومانية بالشام بقواته، ومحاصرة الحاميات البيزنطية هناك، فسقطت مدينة بصرى⁽²¹⁷⁾، ثم تبعتها فحل على ضفة الأردن الشرقية⁽²¹⁸⁾، ووصلت القوة الإسلامية إلى أطراف دمشق، فحاصرتها ستة أشهر، ولم تتمكن الحامية البيزنطية من الصمود، فتركت المدينة وخرجت، ودخلها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد، وعلى نفس النهج فُتحت حمص وحماة. وبهذا الشكل تمكنت القوة الإسلامية الضاربة من الاشتباك مع البيزنطيين في سلسلة من الحروب، والتي انتهت بفوز المسلمين، حينها وصل لخالد، قائد الجيش الإسلامي، أن هرقل يحشد جيشًا لاستعادة سوريا الرومانية، وأمر بتجهيز جيش سيخرج من فلسطين، قوامه ١٠٠ ألف رجل، على زمرة "تريثوريوس" الذي يُقال إنه أخوه⁽²¹⁹⁾؛ لينضم إلى باقي الجيوش الخمسة التي ستتحرك من أجل القضاء على جيش المسلمين، فأجّل خالد باقي الفتوحات، وانتصب بجنوده ناحية وادي على نهر الأردن، يُقال له وادي اليرموك، ووقع بين الطرفين واحدة من أكثر المعارك حسمًا في التاريخ⁽²²⁰⁾⁽²²¹⁾. معركة لفرض الهيبة.. من أجل إعادة الأمجاد..

* * *

١٢- محاولة استرداد الهيبة (اليرموك، نقطة فاصلة)

جيش فرض قوته ونفوذه على أوروبا، الفرس، الأناضول، الشرق، مصر، برقة، شمال أفريقيا، ساحل بحر الشام، والروم، أمام جيش جديد، يجول ويصول في مستعمراته، ويهدد المستوطنين المنتمين له ولاءً، ويرسل رسائل تفيد بأنه لا يهاب أحدًا على الأرض؛ لتدور حروب فرض النفوذ مجددًا، ويأتي ميعاد استرداد المستعمرات المفقودة في سوريا الرومية.

كان جيش البيزنطيين المتجه للمعركة كبيرًا ومنوعًا، يضم عرقيات كثيرة، بينها الروس السلاف والفرنجة والروم والإغريق والجورجيون والأرمن والعرب المسيحيون⁽²²²⁾، وتنقل لنا المصادر الإسلامية أن جيش البيزنطيين كان يتألف من خمسة جيوش، جميعهم قد اتحدوا في اليرموك: الجيش الأول: بقيادة "فاهان" (ملك أرمينيا) على رأس جيش أرمني. الجيش الثاني: بقيادة "قناطير" (أمير روسي) على رأس جيش روسي سلافي.

الجيش الثالث: بقيادة "جبله بن الأيهم" (ملك الغساسنة) على رأس جيش من المسيحيين العرب، والغساسنة هم سلالة عربية من الأزد⁽²²³⁾، أسست مملكة في الشام ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية في فترة ما قبل الإسلام؛ لذلك نهضوا لمحاربة المسلمين العرب، حفاظًا على مملكتهم المسيحية، بعد خسارتهم في معركة مؤتة، وكذلك بعد سيطرة "خالد بن الوليد" على بصرى.

الجيش الرابع والخامس: بقيادة "جريجوري" و"ديرجان" على رأس جيشين أوربيين⁽²²⁴⁾، وكان قائدهما العام "تريثوربوس".

وقد اختلف المؤرخون المسلمون كثيرًا في تعداد جيوش البيزنطيين الرومان في معركة اليرموك، حيث بدل غير أن هناك ستة أقوال أساسية فيها، فقد روى ابن إسحاق وقال: ١٠٠ ألف، أما ابن عساكر والوليد والبلاذري فقالوا: ١٢٠ ألفًا، وقال الطبري: ٢٠٠ ألف، وقال سيف: ٢٤٠ ألفًا، وقال الأزدي: ٣٠٠ ألف⁽²²⁵⁾.

وأوضحت المصادر الإسلامية أن جيوش المسلمين كانت قليلة أمام العدد الهائل لجيوش البيزنطيين، فكانت القوات الأساسية التي دخلت الشام مكونة من أربعة ألوية مجموع جنودها ٢٤ ألف مقاتل، ثم ازدادوا قليلًا بعد وصول خالد من العراق للنجدة في معركة أجنادين⁽²²⁶⁾، وقال الطبري إن قوة خالد التي زادت عليهم كان تعدادها ٩ آلاف، بينما قال ابن عساكر إن ٢٤ ألفًا هو المجموع كله، وكان بين هؤلاء ١.٠٠٠ من الصحابة، وحوالي ١٠٠ ممن

اشتركوا في غزوة بدر⁽²²⁷⁾. أما المصادر المسيحية الغربية، فذكرت أن جيش هرقل البيزنطي كان كبيرًا أيضًا⁽²²⁸⁾، وأوردت نفس تقسيم الجيوش الخمسة بقادتهم المذكورين في سجلات العرب⁽²²⁹⁾⁽²³⁰⁾، لكن في السجلات الغربية نجد أن أحجام القوات متنازع عليها من قبل المؤرخين المعاصرين؛ فمنهم من قال إن البيزنطيين كان عددهم يفوق عدد المسلمين بأربعة أضعاف⁽²³¹⁾، ومنهم من قال إن البيزنطيين ربما تمتعوا بالتفوق العددي بـ ١٥ إلى ٢٠ ألف جندي أو أكثر فقط⁽²³²⁾.

وتذكر المصادر المسيحية الغربية أنه لأكثر من شهر، احتل المسلمون منطقة استراتيجية عالية بين عذريات (درعا الحديثة) ومعسكرهم بالقرب من دير أيوب، وتغلبوا على البيزنطيين في مناوشة خارج الجابية في ٢٣ يوليو ٦٣٦م، كذلك تقول المصادر إن بالرغم من هروب المساعدين البيزنطيين من العرب المسيحيين والأرمن، وانشقاقهم عن الجيوش الأوروبية، ظلت القوة البيزنطية هائلة؛ حيث كانت تتكون من طليعة من سلاح الفرسان الثقيل، وحرس خلفي من المشاة، وكانوا يظهرون بشكل منظم وممنهج عندما كانوا يقتربون من الخطوط الدفاعية الإسلامية⁽²³³⁾.

لم تتردد المصادر الغربية في وصف خالد بالقائد العسكري الفذ، وعززت سمعته كواحد من أعظم خبراء التكتيك وقادة سلاح الفرسان في التاريخ⁽²³⁴⁾، حيث تنقل لنا المصادر كيف تجلّت فطنة خالد العسكرية في حسم هذه المعركة الكبرى في وقتٍ قياسي.

كانت هجمات البيزنطيين الأولية ضد الجناحين الأيمن والأيسر للمسلمين فاشلة ولا جدوى منها، لكنهم حافظوا على الزخم حتى تراجع الخط الإسلامي بأكمله، وتوضح المصادر المسيحية المعاصرة أنه كان تراجعًا وهميًا مقصودًا من ترتيب خالد⁽²³⁵⁾، حيث طارد البيزنطيون المسلمين إلى معسكرهم، فتعثر المسلمون في قطعان الجمال لتشكيل سلسلة من المحيطات الدفاعية التي يمكن للمشاة القتال من خلالها، والتي لا يمكن للفرسان البيزنطيين اختراقها بسهولة؛ نتيجة لذلك، تُرك البيزنطيون عُرضة للهجوم من قبل الرماة المسلمين، وتوقف زخمهم وكُشِف جناحهم الأيسر، وفي هذه الأثناء استغل خالد وفرسانه هذه الفرصة التي رتبوا لها، من أجل اختراق الجناح الأيسر للبيزنطيين، مستغلين الفجوة بين المشاة البيزنطيين وسلاح الفرسان⁽²³⁶⁾.

بنجاح ساحق، تمكّن خالد من محاصرة سلاح الفرسان الثقيل المعارض على كلا الجانبين، ثم استخدم ذكاءه وخلق تمويهًا جديدًا، حيث ترك عن عمدٍ فتحة لم يتمكن البيزنطيون من الهروب منها إلا شمالًا، بعيدًا عن فِرق المشاة التي تغطيهم⁽²³⁷⁾، فانخدع الجيش البيزنطي في ممرات الوادي، وظن أنها

طريق من السهل سلوكه، ولم يعلموا أنها خدعة جديدة من حيل خالد، فانقض عليهم جيش المسلمين، وقتك بهم، وحل عليهم بهزيمة كبرى.

ووفقًا للمؤرخ البيزنطي "ثيوفانيس المعترف" (238) من القرن التاسع، تمرد المشاة البيزنطيون تحت قيادة فاهان، ربما في ضوء فشل تريثوريوس في مواجهة الهجوم على سلاح الفرسان، وبعد أن فر عدد من كتائب الجيش، لاحقًا أحس تريثوريوس بأنه ليس بالقائد القوي؛ لذلك سلم القيادة إلى القائد الأرمني "فاهان"، ولكن باءت المحاولة بالفشل بعد فتك خالد وقواته بهم، وقُتل تريثوريوس وفاهان وقادة الجيوش الأوروبية ورجالهم، في ٢٠ أغسطس من عام ٦٣٦م (239).

وفي ذات الوقت كانت هناك قوتان أخريان، واحدة بقيادة أبي عبدة بن الجراح تُعسكر في سهل البقاع، رابطت خارج أسوار بعلبك، من أجل محاصرة الحامية البيزنطية هناك، والأخرى بقيادة يزيد بن أبي سفيان تعبر سواحل لبنان، من أجل ضم صور وصيدا وبيروت وجبيل وعرقه صلحًا، وكانت الثلاث مجموعات قد أدوا مهمتهم بنجاح (240).

أما عن جيش سعد بن أبي وقاص في بلاد فارس، فقد أبلى بلاءً حسنًا في معركة القادسية قرب الحيرة في العراق، ضد الساسانيين بقيادة "رستم فرخزاد"، وتمكن سعد من هزيمتهم والسيطرة على الجبهة الغربية لفارس كلها، وبعد أن تشتت وقُتل رستم، اندثر الساسانيون بالفيلة والوحوش إلى الداخل، ووصل سعد بجيشه إلى المدائن، فجاء الخبر إلى "يزدجرد الثالث" آخر الأكاسرة الساسانيين، فترك العرش وفر بصحبة بقايا الجيش (241).

لم يتوقف سعد عن مطاردتهم، فتبعهم من مدينة إلى مدينة، ولكن رغم ذلك لم يستقر الوضع، فقد شن الفرس غارات عديدة على المسلمين في العراق، وحينها أمر الخليفة عمر بتوحيد الجيوش وتجهيزها لإخضاع بلاد فارس كلها، فسقطت العاصمة قطسيفون عام ٦٣٧م (242)، لكن بعد هروب يزدجرد وفلوله، قاموا بتجميع أنفسهم في نهاوند، وجعلوها مقرًا لضرباتهم، وفي هذه الأثناء نقل سعد بن أبي وقاص للخليفة خطورة الموقف، فأرسل له جيشًا تحت قيادة النعمان بن مقرن المزني، عتاده ٣٠ ألف مقاتل، وانتصر المسلمون في واقعة كانت هي الأخيرة، وهي معركة نهاوند، أو كما يطلق عليها التاريخ الإسلامي (فتح الفتوح) (243).

بعد الانتصار الساحق، ظهر ترسيم جديد للحدود بين القوتين العظيمتين، وهو أن الفاصل بينهما جبال زاغروس التي تقع غرب إيران وشرق العراق، وفي نفس عهد الخليفة عمر بن الخطاب (244)، وبحلول عام ٦٤٤م، تم اكتمال فتح بلاد فارس والقضاء على الوحش الساساني للأبد. وبهذا الشكل أزاح المسلمون الساسانيين من الساحة، وضموا أراضي

إمبراطوريتهم أو الغالبية العظمى منها حتى هذه اللحظة، وتقلصت حدود أوروبا البيزنطية وانكمشت، وتأججت مواجهات هذه القوى العظمى مع البيزنطيين لدرجة أنها أصبحت تنذرهم بخطرٍ أكبر.

* * *

١٣- خسارات متتالية في الشرق (ذات الصواري وتطويع البحر)

لا شك في أن معركة اليرموك من أهم المعارك الفاصلة في التاريخ الأوروبي وليس البيزنطي فحسب، فهي لم تُنه سيادة البيزنطيين الرومان على الشرق فقط، لكنها كانت بمثابة إعلان قوي لتعملق الدولة المنافسة، وإنهاء النفوذ الأوروبي على غالبية مستوطناته خارج أوروبا، وكانت هي بمثابة أول موجة كبيرة من الفتوحات الإسلامية المبكرة بعد وفاة نبي الإسلام، مما بشر بالتقدم السريع للإسلام في بلاد الشام التي كانت مسيحية في ذلك الوقت، بل وكانت نقطة فاصلة حوّلت القوة الإسلامية المنافسة من مجرد مزاحم يُهدد المستعمرات، إلى عملاق طموحه يزيد، بل وطموحه هذا سيهدد الداخل الأوروبي نفسه.

قبل هذا الوقت لم يكن المسلمون على دراية بسلاح البحر، ولا يفقهون في إنشاء الأساطيل البحرية، لكنهم حينما علموا أن فتوحاتهم الجديدة في خطر، وأن الشمال الأفريقي الذي تبع حكم الخلافة في تهديد بسبب حملات البيزنطيين عليها، واكبوا الحرب، وفتشوا عن كيفية صنع مثل هذا السلاح الراجح، وفي عهد عمر، قدم والي الشام "معاوية بن أبي سفيان" مقترحًا ببناء أسطول إسلامي بحري، واستمرت الفكرة قيد المراجعة، ولكن قبل المراجعة حدث أمر مهم؛ لقد اغتيل خليفة المسلمين عمر، في ٣ نوفمبر من عام ٦٤٤م، على يد "أبي لؤلؤة فيروز الفارسي"⁽²⁴⁵⁾، انتقامًا لإمبراطوريته المجوسية المنتهية واسعة الأطراف⁽²⁴⁶⁾.

تولى من بعده "عثمان بن عفان"، وبأوامر من عثمان، تم تنفيذ مقترح معاوية كاملًا، وكانت أول السفن هي السفن التي اغتتمها جيش المسلمين من البيزنطيين الفارين من الشام ومصر، وعلى الفور تم تقليدها، ومع الوقت أدخلوا عليها تعديلات، وأنشأوا قواعد صناعية وتدريبية لتنفيذ هذا السلاح في أسرع وقت.

وبأوامر من الخليفة الجديد عثمان، حل "عبد الله بن أبي سرح"، محل "عمرو بن العاص" في حكم مصر، ومن ناحية أخرى سمح الخليفة لمعاوية بمداهمة جزيرة قبرص عام ٦٤٩م، وهي محاولة استراتيجية اتفقا عليها من أجل إفساح المجال للحكومة المصرية الجديدة بركوب البحر دون أي اعتراضات، وبالفعل تمكن الوالي المصري الجديد من النزول للبحر، وبنى قوة بحرية قوية، عززت من سلطته أمام الخليفة، وأثبتت مهارته العسكرية بَرًا وبحرًا، وفي منتصف القرن السابع، كان قد توغل المسلمون في منطقة القوقاز، والتي أصبحت أجزاء منها لاحقًا جزءًا من روسيا بشكل دائم⁽²⁴⁷⁾.

الأسطول الجديد شاع صيته في القسطنطينية، خاصةً أنهم يتوجعون من خسارة قواعدهم في عكا والإسكندرية، وكأنهم صنعوها خصيصًا لكي يأتي المسلمون ويستخدموها، وما زاد الأمر غضبًا، تلك الغارات الإسلامية، التي انتهت باحتلال جزيرة قبرص؛ لذلك أطلقوا عمليات عسكرية بحرية خاصة، من أجل غزو جزر البحر المتوسط واسترداد الإسكندرية، وإخضاع الأسطول البحري الجديد الذي يعثو في أملاكهم، وكانت هذه العمليات قد توقفت منذ فشلها في معركة الإسكندرية عام ٦٤٥م، وتحت قيادة ابن أبي السرح تمكنت البحرية الإسلامية من صد هذه الغارات، وما تلاها، بما في ذلك صد الهجوم المضاد البيزنطي على الإسكندرية عام ٦٤٦م⁽²⁴⁸⁾.

أما معاوية، ففي عام ٦٥٤م، قام بتجهيز رحلة استكشافية من أجل الوصول إلى كابادوكيا⁽²⁴⁹⁾، وكان على رأس الأسطول أبو الأعور، "عمرو بن سفيان بن عبد شمس السلمي"، الذي عبر على طول الساحل الجنوبي للأناضول، حينها علم الإمبراطور "قسطنطين الثاني" بذلك، فجهز أسطولًا كبيرًا من أجل إيقاف زحف المسلمين⁽²⁵⁰⁾.

لم يكن هذا الأسطول البيزنطي وليد الساعة، لكنه كان نتاجًا لتطور صناعي لعدة خبراء عسكريين، على رأسهم جستنيان وهرقل وغيرهم من الأباطرة الذين قدّروا قيمة ركوب البحر، كان هذا الأسطول هو المتحكم حرفيًا في التجارة البحرية داخل البحر المتوسط، لا سفينة تمر إلا بإذن البيزنطيين ودفع رسوم العبور.

همَّ أسطول قسطنطين منتصبًا بعدد ٨٠٠ سفينة شراعية، حتى قابل الأسطول المشترك من العرب المسلمين بقيادة أبي الأعور، ومعهم المصريين المسلمين بقيادة ابن أبي السرح، قبالة ساحل ماونت فينيكس في ليسيا بالأناضول، بعدد ٢٠٠ سفينة فقط، بالقرب من ميناء فينيكس (فينيكة الحديثة بتركيا)، وفي ظل أجواء مناخية غير مستقرة اصطفت سفن الفريقين، وربط كل فريق سفنه من أجل الاتحاد، اقتربا الفريقان وبدأ القتال بعد أن أصبحت المسافة بينهما في مرمى التراشق بالسهام، ومع مرور الوقت نفذت سهام الفريقين، وبدءا يتبادلان التراشق بالحجارة، التي كانت مُعدة مسبقًا، من خلال تلك الصناديق المفتوحة أعلى الصواري التي صُممت خصيصًا لذلك، يصعد إليها الرامي ويحتمي وراءها، ويقذف الحجارة، لكن رويدًا رويدًا نفذت الحجارة، فتقدم المسلمون بسفنهم، وربطوها بسفن البيزنطيين، وانقضوا على أسطحها، والتحموا معهم بالسيوف والخنجر، ووقعت الخسائر بين الطرفين، وانتصر جيش المسلمين المتحد بعد قتال شديد، وبصعوبة بالغة تمكن قسطنطين من الهرب إلى القسطنطينية⁽²⁵¹⁾ بعد أن تخفّى وبدّل زيه الرسمي مع أحد ضباطه، حيث تؤكد المصادر العربية والغربية على حدٍّ سواء أنه نجا من المعركة بمعجزة⁽²⁵²⁾، وأثبتت البحرية

الإسلامية الوليدة أنها أقوى من نظيرتها البيزنطية في معركة ذات الصواري عام ٦٥٥م⁽²⁵³⁾، رغم أنها كانت الحرب البحرية الأولى للأسطول الإسلامي. في أواسط عهد الخليفة عثمان، اشتعلت الفتنة في الدولة الإسلامية، وأخذت بالانتشار شيئاً فشيئاً⁽²⁵⁴⁾، لقد اغتيل عثمان عام ٦٥٦م⁽²⁵⁵⁾، وتسلم من بعده الخليفة الرابع "علي بن أبي طالب" في محاولة لنشر الاستقرار، لكن استمرت التوترات والاضطرابات في داخل الدولة الإسلامية بنسبة أقل مما سبق⁽²⁵⁶⁾، لكنها للأسف أدت لاغتيال الخليفة علي نفسه، عام ٦٦٠م⁽²⁵⁷⁾، كانت هذه التوترات بمثابة حظ مُنحٌ لجيوش البيزنطيين⁽²⁵⁸⁾؛ فقد أرغمت هذه الظروف الجيوش الإسلامية على التوقف عن الزحف مؤقتاً.

بعدها قامت الدولة الأموية في بلاد المسلمين على يد الخليفة الأموي الأول "معاوية بن أبي سفيان" في عام ٦٦٢م، وسعى جاهداً لتوحيد الدولة من بحر آرال إلى الحدود الغربية لمصر، ويُذكر له أنه طور من أحوال العسكرية، وفي عهده طور المسلمون الأساطيل ودور الصناعة؛ لِبِناء السفن التجارية والعسكرية بِشَتى أصنافها، وأصبحت تونس، والإسكندرية، ورشيد، ودمياط، وصور، وبيروت، وعكا، وطرابلس الشام، واللاذقية، قواعد بحرية للأساطيل الإسلامية البحرية والتجارية⁽²⁵⁹⁾⁽²⁶⁰⁾.

قرر معاوية استكمال الفتوحات الإسلامية، وهاجم جزيرة صقلية في وسط البحر الأبيض المتوسط، جنوب شبه الجزيرة الإيطالية، وفرض سيطرته عليها، ومن ناحية أخرى توغل في آسيا الصغرى وهاجم الأناضول في ٦٦٣م، وصال وجال فيها حتى توغل في بلاد ما وراء النهر، وقد قابل معاوية البيزنطيين في معارك كثيرة، معظمها صغيرة، وبسبب عدم تأثيرها لم تتغير حدود الدولتين كثيراً⁽²⁶¹⁾.

قرر معاوية استكمال فتح بلاد المغرب العربي، والتي توقف فتحها بسبب الفتن والحروب الأهلية الإسلامية، ففي الماضي كانت قد بدأت محاولات فتح بلاد المغرب في عهد الخليفة عمر، وحينها فتح "عمرو بن العاص" بُرقة، ولم يأذن عمر بالتوغل أكثر من ذلك؛ لأنها منطقة تشتت يجب دراستها أولاً، وفي عهد عثمان توغل المسلمون وفتحوا كامل ولاية أفريقية الرومية، وفي الوقت بين مقتل الخليفة عثمان وعلي لم يتحرك جيش المسلمون هناك.

عَيَّن معاوية، "عقبة بن نافع" قائداً لجيش المغرب، وفيها بنى عقبة مدينة القيروان في عام ٦٧٤م تقريباً؛ لتُصبح القيروان مركزاً للمسلمين تنطلق منه القوات، وذلك بعد أن توسَّعت بلادهم، فأرض مصر أصبحت بعيدة، وتعامل رجال معاوية مع بلاد المغرب بحرفية شديدة في السلم والحرب، فقد عقد عقبة و"أبو المهاجر دينار" من بعده، الكثير من اتفاقيات الصلح مع بربر المغرب، وأقاما معهم علاقات طيبة، ونجحا في إدخال الكثير من قبائلهم في

الإسلام، وكانت نتائج تخطيطات المسلمين قد نُفذت بنجاح بعد صراعات وأحداث، حتى فُتِحَ أغلب المغرب الأوسط في زمانه، ووصلت جيوش المسلمين إلى تلمسان⁽²⁶²⁾.

وقد كان لنجاح الجيش الإسلامي في معركة اليرموك وذات الصواري دور مهم في تطلع المسلمين نحو ما هو قادم، وفي تغيير حال بلادٍ وشعوب عديدة منها منطقة البلقان، وفيما يلي سنوضح حالهم في هذا الوقت، وسط الضعف البيزنطي الجليّ.

* * *

١٤- الصراع على مفاتح أوروبا الشرقية (عندما أصبح البلقان سلافياً)

منطقة جنوب شرق أوروبا التاريخية، والمسماة بالبلقان، هي بقعة استراتيجية شاسعة، تمثل اليوم: ألبانيا، كوسوفو، البوسنة والهرسك، صربيا، بلغاريا، سلوفينيا، كرواتيا، تركيا، الجبل الأسود، اليونان، مقدونيا، رومانيا، وغالبية هذه العرقيات سلافية أو متفاعلة ومندمجة مع السلاف الأوائل، فكيف ساد هذا العرق من يومها إلى الآن؟

لقد عادت الهجرات السلافية تزداد في هذا القرن السابع ولكن بغزارة، والآن أصبحوا في شبه سيطرة تامة على البلقان، فبمساعدة الآفار كان لهم وجود واضح، وسيلعبوا دوراً أساسياً في الأحداث السابقة، وسيطرتهم هي نتاج لما تم طول عقود ماضية من توافد وهجرات.

هذا الانتشار الديموغرافي السلافي السريع، كان له دور جديد في إعادة تشكيل التبادل السكاني، واختلاط الأعراق، وتحول اللغة من وإلى السلافية، وحديثنا هذا عن السلاف الوافدين إلى البلقان، وليس السلاف بشكل عام.

كانت قد توقفت هجرات السلاف سابقاً عندما قهرهم جيوش الرومان، ولكن هذا الاستيلاء القائم الآن هو نتاج للفراغ السكاني في البلقان في أعقاب طاعون جستنيان المميت، وكذلك العصر الجليدي الصغير المتأخر ٥٣٦م، أضف على ذلك سلسلة الحروب بين الساسانيين وآفار خاقانات من جهة، ضد الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى، وكما ذكرنا لقد استعوض الآفار مفقودهم بالسلاف، وقاموا باحتوائهم، حتى أصبح العمود الفقري لآفار خاقانات من القبائل السلافية.

كان السلاف الأوائل مجموعة متنوعة من المجتمعات القبلية التي عاشت خلال فترة الهجرة وأوائل العصور الوسطى، في وسط وشرق أوروبا⁽²⁶³⁾.

موطن السلاف الأصلي لا يزال موضع نقاش بسبب الافتقار إلى السجلات التاريخية، ومع ذلك، يعتقد العلماء أنه كان في أوروبا الشرقية، وقد جاء أول ذكر لاسم هؤلاء "السلاف" (باستثناء السلاف الشرقيين الروس) لأول مرة في القرن السادس الميلادي، عندما سكنت القبائل السلافية جزءاً كبيراً من وسط وشرق أوروبا، ومع مرور الوقت، كان السكان الناطقون باللغة السلافية في المنطقة قد استوعبوا المجموعات العرقية البدوية الناطقة بالإيرانية والتي تعيش في السهوب الأوراسية (السكيثيين، السارماتيين، الآن، إلخ)⁽²⁶⁴⁾.

وعلى مدى القرنين التاليين توسع السلاف غرباً إلى نهر إلبه، والجنوب باتجاه جبال الألب والبلقان، وقد ضموا الإليريين وسيطروا عليهم وعلى

أراضيهم التاريخية، والإيريون هم مجموعة من الشعوب الناطقة باللغة الهندوأوروبية الذين سكنوا شبه جزيرة البلقان الغربية في العصور القديمة، وكانوا يشكلون واحدة من ثلاث مجموعات رئيسية في باليو البلقان، جنباً إلى جنب مع التراقيين واليونانيين، وبعد سيطرة السلاف عليهم تحركوا أيضاً شرقاً في اتجاه نهر الفولغا.

كانت قبائل السلاف المهاجرة قبيلتين، وهم قبيلة "أنتاي" وقبيلة "سكلافيني"، وتعود أولى الغارات السلافية المسجلة للسلاف على البلقان إلى أوائل القرن السادس، وتحديداً في عهد الإمبراطور الروماني الشرقي "جاستن الأول" (حكم 518-527م)⁽²⁶⁵⁾، فقد ذُكر أن في عام 518م عبر جيش كبير من قبيلة أنتاي، الذين يسكنون بالقرب من قبيلة "سكلافيني"، نهر الدانوب إلى الأراضي الرومانية، وذكُر أن غاراتهم تم تكثيفها في عهد "جستنيان الأول" (حكم 527-565م)، وقد ألحقت قبائل سكلافيني وأنتاي السلافيين أضراراً جسيمة بالسكان الرومان الأصليين في المنطقة، مما جعلها خالية من الرومان لأوقات كبيرة، والسبب في ذلك أن نهر الدانوب دائماً ما كان يفتقر إلى الحاميات العسكرية الرومانية الكافية، وقد تفاوض وتحالف الرومان مرات عديدة مع سلاف الشرق ضد سلاف البلقان.

وفي مراحل أخرى تعايش الرومان مع سلاف البلقان أنفسهم وتحالفوا معهم، على سبيل المثال التحالف الذي أتمه معهم جستنيان الأول لوقف التدخلات البربرية في إقليم أنتاي في نهر الدانوب السفلي، لم يعلم حينها الرومان أن هذه التحالفات تُقوي من موقف السلاف والآفار في الدانوب، وبالفعل تسبب التحالف معهم في المزيد من التدخلات السلافية من منطقة بودونافلي⁽²⁶⁶⁾، ولكن تبع ذلك أيضاً تسوية دائمة سلمية على الأراضي البيزنطية، والتي بدأت في 550 أو 551م⁽²⁶⁷⁾.

دعم الآفار السلافيين بكل ما أوتوا من قوة، خاصةً بعد وفاة جستنيان الأول، حينما أوقف الإمبراطور الروماني الجديد "جاستن الثاني" (حكم 565-578م) دَفْعَ الإعانات المالية لآفار التي كانت بشكل مُزِين لما نسّميه جزية حفظ السلام، مما أشعل فتيل حرب استمرت قرناً تقريباً. ومع انشغال البيزنطيين بحروب 572-591م و602-628م مع الإمبراطورية الساسانية، قام الآفار والسلاف بتدخلات مدمرة من شمال إيطاليا إلى جنوب اليونان، وبحلول القرن السابع، استقر السلاف في جميع البلقان وموضوع البيلوبونيز، وقد اشتعلت الأمور عندما تجرأ الإمبراطور الروماني موريس وشن حملاته على البلقان (582-602م) كما ذكرنا، كمحاولة لفض الحصار الناجح لسيرميوم⁽²⁶⁸⁾، الذي نفذه السلاف في 580-582م، والذي يعتبر حدثاً حاسماً في تاريخ البلقان؛ فسقوط المدينة في أيدي الآفار، كان قد حرم الإمبراطورية البيزنطية من معقلها الرئيسي في شمال غرب الدانوب، مما فتح الطريق

أمام غارات مدمرة من قبل الآفار وحلفائهم السلافيين في البلقان (269). كانت مدينة سيرميوم، التي سيطر عليها القوط ثم الغبيديون في معظم القرن السادس، قد خضعت للسيطرة البيزنطية في عام 567م بعد الحرب اللومباردية-الجيبيدية (567م)، وقد ظهر الآفار على طول نهر الدانوب في نفس الوقت تقريبًا، واستطاعوا أن يشنوا أول هجوم على سيرميوم في عام 568م، لكن الحاكم المحلي "بونوس" استطاع أن يبرم معاهدة لتأمين السلام للبيزنطيين مع الآفار من خلال دفع جزية سنوية، وفي عام 580م، سار الآفار، بقيادة ملكهم الأول "بيان الأول" مع رجاله، على الضفة اليمنى لنهر سافا على الجانب الآخر من سيرميوم، وبدأ بناء جسر لعبوره.

كانت المدينة الرومانية في ذلك الوقت غير محصنة إلى حد كبير، وغير مستعدة لتحمل الحصار، حيث انخرطت معظم القوات البيزنطية في الشرق ضد بلاد فارس الساسانية، حاول حينها الإمبراطور البيزنطي "تيبيريوس الثاني" إحباط هجوم الآفار بالوسائل الدبلوماسية، وبصعوبة بالغة قاومت المدينة ما يقرب من ثلاث سنوات، ولم يوافق الإمبراطور تيبيريوس على تسليم المدينة مقابل أرواح مواطنيها إلا في أواخر عام 581م، أو أوائل 582م قبل وفاته بوقت قصير، لقد أنقذ الآفار السكان بالفعل، لكنهم أخذوا ممتلكاتهم و 240 ألف سوليدي من الإمبراطور، حيث كانت في نظرهم متأخرات لجزيتهم المستحقة على مدى ثلاث سنوات (270).

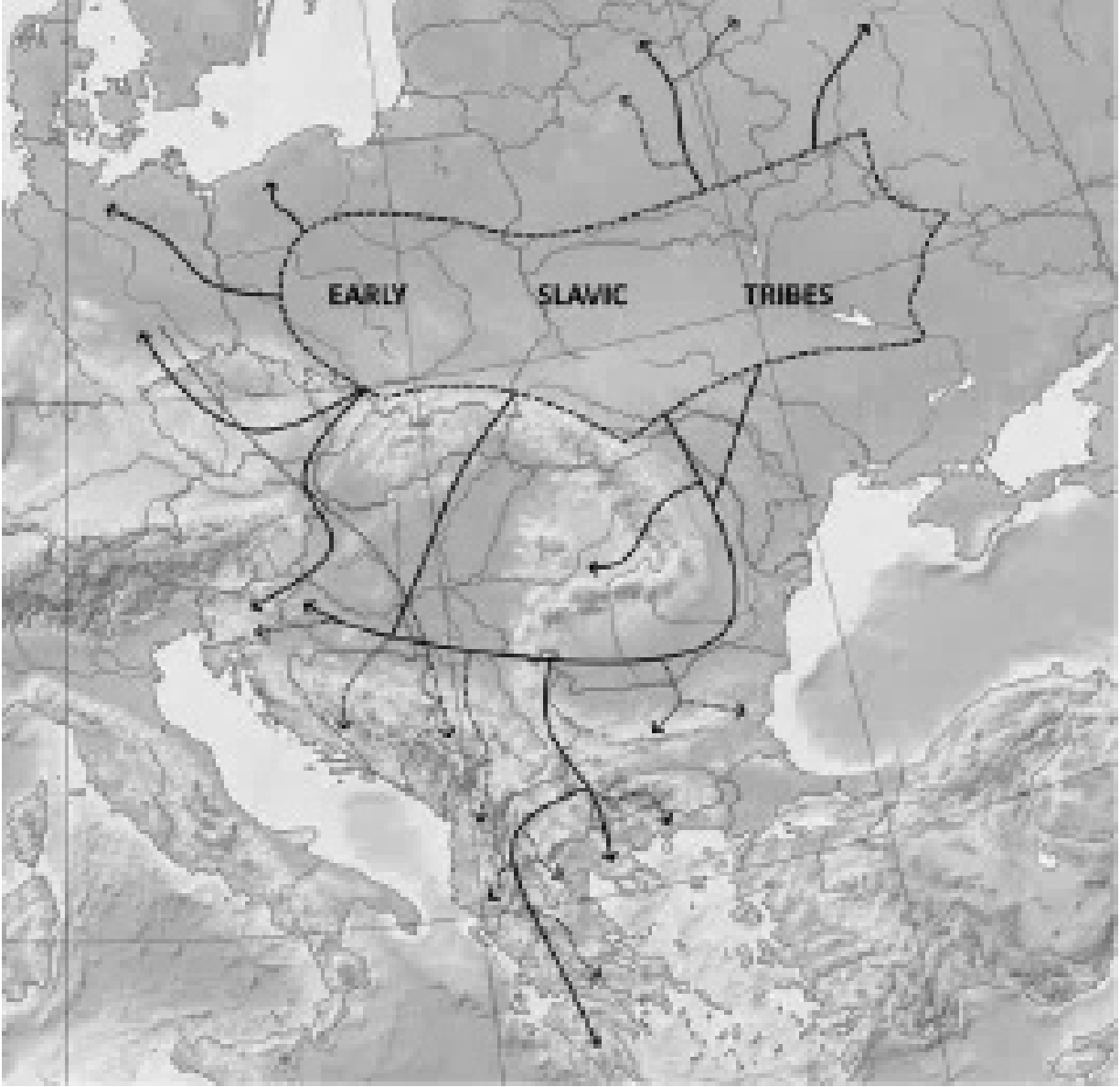
أعقب هذا النجاح سيطرة آفارية على معارك في ميناسيوم وتيسالونيكى، التي شنها الإمبراطور موريس، وبرغم نجاح حملة موريس الجريئة عليهم، تمكنوا من تدمير مدن مختلفة بما في ذلك جستينايا بريما وسالونا، وقد بلغت ذروة قوتهم مع حصار القسطنطينية (626م)، الذي تحالف فيه الآفار والسلاف مع الفرس الساسانيين، بالإضافة إلى تحالف البيزنطيين مع حلفاء سلاف منشقين (271).

مع تدمير التحصينات الرومانية، جاء فقدان السلطة العسكرية والإدارية البيزنطية في المقاطعات الرومانية، وبالتالي تم قتل وتهجير السكان الأصليين في كثير من الأحيان، وأعيد توطين الأراضي المدمرة من قبل مجموعات من السلاف، بعد الاختلاط مع السكان الأصليين الذين نجوا في مجتمعات أصغر، اعتمادًا على المنطقة، كانت القبائل السلافية تعيد تسمية المقاطعات، وفي الغالب كانت الأسماء من أصل أسماء المواقع الجغرافية (272).

وقد تمت تسوية مقاطعة دالماتيا من قبل الكروات البيض (وجودوسكاني) والصرب، والنارتين، والزاكوميان، والترافونيجان، والكنال، وتم تسوية بريفالياتانا من قبل ديوكلينز، وكانت مقاطعات موبسيا ودردانيا مأهولة من قبل ميرهاني وبرانيشيفتشي، وتيموشاني، وبرادينسنتي، وكانت مقاطعات

داسيا رينسيس، وموسيا سيكوندا مأهولة من قبل سبع قبائل سلافية سيفيريانية (وهو اتحاد قبلي من أوائل السلاف الشرقيين)، وفي جزء من أبرشية تراقيا كان يسكن سمولياني وستريمونيتس، وفي كل أبرشية مقدونيا كان هناك العديد من قبائل دروغويتاي، برزيتي، ساجوداتس، رينتشيونوي، بايونيتاي، بيلجيزيت، ميلنجوي وإيزريتاي، وقد تم أيضًا نقل بعض السلاف في تراقيا إلى الأناضول، والتي عُرفت فيما بعد باسم آسيا الصغرى⁽²⁷³⁾.

بعد فشل حصار القسطنطينية الساساني، بقي السلاف في منطقة البلقان الأوسع، بعد أن استقروا في المقاطعات البيزنطية جنوب نهري سافا والدانوب، من البحر الأدرياتيكي باتجاه بحر إيجه حتى البحر الأسود، واستنفدت بيزنطة عدة عوامل واختزلت في الأجزاء الساحلية من البلقان، ولم تكن بيزنطة قادرة على شن حرب على جبهتين واستعادة أراضيها المفقودة؛ لذلك تصالحت مع إنشاء سكلافينياس أو سلافيا الجنوبية، وقررت كسبهم كحلفاء بدلًا من أعداء، واستطاعت أن تجعلهم أعداءً للآفار، وكذلك استخدمتهم في صد بلغار خاقانات، تلك القوة الصاعدة التي يبدو وأن طموحها سيؤثر على شكل المنطقة في السنوات التالية.



الهجرات السلافية إلى البلقان

بعد استيطان السلاف، تحولت البلقان إلى الوثنية ودخلت العصور المظلمة، التي كانت معظم أوروبا فيها حتى ذلك الحين، ولكن مع الوقت سرعان ما بدأ العديد من السلاف في قبول العادات الثقافية للمقاطعات البيزنطية شديدة التمدين والرقي، حاول البيزنطيون الرومان معالجة هذا الاجتياح الشامل بفرض ثقافتهم ودينهم عليهم، ومن أجل توسيع تأثيرهم الثقافي والدولي على السلاف الجنوبيين، بدأ البيزنطيون عملية التنصير⁽²⁷⁴⁾.

لقد تمكن السلاف من السيطرة على البلقان بشكل كامل، في حوالي عام 650م، واستقر السلاف في المقاطعات الرومانية المتأخرة، بانونيا ودالماتيا، ووصلوا إلى قدر كبير من الحكم الذاتي الشبه مستقل، وأسسوا سكلافينياس متأثرين بكل من فرنسا والإمبراطورية البيزنطية.

لا شك في أن اجتياح الصرب للبلقان هو أمر مزعج لبيزنطة، خاصةً وأن الرومان يواجهون صعوبات بالغة في كل مكان، فها هي الدولة الإسلامية المنتصرة في اليرموك وذات الصواري قد عادت من أجل دخول القسطنطينية.

* * *

١٥- الخطر على أعتاب الدار (حصار المسلمين الأول للقسطنطينية)

لا شك في أن قوة أوروبا النافذة كانت تتمنى أن تلاقى جيش المسلمين في ظروفٍ أفضل من ذلك، فكم يتمنى الأوروبيون، عودة أمجاد القياصرة الرومان، أو قوة العسكرية الإغريقية.

ولكن برغم هذا، فالإمبراطورية البيزنطية المتمثلة في القسطنطينية، صاحبة القوة الساحقة والنفوذ العريق، والتي تعتبر أكبر قوة اقتصادية وثقافية وعسكرية في أوروبا والعالم في زمانها، لا زالت تتألم من تطاول جيش المسلمين الوليد.

فبعد حرب اليرموك الكارثية، أُجبرت الإمبراطورية البيزنطية على سحب الجزء الأكبر من قواتها المتبقية من المشرق إلى آسيا الصغرى، وقد ترتب على ذلك توغل المسلمين هناك بشكل كبير.

أما معركة ذات الصواري فلا تقل كارثية عن سابقتها اليرموك، فهي بلا شك من أهم النقاط الفاصلة في الحروب العربية والأوروبية، وكان لانتصار المسلمين فيها أثر واضح على طموحهم التوسعي، خاصةً وأن أسطول المسلمين البحري الوليد تمكن من قسّم قوانين القوة المتبعة، فقد أنهى سلطة رجال البحر على البحر، فقبل هذه المعركة البحرية التي هي الأولى من نوعها بين الطرفين، والأولى للأسطول البحري الإسلامي، كان البيزنطيون يضربون أميالاً داخل البحر كملاك له بلا منافس، وكانت كل مجاري مياه المتوسط خاضعة لبيزنطة، في كل هذه الأماكن كان المشهد المعتاد قبل هذا الوقت هو وجود الصواري والأعلام البيزنطية ترفرف على مد البصر داخل المياه؛ لتشهد على ذاك الأسطول المهيب، وكان لهذا الأسطول قواعد بحرية متطورة، تحتوي على مصانع متميزة ليست في القسطنطينية وحسب، بل كان لهم مصانع بحرية في الإسكندرية وعكا وقرطاج وصقلية ورافنا بإيطاليا، لكن ما الفائدة من كل ذلك الآن، فقد دُمّر منه جزء، وقد استولى المسلمون على جزء، ولم يتبقَّ منه إلا القليل.

كان نتيجة هذه الخسارات المتتالية، زحف الخطر من بعيدٍ لقريب؛ فمعركة اليرموك كانت سبباً في توغل الخصم الإسلامي بَرّاً، أما معركة ذات الصواري فقد أعلنت عن هيئته البحرية، وبعد مرور ما لا يزيد عن خمس عشرة سنة من تاريخ انتصار المسلمين في ذات الصواري، قرر معاوية استكمال المناوشات مع جيوش البيزنطيين، ولكن هذه المرة لم يزحف الجيش من أجل مبارزة أو اشتباك، فهم لم يأتوا من أجل الانتصار على الجيش البيزنطي في إحدى المعارك، بل جاءوا من أجل فعل حدثٍ أخطر من ذلك، لقد قادت جرأة الجيش الإسلامي لدخول العاصمة قسطنطينية نفسها.

حصار القسطنطينية الأول

أرسل معاوية سنة ٤٩هـ (275) (وهناك رأي آخر يقول أنها سنة ٥٠هـ)، أي ٦٦٩ أو ٦٧٠م، حَمَلته الأولى لفتح القسطنطينية، بعد أن دفعه طموحه للزحف ناحية أوروبا، وانطلق الجيش الإسلامي بَرًّا، على رأسه القائد "سفيان بن عوف الأزدي" (276)، فاخترق آسيا الصغرى ودشن حصونًا كثيرة في الأناضول، حتى وصل إلى سواحل بحر مرمرة من بين جبال الأناضول، وذهب للرومان البيزنطيين في عقر دارهم، لتنفيذ أول حصار إسلامي للقسطنطينية، ثم بعث معاوية بعد ذلك ابنه "يزيد" على رأس مدد لجيش سفيان، وجعله أميرًا شرفيًا على الحملة.

وصل جيش المسلمين إلى أعتاب القسطنطينية، وضرب حصارًا عليها، استخدم المسلمون شبه جزيرة سيزيكس بالقرب من المدينة كقاعدة لقضاء الشتاء، ومع بدايات الربيع يعودون لشن هجمات ضد تحصينات المدينة، ولكن تمكن البيزنطيون تحت حكم الإمبراطور "قسطنطين الرابع"، من تدمير البحرية الإسلامية وسحقها باستخدام ذاك السلاح الفتاك، إنه المادة الحارقة السائلة المعروفة باسم النار الإغريقية (277).



لوحة عن النيران الاغريقية، محفوظة في مكتبة إسبانيا الوطنية، مدريد

وهي سلاح حارق استخدمته الإمبراطورية الرومانية الشرقية بدايةً من هذه المواجهة تقريبًا، وكان اختراعًا تفاجأ به جيش المسلمين، حيث كان قادرًا على إشعال النيران في السفن والمتاع من نقطة بعيدة، فهو كان مُركَّبًا كيميائيًا قابلاً للاشتعال ينبعث من سلاح رمي اللهب، يعتقد بعض المؤرخين أنه يمكن اشتعاله عند ملامسته للماء، صنع البيزنطيون هذا السلاح خصيصًا للمعارك البحرية، وكان خليط هذا المركب من الأسرار العسكرية التي لم

يعرفها أحد، ومخزن تصنيع هذه المواد مزود بحراسة مشددة، وكانت هذه النيران تُقذف على شكل قذائف تشتعل قبل قدومها، وأيضًا استخدموا فوهات مضغوطة لإلقاء السائل على العدو، بطريقة تشبه قاذفة اللهب الحديثة، كانت هذه النيران على شكل قذائف، أو أجهزة عرض محمولة باليد، أو قنابل، وقد كان لهذا السلاح الفضل الأول في صد هذا الحصار القائم الآن⁽²⁷⁸⁾.

بالإضافة إلى النيران الإغريقية، وكذلك تحصين القسطنطينية المنيع، كان من ضمن الأسلحة الأخرى الشتاء القارس، وصعوبة الإمدادات البشرية والتموينية، والسبب هو بُعد المسافة وضعف وسائل النقل في ذلك الوقت⁽²⁷⁹⁾، وأدت كل هذه الأسباب إلى نقص المؤن، وتفشي الأمراض بين الجنود المسلمين، فانتهدت محاولة الحصار بعد فشل المسلمين في اختراق أسوارها، وهزيمتهم في الاشتباك الذي وقع على أبوابها، وردعهم بالنيران اليونانية، ومع تراجع جيش المسلمين تمكن البيزنطيون من هزيمة الجيش البري المرابط في آسيا الصغرى، وأدى هذا إلى إعلان الأمويين رفع الحصار كاملاً.

قالت بعض الآراء الغربية، ومنهم المؤرخ الأرميني "سييوس"⁽²⁸⁰⁾، إن ما سهّل انتصار البيزنطيين، هو وجود عاصفة شديدة أغرقت السفن التي كانت على متنها معدات حربية، وهو حدث نسبه البيزنطيون إلى التدخل الإلهي، أما القوة البرية بقيادة معاوية في خليدونية، بعد أن فقدت مدفعتها وآليات الحصار، عادت إلى سوريا بعد ذلك⁽²⁸¹⁾.

كان للنصر البيزنطي أهمية كبرى لبقاء الدولة البيزنطية، حيث انحسر التهديد الإسلامي لأوروبا لبعض الوقت، بعد أن تم التوقيع على معاهدة سلام بعد فترة وجيزة، ستقام لمدة ثلاثين عامًا بين الإمبراطورية والخلافة الأموية⁽²⁸²⁾، وبالرغم من هذا النصر المادي والمعنوي، كان الوضع في القسطنطينية يزداد سوءًا، بسبب فقدان المدينة شحنات الحبوب المجانية منذ أعوام مضت، وتحديدًا من عام ٦١٨م، بعد أن سقطت مصر التي كانت تمولهم، في أيدي الفرس ثم المسلمين، ومن يومها توقف التوزيع العام للقمح، حتى جاء هذا الوقت الذي فرغت فيه مخازن الحبوب، وبرغم الوضع الاقتصادي لا شك في أن انتصار البيزنطيين على المسلمين ورفع الحصار، هو نورٌ وسط الظلمات، خاصةً أن في المغرب وليبيا ومصر انتهى نفوذ بيزنطة على كل الساحل الأفريقي، بل تربص الأمويون هناك، وبدؤوا أنهم يدبرون أو يطمحون في شيء ما.

وفي البلقان انتصر السلاف واستولوا عليه، وفي روما الوضع غير مطمئن، وفي بريطانيا كذلك، وما زاد الطين بلة ظهور الوحش البلغاري في هذا التوقيت، بعد أن تعملق وأعلن عن إنفاذ إمبراطوريته الأولى، لقد قرر هذا

الوحش أن يكون هو مالك أوروبا الجديد، وقد استغل الوضع بعد أن استُهلك البيزنطيون في حروب مريبة مع الإمبراطورية الفارسية الساسانية في الشرق، وما تبعها من حروب مع العرب، فالبيزنطيون كان لديهم القليل من الموارد لمواجهة السلاف⁽²⁸³⁾، من أجل ذلك، خاض البلغار صراعًا جديدًا مع السلاف الآخرين في البلقان، وتمكنوا من إسقاط السكلافيين، وضمهم تحت قيادة موحدة، وأعلنوا عن أنها قيام لحكم الإمبراطورية البلغارية الأولى. من ناحية أخرى خسر السلاف في أبرشية مقدونيا (جنوب البلقان وبلوبونيز) بسبب عدم قدرتهم على التنظيم السياسي، وبسبب ذلك استعادت الإمبراطورية البيزنطية السيطرة هناك، وكان هذا مؤشرًا واضحًا لما سيحدث بعد حوالي ٢٠٠ عام، سيصبح السلاف مندمجين من قبل الأغلبية الناطقة باليونانية، وعلى أراضي ألبانيا اليوم من قبل الأغلبية الناطقة بالألبانية⁽²⁸⁴⁾.

كان الصدام واقعًا بالفعل بين البيزنطيين والبلغار منذ الوهلة الأولى، منذ بداية القرن الخامس، عندما استقر البلغار لأول مرة في شبه جزيرة البلقان، واشتد الصراع مع توسع الإمبراطورية البلغارية إلى الجنوب الغربي. الآن أوروبا على موعد مع قوة وليدة جديدة، والتي ما لبثت أن أعلنت عن نفسها، حتى دخلت مع الإمبراطورية البيزنطية في سلسلة من الحروب، كصراع على قيادة المنطقة، هذه الحروب التي استمرت لما يقرب من ٧ قرون!

* * *

١٦- مزاحمة من أجل القيادة (الإمبراطورية البلغارية الأولى)

يبدو أن موازين القوى في الداخل البلقاني تتغير في إيقاع سريع، بالأمس البعيد كان الآفار، ثم حل محلهم في الأمس القريب السلاف، وفجأة يأتي اليوم بظهور قوة جديدة يبدو أنها ستكون أقوى؛ إنهم البلغار، الذين خرجوا عن الطاعة البيزنطية من أول يوم، بل ومثلوا لها خطرًا واضحًا.

تأسست بلغاريا على يد الخان "أسباروخ"، في عام ٦٨١م، بعد أن أقنع القبائل التسع المهاجرين والمنوعين السابق ذكرهم بالاتحاد⁽²⁸⁵⁾، وقد اشتبك البيزنطيون والبلغار لأول مرة عندما تحرك أسباروخ غربًا، من أجل احتلال جنوب بيسارابيا⁽²⁸⁶⁾، حينها قرر الإمبراطور "قسطنطين الرابع" صد هذه القوة الجديدة، ولكن باغته أسباروخ وشن عملية برية وبحرية مشتركة، غرضها محاصرة معسكر البيزنطيين المحصن في أونغالا، لم يصمد جيش البيزنطيين بسبب سوء أحوال الإمبراطور الصحية، وبعد الهزيمة، وتحديدًا في عام ٦٨١م، أجبر قسطنطين على الاعتراف بالدولة البلغارية في موبسيا⁽²⁸⁷⁾، ودفع أموال الحماية لتجنب المزيد من الغارات في تراقيا البيزنطية⁽²⁸⁸⁾. حصل البلغار على اعتراف البيزنطيين بحقهم في الاستقرار جنوب نهر الدانوب، ربما بمساعدة القبائل السلافية الجنوبية، وبعد ثماني سنوات، قاد أسباروخ حملة ناجحة ضد تراقيا البيزنطية.

أما الخان البلغاري الثاني الذي اشتهر بمحاربه للبيزنطيين، فكان الخان "تيرفل"، وأسباروخ وتيرفيل كانا بمثابة بداية لسلسلة حروب بلغارية بيزنطية، استمرت طيلة ما يقارب من سبعة قرون.

جاء ذكر تيرفل لأول مرة في النصوص البيزنطية عام ٧٠٤م، عندما تواصل معه الإمبراطور المخلوع "جستنيان الثاني" (حكم فترتان ٦٨٥-٦٩٥م، و٧٠٥-٧١١م)، وطلب مساعدته، وبعد عرض الهدايا وابنته للزواج وافق تيرفل، وقدم تيرفل لجستنيان جيشًا مكونًا من ١٥ ألف فارس، وبالفعل قد مكن هذا الجيش جستنيان الثاني من استعادة حكمه ودخوله للمدينة في عام ٧٠٥م، بل واستطاع هذا الإمبراطور المستعاد أن يعدم من حلوا محله "ليونتيوس" و"تيريوس الثالث"، إلى جانب العديد من أنصارهم، حينها شعر جستنيان بالامتنان الشديد تجاه تيرفل، وأرسل له الهدايا وأهداه لقب "قيصر"، مما جعله في المرتبة الثانية بعد الإمبراطور، وأول حاكم أجنبي في التاريخ البيزنطي يحصل على مثل هذا اللقب.

كان جستنيان الثاني دائمًا ما ينقض العهود، وبعد ثلاث سنوات من مساعدته انقلب على تيرفل، واعتبر جستنيان الثاني نفسه قويًا بما يكفي لغزو بلغاريا

واستعادة سيطرته على هذه الأراضي (289).

بأمر من جستنيان الثاني وصل البيزنطيون إلى قلعة أنكيالوس في عام ٧٠٨م بالقرب من مدينة بوموري الحالية، بلغاريا، وأقاموا معسكرهم هناك، غير مدركين لحقيقة وجود الجيش البلغاري في الجوار، وبينما كان البيزنطيون يجمعون الطعام، من خلال كمين محكم، هاجم ترفيل وفرسانه القوات البيزنطية الخارجية، وهاجمت المشاة المعسكر في نفس الوقت، وقد تسبب عنصر المفاجأة في إرباك البيزنطيين، ولقي معظمهم حتفهم في المعركة أو تم أسرهم، بالإضافة إلى العديد من الخيول والأسلحة، وكان الإمبراطور من بين القلائل الذين تمكنوا من الوصول إلى القلعة والهروب إلى القسطنطينية على متن سفينة (290).

مرت الأيام، وبعد ثلاثة أعوام آخرين، وتحديداً في عام ٧١١م، ظهرت ثورة خطيرة ضد جستنيان الثاني في آسيا الصغرى، في هذه الأثناء طلب جستنيان مساعدة تيرفل مرةً أخرى بعد خيائته الأولى له، وعلى غير المتوقع وافق تيرفل لاحقاً على إرسال جيش قوامه ٣٠٠٠ جندي فقط، لكنهم لم يفيدوه، فقد هزم الإمبراطور "فيليبكس" (فيليبس) الإمبراطور جستنيان، وتم القبض على جستنيان وإعدامه، بينما سُمح لحلفائه البلغار بالانسحاب إلى بلادهم، بعدها استغل تيرفل الفوضى في بيزنطة لمداومة تراقيا عام ٧١٢م ونهبها حتى محيط القسطنطينية (291).

انتشرت بلغاريا في ذروة قوتها من نهر الدانوب إلى البحر الأسود ومن نهر دنيبر إلى البحر الأدرياتيكي، وأصبحت قوة مهمة في المنطقة تنافس الإمبراطورية البيزنطية بعد هذه المواجهة بقرن، وستصبح أهم مركز ثقافي وروحي لأوروبا السلافية الجنوبية عبر معظم العصور الوسطى.

تفكك آفار خاقانات، ووسعت البلاد أراضيها شمال غرب بانونيا، وفي وقت لاحق واجه البلغار تقدم البتشنيق والكومان، البتشنيق الذين غادروا وطنهم بين نهري الأورال وال فولغا، وتوسعوا من أجل كسب الأراضي الجديدة التي وصلت إلى مدى كبير، وكان يحدها الكومان والخزار والأغوز الأتراك والسلاف (292)، وأما الكومان فكانوا شعباً تركياً أيضاً، من البدو الرحل الترك الذين يمثلون الفرع الغربي للاتحاد الكوماني البتشناقي.

اختلط البلغار الحاكمون والقبائل الأخرى غير السلافية في الإمبراطورية تدريجياً، واعتمدوا اللغة السلافية السائدة، وبالتالي شكلوا الأمة البلغارية تدريجياً من القرن السابع إلى القرن العاشر.

رغم كل الصعوبات لم تتنازل الإمبراطورية البيزنطية عن موقفها في البلقان، ولن تخرج قدمها الأخرى مهما حدث، وكان البيزنطيون كعادتهم يتأقلمون مع أي قوة صاعدة وليدة في هذه المنطقة، وبسبب تعزيز البلغار أقدامهم في البلقان كانوا هم أصحاب الموقف الأقوى، فبلغاريا الوليدة

ظهرت ذات ثقل من أول وهلة، وبرزت كخصم رئيسي لبيزنطة في شمالها، مما أدى إلى عدة حروب، وبسبب وضعهم الجديد دخلوا في تفاعل دام قرونًا، أحيانًا ودودًا وأحيانًا معاديًا، مع الإمبراطورية البيزنطية، وبجانب الحروب ظهرت فترات تمتعت القوات فيها بفترات من السلام والتحالف.

وكما ذكرنا أن الكروات البيض هاجروا إلى مقاطعة دالماتيا الرومانية السابقة، اشتبكوا مع السلاف مرات، حتى تمكنوا من طردهم منها، وأسسوا في هذا الوقت دولة مهمة.

دوقية كرواتيا

بعد أن استقل الكروات البيض بمقاطعة دالماتيا الرومانية السابقة، بعد أن هاجروا إليها مع بداية القرن السابع الميلادي، شرعوا في بناء دولتهم المستقلة، والتي كانت تتألف من الساحل (الجزء الساحلي من كرواتيا اليوم - باستثناء إستريا)، وتضم أيضًا جزءًا كبيرًا من المناطق الجبلية النائية.

وكما اتضح من قبل، كانت معظم دالماتيا في القرن السابع تحت حكم آفار خاقانات⁽²⁹³⁾، ولكن عندما هاجر إليها الكروات، تمكنوا من طردهم منها، واستقروا لفترة بعد أن سمح لهم الإمبراطور البيزنطي هرقل بالاستقرار هناك، واستُكملت هجرات الكروات عبر سافا من بانونيا سافيا واستقلوا بدالماتيا بمفردهم⁽²⁹⁴⁾، استعاد تحالف آفار المنقح بانونيا في 6٧٧م، ولكن فقط حتى نهر سافا والدانوب.

وبسبب صغر الدوقية، كانت مطمئنًا دائمًا للبيزنطيين من جهة، والكارولنجيين الحاكمين لإمبراطورية الفرنجة من جهة، وكان هناك صراع للفوز بها، والسبب هو موقعها الاستراتيجي، الذي من خلاله يتم الانطلاق في المناطق المجاورة، وخاضت كرواتيا أيضًا معارك مع الإمبراطورية البلغارية، حتى تحسنت العلاقات البلغارية الكرواتية بشكل كبير بعد ذلك، وكذلك مع العرب، كما سعت إلى بسط سيطرتها على المدن الساحلية المهمة تحت حكم بيزنطة.

وفي ذلك الوقت ظهر للبلغار جيران جدد، وهم المجرّيون.

المجرّيون

مع بدايات القرن الثامن انتقل بعض المجرّيين إلى محيط نهر الدون، ما بين أنهار الفولغا والدون وسيفيرسكي دونيتس⁽²⁹⁵⁾، وقد عاشوا هناك خاضعين لخاقانات الخزر آنذاك، وكانوا جيرانًا للبلغار والآلان، وفي بداية الأمر فرض البلغار قوتهم على المجرّيين، مما رسخ حدودهم حتى بابونيا.

هكذا كانت الأوضاع في أوروبا الشرقية والوسطى والبلقان أثناء قيام مملكة البلغار الأولى، وقبل أن نواصل الأحداث في روما والإمبراطورية الغربية الجريحة، هناك حدث أهم يجب ذكره، فقد استفاق المسلمون من حروبهم الداخلية، وتمكنت القوات البحرية الإسلامية من السيطرة على

المزيد من الأراضي الأوروبية، بما في ذلك قبرص ومالطا وسيتمانيا وكريت كوس ورودس في بحر إيجه وصقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا⁽²⁹⁶⁾. وبعد الفشل في اجتياح القسطنطينية، ورغم الخسائر الكبيرة، لم تتأثر معنويات الدولة الأموية، وتوغلت جيوشها في شمال أفريقيا في عهد خلفاء معاوية، وصولاً إلى عهد "الوليد بن عبد الملك" الذي تسلم الحكم في عام ٧٠٥م، حينها كان المسلمون قد وصلوا إلى المغرب الأقصى بشكل تام، وبأوامر منه تم استبدال القائد "حسان بن النعمان" والي أفريقيا وفاتها، بالقائد الجديد "موسى بن نصير" الذي توجه من مصر إلى القيروان⁽²⁹⁷⁾⁽²⁹⁸⁾، والذي كان له دور مهم في استكمال الحصار الإسلامي لأوروبا.

* * *

١٧- المسلمون يترصدون (إيبيريا محل نظر)

بعد أن فرض الأمويون سيطرتهم بوضوح على شاطئَي المتوسط الجنوبي والشرقي، وصلوا إلى أقصى بلاد المغرب، وازدهرت الدولة وتلعلعت، غالبًا ما يلقب المؤرخون هذه الفترة بـ"العصر الأموي الثاني"، خاصةً أن التوترات والفتن والصراعات قد اختفوا في ذاك الزمان، وهذا الاستقرار أدى إلى التفكير في التوسع واستئناف نشاط الفتوحات ونشر الإسلام، وبعد مجموعة صراعات مع البربر ناحية المغرب العربي استقر الوضع، واعتنق غالبية البربر الإسلام، وصبغوا بتقاليد الدين الإسلامي، وهمّ غالبيتهم راغبين في الغزو والجهاد، حينها استشعر والي أفريقيا القائد "موسى بن نصير" هذه النزعة الحماسية فاستغلها، وبات يخطط في تكوين جيش جديد عتاده حماس البرابرة المتوغلين في الإسلام⁽²⁹⁹⁾.

لاستكمال الفتوحات، كان أمام موسى وقتها أكثر من رؤية؛ الرؤية الأولى: الغوص في الصحاري انطلاقًا من جنوب المغرب، والتوغل في السنغال والنيجر وغانا بحدودنا المعاصرة؛ الرؤية الثانية: عبور مضيق أعمدة هرقل⁽³⁰⁰⁾ نحو إيبيريا، والدخول لأوروبا.

بعد تفكير وعوامل أخرى مساعدة، رجح موسى الفكرة الثانية، والسبب أن المناطق الأفريقية تشبه بلاد العرب الصحراوية؛ طرقها وعرة، ومواردها محدودة، وقد علم المسلمون قيمة الاقتصاد لبناء الدولة، خاصة بعد فتح العراق والشام ومصر والمغرب، تلك البلاد التي أدت ازدهارًا على اقتصاد الدولة، بسبب ذلك فَضَّلَ موسى والمسلمون الاتجاه نحو جزيرة إيبيريا، خاصةً بعد معرفة أوضاعها ومسالكها⁽³⁰¹⁾، والأهم، أن طوال القرون الماضية زودت هسبانيا الإمبراطورية الرومانية بالفضة والطعام وزيت الزيتون والمعادن والأسماك وكنوز البحر، إضافة إلى ذلك معرفة الدور التاريخي لهذه المنطقة التي انحدر منها عدد من الشخصيات البارزة خلال العهد الروماني، حيث إن الأباطرة تراجان، هادريان، ماركوس أوريليوس، وثيودوسيوس الأول، الفيلسوف سينيكا الأصغر، والشعراء مارتياليس ولوكان، جميعهم وُلدوا لعائلات عاشت في شبه الجزيرة الإيبيرية.

حلم المسلمون بعبور بحر الزقاق⁽³⁰²⁾، وقضى الوالي ابن نصير ليالي يفكر في الشاطئ المقابل، مما استدعاه ذلك لمتابعة أخباره، وبسبب قرب المكان كانت فِرَقَ موسى الاستطلاعية مهمتها سهلة، وما زاد الأمر حماسة أن معه قائدًا متميزًا، أثبت همته وولاءه، خاصةً في تنفيذ فتح ما تبقى من مُدن في المغرب الأقصى، إنه القائد "طارق بن زياد".

لطارق دور كبير في تعبئة شعور مواطنيه من البربر المسلمين للقيام بالعمل الجهادي المُقبل، ولفت أنظارهم نحو هسبانيا، وكذلك دوره الكبير في متابعة الفرق الاستطلاعية وتوصيل الأخبار إلى القيادة في القيروان، عاصمة المسلمين الأولى في بلاد المغرب بعد الفتح⁽³⁰³⁾.

كانت هذه هي أبرز العوامل المساعدة التي رجع بها موسى فكرة الدخول لإيبيريا، أو ما سماه المسلمون بـ"الأندلس"، لكن كان هناك عوامل أخرى ليست هي الأبرز لكنها كانت أكثر عمقاً وجوهراً والأكثر عمقاً وجوهراً، وهي التي استدعته بقوة لأخذ هذا القرار، إضافة لكل ما دُكر، هناك سبب دراماتيكي آخر مهم ساعد الأمويين في الاستقرار على دخول شبه جزيرة إيبيريا، ولمعرفته يجب علينا السفر شمالاً، داخل إيبيريا، لنشاهد وضع المملكة القوطية الغربية من الداخل.

ثمة عوامل مساعدة تخرج من الإدارة نفسها لإغراق نفسها، فكما ذكرنا أنه مهما ظهرت عوامل خارجية، دائماً ما يكون العامل الداخلي هو الأكبر، وهو الماضي بسرعة البرق نحو الاضمحلال، فإذا كانت طعنة الخارج تقتل، فطعنة الداخل تُبِيد.

في هذه الأثناء كانت شبه جزيرة إيبيريا خاضعة لحكم مملكة القوط الغربيين البربريين، والتي قامت عليها منذ عام ٤١٨م كما ذكرنا، وتصادف زمن عز الأمويين على أرض العرب، زمن توتر وانحلال وضعف لمملكة القوط الغربيين، مع صراع على كيفية تعيين الملك، فكان القانون ينص على أن الملك الجديد يتم انتخابه من خلال النبلاء ورجال الدين، لكن مع مرور الوقت كان الملوك لا يرضخون لهذا القانون، ويريدون أن يكون الحكم وراثياً، أدى ذلك إلى كثرة الصراعات، حتى امتلأ السجل الأخير من تاريخ هذه المملكة بالمؤامرات والاعتقالات، بدايةً من عهد الملك "إخيكاً"، مما أدى إلى ضعف المملكة، وجعلها فريسة سهلة للجيوش الوافدة⁽³⁰⁴⁾.

كان الملك إخيكاً هو أول الذين تجاهلوا قانون الانتخاب، فأعلن أن ابنه "جيطشة" هو ولي العهد، وأشركه معه في أمور الحكم رغم أنف الجميع، كانت المعارضة التي تتبنى ترشح الدوق "تيودوفريدو" على أشدها، وعندما اعتلى صوته، أمر إخيكاً بالقبض عليه، ومن ثم سمل عينيه، وهدده بالموت، وعلى إثر ذلك، انسحب الدوق تيودوفريدو وابنه "رودريك" (الذي هو عند العرب لُذريق)⁽³⁰⁵⁾ من المشهد السياسي بعد أن أصابه العمى.

ومع حلول عام ٧٠٢م تُوفي الملك إخيكاً، وبالتالي قفز على الحكم من بعده ابنه جيطشة المُجهز مسبقاً، بدون أن يبالي قانون المملكة أو مبدأ الانتخاب، ولكن على غير المتوقع كان جيطشة حاكماً جيداً، قام بعمل الإصلاحات، ورمم ما خربه والده، وتقرب من المعارضة، وتصالح مع تيودوفريدو الأعمى، بل وعينه حاكماً على مقاطعة بيتيكا.

وبرغم إرضائه للمعارضين ظل ما في القلوب كما هو، الحقد والغل الذي زرعه والده في قلوبهم قد نما وكبر، وأصبحوا للابن مترصدين، وعندما أحس بترصدهم أصابه القلق، فحاول أن يقلل امتيازاتهم ويقلص صلاحياتهم، وكذلك بدأ يخفف الضغط الاقتصادي عن اليهود، مما دفعهم إلى إعلان الثورة على حُكمه، وحشدت المعارضة الناس ضده، حينها لم يجد جيطشة حلا غير ردعهم بالسلاح.

ومع صراعه معهم خاتته صحته، وأصبح غير قادر على متابعة أحوال المملكة⁽³⁰⁶⁾، فتدخلت زوجته في سياسة الدولة، وطلبت منه تعيين ابنه الصبي "أخيلا" خلفًا له كتكرار لما فعله أبوه معه، فلبى طلبها، وعين الصبي حاكمًا على مقاطعات ناربونة وطركونة في الشمال وما يتبعهما⁽³⁰⁷⁾، وبسبب أنه صبي صغير، عين عمه "خشنديس" وافيًا عليه.

وعندما توفي جيطشة بعد أن تملك منه المرض في عام ٧١٠م، عمت الفوضى أرجاء المملكة، ورفض ابنه أخيلا استلام الحكم خوفًا من بطش الناس، لكن أمه لم تخف، وقررت إدارة شئون البلاد بالاشتراك مع المطران "أوباس" أخو زوجها المتوفى جيطشة، فامتنع النبلاء عن موالاتهم، واستقل بعضهم ببعض المقاطعات وأعلنوا العصيان، وعمت الفوضى كل الأركان، وفرت الأسرة الحاكمة وتركت الحكم، فاجتمع النبلاء ورجال الدين والكثير من المنتفعين، وانتخبوا رودريك (ابن الدوق تيودوفريديو الأعمى) كملك على عرش المملكة⁽³⁰⁸⁾.

والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكًا على رأس جيش كبير، فيه جلة قواد القوط ونبلائهم، وهزم خشنديس في واقعة حاسمة، قُتل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه، أما أبناء جيطشة، فلم يجدوا مفرًا من مغادرة البلاد، ففروا إلى أفريقيا، وصادر رودريك أملاكهم معتبرًا إياهم تائرين، تنفيذًا للقانون القوطي الذي يقضي بمصادرة أملاك كل تائر على العرش⁽³⁰⁹⁾. رودريك أو لذريق، هو الملك الأخير لحكم القوط الغربيين، فقد قُدِّر له أن تكون نهايته ونهاية عرشه على يد الجيوش الوافدة، لكن قبل هذا حدثت الكثير من الصراعات التي خدمت تخطيطات جيش الأمويين، فلم ينعم رودريك بالحكم من أول ليلة رغم انتصاره العظيم على المعارضة. لِنَرِ ماذا سيحدث...

* * *

١٨- عرش القوطيين يترنح (لهيبُ كامن)

استلم رودريك الحكم، ومن أول يوم في حكمه كان يصارع الصعاب، وأول المشكلات التي واجهته هي مشكلة خلو خزنة المال، وما زاد الأمر تعقيدًا نشوب ثورة عارمة ضد حكمه، وعندما حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الموجودة في كنيسة القديس بدروس والقديس بولس في العاصمة طليطلة⁽³¹⁰⁾، واجه مُعارضة من جانب رجال الدين، فاضطر لحصد الأموال من الشعب على شكل ضرائب جبرية قاسية، بل وعاقب رجال الكنيسة بمصادرة ممتلكات الكنيسة بعد ذلك⁽³¹¹⁾⁽³¹²⁾.

وقتها كان وضع البلاد الاقتصادي قد وصل لمرحلة كبيرة من التردّي، فالحاكم الجديد لم يفرض الضرائب كأسلافه فقط، بل كان أشد قسوة؛ الإتاوات مفروضة في كل مكان، وبرغم وجود الكثير من الموارد ازداد عدد الفقراء، وفُرضت الضرائب الجبرية المضاعفة على المزارعين⁽³¹³⁾، ولم ينشر الحاكم الجديد المساواة بين أبناء مجتمعه، فالتمييز الطبقي قد زاد، وما زال النبلاء يستغلون جهود التجار والمزارعين البسطاء لصالحهم، بل إن الأمر قد زاد⁽³¹⁴⁾.

استشاط الغضب الشعبي ضده، وحيكت المؤامرات عليه، وخرج الشمال بعضيان شامل، وكذلك هرب العبيد والمرتزقة من العسكرية، حيث من المعروف أن قوام جيش القوطيين كان مزيجًا من العبيد والمرتزقة المعينين بالمال، بسبب نشوز الجيش عن أحوال العسكرية، والانشغال باللهو والترف، ونسيان أمجاد أجدادهم الغزاة المحاربين المرعبين الذين كسروا الرومان⁽³¹⁵⁾، وكانت فترة حكمه القصيرة عبارة عن تنقلات من جبهة لجبهة من أجل إخماد المؤامرات.

لقد عاد أخيلًا مرةً أخرى ومعه بعض المنتفعين، وطلب الكرسي، واتهم رودريك باغتصاب الحكم، وجهاز أخيلًا جيشًا انقساميًا ليحاربه به، ودفعه نحو الجنوب إلى طليطلة لخلعه واستعادة العرش... انتصر رودريك وثبت حكمه، وما لبث أن خرج من الحرب حتى اصطدم بفوضى عارمة⁽³¹⁶⁾، وتفاجأ بانقسام جديد؛ فقد تكتل حزبان من المعارضة وكونا جيشًا لردعه، وزادا الأمر تعقيدًا⁽³¹⁷⁾.

الجدير بالذكر أن بعض المصادر الإسلامية قد ذكرت أن السبب الجوهرى لدخول إيبيريا هو أن الإسبان كانوا يُشكّلون خطرًا مهددًا للدولة الإسلامية، ولكن يبدو أن هذا غير صحيحًا؛ لأن أحوالهم في هذا الزمان كانت في قمة

الضعف، وفي الحقيقة التعامل مع تاريخ الأندلس أمر يتطلب حساسية زائدة؛ لأن غالبية المصادر العربية التي نقلت أخباره لنا كُتبت بعد تمام فتح الأندلس بفترة طويلة، وقد فسر بعض العلماء والباحثين أنه ربما يكون المؤرخون المسلمون قد تأثروا بصبغتهم القومية والأجواء العامة وقتها.

أما بالبحث في المصادر الغربية المسيحية، لن نجد هناك مصادر قديمة قد أُرخت ما قد وقع، باستثناء مصدر واحد فقط، وهو "تاريخ عام ٧٥٤م"، وهو لمؤلف مستعرب مجهول، ونسب هذا التاريخ إلى أسقف غير معروف، يدعى "إيزيدور الباجي"، ومع الوقت أصبح ذلك أمرًا مسلمًا به على نطاق واسع، واعتبره المؤرخون المسيحيون الغربيون أهم مصدر موثوق، رغم غموضه (318). كان للأمويين عدة دوافع عميقة وجوهرية استدعتهم لفتح إيبيريا بالاختيار عن التوغل في أفريقيا قد ذكرناها كاملةً، لكن والأهم من كل ذلك الاستفادة من مجهودات الكونت "يليان" (جوليان).

من يليان؟

جوليان، أو يليان الغماري، أو يوليان الغماري، هو أمير غمارة، حاكم سبتة وطنجة السابق (319)، الذي اشتهر باسم يوليان كونت سبتة، أو يوليان ملك سبتة، وهي مدينة كانت تقع في المغرب الأقصى، لم يتمكن المسلمون من فتحها بسهولة بسبب حكمته.

وقد كان في مملكة القوط تقليد متوارث، وهو أن بنات وبنين النبلاء يُرسَلون إلى القصر الملكي في طليطلة ليكونوا في خدمة ملوكها، لكي يتحلوا بأداب الملوك، ويتصفوا بصفات النبلاء، كانوا يذهبون في سن المراهقة حتى يبلغوا سن الزواج، وإذا قرر أحدهم الزواج من إحداهن، تولى الملك تجهيز الزفاف، فيقام على شرفه، وفي غالبية الأحيان كان الفتيان يخرجون للتدريب ومتابعة الأمور العسكرية، أما الفتيات فتبقى في القصر (320).

ومن بين الفتيات كانت "فلوريندا" ابنة جوليان (ليليان)، وكان الملك رودريك معجبًا بها رغم صغر سنها، فعرض عليها الزواج فأبت، فباغتتها ذات مرة واغتصبها، فأرسلت إلى والدها واشتكت له، فجاء إلى طليطلة وأخذها، وقرر الانتقام منه.

وروى "ابن عبد الحكم" أن جوليان عندما علم قال: "لا أرى له عقوبة ولا مكافأة إلا أن أدخل عليه العرب، ودين المسيح، لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه" (321)(322).

وتصف لنا المصادر العربية كيف كان لجوليان دور بارز في تسهيل فتح الأندلس، وكيف تواصل مع أعداء رودريك من ورثة جيطشة.

تواصل جوليان مع طارق بن زياد، وعرض عليه دخول الأندلس، وأعلمه بخيراتها ومواردها، وهوّن عليه حالها، وضعف وهوان رجالها (323)، وذهب البعض لتفسير ذلك بأنه قد استعان بالأمويين فقط من أجل خلع رودريك وإرجاع آل

جيطلشة، ولم يكن يتوقع أن المسلمين سيستقرون⁽³²⁴⁾⁽³²⁵⁾، والجدير بالذكر أن هذه القصة لم ترد في التأريخ الغربي الوحيد الذي كتب عن هذا الزمان، تأريخ عام ٧٥٤، مما استدعى بعض الباحثين الغربيين بالافتراض أنها مجرد أسطورة، لكن المصادر العربية والإسلامية تؤكد قصته، وذكرت أنه بعد تواصل جوليان مع طارق بن زياد، على الفور قرر طارق إخبار رئيسه موسى بن نصير بما عرضه عليه جوليان، وأرسل يستأذنه في الدخول إلى تلك البلاد، خاصةً وأنها من الممكن أن تكون مركزاً إسلامياً لفتح أكبر قدر من الأراضي الأوروبية⁽³²⁶⁾.

جهز طارق خطة محكمة وأطلع عليها قائده موسى، وتبقى موافقة الخليفة "الوليد بن عبد الملك بن مروان"، ولكن موسى فَصَّلَ أن يدرس الأمر دراسة دقيقة أولاً، ومن ثم يُرسل طلب الاستئذان من الخليفة، خاصةً وأن دهاء موسى بن نصير جعله يشك في أن جوليان ربما يكون جاء لتنفيذ مؤامرة، مُفادها إنزال جيش المسلمين في كمين هالك.

* * *

١٩- دخول المسلمين الأندلس (عبور بحر الزقاق)

من أجل قتل الشكوك التي في صدره، قرر موسى التواصل مع جوليان، وطلب منه أن يذهب هو وأتباعه أولاً دون ذهاب أي جندي مسلم؛ ليستكشف الساحل هناك، وينزل في مكان أمين، ويكتب له ما سيرى هناك. وبعكس المتوقع، جوليان الجاد قد أبدى ولاءه، ونزل في ساحل الجزيرة الخضراء، وقاتل عسكرها، وشن عليها الغارات. حينها اطمئن له موسى⁽³²⁷⁾، ورأى أن هذا هو الوقت المناسب لإرسال طلب إذن العبور. وبعد إشراك الخليفة في تفاصيل الخطة وإبداء موافقته، طلب منه توخي الحذر⁽³²⁸⁾، اختار موسى بن نصير أحد القادة المسلمين، وهو "أبو زرعة طريف بن مالك المعافري" ليقود الحملة الاستطلاعية الأولى.

أعد جوليان لطريف أربع سفن، وملاهم موسى بـ ٤٠٠ مقاتل و ١٠٠ فارس، وكان ذلك في عام ٧١٠م⁽³²⁹⁾، وعبروا بحر الزقاق، ونزلوا في جزيرة بالوماس بالشواطئ المقابل، والتي سميت بعد ذلك جزيرة طريف، على اسمه، وكانت هذه الجزيرة هي مركز استطلاعات طريف، وساعده في ذلك سكانها الذين كانوا من أتباع جيطشة وبعض اليهود. كانت حملات طريف كلها ناجحة، وغالبًا ما كانت تعود محملة بغنائم⁽³³⁰⁾، وكانت قد مهّدت لعبور جيش المسلمين من المضيق بكل هدوء.

جاءت المرحلة الثانية، في سرية تامة جهز موسى بن نصير القوات، وتحرك حاكم طنجة طارق بن زياد على رأس قوة مداهمة قوامها ١٧٠٠ رجل تقريبًا معظمهم برابرة، في عام ٧١١م، وهناك مصادر غربية قالت إن عددهم ١٢ ألفًا⁽³³¹⁾، وقال "ابن الأثير" إن كلهم برابرة ما عدا ما يقل عن ٣٠٠ مقاتل عربي⁽³³²⁾، بينما قال "ابن عبد الحكم" و"الحميري" إن جميعهم برابرة ما عدا ستة عشر رجلًا لا غير⁽³³³⁾.

بسبب سرية الحملة، قرر طارق أن يذهب بجنوده على متن سفن جوليان التجارية، وعبروا بحر الزقاق في يوم الاثنين ٥ رجب ٩٢هـ، الموافق ٢٨ أبريل ٧١١م⁽³³⁴⁾، وأفاد ابن عبد الحكم أن "أهل الأندلس لم يرعهم الأمر، ظنًا منهم أن المراكب العابرة شبيهة بالسفن التجارية التي لمصلحتهم"⁽³³⁵⁾ (التي هي تخص جوليان في الأصل).

نزلت الحملة على جبل كالبي، الذي سُمي باسم طارق بعد ذلك، وجعله طارق مركزًا عسكريًا للقوات. وتشير المصادر الإسلامية إلى أن معلومات جوليان التي نقلها للمسلمين كان لها عامل السحر في تسهيل المهمة؛

فبسببها بادر طارق بن زياد باستكشاف المنطقة تمهيدًا للسيطرة على المناطق المجاورة المحيطة ببحر الزقاق، من أجل حماية معسكره من أي هجوم مفاجئ، والمحافظة على الخط المفتوح من الجبل إلى قواعده في شمال أفريقيا⁽³³⁶⁾.

بعدها تحركت أولى القوات العسكرية من معسكر الجبل، على رأسها القائد "عبد الملك بن أبي عامر"، وتمكنت من فتح قرطاجنة، ثم فتحت مدينة الجزيرة الخضراء⁽³³⁷⁾، حينها علم رودريك بالأمر، لكنه للوهلة الأولى توقع أنها مجرد حملة للنهب وستعود من حيث جاءت، لكنه قد ضُعم بعد أن علم أن جيش طارق يزحف نحو قرطبة، فجهز جيشه من طليطلة، وأمره بقطع الطريق على المسلمين، فاشتبكوا في معركة قُتل فيها ابن أخيه قائد القوة⁽³³⁸⁾.

تمكن رودريك من حشد ما يزيد عن ٤٠ ألف مقاتل كما جاء في المصادر الغربية، ولكن قال ابن خلدون إنه يقارب ١٠٠ ألف⁽³³⁹⁾، وكان غالبيتهم من العبيد ومن المرتزقة كعادة جيش القوطيين وقتها، وذهب لأولاد جيطشة يطلب منهم المساعدة، فاستجاب له اثنان منهم، هُما: "ششبرت" و"أبّة"، وأبدوا ولاءهم له، لكنهم في الخفاء كانوا ينفذون الخطة التي وضعها جيش طارق، فلم يشك بهما رودريك ولو لحظة واحدة، ورحب بهما، وعين الأول على ميمنة الجيش، والثاني على ميسرته⁽³⁴⁰⁾.

زحف رودريك نحو قرطبة والجزيرة الخضراء، ثم اتجه نحو الجنوب، حينها علم طارق بقدومه، فقرر طلب المدد نظرًا لحجم قواته الضئيل، فأمدّه موسى بن نصير بـ ٥ آلاف مقاتل، على زُمرتهم طريف بن مالك⁽³⁴¹⁾، واتجه طارق نحو الشمال، ووصل إلى نهر الضفة اليسرى لنهر برباط بجنوب إسبانيا الحالي عند قرية يقال لها لكة، سُميت المعركة باسمها⁽³⁴²⁾، حينها وصل رودريك وعسكر على الضفة اليمنى.

ومع صبيحة يوم الأحد ١٩ يوليو ٧١١م، تقابل الفريقان، واستمر في عراك دموي لا غالب فيه ولا مغلوب، وفي اليوم الثالث فكر طارق في حيلة تُفيده في تشتيت قوى رودريك، فقرر فتح ثغرة ناحية المُستنقعات لكي يطمع رودريك ويذهب إليها لاختراق جيش المسلمين، كخطة شبيهة بالتي نفذها "خالد بن الوليد" في معركة اليرموك⁽³⁴³⁾، وبالفعل انخدع رودريك وأرسل الكثير من قواته ناحية المُستنقعات، حينها انقض عليهم المقاتلون المسلمون. وما زاد الطين بلة، أنه بحلول اليوم الرابع، قرر أبناء جيطشة الخروج من جيش رودريك بفرسانهم، والانضمام لجيش المسلمين تنفيذًا للخطة السرية، فانقسم الجيش، وعمّت الفوضى، وبدأ جنود الجيش القوطي في الفرار، وبرغم ذلك استمر رودريك يقاتل حتى اليوم الثامن، لكنه لم يستطع الصمود

بقواته المتبقية، فهرب من المعركة، واختفى من وقتها للأبد، وقيل إن المسلمين بعد ذلك عثروا على فرسه قرب المستنقعات، ووجدوا أحد خفيه يطفو فوق الطين، فاستنتج بعض المؤرخين أنه عندما هرب وقع من فوق الحصان في الوحل، فغاص فيه ولم يستطع الخروج، فمات في الأوحال⁽³⁴⁴⁾.

يُذكر أن بعض المصادر المسيحية قالت إن رودريك تمكن من الهروب، وانسحب إلى الشمال، وأعاد تنظيم صفوف جيشه المهزوم، وإنه قابل المسلمين في المعركة الثانية، وواجه جيش موسى وطارق بعد أن اتحدا، وقُتل على يد "مروان بن موسى بن نصير"⁽³⁴⁵⁾.

بهذا الشكل اختلفت المصادر على موت رودريك، بينما تجد بعض الملاحم القوطية تقول: إن رودريك حي وسعود لتخليص البلاد⁽³⁴⁶⁾، فأحدى المخطوطات القوطية التي تعود إلى القرن التاسع، تدّعي أن رودريك هرب من معركة لكة إلى أراضي البرتغال الحالية، وتحديدًا أقطانية، وكان هناك قبر منقوش عليه باللاتينية "هنا يرقد رودريك، ملك القوط"، وقال أتباع هذا الرأي إنه ربما سحبه جنوده أثناء سقوطه في المستنقع، وتَحَفَى بعيدًا وعاش فترة متنكرًا ومات، أو أنهم سحبوا جثته ميتًا ودفنوه بعيدًا عن المناوشات في ذلك المكان⁽³⁴⁷⁾.

كانت هذه المعركة المعروفة غربيًا باسم معركة غواداليت، وغربيًا باسم وادي لكة، هي عنوان فتح المسلمين للأندلس، ولا تقل أهمية عن جميع المعارك التي خاضها المسلمون طوال تاريخهم الماضي، فقد ذُك العتاد والقوة الميدانية لجيش المملكة القوطية وقُضي عليه، وبسبب انهياره لم يستطع الدفاع عن باقي المدن؛ مما سهّل الأمر لفتح باقي الأندلس، ففتحت إستجة وقرطبة وطليلة على التوالي.

جاء الوالي موسى بن نصير بقواته لتعزيز قوات طارق، وقد تألّف التعزيز من ١٨٠ ألف جندي معظمهم من العرب، ومن الوهلة الأولى فتحوا قرمونة وإشبيلية وماردة، ثم هزموا أنصار رودريك في ميريدا، والتقت قوات موسى بقوات طارق في تالافيرا دي لا رينا، وبعد أن اتحد الفريقان استُكمل الفتح، وفي العام التالي، استمرت القوات المشتركة في غاليسيا شمال غرب إسبانيا، والشمال الشرقي، وفتحت ليون وأستورجا وسرقسطة، وفتح كل عموم شمال إيبيريا الخاصة بقبائل الباسك الغربية⁽³⁴⁸⁾.

وفي غضون ثلاث سنوات سيطر كلاهما على أكثر من ثلثي شبه الجزيرة الإيبيرية، وكانت مدة ثلاث سنوات وقتًا معقولًا تم قضاؤه تقريبًا للوصول إلى جبال البرانس، بعد اتخاذ الترتيبات اللازمة لتقارير المدن وحكمها المستقبلي⁽³⁴⁹⁾.



الاندلس في أقصى حد لها عام ٧١٩ م

واستمرت الحملة كلها ثماني سنوات، وبعد نجاحها، تم وضع معظم شبه الجزيرة الإيبيرية تحت الحكم الإسلامي، باستثناء مناطق صغيرة في الشمال الغربي (أستورياس)، ومناطق الباسك إلى حد كبير في جبال البرانس (فرنسا وإسبانيا حاليًا)، وأصبحت شبه جزيرة إيبيريا تحت الاسم العربي الأندلس، كجزء من الإمبراطورية الأموية المتوسعة، لكن كل هذا لم يجعل الأمويين يكتفون بالتوقف عند هذا الحد.

* * *

٢٠- تحالف أوروبي مشترك (الحصار الإسلامي الثاني للقسطنطينية)

بعد فشل المسلمين في حصار القسطنطينية الأول (٦٧٤-٦٧٨م)، عاش البيزنطيون مع المسلمين فترة سلام مؤقت، بعد أن انشغل المجتمع الأموي بالاضطرابات الداخلية والصراع على الحكم، والتي وقعت منذ عام ٦٧٢م وحتى عام ٦٨٠م، ومكّن الهيمنة البيزنطية اللاحقة في الشرق الأباطرة من انتزاع مبالغ ضخمة من الجزية من الحكومة الأموية في دمشق⁽³⁵⁰⁾.



"عصر الخلفاء"، يظهر الهيمنة الأموية الممتدة من الشرق الأوسط إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، بما في ذلك ميناء نابون، حتى عام ٧٢٠م

لكن بعدها تمكن الأمويون من ترميم الداخل، وعادوا بقوة للمجتمع الدولي، ففاجأهم الإمبراطور "جستينيان الثاني" سابق الذكر، بنقض معاهدة السلام كعادته، وانقلب عليهم كما فعل مع تيرفل الخان البلغاري، وجدد معهم الاشتباكات بشكل غير مدروس؛ مما أدى إلى انتصار المسلمين في غالبية الاشتباكات، وبسبب تهوره فقد البيزنطيون السيطرة على أرمينيا والولايات القوقازية، وابتلوا بالتعدي التدريجي على الحدود البيزنطية، وبالتالي تمكن الأمويون من الإغارة على الأراضي المفقودة، واستولوا على الحصون والبلدات⁽³⁵¹⁾.

تبدلت الأدوار، ودخل البيزنطيون بدورهم في اضطرابات أهم، أطلق عليها المؤرخون المعاصرون "فوضى العشرين عامًا"⁽³⁵²⁾، والتي بدأت بالترسيب الأول لـ "جستينيان الثاني" في عام ٦٩٥م، فقد عاشت بيزنطة فوضى عارمة وصراع على الكرسي، على إثره تغير العرش البيزنطي سبع

مرات في انقلابات عنيفة⁽³⁵³⁾، وبالتوازي مع توغل الأمويين في الأندلس وفتحها، بحلول عام ٧١٢م، كان النظام الدفاعي البيزنطي هو الآخر قد بدأ يتهاوى، وتوغلت الغارات الإسلامية أكثر فأكثر في آسيا الصغرى، وتعرضت القلاع الحدودية البيزنطية للهجوم بشكل متكرر.

وتذكر المصادر أن رد الفعل البيزنطي جرّاء هذا كاد أن يكون معدومًا، بسبب انشغال بيزنطة بالفوضى الداخلية⁽³⁵⁴⁾، مما أصاب الأمويين بالطمع في مقدرات البيزنطيين، وقد ساعدت هذه الظروف العرب، الذين ركزوا بكل قواتهم، وقرروا إبادة الإمبراطورية بالكامل بالاستيلاء على عاصمتها⁽³⁵⁵⁾.

خُلع جستنيان الثاني عن فترة حكمه الثانية التي عاد إليها بمساعدة تيرفل؛ ليكون هو البداية والنهاية لفترة "العشرون عامًا من الفوضى"، حيث بدأت من أول ترسيب له في عام ٦٩٥م، حتى ترسيبه الثاني، وصعود "ليو الثالث الإيساوري" (سوريُّ الأصل)، والذي كان يتحدث العربية كلغة أولى⁽³⁵⁶⁾.

شنت الخلافة الأموية المتمثلة في الخليفة "عمر بن عبد العزيز"، الملقب بعمر الثاني، حصارًا جديدًا للقسطنطينية (٧١٧-٧١٨م)، وكانت الحملة بقيادة "مسلمة بن عبد الملك"، وفي المقابل الإمبراطور والجنرال "ليو"، الذي كان يحاول أن يزرع الاستقرار المفقود في الوضع السياسي، والذي كان له دور بارز فيما يُعرف بحرب الأيقونات⁽³⁵⁷⁾.

بدأت الحملة في أوائل صيف ٧١٧م، عندما أمر مسلمة أسطوله بالانضمام إليه، وعبر مع جيشه مضيق الدردنيل، بعد أن تمكنوا من محاصرة الريف بالكامل، وجمعوا منه المؤن من كل البلاد التي فتحوها⁽³⁵⁸⁾، وحاصروا القسطنطينية بجيش وقوات بحرية كثيرة العدد، وقد بدأ الحصار فعليًا في منتصف يوليو، عن طريق بناء جدار مزدوج من الحجر؛ أحدهما يواجه المدينة، والآخر يواجه الريف التراقي، وبنيت القوات معسكرها بين الجدارين، وتمكنوا من قطع اتصال العاصمة البيزنطية بالبحر الأسود، حينها عرض ليو على مسلمة دفع عملة ذهبية كفدية عن كل مواطن بالقسطنطينية، لكن رفض مسلمة⁽³⁵⁹⁾.

بعد مرور عشرين سفينة ثقيلة نحو القسطنطينية، توقفت الرياح الجنوبية، ثم انعكست وجرفتهم نحو أسوار المدينة، حينها هاجمهم سرب بيزنطي بيران يونانية، واشتبك معهم وأوقفهم، وقد شجع الانتصار البسيط البيزنطيين، وأصاب المسلمين بالإحباط، وفسدت خطتهم التي كانوا يعتزمون تنفيذها؛ وهي الإبحار إلى الأسوار البحرية أثناء الليل. وفي نفس الليلة، رسم ليو السلسلة بين المدينة وغلطة، وأغلق مدخل القرن الذهبي، وحُصنت أسوار القسطنطينية، مما جعل الأسطول الإسلامي مترددًا في الاشتباك مع البيزنطيين، وانسحب شمال الشاطئ الأوروبي لمضيق البوسفور⁽³⁶⁰⁾.

كان ليو عسكريًا بارعًا، ومن الوهلة الأولى أثبت مهاراته في نصب خططه للدفاع عن أسوار المدينة، وأوامره بالتكثيف من النيران اليونانية صاحبة الخلطة السرية، وبرغم خبرته المتناهية أحرز المسلمون تقدمًا واسعًا وملحوظًا، وقد دفع ذلك ليو لطلب الإغاثة من الخان "تيرفل" البلغاري، من أجل التصدي لجيش مسلمة، بناءً على معاهدة الحماية بين الطرفين التي تمت في عام ٧١٦م، نعم هو ذاك الخان البلغاري الذي كان حليفًا لجستيان الثاني من قبل.

ضرب المسلمون الحصار، واستمرت المحاولات قائمة حتى دخل الشتاء القارس، الذي طالما لعب دورًا مساعدًا للبيزنطيين، وبسببه غطى الثلج الأرض لأكثر من ثلاثة أشهر، وقد تسبب الشتاء في نقص المؤن من معسكر المسلمين، حتى اندلعت مجاعة بين جنود المسلمين⁽³⁶¹⁾.

ومع قدوم فصل الربيع بدأت الانفراجة، وأرسل الخليفة "عمر بن عبد العزيز" أسطولين جديدين لمساعدة الجيش المرابط في الثلوج لثلاثة أشهر، وكان الممد عبارة عن ٤٠٠ سفينة مصرية، و٣٦٠ سفينة من أفريقيا، محملين بالممد والمؤن والسلاح، قادمين في الماء، يسدون عين الشمس - كما يقال - من هول المشهد، بالإضافة إلى الدفع بجيش جديد برّي يسير عبر آسيا الصغرى للمساعدة في الحصار، وعندما وصلت الأساطيل الجديدة، كان من ضمن طواقم الأساطيل العربية المساعدة، لا سيما المصرية، مسيحيون أقباط، وفور وصولهم تركوا معسكر المسلمين، وأخلوا مواقعهم وانضموا للبيزنطيين، وبسبب هذا وقعت الفوضى في معسكر المسلمين، واستغل ليو الموقف وشن هجومًا بالنار اليونانية على السفن الجديدة، وتم نسفها بما تحمل، وبذلك ضمن توقف الأسطول الإسلامي البحري بعد شلله وعدم قدرته على تنفيذ الهجوم البحري⁽³⁶²⁾.

أما الجيش البري القادم، فقد وقعت فيه الخسائر بسبب هجوم بيزنطي، كان هو الخطوة التي تلت كمينًا مجهزًا، في التلال المحيطة بصبنجة، جنوب نيقوميدي⁽³⁶³⁾، وكان نصيبه الدمار بعد أن شلَّ الأسطول البحري الإسلامي، وبعد سيطرة البيزنطيين على البحر، ويقال إن سبب هزيمة الجيش البري، أن المسلمين قد وقعوا في كمين مخادع قد جهزه تيرفل البلغاري الذي استنصر به ليو؛ حيث ذكر أن العرب قد خسروا معركة كبرى ضد البلغار بعد فتح محكم، وذكّر أن ضحية هذه الحُدعة ٢٢ ألف مسلم قد تم ذبحهم.

وتختلف المصادر حول هذا الفخ؛ فقد أفاد "ثيوفانيس المعترف" و"الطبري"، أن البلغار هاجموا المعسكر الإسلامي، وتدخلوا في نصف المعركة بسبب معاهدتهم العسكرية مع البيزنطيين كما ذكرنا، بينما يذكر "ميخائيل السوري" أن البلغار شاركوا في الحصار منذ البداية بهجمات ضد العرب، وهم يسبيرون عبر تراقيا باتجاه القسطنطينية، ثم هاجمهم مرةً أخرى في معسكرهم، أما

تاريخ ٨٤٦ السرياني فقد ذُكر فيه أن العرب عندما اشتد عليهم الشتاء والجوع، كانوا قد ضلوا طريقهم إلى أراضي البلغار باحثين عن المؤن (364)، وهذا القول يتشابه مع ما قد ذكره "ابن كثير"، حيث قال (365):

كتب ليون (366) لأمير البرجان البلغاري (367) لطلب المساعدة، وقال له: "ليس لهم همة إلا في الدعوة إلى دينهم، الأقرب منهم فالأقرب، وإنهم متى فرغوا مني خلصوا إليك، فمهما كنت صانعًا حينئذ فاصنعه الآن".

حينها فكر في حيلة مأكرة، وكتب إلى مسلمة قائلاً: إن ليون كتب إليّ يستنصرني عليك، وأنا معك، فمُرني بما شئت.

فكتب إليه مسلمة قائلاً: إني لا أريد منك رجالاً ولا عددًا، ولكن أرسل إلينا بالميرة (368)؛ فقد قلّ ما عندنا من الأزواد.

فكتب إليه وقال: إني قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا، فأرسل من يتسلمها ويشتري منها.

فأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك فيشتري له ما يحتاج إليه، فذهب الكثير من الجنود فوجدوا هنالك سوقًا هائلةً، فأقبلوا يشترون، واشتغلوا بذلك، وعند عودتهم تفاجأوا بالكمائين بين الجبال، فخرجوا عليهم بغتةً واحدة، فقتلوا الكثير من جنود المسلمين وأسروا آخرين.

وتقول المراجع اليونانية بأن قتلى المسلمين من تلك العملية ما بين ١٢ إلى ١٥ ألف رجل، بينما قال آخرون: ٢٢ ألفًا، فكتب مسلمة بذلك إلى أخيه سليمان يخبره بما وقع من ذلك، فأرسل جيشًا كثيفًا بصحبة "شراحيل بن عبيدة"، وأمرهم أن يعبروا خليج القسطنطينية أولًا فينتقموا من تيرفل والبلغار، ثم يعودوا إلى مسلمة، فاقتتلوا معهم قتالًا شديدًا، وسبّوا وأسروا منهم الكثير، وخلصوا أسرى المسلمين، فأرسل إليهم الخليفة عمر بن عبد العزيز أن اذهبوا إلى مسلمة (369).

وبرغم مدد شراحيل، ظلت أسوار المدينة مستعصية على المسلمين (370)، بسبب خسارة المسلمين الكثير من الرجال والعتاد، وبسبب التكتل البيزنطي البلغاري، مما أعلن ذلك عن فشل الحصار بشكل واضح، فأرسل خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز بأوامره إلى مسلمة، وطلب منه التراجع، بعد ثلاثة عشر شهرًا من الحصار.

وفي ١٥ أغسطس من عام ٧١٨م، غادر المسلمون، وفي أثناء عودتهم تعرضت السفن لعاصفة في بحر مرمرة، بينما اشتعلت بعض السفن الأخرى بسبب رماد من بركان سانتوريني، وقد تسبب ذلك في خسارة المزيد، وتم أسر بعض الناجين من قبل البيزنطيين، حتى إن ثيوفانيس المعترف يدّعي أن خمس سفن فقط عادت إلى سوريا (371).

لقد كان لهذا النجاح الأوروبي عامل نفسي مهم؛ فبعد أن جاء العدو للدار،

تم التصدي، وأصبحت الخطوة التالية هي مطاردته.
* * *

٢١- نقاهة بيزنطية تفسدها بلغاريا (تجديد الحرب البلغارية البيزنطية)

لا شك في أن هذه الخسارة قد أضعفت جيش الأمويين، ودمرت بحريته، وددت الكثير من ميزانيته العسكرية⁽³⁷²⁾، وقد أجبرت الخسارة معظم الحاميات العربية على الانسحاب من المناطق الحدودية البيزنطية التي سيطرت عليها في الفترة التي سبقت الحصار، أما في قيليقية جنوب الأناضول، فقد بقيت الموبسويستية⁽³⁷³⁾ فقط في أيدي جيوش الأمويين، كحصن دفاعي لحماية أنطاكية⁽³⁷⁴⁾، كذلك من خسائر فشل هذا الحصار، هو نجاح البيزنطيين في استعادة بعض الأراضي في غرب أرمينيا لبعض الوقت. قبل الحصار الفاشل للقسطنطينية كان الأوروبيون يعانون من غارات العرب المتكررة التي استؤنفت في الماضي القريب بكثافة على مدار عقدين، والتي لم تكن بنية الغزو، فقد كانت كمحاولات إغارة، غرضها ضرب النظام واقتطاف الغنائم، لكن بعد نجاحهم في رفع الحصار بثلاث سنوات، تمكنوا من إيجاد حل للقضاء على غارات الأمويين هذه؛ فقد توغل الأسطول البيزنطي وقام بالإغارة المضادة على الساحل السوري وإحراق ميناء لاودكية⁽³⁷⁵⁾، وفي ٧٢٠م أو ٧٢١م هاجم البيزنطيون ونهبوا تيسس بحيرة المنزلة⁽³⁷⁶⁾ في شمال مصر، كما استعاد ليو السيطرة على صقلية واقتنصها من المسلمين. لكن برغم ذلك، خلال هذا الوقت، توقفت السيطرة البيزنطية الفعالة على سردينيا وكورسيكا⁽³⁷⁷⁾، وبرغم هذا النجاح البيزنطي الساحق، فشل البيزنطيون في استغلال نجاحهم هذا في شن هجماتهم الخاصة على العمق العربي نفسه.

شهدت هذه العقود تطورًا بيزنطيًا ملحوظًا في مناطق المناوشات، خاصةً بعد أن كلف "ليو الثالث" نفسه وابنه "قسطنطين الخامس"، بمهمة إعادة تنظيم وتوحيد الموضوعات في آسيا الصغرى، وفي عام ٧٤٠م وقعت معركة أكرينون (معركة أفيون قره حصار) على الحافة الغربية من هضبة الأناضول، بين البيزنطيين والأمويين، انتصر فيها البيزنطيون نصرًا ساحقًا⁽³⁷⁸⁾، أراح هذا النصر البيزنطيين، ووضع حدًا للتوغلات العربية الكبرى في الأناضول لمدة ثلاثة عقود.

وكان من أهم أسباب النصر مشاكل الخلافة الأموية على جبهات أخرى، وعدم الاستقرار الداخلي قبل وبعد الثورة العباسية⁽³⁷⁹⁾؛ فقد استغل البيزنطيون ذلك في حصد انتصارات في جبهات أخرى مع الأمويين، وقد أدى عدم الاستقرار الداخلي الذي بلغ ذروته في الثورة العباسية لإنهاء عصر

التوسع العربي، وحمّس قسطنطين الخامس لإطلاق سلسلة من الحملات الاستكشافية إلى سوريا، مكّنته من تأمين الهيمنة البيزنطية على الحدود الشرقية⁽³⁸⁰⁾.

وفي عام ٧٤٦م بعد أن جاءت إليه حملاته الاستكشافية وطلّاعه بالخبر المبين، قرر قسطنطين الخامس أن يستفيد من الظروف غير المستقرة في الخلافة الأموية، التي كانت تنهار تحت حكم "مروان الثاني"، وتمكن من غزو سوريا، كما هزمت بحريته الأسطول الأموي في العديد من المناوشات. والجدير بالذكر، أن هذا النزاع هو فتنة أو حرب أهلية جديدة إسلامية ثالثة؛ فبعد صراع أعقبه ثورة، تجمّع العباسيون واشتبكوا مع الأمويين الذين انكسرت شوكتهم في معركة الزاب الكبرى في ٢٥ يناير من عام ٧٥٠م، عند أحد روافد نهر دجلة بالعراق، والمسمى بنهر الزاب، وقعت المعركة بين الخليفة الأموي الأخير "مروان بن محمد"، والقائد العباسي "عبد الله بن علي"، وانهزم جيش مروان وهرب إلى مصر قبل أن يلاحقه العباسيون ويقتلوه هناك، وبمقتله يُسدّل الستار على الخلافة الأموية. ولم ينبج من الأمويين كلهم سوى أمير أموي واحد، وهو "عبد الرحمن الأول"، الملقب فيما بعد بـ"عبد الرحمن الداخل"، والذي فر مختبئًا إلى إسبانيا ببلاد الأندلس، والذي يبدو أنه سيكون بطلًا في عدة أحداث قادمة⁽³⁸¹⁾⁽³⁸²⁾.

بعد نجاح قسطنطين في الشرق، نظر إلى الجبهة البلغارية، واستطاع أن يقوضها تمامًا⁽³⁸³⁾؛ ففي ظل القوة البيزنطية، انزلت بلغاريا في فترة من التوترات والأزمات بعد وفاة خان "سيفار"، وما بين عامي ٧٥٦ و٧٧٥م، قاد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس تسع حملات ضد جاره الشمالي لإنشاء حدود بيزنطية على نهر الدانوب⁽³⁸⁴⁾، بسبب التغيير المتكرر للحكام؛ حيث تولى ثمانية من الخانات الحُكم في عشرين عامًا فقط، وكانت بلغاريا على وشك الدمار.

كانت الحملة الأولى لقسطنطين الخامس على بلغاريا عام ٧٥٦م ناجحة؛ فقد هزم البلغار مرتين، ولكن في ٧٥٩م هزم الخان البلغاري "فينخ" الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة في معركة ممر ريشكي⁽³⁸⁵⁾، بعدها حاول فينخ إضفاء السلام على الجبهتين حتى يتسنى له تحسين الأوضاع في الداخل، وبسبب مطالبته بالسلام اغتيل على يد النبلاء البلغاريين، تولى من بعده الخان الجديد "تليتس"، ومع بدايات حكمه هزمه قسطنطين في معركة أنكيالوس في عام ٧٦٣م⁽³⁸⁶⁾.

حاول البيزنطيون استكمال النجاح، لكنهم لم يتمكنوا من المرور عبر جبال البلقان، ودُمر أسطولهم مرتين بسبب العواصف، وذكرت بعض المصادر أن

٢٦٠٠ سفينة دُمرُوا في واحدة فقط من العواصف في عام ٧٦٥م⁽³⁸⁷⁾، وفي عام ٧٧٤ تمكّن البيزنطيون من هزيمة قوة بلغارية صغيرة في بيرزيتيا، بعدها قام البلغار بالترتيب الجاد، واتخذوا احتياطات قوية للتخلص من الجواسيس البيزنطيين في بليسكا، ثم أرسل خان بلغاريا آنذاك "تيليريج" رسولا إلى قسطنطين الخامس لكي يخبره سرًا بنيته في الفرار من بلغاريا، والبحث عن ملجأ آمن لدى الإمبراطور البيزنطي، وفي الواقع كانت هذه حيلة ناجحة من تيليريج في جعل الإمبراطور يتخلى عن عملائه في بلغاريا، ويقطع التواصل معهم لعدم احتياجه لذلك؛ حتى لا يكتشف أنهم تم قمعهم. وفي وقت لاحق، علم قسطنطين الخامس بما حدث، فقرر الانتقام، لكنه لم يتمكن من فعل شيء؛ حيث وافته المنية في عام ٧٧٥م.

عندما تسلّم "قسطنطين السادس" الإمبراطورية، شرع في تنفيذ هذا الانتقام، خاصةً بعد تطاولات بلغاريا، وتوغلاتها في وادي ستروما منذ عام ٧٨٩م. وفي عام ٧٩٢م، أمر قسطنطين السادس جيشه باتباعه والاتجاه نحو البلغار، وعسكر في ماركيلى جنوب شرق بلغاريا، وحصّن معسكره فيها. علم خان "كارادام" (كروم) البلغاري بذلك، فزحف بجيشه وسيطروا على المرتفعات المجاورة، وبعد فترة ترصد من الجانبين، أمر قسطنطين السادس بالهجوم، ووقعت معركة مارسيلاي، وفي هذه المعركة فقدت القوات البيزنطية تشكيلها وهُزمت مرة أخرى وهربت من المعركة، وبعد هذا الانتقام الفاشل اضطر قسطنطين السادس لقبول المفاوضات من أجل السلام، وتعهد بدفع جزية سنوية لبلغاريا.

بعدها بأربعة أعوام، وتحديدًا في عام ٧٩٦م، تمتعت بيزنطة عن دفع الجزية، فأرسل كروم تهديداته بتدمير تراقيا إذا لم يتم دفعها، ووفقًا للمؤرخ "ثيوفانيس المعترف"، سخر قسطنطين السادس من الطلب، وأرسل له الرّوث بدلًا من الذهب باعتباره لا يستحق غيره! وأبلغ رسوله بأنه يجب عليه انتظار مصيره وسخّقه من جيش بيزنطة في مارسيلاي؛ ليتكرر الحدث مجددًا ويتجه جيش الإمبراطور البيزنطي شمالًا.

واجهت الجيوش بعضها البعض لمدة ١٧ يومًا بشكل سطحي، لا غالب ولا مغلوب، في النهاية تم تجنب الصراع، ووافق قسطنطين السادس على استئناف السلام بنفس شروط عام ٧٩٢م، وبرغم الاتفاق على السلام، تطاول كروم - بعدها بفترة - على المناطق البيزنطية في البلقان، وشن غارة وحشية على طول وادي ستروما في عام ٨٠٧م، ونهب كمية هائلة من الذهب، كانت مخصصة كأجور للجيش البيزنطي بأكمله⁽³⁸⁸⁾، وفي عام ٨٠٩م قام بحصار سيرديكا، ثم دَحَلها، وذبح الحامية البيزنطية فيها، فاستشاط الإمبراطور البيزنطي القائم آنذاك "نقفور الأول" (نيكيفوروس الأول). وبغرض الانتقام، قام نقفور الأول في أوائل عام ٨١١م، برحلة استكشافية

ضخمة ضد بلغاريا، متقدماً إلى مارسيلاي، وعندما علم خان كروم أرسل مبعوثه للتفاوض في ١١ يوليو ٨١١م، فرفض نقفور، وبجرفية متناهية تمكن جيشه من التملص من الكمائن البلغارية في جبال البلقان، وهزم جيشاً قوامه ١٢ ألف جندي حاول منع تقدّمهم إلى موبسبا، وبنفس النجاح هُزم جيش آخر تم تجميعه على عَجَل، قوامه ٥٠ ألفاً أمام أسوار العاصمة البلغارية بليسكا، ومع التقدم والتوغل تمكن الإمبراطور من الاستيلاء على عاصمتهم في ٢٠ يوليو، وبالتالي تمكن من نهب كنوز المدينة، حينها جاءه مبعوث جديد من كروم فرفض مقابلته، ثم أشعل النار فيها، وأمر جيشه بقتل سكان العاصمة⁽³⁸⁹⁾.

بعدها أمر نقفور جيشه بالانسحاب نحو تراقيا، وفي وقتٍ قياسي حشد كروم أكبر عدد ممكن من رعاياه، بما في ذلك الشيوخ والنساء، وبدأ في نصب الفخاخ والكمائن للجيش الإمبراطوري المنسحب في الممرات الجبلية. وفي فجر يوم ٢٦ يوليو، وجد البيزنطيون أنفسهم محاصرين أمام خندق وجدار خشبي في ممر فيربيك⁽³⁹⁰⁾، فنزل عليهم البلغار بكل قوة وذبحوا الكثير منهم، وقُتل نقفور الأول في المعركة التي تلت ذلك مع العديد من قوّاته. ووفقاً للتقاليد المتوارثة، يقال إن كروم احتفظ بجمجمة الإمبراطور وبطنها بالفضة، واستخدمها كوعاء للشرب، وقد منحه ذلك شهرة واسعة كمقاتل وحشي.

وبالنظر إلى أقصى الغرب الأوروبي، سنجد أن هناك صراعاً آخر عظيماً، قد نشب بين الأندلسيين والفرنجة؛ فقد وقعت هناك معركة دموية كبيرة اسمها معركة بواتيه، التي هي عند المسلمين معركة بلاط الشهداء. فما قصتها، وحيثياتها؟

* * *

٢٢- مطرقة الفرنجة (حائط الصد الفرنجي)

بعد فتحها، بدأت الأندلس في التبعية لحكم الدولة الأموية، وصولاً لعهد الخليفة "هشام بن عبد الملك" (حكم ٧٢٤-٧٤٣م)، ففي عهد هشام ضعفت الحكومة المركزية، وتوترت الأوضاع الداخلية في الأندلس وشمال أفريقيا⁽³⁹¹⁾. وبسبب انشغال دمشق بأمر كثيرة، رأى المسلمون في الأندلس أن الاتصال بعيد جداً عن الإدارة المركزية، فقرر مسلمو الأندلس حماية أنفسهم بأنفسهم، وإتمام عمليات التوسع والفتح. وفي عام ٧١٨م حاولوا الاندفاع وراء جبال البرينيه⁽³⁹²⁾ في غالة، التي هي بدورها تحت حكم الفرنجة. وكان على حكم الفرنجة وقتها يجلس "شارل مارتل" (حوالي ٦٨٨ - ٢٢ أكتوبر ٧٤١م)⁽³⁹³⁾، ذاك القائد السياسي والعسكري، ودوق وأمير الفرنجة وعمدة القصر⁽³⁹⁴⁾، والذي نجح في إعادة الحكومة المركزية في فرنسا، وبدأ سلسلة الحملات العسكرية التي أعادت تأسيس الفرنجة بصفتهم سادة بلا منازع على كل بلاد الغال. وبجانب أنه كان جنرالاً عسكرياً بارعاً، يدير قلب المعركة بنفسه، فقد كان لشارل دور تاريخي لم ينسّه مسيحيو أوروبا منذ ما يقرب من ١٣٠٠ عام مضوا؛ فلم يبالغ البعض في وصفه حائط الصد للتوغل الإسلامي في أوروبا.

والسبب كان حشد والي الأندلس آنذاك "عبد الرحمن الغافقي" جيشاً جرّاراً، من أكبر الجيوش الأندلسية⁽³⁹⁵⁾، بينما كانت نقطة التحرك هي سرقسطة نحو كتالونيا، التي تعتبر هي أقرب إقليم أندلسي لبلاد الغال، حيث فرض السيطرة هناك، ثم تحرك إلى سبتمانيا في غرب بلاد الغال، فعزز من وجود الحاميات فيها، وعاد بعدها إلى بنبلونة في شمالي إيبيريا، ثم انطلق بعدها نحو ممر رونسفال في جبال المعابر وعبره⁽³⁹⁶⁾، وكان هدفه أقطانية⁽³⁹⁷⁾، ومنها سار شمالاً، ثم اتجه جنوب شرق نحو آرل جنوب فرنسا حالياً، فأعاد فتحها، وحصّن المسلمين فيها، ثم عاد إلى دوقية أقطانية بآكتايين، وهناك واجه جيشاً على رأسه دوق أقطانية في معركة نهر الجارون وانتصر عليه، وسحق الجيش الأقطاني⁽³⁹⁸⁾، وفتحت أقطانية للمسلمين، ثم واصل الغافقي إلى بواتيه في وسط غرب فرنسا ففتحها، ثم تمكّن من فتح تور الواقعة على نهر اللوار⁽³⁹⁹⁾.

يبدو أن والي الأندلس حصد انتصارات عنترية أكثر مما كان يتصور، وكان ذلك واضحاً في عدم رغبته التقدم أكثر من ذلك بشكل مؤقت، وفصل تحصين المدن المفتوحة وتقويتها لتصبح ثغراً للمسلمين، كما هو الحال في سبتمانيا؛

وكان السبب في ذلك أنه لم يكن معه من الجند ما يكفي لفتح مدن أكثر، فقد كانت مسيرة الغافقي طويلة جدًا وشاقة، خاصة أنه ما زال يللمم الصف بعد انتهاء معركة الجارون القوية⁽⁴⁰⁰⁾. على كل حال، مسيرته إلى الآن بُطولية وناجحة بشكل مذهل؛ فهذا القائد قد فرض بطولته على كل جنوب بلاد الغال وغربها.

أجبرت انتصارات المسلمين شارل مارتل - الملقَّب بالمطرقة - على التحرك لمواجهة جيش المسلمين بشكل سريع، بعد أن لجأ إليه منافسه "أودو" بمن بقي معه من رجاله، وطلب منه القتال من أجل استعادة أقطانية⁽⁴⁰¹⁾، فقبل شارل مساعدته على أن يكون ولاءً أودو لدولة الفرنجة، فوافق أودو على ذلك، وانطلق شارل نحو أكتايين بعد أن جمع جيشًا يحتوي على الكثير من المرتزقة من حدود الراين ومن بورغانديا⁽⁴⁰²⁾⁽⁴⁰³⁾.

كان عبد الرحمن قد وصل إلى تور، ومعه مجموعة قليلة من الجيش؛ لأنه بعد معاركه في أقطانية وكاتلونيا وسبتمانيا، كان يقتطع في كل مكان مجموعة من جيشه كحامية للمناطق المفتوحة⁽⁴⁰⁴⁾، وعندما وصل شارل إلى تور - حيث يعسكر جيش عبد الرحمن - استدرج القوات الإسلامية إلى سهل يقع غرب رافد نهر اللوار، وكان شارل قد حاول مراوغة عبد الرحمن؛ بأن أرسل مجموعات صغيرة من طلائع جيشه إلى الضفة الشرقية للنهر، فجاء الخبر لوالي الأندلس، الذي بدوره أرسل فرّق الاستطلاع لكي تأتيه بالخبر المبين.

ذهبت الفرّق وعادت ومعها خبر يُوفي بأن جيش شارل عدده قليل جدًا، ومن السهل القضاء عليه؛ فخرج عبد الرحمن من المدينة لمواجهة، وعبر بقواته إلى الضفة الشرقية، فتحرك شارل بقواته المختبئة باتجاه جيش المسلمين بشكل مفاجئ، حينها دُهل عبد الرحمن من أعدادهم التي أتضح أنها أكثر مما قدّرئها فرّق استطلاعه؛ ولأنه لم يملك حينها ترتيبًا، ما كان بيديه إلا الارتداد بسرعة إلى سهل بين تور وبواتيه⁽⁴⁰⁵⁾، فتقدم شارل بقواته ونزل في مواجهة جيش الأندلسيين استعدادًا للمعركة، وتحرك جيش الأندلس نحو الجنوب باتجاه بواتيه، بينما تجمّع جيش شارل جهة الشمال باتجاه تور⁽⁴⁰⁶⁾.

وفي الحقيقة، لا يوجد في المصادر العربية أو الغربية توضيحٌ للتفاصيل الدقيقة لهذه المعركة، التي تُعرّف في السجلات العربية بـ"معركة بلاط الشهداء" (١٠ أكتوبر ٧٣٢م)، فلا يعلم أحدٌ تفاصيلها بالضبط، أو متى انتهت، لكن يُعتقد أن الحرب استمرت لأيام، حتى اضطر جيش المسلمين للهجوم بفرسانهم على جيش شارل، الذي يحمله فرسان الفرنجة⁽⁴⁰⁷⁾.

برغم كل هذه التخطيطات، في بادئ الأمر كان النصر حليفًا لجيش المسلمين الذي قاتل ببسالة رغم قلة عدده⁽⁴⁰⁸⁾، لكن شارل استخدم دهاءه

مجددًا، وأرسل مجموعات يقودها حليفُه أودو، والتفَّتْ حول معسكر المسلمين من الخلف وحاصرته، فاضطر المسلمون للدفاع عن معسكرهم، وهنا تَغَيَّر مسار الحرب، وسقط الفرسان المسلمون، وظل عبد الرحمن يقاتل ببسالة وجَلَد حتى تَمَكَّن منه رجال شارل.

وبرغم سقوط القائد، تَمَكَّن الفرسان المسلمون من الدفاع عن معسكرهم حتى انتهاء اليوم⁽⁴⁰⁹⁾، وعندما حل الليل، تشاور قادة جيش المسلمين بينهم، وخرجوا بقرار أوْحَد؛ وهو مغادرة المعسكر بعد أن فقدوا قائدهم المغوار. ومع إشراقات الصباح، انتظر الفرنجة خروج المسلمين للقتال، فلم يخرجوا، ووجدوا أن القتال لم يتجدد، فتخوفوا من أن يكون ذلك كميًّا، وبعد ساعات تمكنت قواتهم الاستطلاعية من معرفة أن المعسكر تم إخلاؤه⁽⁴¹⁰⁾.

يُنسب هذا النصر لشارل مارتنل، والذي يراه المؤرخون انتصارًا شديد الأهمية ضد الغزو الأموي الجامح ومحاولة لتقويضه، والذين يرون أنه لولا هذه الحرب لَفَتَح المسلمون أوروبا كلها. وبجانب انتصارات شارل العسكرية، يُنسب إليه دور أساسي في تطوير نظام الإقطاع الفرنجي⁽⁴¹¹⁾.

إلى الآن لم يحمل شارل مارتن لقب "الملك" (كما سيحصل عليه ابنه بيبان القصير فيما بعد)، أو "الإمبراطور" (مثل حفيده شارلمان الكبير فيما بعد)، لكنه برغم أنه مجرد أمير، كان الحاكم المطلق لكامل أوروبا القارية الغربية تقريبًا في الأراضي الواقعة شمال جبال البرانس، واقتصرت الإضافات الإقليمية ذات الشأن إلى مجال حُكَم الفرنجة بعد وفاته على الممالك السكسونية المتبقية، والتي غزاها بشكل جزئي، بالإضافة للومبارديا والثغر الإسباني جنوب جبال البرانس. وبفضل نشاطاته هذه، سيتمكن حفيده شارلمان فيما بعد من قَرْض سيطرة الفرنجة على كل هذه المناطق مستقبلًا.

بفضل نصر شارل على المسلمين، لَقَّبَه بعض المؤرخين بمُنقذ أوروبا، وعُرف تاريخيًا باسم "المطرقة" بسبب هذا النصر⁽⁴¹²⁾، بينما أطلق عليه المؤرخ الروماني "إدوارد جيبون"⁽⁴¹³⁾ لقب: "أعظم أمراء عصره".

بعد وفاة المطرقة، تم ترشيح ولده "بيبان القصير" كملكٍ من بابا الكنيسة، في عام ٧٤١م تقريبًا. ومن الوهلة الأولى نظر بيبان القصير بعينه الحالمتين ناحية إيبيريا، حالماً بدخول هسبانيا وهزيمة الأندلسيين، ومع صعود حرب الكارولنجيين وبيبان القصير على أقطانية (أكتايين)، هُزمت دوقية أقطانية بقيادة "وايفر"، وتوغل الفرانكس بعيدًا في الدوقية، والباسك من دوقية فاسكونيا واحدة من الدعائم الأساسية لجيش أكويتانيان، والتي خضعت لبيبان والفرنجة في ٧٦٦ و٧٦٩م، لكن المنطقة الواقعة جنوب نهر جارون⁽⁴¹⁴⁾ بقيت إلى حد كبير سالمة وبقي حكمها ذاتيًا.

بعد وفاة بيبان القصير، تَسَلَّم ابنه الأكبر "كارلومان" الحكم، وبعد وفاته تسلم الابن الأصغر "شارلمان" الحكم في عام ٧٦٨م، وبدأت سيطرته الفعلية على المملكة بعد وفاة أخيه كارلومان؛ إذ ورث الشقيقان مملكة والدهما، لتعلن السلالة الكارولنجية عن قوتها في كل ربوع العالم المعروف، ولتكون هي الإمبراطورية الموحدة التي ستمكن من غرلة عروش البرابرة.

* * *

٢٣- غربة عروش البرابرة (بُروج الإمبراطورية الكارولنجية الفرنجية)

حتى وقت قريب، كان الغرب ما زال يعاني، الرومان وأشباههم يعانون، والبرابرة أنفسهم يعانون من عدم السيطرة على زمام الأمور، ولكن شيئاً فشيئاً اكتسب البرابرة خبرة بسيطة.

قبل زمان شارل المطرقة، ترع على عرش أوروبا الغربية قوتان؛ القوة الأولى: هي اللومبارد، الذين انسجموا واندمجوا في الهوية الرومانية تمامًا، ومع الوقت استطاعوا أن يُطوروا من أنماط حياتهم، وعرفت مملكتهم الاستقرار النوعي⁽⁴¹⁵⁾، أما القوة الثانية: فهي مملكة الفرنجة، والتي ظهرت في البداية ضعيفة وهشة، وكانت منقسمة بشكل واضح⁽⁴¹⁶⁾.

مع مرور الوقت، وفي القرن الثامن، تبدل المشهد؛ لقد أصاب مملكة اللومبارد الضعف، وأصبحت على شفا الاندثار، بينما تمكنت مملكة الفرنجة من توحيد الصف مجددًا، واستطاعت أن تجمع كل أقطار الجبهة الغربية تحت سلطتها تقريبًا⁽⁴¹⁷⁾. لا شك في أن الدولة اللومباردية كانت في سابق عهدها منظمة جيدًا، واستقرت بنهاية فترة حكم "ليوتبراند" الطويلة (٧١٧-٧٤٤م)، ولكن انهيارها كان مفاجئًا، غير مدعوم من الدوقات؛ لقد هُزم الملك "ديزديريوس" وأجبر على تسليم مملكته لـ"شارلمان" عام ٧٧٤، وانتهت مملكة لومبارد، التي حكمت إيطاليا بعد فترة الصراع بين القوط الشرقيين والإمبراطورية الرومانية الشرقية، وبدأت الفترة الذهبية لحكم الفرنجة، بعد غزوهم للومبارد في ٧٧٤م⁽⁴¹⁸⁾، ومنها انطلقوا لسيادة المنطقة. لكن كيف حدث كل ذلك؟

على مدار القرون الماضية، أثبتت الممالك البربرية في الغرب أنها دول وعوالم هشة للغاية⁽⁴¹⁹⁾، باستثناء مملكة الفرنجة التي نجت من أوائل العصور الوسطى⁽⁴²⁰⁾؛ فعالم القوط الغربيون قد انهار في القرن السادس، وكان لا بد من استعادته من الصفر تقريبًا تحت حكم "ليوفيجيلد" في ستينيات وسبعينيات القرن الخامس، لكنهم فشلوا في ذلك، وتم تدميرهم أخيرًا على يد الأمويين في فتح الأندلس - كما ذكرنا. أما باقي الممالك البربرية الأصغر، فقد تم غزو معظمها في بلاد الغال، ودمجها في مملكة الفرنجة الصاعدة بقوة، ومنهم من اختفى تمامًا من المصادر التاريخية، ولم يرد أي خبر عنه؛ نظرًا لقلّة أهميته. والجدير بالذكر، أن الممالك الوريثة الصغيرة للقوط الغربيين في هسبانيا، أسلاف ممالك القرون الوسطى، مثل ليون وقشتالة وأراغون، كانت في الأساس شبه الفرنجة، ثقافيًا وإداريًا، أقرب إلى مملكة الفرنجة من مملكة القوط الغربيين المنهارة؛ لذا اندمجوا معهم بسهولة.

ومع الوقت تطورت مملكة الفرنجة وزادت قوتها، وكان العامل الأساسي في ذلك هو الإغارة ونهب المستعمرات، بالإضافة إلى إبرام التحالفات الناجحة. وكان للفرنجة قانون قائم طوال هذه السنوات، منذ أن وضعه كلوفيس عام 500م، اسمه قانون الساليك⁽⁴²¹⁾، وأصبح هذا القانون المكتوب باللاتينية، هو دستور الحياة الفرنكية، وقد استغل النبلاء ثغرات في هذا القانون بخصوص الميراث وإقصاء المرأة منه، وتمكنوا من بناء قاعدة لسلطتهم الخاصة، لكن على يد الكارولنجيين تغير كل شيء؛ فقد سيطرت الإمبراطورية الكارولنجية على أراضي الفرنجة، ليس من هؤلاء الإقطاعيين فحسب، بل وغطت الإمبراطورية الكارولنجية في عهد "شارلمان" معظم أوروبا الغربية، وكأنها نسخة طبق الأصل من الإمبراطورية الرومانية الغربية التي فعلت ذلك من قبل، لكنها لم تشبهها في الضعف؛ فقد توطدت وترسخت أكثر، وتمكنت من القضاء على اللومبارد وما تبقى من الممالك الجرمانية، وتوسعت الإمبراطورية إلى نهر إلبه بشكل دائم، وكانوا مؤثرين في الأحداث في كل الوجه الأوروبي، وصولاً إلى السهوب الروسية.

كان شارلمان محاربًا كجده، ومن أبرز معاركه تلك المعارك التي هزم فيها المملكة اللومباردية عام 774م، والتي بسببها ضُمت إلى منطقتة بإعلان نفسه "ملك اللومبارد"، وبرغم نجاحاته الساحقة مع اللومبارد والسكسون وغيرهم، لديه هزيمة كبيرة لم تُحذف من تاريخه الحافل، وهي معركة "ممر رونسيغال" 778م، ولولا هذه الهزيمة لشمّل حكمه أطراف الإطار الأوروبي، وقضى على حكم المسلمين الأندلسيين للأبد.

فبعدما ذبح العباسيون البيت الملكي الأموي، هرب الناجي الوحيد، الأمير "عبد الرحمن بن معاوية"، واتجه سرًا صوب المغرب؛ لاعتقاده أن المغرب ملاذ استضاف أعدادًا كبيرة من الهاربين الأمويين، وكان غرضه من الهروب إلى هناك بالذات، هو إنشاء دولة أموية حديثة في ولاية أفريقية، لكنه تفاجأ بأن واليها "عبد الرحمن بن حبيب الفهري" كان لديه نفس الطموح، وكان يريد أن ينأى بها لنفسه عن حكم العباسيين الجدد، وكذلك تشدد الفهري مع الأمويين وصادر أموالهم⁽⁴²²⁾، فاتجه ابن معاوية ناحية أخواله في الأندلس.

وقتها كانت الأندلس مطمئنًا للهجمات العديدة من الفرنجة ومن الشمال المسيحي، وكانوا يفتقدون زعيمًا يلتفون لولائه، خاصة بعد انهيار الدولة الأموية، بسبب النزاعات المتواصلة بين القبائل المضربّة واليمانيّة⁽⁴²³⁾، فأخلصت القبائل اليمانية في بيعته، بسبب رغبتهم في الثأر لهزيمتهم أمام الفهريّة والقيسيّة في موقعة شقنّدة⁽⁴²⁴⁾.

بعد التنسيق والترتيب المسبق، أرسل زعماء الموالي مَرَكبًا تَعْبُرُ بعبد الرحمن إلى الأندلس، فوصل إلى ثغر المنكب⁽⁴²⁵⁾ في عام 700م، فتوافد عليه الناس لمبايعته، ثم سمع "يوسف الفهري" - آخر ولاة الأندلس - بما حدث،

فحاول التفاوض مع عبد الرحمن بسبب شعبيته الجارفة، لكنه فشل، ف وقعت بينهما معركة في صباح يوم ١١ مايو من عام ٧٥٦م، انتصر فيها عبد الرحمن وأتباعه⁽⁴²⁶⁾، فدخل إلى قرطبة دخول المنتصرين، وترجَّع على العرش في قصر الإمارة، وبايعه الناس البيعة العامة⁽⁴²⁷⁾.

منذ هذا اليوم أصبحت الأندلس دولة إسلامية موحدة بعد النزاعات، وفي ذات الوقت مستقلة عن الخلافة العباسية في الشرق، ولم تشهد الأحداث أي محاولات للعباسيين من أجل ضمها، باستثناء محاولات ضئيلة لم تؤتي بثمارها، وتوقفت حركة الفتوح منذ ذلك العهد، وتحت حكم عبد الرحمن الداخل دُبرت مكيدة فرنجية من شارلمان الكارولنجي من أجل احتلال الأندلس، انتهت بوقوع واحدة من أكثر الأحداث الأوروبية تأثيرًا، وهي معركة باب الشزري، أو معركة ممر رونسفال.

* * *

٢٤- مصيدة رونسفال (عار شارلمان الوحيد)

بسبب استيلاء الأب "بيبان القصير" على أقطانية وهزيمته لـ "ويفر" دوق أقطانية، أصبح الطريق مفتوحًا لتوغل الفرنجة غربًا، وعندما طمح "شارلمان" في هذا التوغل، كان وقتها الحاكم الأموي "عبد الرحمن الداخل" منشغلًا بسحق التمردات المشتعلة في الجنوب، حينها استغل بعض زعماء الشرق الأندلسي هذا الانشغال وقرروا الاستقلال بالمدن التي يحكمونها، فاستقل "سليمان بن يقظان الأعرابي" والي برشلونة وجيرونة بولايته، واستقل "الحسين بن يحيى الأنصاري" بسرقسطة.

رأى سليمان الأعرابي أنه يحتاج لمساعدة من أجل توثيق حكمه والاستعداد لحملات الداخل الانتقامية، ولم يتردد في زيارة بلاط شارلمان عظيم الفرنجة في بادربورن⁽⁴²⁸⁾⁽⁴²⁹⁾، من أجل طلب المساعدة العسكرية ضد عبد الرحمن الداخل⁽⁴³⁰⁾، في محاولة لإغرائه بضم ولاية الثغر الأعلى وقاعدتها مدينة سرقسطة إلى ملكه. رأى شارلمان أن في هذا الحديث منفعة له وللفرنجة، فلبّى رغبة الأعرابي، وقرر غزو الأندلس، وقاد شارلمان طموحه في توسيع العالم المسيحي وسلطته الخاصة، لشنّ حملة عسكرية على هسبانيا؛ لما رأى في ذلك من سهولة بسبب وعد الأعرابي بالاستسلام السهل.

وبعد إغلاق هذا التحالف في بادربورن، سار شارلمان عبر جبال البرانس عام ٧٧٨م، على رأس قوة كاملة وشاملة⁽⁴³¹⁾⁽⁴³²⁾، فقد قاد شارلمان الجيش النوستري الفرنسي فوق فاسكونية إلى جبال البرانس الغربية، في حين أن القوات المشتركة من النمساويين، واللومبارديين، والبورغونديين، مرت فوق جبال البرانس الشرقية عبر كاتالونيا، وأثناء عبور شارلمان عبر فاسكونية الفرنسية، استولى في طريقه على مدينة بنبلونة معقل الباسك، وأحدث بها فوضى عارمة⁽⁴³³⁾.

كان سليمان الأعرابي يقف في انتظار قدوم جيش شارلمان على أحر من الجمر حتى وصل، واستقبل الأعرابي قواته في برشلونة وجيرونة⁽⁴³⁴⁾، وأثناء تحركه نحو سرقسطة، انضمت قوات شارلمان إلى قواتٍ بقيادة الأعرابي، فوضعوا مدينة سرقسطة تحت الحصار.

سرقسطة وقتها كان يسيطر عليها الثائر الآخر على الدولة الأموية في الأندلس، وهو "الحسين بن يحيى الأنصاري"، وطال الحصار واستغرق وقتًا أكثر مما كان يتوقع شارلمان؛ فقد استمر لأكثر من شهر، حينها لم يتردد في قذف اللوم على الأعرابي، بسبب مخادعته وتهوينه المفرط للأوضاع بالداخل وللثغر الأعلى، والتي بدت عكس ذلك، ومن ثم أمر باعتقال الأعرابي وأسرِهِ،

بعدها شعر شارلمان أن هذه ربما تكون حفرةً قد تُمكن الأندلسيين من قطع طرق الإمداد وعزله بجيشه عن بلاده، فقرر الانسحاب فورًا⁽⁴³⁵⁾، وما عَجَّل ذلك، الأنباء التي وردت عن تمرد السكسونيين في الشمال.

وفي طريق عودته، عرَّج على بنبلونة الباسكية مجددًا، فعبث بها ثانيةً، وقرر شارلمان زيادة تأمين سيطرته على إقليم الباسك (واسكونيا)⁽⁴³⁶⁾، فقام أولًا بإزالة أي معارضة محتملة من السكان الأصليين في المنطقة، وهم قبائل الباسك، معتقدًا أن العديد منهم متحالفون مع المسلمين، وأصدر أوامر بهدم جدران عاصمة إقليم الباسك بامبلونة، من أجل ضمان عدم استخدامها في صراعات مستقبلية إن قرر الرجوع مرةً أخرى، ولكن تشير بعض المصادر الأولية إلى أنه دمر المدينة بالكامل، كما ساوى العديد من البلدان الأخرى في المنطقة بالأرض، ثم وضع الحاميات والمواقع العسكرية في جميع أنحاء الإقليم، وكانت هناك روايات عن معاملة الفرنجة القاسية للباسك أثناء احتلالهم⁽⁴³⁷⁾.

بعد تأمين المنطقة، سار شارلمان باتجاه ممر رونسفال في جبال البرانس للعودة إلى فرنسا، وأمر بوضع العديد من اللوردات البارزين، كاللورد المميز "رولاند" الذي يشغل منصب الحاكم العسكري لبريتون مارش، وكذلك اللورد المميز "وايجهارد" عمدة القصر، في الحرس الخلفي لحماية ساقه الجيش⁽⁴³⁸⁾، وعندما وصل الجيش لممر رونسفال، كانوا فريسة لكمين محكم أعده الباسك والمسلمون.

اختلفت الروايات في المصادر العربية والإسلامية عن نظيرتها من المصادر الغربية واللاتينية، حول من دبَّر هذا الكمين؛ فالمصادر الإسلامية تقول إنه كمين قام به المسلمون بقيادة "مطروح" و"عيشون" ابني سليمان بن يقظان الأعرابي؛ من أجل تحرير أبيهم الأعرابي من الأسر⁽⁴³⁹⁾، أما الروايات الغربية فتقول إن هذا الهجوم قد قام به الباسك انتقامًا لهدم مدنهم وتخریب عاصمتهم بنبلونة، كذلك معاملته الوحشية لهم أثناء الغزو⁽⁴⁴⁰⁾، (اختلفت الأقاويل حول من خطط للكمين وقاده، لكن يبدو أن الهجوم كان مشتركًا لما اقترفه الفريقان من غنائم).

وفي ليلة المغادرة، التي هي تحديدًا مساء يوم ١٥ أغسطس، تعرض الحرس الخلفي لشارلمان لهجوم مفاجئ من قبل الثائرين أثناء عبورهم الممر الجبلي، ففوجئ الفرنجة بالهجوم البارج، وأصيب جيشهم بالارتباك والفوضى أثناء محاولتهم الفرار من الكمين⁽⁴⁴¹⁾، وبعد أن هاجم الثائرون مؤخرة جيش شارلمان، أرسل الباسك الغاضبون والمسلمون محاربيهم لملاحقته هو وجيشه، وساعدهم في ذلك معرفة الباسك بالمنطقة على تجاوز الفرنجة. وعلى الرغم من أن الباسك والمسلمين لم يكونوا مسلحين بشكل

كامل، لكن ما ساعدهم هو سيطرة الباسك على قمم الجبال، ومعرفة التضاريس، ومن ثم استخدموا تقنية حرب العصابات في القتال. وعندما حاول شارلمان إعادة تجميع صفوفه وإخلاء جيشه، احتُجز رولان والآخرون فترة طويلة من الوقت قبل أن يقتلهم الباسك في النهاية، وكان الثائرون على وشك النيل من شارلمان نفسه، لولا أن حرسه الخلفي قاتل ببسالة، وضمنوا له العبور في أمان⁽⁴⁴²⁾، وقُضي على ساقه جيش الفرنجة عن بكرة أبيها، ثم غنم الثائرون الأمتعة التي تُركت وراءهم، واستغلوا الظلام للفرار، ولم يتركوا أي أثر يتبعه الفرنجة في صباح اليوم التالي، وبهذا الشكل لم تنجح محاولات الأعرابي لدخول شارلمان، وكذلك محاولة الأنصاري الاستقلال بسرقسطة، وقُتل الأنصاري⁽⁴⁴³⁾.

برغم أنها لم تكن حربًا كبيرة، فقد شارلمان كميات هائلة من العتاد والرجال المقربين؛ لقد عدها الباحثون الهزيمة الوحيدة في حياته العسكرية الناجحة⁽⁴⁴⁴⁾، وبسببها لم يفكر شارلمان مرةً أخرى في قيادة جيش متجهًا نحو إسبانيا، واضطر بدلًا من ذلك إلى الاعتماد على جنرالاته في الحملات المستقبلية في شبه الجزيرة الإيبيرية⁽⁴⁴⁵⁾.

وبرغم هذه الهزيمة، لم يتوقف شارلمان عن بناء أمجاده، حتى أصبح أول إمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ لينهي تاريخيًا زمن حكم البرابرة للأبد.

* * *

٢٥- نهاية عروش البرابرة (ولادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة)

بعد خسارته الكبيرة، قرر شارلمان سدّ هذا الباب الثائر بحائط سياسي؛ خوفًا من توغّلهم داخل مملكته، وقام بتأسيس ماركا هسبانكا، المعروف بالثغر الإسباني، وهي منطقة دفاعية عازلة، أنشأها لتكون منطقة حدودية بين الدولة الأموية في الأندلس والإمبراطورية الكارولنجية.

بعد بضع سنوات عاود الفرنجة هجومهم على الأندلس، ونجحت حملاتهم في السيطرة على برشلونة، وكان هذا النصر الكبير هو ضربة موجعة للمسلمين، بعد أن فقدوا شطرًا هامًا من ثُغورهم القريبة من جبال البرانس، وفشلت جميع المحاولات التالية في استعادتها؛ فقد تمكنت الإمبراطورية الكارولنجية من فرض سيطرتها على الأراضي الإسلامية على طول الحافة الجنوبية من تلك الجبال، واتخذوا المدينة قاعدة انطلاق للاستيلاء على المدن المجاورة⁽⁴⁴⁶⁾.

وبعد أن تمكنوا من الاستيلاء على برشلونة⁽⁴⁴⁷⁾، قاموا بتأسيس مملكة أقطانية مع ابن لويس الملقب بـ"لويس الورع" (لويس التقي)، كأول ملك لها، ستخضع جميع الأراضي في جبال البرانس لسلطة الكارولنجيين، وستوزع بين المستعمرين والكنيسة الإسبانية المتحالفة مع شارلمان، لقد تم وضع برنامج التنصير عبر جبال البرانس، سيواصل الباسك تمردهم على الحكم الكارولنجي حتى تعيين "ويليام جيلون"، الذي سيحل تمردهم بعد أسر ونفي ابن لوبو وزعيم الباسك "أدالريكفي" عام ٧٩٠م⁽⁴⁴⁸⁾.

في ذات الوقت، بعد القضاء على أي سلطة لومباردية مستقبلية، قام شارلمان بتوسيع نطاقه إلى بافاريا⁽⁴⁴⁹⁾، بعد أن أجبر "تاسيلو الثالث" دوق بافاريا، على التخلي عن أي مطالبة باللقب في عام ٧٩٤م، وكذلك قضى على اتحاد آفار في عام ٨٠٣م، بعد أن أرسل الجيش البافاري إلى بانونيا، كما غزا الأراضي السكسونية في الحروب، وقمع ثوراتهم وانتفاضاتهم من عام ٧٧٢م إلى عام ٨٠٤م، وخلال هذه الانتفاضات قام شارلمان بمذبحة فيردن ضد السكسون، بعد أن أمر بمقتل ٤٥٠٠ سكسوني في أكتوبر من عام ٧٨٢م، حينما أعلن سيادته على سكسونيا في عام ٧٧٢م، وأثناء حملته لتنصير السكسون، دمر مكانهم المقدس إرمينسول، المعروف باسم "العمود العظيم"، وهو شيء مقدس شبيه بالعمود، كان رمزًا وثنيًا يلعب دورًا مهمًا في الوثنية الجرمانية للسكسونيين⁽⁴⁵⁰⁾.

بسبب أن أباه "بيبان القصير" كان أول ملك أوروبي اعترف بسلطة البابا الزمنية، كان الابن شارلمان وريثًا لنفس الطقس، وظلت فرنسا تحمي تلك

الدولة التي امتزجت فيها السلطان الروحية بالزمنية، وبعد هذه السيطرة العارمة على الغرب الأوروبي، أصبح شارلمان من أشهر شخصيات التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى، واستدعى ذلك البابا "ليون الثالث" لتتويجه كإمبراطور على إمبراطورية غربية مسيحية مقدسة، وكان تتويج الإمبراطور الروماني المقدس عبارة عن احتفال تَسَلَّم فيه حاكم أكبر كيان سياسي في أوروبا الغربية آنذاك، التمجيد الإمبراطوري على يد البابا، ما يرمز إلى حق البابا في تتويج الملوك المسيحيين والإمبراطورات الرومانيات المقدسات، وكذلك دور الإمبراطور كحام للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وسيصبح التتويج البابوي شرطاً أساسياً للحصول على اللقب الإمبراطوري حتى عام ١٥٠٨م⁽⁴⁵¹⁾.

بالفعل تُوج شارلمان إمبراطوراً رومانياً مقدساً، من قبل البابا ليون الثالث في عام ٨٠٠م⁽⁴⁵²⁾؛ لينتهي بذلك زمن الممالك البربرية رسمياً، في معارضة لسلطة الإمبراطورية البيزنطية الرومانية الشرقية المتبقية⁽⁴⁵³⁾. وقبل وفاته، تم تقسيم الإمبراطورية بين أعضاء مختلفين من سلالة كارولنجيان: ابنه الملك "تشارل الأصغر" حصل على نيوستريا⁽⁴⁵⁴⁾، والملك "لويس الورع" (التقي) حصل على أكتاين⁽⁴⁵⁵⁾، والملك "بيبين" حصل على إيطاليا. ثم توفي بيبين في عام ٨١٠م، وترك ابناً غير شرعي، وهو "برنارد"، ورغم كونه غير شرعي، إلا أن جده شارلمان سمح له أن يرث أملاك والده في إيطاليا بعد وفاته.

أما تشارلز فقد توفي بدون ورثة عام ٨١١م، وعلي الرغم من أن برنارد خلف بيبين ملكاً لإيطاليا، فقد أصبح لويس مشاركاً للإمبراطور في عام ٨١٣م، وانتقلت إليه الإمبراطورية بأكملها بوفاة شارلمان في شتاء ٨١٤م⁽⁴⁵⁶⁾، وبسبب ذلك شارك برنارد في مؤامرة ضد عمه وخليفة جده لويس التقي؛ مما أدى إلى قتله في عام ٨١٨م، وخلفه ابن عمه "لوثر الأول" في عام ٨٢٢م.

في نهاية المطاف، قبل وفاة لويس التقي، كان وُورث أبناءه من الزواج الأول: إيطاليا لـ"لوثر الأول"، وشاركه في الحكم، ووُورثه الحكم الشامل بعد اغتياله كما ذكرنا، و"بيبين" ورث أكتاين، و"لويس الألماني" ورث بافاريا، وعندما حاول تعيين ابنه الرابع من زواجه الثاني "شارل الثاني" المعروف بـ(شارل الأصغر) ملكاً، قاومه أبناءه، وخلال السنوات الأخيرة من حكم لويس الأول الورع، كانت المملكة الفرنكية تعاني من حرب أهلية.

وفي عام ٨٤٢م، قام أحفاد شارلمان بعقد قَسَم ستراسبورغ، الذي يعتبره بعض المؤرخين في فرنسا، عقد الميلاد الرسمي لبلاد فرنسا، وكذلك ألمانيا وإيطاليا، تلا ذلك معاهدة فيردان سنة ٨٤٣م، التي قَسَم بموجبها أبناء لويس

الورع الثلاثة الباقون على قيد الحياة الإمبراطورية الكارولنجية إلى ثلاثة ممالك: لويس الثاني الأراضي التي أصبحت فيما بعد ألمانيا، شارل الأول الأصلع الأراضي التي أصبحت فيما بعد فرنسا، لوثر الأول أجزاء كانت فيها بعض الأراضي الإيطالية.

ومع كل هذه الأحداث في غرب أوروبا، ظلت سرقسطة مدينة إسلامية، ولاحقًا إمارة مستقلة، وستظل كذلك حتى القرن الحادي عشر، وكذلك بقيت بامبلونة نفسها في أيدي المسلمين، حتى طردهم تمرّدٌ قد قام بين عامي 798-801م، عززت أسرة فاسكوني أخيرًا مملكة بني قاسي الأندلسية المسلمة، وفي النهاية دستور مملكة بامبلونة المستقلة عام 824م، وبعد ولادة مقاومة جديدة للحكم الكارولنجي.

وفي نفس العام، هزم جيش الباسك جيشًا كارولنجيًا آخر في نفس الممر الجبلي، فيما يسمى بمعركة ممر رونسيغال الثانية، والتي كانت متطابقة تقريبًا مع الأولى، ولكن ضد قوة فرانكية أكبر بكثير، ففي المرة الأولى قد تمكن جيش شارلمان من الفرار، لكن في المرة الثانية حوَصر الكارولنجيون بقيادة الكونت "أيبلس"، وتم هزيمتهم هزيمة كبيرة، وقُتل عدد من رجالهم أكثر من رجال شارلمان الأولين⁽⁴⁵⁷⁾، وتم الاستيلاء على توابع الفرنجة أيبلس وأزنا من قبل القوات المشتركة لبامبلونة بقيادة "إينيغو أريستا"، وبني قاسي المسلمين، مما عزز استقلال كلا المملكتين⁽⁴⁵⁸⁾.

وبهذا الشكل نجت الأندلس من ابتلاع إمبراطورية الفرنجة، والإمبراطورية الغربية المقدسة التي جابت الغرب كله، وقضت على جميع الممالك البربرية والجرمانية بكل أنواعها للأبد.

أما أوروبا الشرقية والوسطى، فلا تزال الصراعات فيها مشتعلة، فما زال البلغاريون يهددون بقاء البيزنطيين...

* * *

٢٦- محاولة بلغاريا غزو بيزنطة (تجديد الحرب البيزنطية البلغارية)

بعد ذبح "نقفور الأول" والتمثيل بجمجمته، تسلم "ستوراكيوس" الإمبراطورية، لكنه أجبر على التنازل عن العرش بعد فترة قصيرة (ثم توفي متأثرًا بجراحه عام ٨١٢م)، وخلفه صهره "مايكل الأول رانجابي" (ميخائيل الأول) في عام ٨١٢م، وفي عهده غزا كروم البلغاري تراقيا البيزنطية، واستولى على مدينة ديفيلت، وأصاب سكان القلاع المجاورة بالهلع، ففروا نازحين نحو القسطنطينية، وبرغم هذه القوة كان كروم على استعداد تام للسلام، فقط إن عاد البيزنطيون إلى معاهدة سلام عام ٧١٦م، لكن الإمبراطور مايكل رفض قبول هذا الاقتراح؛ لرغبته عدم إبرام اتفاقية سلام وهو في موقف ضعف، ولإجباره على الموافقة حاصر كروم ميسميريا (نيسبار)، ثم استولى عليها في خريف عام ٨١٢م.

وبعدها بأشهر قليلة، وتحديدًا في فبراير من عام ٨١٣م، تآهب البلغار وهجموا على تراقيا، لكن قوات الإمبراطور صدتهم، وفي محاولة لاستغلال نجاح الصد البيزنطي، استدعى مايكل الأول قوات من الإمبراطورية بأكملها وتوجه شمالًا، على أمل تحقيق نصر حاسم، وعلى الجبهة المناظرة قاد كروم جيشه جنوبًا نحو أدريانوبل⁽⁴⁵⁹⁾، ونصب معسكرًا بالقرب من فيرسنيكيا، وعندما تقابل الفريقان، لم يبدأ أيُّ منهما هجومًا لمدة أسبوعين متواصلين، وبعد طول انتظار بادر البيزنطيون بالهجوم في ٢٢ يونيو ٨١٣م، لكنهم تفاجأوا بدفاعات بلغارية حصينة أجبرتهم على الترحل والهروب⁽⁴⁶⁰⁾، وهُزم جيش مايكل، وزحف كروم نحو القسطنطينية، وبعد حصارها، أجبر مايكل على التنازل عن العرش وأصبح راهبًا.

عندما قدم الإمبراطور الجديد "ليو الخامس الأرميني"، عرض على كروم التفاوض، واستدعاه للقاء في القصر، لم يكن يعلم كروم أن هناك فخًا معدًّا له، فعندما وصل تعرض لكمين من قبل الرماة البيزنطيين، وهرب بصعوبة بالغة رغم إصابته، ولإرضاء غضبه، قام بتدمير ضواحي القسطنطينية، واستولى على أدريانوبل⁽⁴⁶¹⁾، وتناول على السكان عبر نهر الدانوب.

ولعلمه أن طقس الشتاء قد اقترب، قرر مسابقة الزمان، واستغل الطقس الجيد الحالي، لإرسال قوة قوامها ٣٠ ألفًا إلى تراقيا، وتمكنت القوة من الاستيلاء على أركاديوبوليس، وسلسلت حوالي ٥٠ ألف أسير، ونهبت الكثير من الكنوز والمشغولات من أجل إعادة بناء العاصمة البلغارية المدمرة بليسكا، وربما قد ساهم الحرفيون من الأسرى في بنائها على الطابع البيزنطي، وبعد التوقف توعد كروم بمواصلة الانتقام بعد انتهاء فصل الشتاء،

لكنه توفي قبل قدوم الصيف، تحديدًا في ١٣ أبريل ٨١٤م، وخلفه ابنه "أومورتاج".

قرر الابن أومورتاج تنفيذ وعيد أبيه، ومع بداية حكمه قرر غزو الإمبراطورية البيزنطية بعد رفض العروض البيزنطية للسلام، وتوغل البلغار جنوبًا، فقابلهم جيش الإمبراطور ليو الخامس الأرمني، فتمكن منهم وهزمهم، وهرب خان أومورتاج من ساحة المعركة، لكن برغم الخسارة، وبرغم تأثيرها، لم تكن المعركة ضربة قاضية للبلغاريين، الذين عادوا للملمة الصف المشغثة، بينما ذهب البيزنطيون في محاولة إبرام تحالف مع الفرنجة.

وقد خاف أومورتاج من ذلك لعدم استعداده لهذا التكتل في الوقت الحالي، كذلك رأى الحاجة لتعزيز سلطته البلغارية على الأراضي المحتلة حديثًا، فتساهل من أجل إبرام معاهدة جديدة ستقام لمدة ٣٠ عامًا مع البيزنطيين في عام ٨١٥م، وقد رسمت هذه المعاهدة الحدود في تراقيا، والقضية مع أولئك السلاف الذين بقوا في بيزنطة، وشملت تبادلًا لأسرى الحرب.

ومع قدوم الإمبراطور البيزنطي الجديد "مايكل الثاني" (ميخائيل الثاني) في عام ٨٢٠م، قرر الإبقاء على المعاهدة، وفي عهده وقع تمرد كبير في عام ٨٢١م، بقيادة "توماس السلافي" الذي حاصر القسطنطينية بمساعدة العرب - فيما سيرد ذكره في موضعه - ساعيًا للاستيلاء على العرش الإمبراطوري لنفسه، حينها أرسل خان أومورتاج جيشًا لمساعدة مايكل الثاني في إخماد التمرد بموجب اتفاقية السلام.

وعندما جاء عهد الإمبراطور "ثيوفيلوس"، رأى أن معاهدة السلام الأصلية التي دامت ٢٠ عامًا مع الإمبراطورية البيزنطية قد انتهت، وفي عام ٨٣٦م أقبل على تدمير المناطق الواقعة داخل الحدود البلغارية. ثم رد خان أومورتاج بإرسال وزيره "إسبول" على رأس جيش، وتمكن من ضم مدينة فيليبوبوليس (بلوفديف)⁽⁴⁶²⁾ وضواحيها. وبرغم الصراع، عندما تمرد السلاف بالقرب من سالونيك ضد الإمبراطورية البيزنطية في عام ٨٣٧م، سعى الإمبراطور ثيوفيلوس للحصول على الدعم البلغاري في إخماد التمرد، لكنه جهز في نفس الوقت أسطوله للإبحار عبر دلتا نهر الدانوب، والقيام بإجلاء سرّي لبعض الأسرى البيزنطيين الذين استقروا في بلغاريا عبر الدانوب بواسطة كروم وابنه أومورتاج، وردًا على هذه النوايا الغير جيدة، قام إسبول بحملة على طول سواحل بحر إيجة في تراقيا ومقدونيا، استولى من خلالها على مدينة فيليبيا المقدونية.

حكم "بوغوريس" بلغاريا بعد ذلك، والذي سُمّي "بوريس الأول" (مايكل بوريس)، بعد اعتناقه المسيحية وتعميده في عام ٨٦٤م، وقد صفه المؤرخ "ستيفن رونسيمان"⁽⁴⁶³⁾ بأنه أحد أعظم الشخصيات في التاريخ⁽⁴⁶⁴⁾. ولكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من دبلوماسيته المقتدرة، وجنكته

السياسية، وأهميته التاريخية في عملية تحويل بلغاريا إلى المسيحية، لم يكن بورييس الأول محاربًا جيدًا؛ فقد هُزم مرات عديدة من قبل الفرنجة والكروات والصرب والبيزنطيين.

ويُذكر أنه بعد فترة وجيزة من وصوله إلى السلطة، شن بورييس حملة قصيرة ضد البيزنطيين في عام ٨٥٢م، من خلالها اكتسب بعض الأراضي في مقدونيا الداخلية⁽⁴⁶⁵⁾.

قبل أن يعتنق المسيحية، وبعد سنوات قليلة، بدأ صراع آخر بين البيزنطيين والبلغاريين بين عامي ٨٥٥ و٨٥٦م، فقد أرادت الإمبراطورية البيزنطية استعادة سيطرتها على بعض مناطق تراقيا الداخلية، والموانئ المحيطة بخليج بورغاس على البحر الأسود، وبالفعل نجحت القوات البيزنطية بقيادة الإمبراطور والقيصر "بارداس"، وتمكنت من استعادة عددٍ من المدن، من بينها فيليبوبوليس وديفلتوس وأنكيالوس وميسمبريا، وكذلك المنطقة الحدودية بين سيدر وديفلتوس، والمعروفة باسم زاكورة، في شمال شرق تراقيا⁽⁴⁶⁶⁾⁽⁴⁶⁷⁾، وفي وقت هذه الحملة كان البلغار منشغلين بالحرب مع الفرنجة تحت حكم "لويس" الألماني.

ثم بعد ذلك بدأت قصة تنصيره في عام ٨٦٣م، عندما اتخذ قرارًا باعتناق المسيحية، وكان مائلًا إلى تنصيره من قبل الفرنجة، ولكن لم تتقبل بيزنطة فكرة أن جازًا قريبًا مثل بلغاريا يقع تحت السيطرة الدينية الفرنجية؛ فبعد أن حققت بيزنطة مؤخرًا انتصارًا كبيرًا على العرب، كانت حرة في تشكيل قوة عسكرية كبيرة ضد بلغاريا، وبالفعل تم إرسال أسطول إلى البحر الأسود من أجل مهمة غزو بلغاريا؛ نظرًا لأن الجزء الأكبر من جيش بورييس كان يشن حملة ضد مورافيا في أقصى الشمال الغربي، لم يكن لديه خيار سوى الاستسلام على الفور، فقطع تحالف الفرنجة، وسمح لرجال الدين اليونانيين بدخول بلغاريا، وفي النهاية تم تعميده مع الإمبراطور البيزنطي مايكل الثالث، كراعٍ له، وعند معمودية بورييس مُنح لقب "ميخائيل"، وكمكافأة له سُمح للبلغاريين باستعادة منطقة زاكورة المثيرة للجدل⁽⁴⁶⁸⁾.

عندما تولى بعده سيمون الأول في عام ٨٩٣م، كان السلام مع البيزنطيين الذي أبرمه والده على وشك الانتهاء، وفي خريف عام ٨٩٤م قرر سيمون غزو الإمبراطورية البيزنطية من ناحية الشمال، مستغلًا القوات البيزنطية القليلة الموجودة، بسبب تمركز معظم القوات البيزنطية في شرق الأناضول لمواجهة العرب.

وعندما سمع "ليو السادس" بذلك، أرسل جيشًا يتكون من حراس ووحدات عسكرية أخرى من العاصمة لوقف سيمون، وانتهت الحرب في عام ٨٩٦م بانتصار بلغاري عظيم بالقرب من بولجار وفيجون في شرق تراقيا، وكان على الإمبراطور البيزنطي دفع جزية سنوية لبلغاريا، والأهم من ذلك، نجح

سيمون - بمساعدةٍ من البتشنق الأتراك - في صد الغزو المجري، الذي تم بالتنسيق مع البيزنطيين.

توفي ليو السادس في ١١ مايو ٩١٢م، واستغل سيمون الاضطراب الواقع في الداخل البيزنطي آنذاك، وادعى لنفسه اللقب الإمبراطوري، وحاول استبدال بيزنطة كأكبر قوة في المنطقة؛ من أجل تأسيس إمبراطورية بلغارية-بيزنطية جديدة، فهاجم بكامل قوته في أواخر يوليو أو أغسطس ٩١٣م، ووصل إلى القسطنطينية دون أي مقاومة تُذكر، ولم يتوقف سيمون عن الغزو إلا بعد أن اقتنص دفع المتأخرات في الجزية البيزنطية، واتفق على زواج "قسطنطين السابع" ابن ليو السادس من إحدى بناته، والأهم من ذلك، اعتراف البطريرك "نيكولاس" رسميًا به كإمبراطور (قيصر) البلغاريين، واستخدام سيمون لقب "إمبراطور البلغار والرومان" من الآن فصاعدًا.

عاد سيمون إلى بلغاريا، وعادت "زوي" والدة قسطنطين إلى القصر بإصرار من الإمبراطور الشاب بعد إقصائها من قبل أعوان سيمون في القصر، ومن خلال مؤامرة، تمكنت من تولي السلطة في فبراير ٩١٤م، مما أدى عمليًا إلى إزاحة البطريرك نيكولاس من الحكومة، وبالتالي التبرؤ من اعترافه باللقب الإمبراطوري لسيمون، وأعلنت كذلك الرجوع في وعد ابنها الزواج من بنت سيمون.

وردًا على ذلك، غزا سيمون تراقيا في صيف ٩١٤م، واستولى على أدريانوبل، ومع حلول عام ٩١٧م، تمكن البيزنطيون من الرد؛ حيث غزا جيش بيزنطي قوي بقيادة "ليو فوكاس"، ابن "نقفور الثاني فوكاس" (نيكيفوروس فوكاس) بلغاريا، بدعم واضح من البحرية البيزنطية التي يقودها "رومانوس ليكابينوس"، التي أبحرت إلى موانئ البحر الأسود البلغارية، بعدها توقفت قوات فوكاس للراحة بالقرب من نهر أخيلوس، وهناك كانوا على موعد مع قوات سيمون الخفية، والتي انقضت عليهم بشكل مفاجئ كعادة حروب البلغار من التلال المجاورة، حينما كانوا يستريحون غير منظمين، ووقعت معركة أخيلوس في ٢٠ أغسطس ٩١٧م، التي تُعتبر من أهم معارك العصور الوسطى.

وبتخطيطٍ جيد، تمكّن البلغار من الانتصار الساحق على البيزنطيين، وهرب فوكاس إلى ميسمبريا، وبمساعدة البتشنق شن سيمون حملة كبيرة ضد السيادة الأوروبية لبيزنطة، وحينما اقتربوا من القسطنطينية، كان قد عاد ليو فوكاس الهارب من جديد، وقاد القوات للتصدي والدفاع عن القسطنطينية⁽⁴⁶⁹⁾.

قرر سيمون الانتقام من حلفاء بيزنطة، لا سيما إمارة صربيا؛ فغزت القوات البلغارية صربيا، وأطاحت بالحكام المحليين. في غضون ذلك، حل الأدميرال "رومانوس ليكابينوس" محل "زوي" الأم، كوصيٍّ على الشاب قسطنطين

السابع في عام ٩١٩م، وتقدم بنفسه إلى رتبة إمبراطور مشارك في ديسمبر ٩٢٠م؛ حيث تولى فعليًا السيطرة على الإمبراطورية، ورأى سيمون أن منصب الإمبراطور قد انْتزَع منه هو، وبسبب غضبه، شن حربًا جديدة لفرض إرادته، بين أعوام ٩٢٠ و٩٢٢م.

وبإحكام شديد تمكنت بلغاريا من الضغط على بيزنطة، وشنّت حملات في الغرب عبر ثيساليا، ووصلت إلى برزخ كورنث، وفي الشرق في تراقيا، ووصلت وعبرت الدردنيل لفرض حصار على بلدة لامبساكوس، ووقفت قوات سيمون على أبواب القسطنطينية عام ٩٢١م، مطالبين بتنحي رومانوس، وانتصروا في معركة بيجاي، وحرقوا الكثير من القرن الذهبي، وقاموا بالاستيلاء على منطقة بيز(470).

ومن أجل التخطيط للتوغل في القسطنطينية، أرسل سيمون عام ٩٢٤م رسالة بطلب الدعم من الحاكم الشيعي الفاطمي "عبيد الله المهدي بالله"، الذي كان يمتلك أسطولًا بحريًا قويًا، وهو ما يحتاجه سيمون. وافق عبيد الله على التحالف، لكن تدخل وعرض رومانوس السلام على مصر الفاطمية، وأوفد إليها هدايا قيمة، ودمر التحالف الفاطمي الجديد مع بلغاريا.

في ٩ سبتمبر ٩٢٤م، ذهب سيمون للقسطنطينية، وعرض على البيزنطيين هدنة، بموجبها ستدفع بيزنطة لبلغاريا ضريبة سنوية. وفي عام ٩٢٦م، غزت قوات سيمون كرواتيا كاستمرار لانتقامه من حلفاء بيزنطة، ولكن جيش الملك "توميسلاف" هزمها بشدة في معركة المرتفعات البوسنية، وعلى الرغم من تدمير الجيش الذي أرسله إلى كرواتيا، إلا أن سيمون احتفظ بقوات عسكرية كافية للتفكير في عدوان متجدد ضد البيزنطيين(471).

رأى سيمون أن حلمه باعتلاء عرش الإمبراطورية البيزنطية قد سرق من عمره ١٤ عامًا دون جدوى، فأصابه الإحباط الشديد، وفي العام الذي أعقب تدمير جزء من جيشه في كرواتيا، أثناء التخطيط لهجوم آخر على البيزنطيين، توفي بنوبة قلبية في قصره في بريسلاف في ٢٧ مايو ٩٢٧م(472).

عندما استلم ابنه "بيتر الأول" الحكم، أصر على استكمال الحرب، وشن حملة ناجحة على تراقيا البيزنطية، وبعد إثبات قوته أرسل بعثة دبلوماسية إلى القسطنطينية بحثًا عن السلام. وبعد المفاوضات، تم التوصل إلى السلام، مع إعادة الحدود إلى تلك المحددة في معاهدتي ٨٩٧ و٩٠٤م، ومعنى ذلك أن كل ما قد تحصل عليه سيمون الأول مؤخرًا سيعاد إلى بيزنطة، مقابل الاعتراف بالسيطرة البلغارية على مقدونيا الداخلية، وكذلك زواج بيتر من "ماريا ليكاينا"، حفيدة "رومانوس الأول"، بالإضافة إلى تكريم سنوي، والاعتراف بلقب القيصر، وبموجب هذا استمر السلام بينهما حتى عام

٩٦٦م(473).

وفي ظل هذا التوتر في الشرق، كان أقصى الغرب على موعد مع توترٍ جديد؛ حيث عانت الجزر البريطانية من مذابح، نفذتها أقوام ظهرُوا بوحشيتهم على أوروبا القارية، إنهم الفايكنج...

* * *

٢٧- عهد الفايكنج ومصائبهم (أوروبا النوردية والغربية حتى عام ١٠٠٠م)

كانت ليلة يوم ٨ يونيو من عام ٧٩٣م ليلة دموية قاسية على مدينة ليندسفارن البريطانية بكل المقاييس؛ فقد شهد دير هذه المدينة، المسماة بالجزيرة المقدسة (هولي آيلاند)، الموجودة قبالة الساحل الشمالي الشرقي لإنجلترا، والتي كانت مركزًا مهمًا للمسيحية السلتية، هجومًا عنيفًا من مجموعات نورسمانية (إسكندنافية)، لقد قُتل رهبان الدير، ومن نجا من القتل ألقى به في البحر ليموت غرقًا، ومن نجا من ذلك أو ذاك تم أسره كعبد وسُلب مع كنوز الكنيسة؛ ل يتم شحنه في السفن العائدة.

ووسط صرير السيوف، ودماء القتلى، أقيمت الصلاة في الدير أثناء المذبحة، حتى يُخلصهم الرب من غضب الشماليين، وكان هذا الهجوم هو الإعلان الأول عن بداية عصر الفايكنج⁽⁴⁷⁴⁾، برغم ذلك هناك بعض الآراء التي ترى أن ظهور الفايكنج كان قبل ذلك، وأنه ما بين ٧٠٠ و٧٥٠م، وأن هجوم دير ليندسفارن لم يكن هو الأول، لكنه كان الإعلان الأول عن وحشتهم، واستندت هذه الآراء على أنه كان هناك وجود اتصالات بين الدول الإسكندنافية والجزر البريطانية في وقت سابق من هذا القرن⁽⁴⁷⁵⁾.

وقالت هذه الآراء: إن هؤلاء كانوا يهجمون على الجزر البريطانية في بادئ الأمر بغارات على الأرجح صغيرة الحجم، لكن مع دخول القرن التاسع كانت غاراتهم أوسع⁽⁴⁷⁶⁾، وكانت قد ظهرت ضرباتهم الأولى عندما بدأوا في بناء سفن حربية وإرسالها في حملات مدهامة بغرض القرصنة، وبعد سنوات قليلة شاع صيتهم في كل أركان أوروبا، وبسرعة البرق اشتهروا في إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا وويلز وأماكن أخرى في أوروبا بكونهم أناسًا وحشيين، وكانوا قد انطلقوا بعد أن أسسوا أولى ممالكهم في النرويج؛ بسبب أن تضاريسها الجبلية ومضايقها تمثل حدودًا طبيعية قوية، وظلت مجتمعاتهم مستقلة عن بعضها البعض، بعكس ما تم في الدنمارك.

وبحلول عام ٨٠٠م، زادت الممالك في النرويج؛ لتصل إلى حوالي ٣٠ مملكة صغيرة، وكان يتم الربط بين تلك الممالك عن طريق البحر، وكانوا يتحدثون اللغة الجرمانية الشمالية⁽⁴⁷⁷⁾، وبحلول عام ٨٠١م، تمكنوا من إنشاء سلطة مركزية قوية في جزيرة جوتلاند السويدية، حينها فكر الفايكنج في البحث خارج أراضيهم عن التجارة من جهة، أو النهب من جهة أخرى.

غزا الفايكنج أوروبا الغربية والشرقية انطلاقًا من الدنمارك والنرويج والسويد الحالية، كما استقروا بعد غزواتهم الناجحة في جزر فارو، وأيرلندا، وأيسلندا، ومحيط اسكتلندا (كيتيس، وهبريدس، والجزر الشمالية)،

وجرينلاند، وكندا، وكانت إنجلترا وويلز وأيرلندا أضعف المناطق التي استولى عليها الفايكنج؛ والسبب أنهم لم يتحدوا أو ينسقوا سوياً، فقد تم تقسيمهم إلى العديد من الممالك المتحاربة المختلفة في حالة من الفوضى الداخلية، بينما كانت أقوى الدفاعات المحصنة هي دفاعات الفرنجة.

من الاحتمالات المطروحة لقوة الدفاع الفرنجي، أن سببه اكتظاظ السكان على الساحل الفرنجي، أو ربما يكون للتقدم التكنولوجي تأثير مثل استخدام الحديد، أو ربما عدم مهاجمتهم الفرنجة بسبب نقص النساء؛ حيث كان ينتشر بينهم وأدُّ الإناث⁽⁴⁷⁸⁾.

أما السبب في هذه الهجمات من الأساس، فيُقترح أن "هارالد الأول" النرويجي (هارالد فيرهير) قد قام بتوحيد النرويج في هذا الوقت تقريباً، وشرّد العديد من الناس؛ نتيجة لذلك، سعى هؤلاء الأشخاص إلى إيجاد قواعد جديدة لشن غارات مضادة ضد هارالد، وبالتالي قرروا نهب أي مكان متاح أمامهم من أجل المدد، وهناك فرضيات تقول إن هجمات الفايكنج، كان سببها اقتصادياً؛ بسبب الانبهار بالتمدين، وطرق التجارة التي كانت بعيدة عن عالمهم كل البعد، فدائماً ما كان هدف هجمات الفايكنج المدن الأكثر حضارة وثراءً.

بينما يجادل منتقدو هذه الفرضية، بأن أولى غارات الفايكنج المسجلة كانت في غرب النرويج وشمال بريطانيا، والتي لم تكن مناطق متكاملة اقتصادياً بشكل كبير، بينما يحاول بعض الباحثين إثبات أن هذا التوسع كان له أسباب دينية؛ فقد تزامن ظهور الفايكنج مع حروب شارلمان المسيحية ضد الوثنية السكسونية، فقد يعزى هذا إلى أنه ربما كانت هجمات الفايكنج ردّاً على انتشار المسيحية بين الشعوب الوثنية⁽⁴⁷⁹⁾، وبسبب تغلغل المسيحية في الدول الإسكندنافية، أدى الصراع الخطير بين المسيحية والوثنية إلى تقسيم النرويج لفترة تقارب قرناً⁽⁴⁸⁰⁾.

والسبب في تقدم الفايكنج، هو تميّزهم في تكنولوجيا ركوب البحر؛ فلا شك في أنهم قد أدخلوا الكثير من الابتكارات التكنولوجية التي سمحت لهم بالقيام بغارات ناجحة ومخطط لها بمنتهى الدقة⁽⁴⁸¹⁾. ولا شك في أن القرصنة كانت موجودة في بحر البلطيق قبل عصر الفايكنج، لكن التطورات في تكنولوجيا الإبحار وممارستها، جعلت من الممكن لمغيري الفايكنج الأوائل مهاجمة الأراضي البعيدة، فحتمًا إذا لم يكن الإسكندنافيون الأوائل في العصور الوسطى قد أصبحوا رائعين في صناعة السفن الخاصة بهم، لَمَا كان هناك الفايكنج ولا عصر الفايكنج⁽⁴⁸²⁾.

حقق الفايكنج انتصارات واضحة، ووصل هؤلاء إلى حدّ كبير من الخطورة على عموم أوروبا القارية، واتسع وصول المغيرين والتجار والمستوطنين الإسكندنافيين على طول السواحل، وعلى طول وديان الأنهار الرئيسية في

شمال غرب أوروبا.

وفي ظل المواجهات التي حدثت بعد ذلك، خرج الفايكنج بانتصارات عديدة، ضد إنجلترا والفرنجة وأجزاء أخرى من أوروبا الغربية، ثم بعد ذلك استغل الفايكنج تقسيم شارلمان إمبراطورته بين بنيه، وخلافات بعضهم، وكذلك مناوشات الممالك البريطانية مع بعضها البعض⁽⁴⁸³⁾. وبعد وقت ليس بكبير، تمكّن هذا الوحش الكاسر من كسر مملكة الفرنجة، والعبث بمقدراتها، بعد أن تمكنوا من الإبحار عبر نهر السين، بدايةً من نهايات حياة شارلمان (وطوال عهود أبنائه وأحفاده)، كنتيجة لشبّههم الكثير من الغارات الإسكندنافية العنيفة والمكثفة؛ فالغرب كله لم يأمن من غزوات الفايكنج، حيث كانت هجماتهم مكّلة بالانتصار.

ومن أهم هزائم الفايكنج، كانت معركة نورديتي التي وقعت في عام ٨٨٤م (وتسمى أيضًا معركة خليج هيلجنريد)، والتي وقعت على الساحل الجرمانى لبحر الشمال، على يد الجيش الفريزي الجرمانى، بقيادة رئيس أساقفة بريمن-هامبورغ؛ مما عجل بالانسحاب الكامل والدائم للفايكنج من فريزيا الشرقية في شمال غرب سكسونيا السفلى بألمانيا. ومع استمرار القتال لسنوات، وفي القرن العاشر، بدأ السكسون والسلاف في استخدام سلاح الفرسان المتحرك المدربين بنجاح ضد جنود مشاة الفايكنج؛ مما جعل من الصعب على غزاة الفايكنج اقتحامهما من الداخل⁽⁴⁸⁴⁾.

بلغت ذروة غزواتهم عندما قاموا بعمل استيطان إسكندنافى تدريجى للمنطقة المعروفة الآن باسم نورماندى⁽⁴⁸⁵⁾ في عام ٩١١م، لدرجة أن الملك الفرنسى "تشارلز الثالث" اضطر لمنح دوقية نورماندى إلى قائد حرب الفايكنج "رولو"؛ من أجل ردع هجمات الفايكنج الآخرين⁽⁴⁸⁶⁾، أي أنه استعان بهم عليهم، وكان هذا التنازل مقابل أن أقسم رولو أنه سينتمى بالولاء إلى تشارلز، وأنه اعتنق المسيحية عن اقتناع، وتعهّد بالدفاع عن المنطقة الشمالية الفرنسية ضد غزوات مجموعات الفايكنج الأخرى؛ لهذا السبب، بعد أجيال متعاقبة من الآن، لن يُعرّف أحفاد نورمان هؤلاء المستوطنين الفايكنج أنفسهم على أنهم نورمان فحسب، بل سيحملون أيضًا اللغة النورماندية⁽⁴⁸⁷⁾، وثقافتهم النورماندية إلى إنجلترا عام ١٠٦٦م، ومع الغزو النورماندى، سيصبحون هم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في إنجلترا الأنجلوسكسونية، بينما واصل الإسكندنافيون الآخرون جنوبًا إلى البحر الأسود ثم إلى القسطنطينية، فشبّوا عليها غارات من أجل النهب.

أما في شرق أوروبا، فقد وصل نفوذ الفايكنج إلى روسيا، حيث توسع القائد الروسى "روريك" الذي تمت دعوته في عام ٨٦٢م للحكم في نوفغورود، والذي يعتبر مؤسس سلالة روريك، التي استمرت في حكم كييف روس⁽⁴⁸⁸⁾،

وقد حكم نوفغورود إما عن طريق الغزو أو بدعوة من السكان المحليين
لمدينة نوفغورود، على نهر فولكوف، وانتقل خلفاؤه إلى أبعد من ذلك؛ حيث
أسسوا الدولة السلافية الشرقية المبكرة في كييف روس، وعاصمتها كييف.

* * *

٢٨- كيف روس قوة صاعدة (أوروبا الشرقية حتى عام ١٠٠٠م)

في الفترة التي سبقت ظهور كييفان روس في القرن التاسع، كانت الأراضي الواقعة بين بحر البلطيق والبحر الأسود ملكًا بشكل أساسي لمجموعة من القبائل السلافية الشرقية⁽⁴⁸⁹⁾، الموجودة في المنطقة الشمالية حول نوفغورود، وأشهر هذه القبائل: قبيلة إلمن سلاف⁽⁴⁹⁰⁾، وكذلك قبيلة كريفيتشي المجاورة. وهاتان القبيلتان كانتا مسيطرتين على كافة السهول والأراضي المحيطة بمنايع نهري دينا الغربية ودينير وفولغا.

أما في الشمال، فسكنت قبيلة شود الفينية - والتي احتوت على فنلنديين - البلطيق، وكان لها نفوذ على منطقتي ستارايا لادوجا، وكاريليا، على الحدود بين روسيا وفنلندا الحاليين. أما في الجنوب، وتحديدًا في المنطقة المحيطة بكيف، كانت تقطن قبيلة بوليان: وهي مجموعة من القبائل السلافية ذات الأصول الإيرانية، وقبيلة الديرفليان: إلى الغرب من نهر دينير، وقبيلة السيفيريان: إلى الشمال والشرق، وقبيلة فياتيتشي: إلى الجنوب. وكانت أراضيها مغطاة بالغابات من قبل المزارعين السلاف؛ مما أفسح المجال لسهوب يسكنها الرعاة الرحّل.

وبأمر من الفايكنج، قام روريك (مؤسس سلالة روريك الفارنجية)، بتدشين دولة اتحادية واسعة، ضمت في عهده السلاف الشرقيين والفنلنديين. ومصطلح "الفارانجيون" هو الاسم الذي أطلقه الإغريق وشعب الروس وغيرهم على الفايكنج، الذين حكموا روس الكيفية بين القرنين التاسع والحادي عشر.

كان الأمير "أوليج" (٨٧٩-٩١٢م) أول حاكم بدأ في توحيد الأراضي السلافية الشرقية، بعد أن بسط سيطرته من نوفغورود جنوبًا على طول وادي نهر دينير لحماية التجارة من غزوات الخزر من الشرق⁽⁴⁹¹⁾، وسيطر على مدينة كيف، وبعد وفاته استلم ابنه "إيغور الأول"، الذي اضطر في بداية حكمه إلى إخضاع مختلف القبائل السلافية التي انتفضت على إثر موت الواصي عليه "أوليج النبوي". وفي عام ٩١٤م، هزم إيغور الديرفليان المتمردين، وفرض عليهم ضريبة أعلى مما كان عليهم دفعه خلال فترة أوليج. وفي عام ٩١٥م، ساعد بيزنطة ضد البلغار، وفي هذا العام ظهرت قوة البيتشنق الأتراك مرة أخرى في إقليم روسز، فلم يواجههم إيغور في ذلك الوقت، ولكن بعد ٥ سنوات قاد هو نفسه حملة ضدهم⁽⁴⁹²⁾.

كذلك قام إيغور بأول حملة له على ممتلكات بيزنطة عام ٩٤١م، واجتاح الأقاليم البيزنطية حتى مضيق البوسفور، واقترب من القسطنطينية، لكن

طرده النار السائلة البيزنطية، واحترقت غالبية سفنه، وانتهت حملته بالفشل. وفي عام ٩٤٤م، عاد إيغور يهاجم بيزنطة، لكنه تراجع عن ذلك، بعد قبوله فدية وإتاوة باهظة.

توسعت الممتلكات الروسية في عهده؛ لتشمل جميع القبائل الساكنة على ضفاف نهر الدنيبر والأقاليم المتاخمة لها شرقًا وغربًا من كلا الجانبين، وكذلك أراضي شمال القوقاز وشمال شبه جزيرة القرم جنوبًا ونهر فولخوف شمالًا، وفي ذلك الوقت كان يؤهل ولده سفياتوسلاف للحكم من بعده (493).

حقق "سفياتوسلاف الأول" (حكم ٩٤٣-٩٧٢م) أول توسع كبير للسيطرة الإقليمية لروس كييف، وقد خاض حربًا كبيرة ضد الخزر، وتمكن من غزوهم وإخضاعهم، ومن بعده قدم "فلاديمير الكبير" (حكم ٩٨٠-١٠١٥م) المسيحية بمعموديته، ومد المسيحية إلى جميع سكان كييف وخارجها، ووصلت كييف روس - أو كييفان روس - إلى أقصى نفوذ توسعي لها في عهد "ياروسلاف الحكيم" (حكم ١٠١٩-١٠٥٤م)، وبعد وفاته اجتمع أبناؤه، وأصدروا أول قانون مكتوب للدولة (494).

كانت دولة كييف روس مستحوذة على شرق وشمال أوروبا من أواخر القرن التاسع، وامتدت حتى منتصف القرن الثالث عشر (495)، وكانت دولة متنوعة عرقيًا، من أهم شعوبها: السلافية الشرقية، والإسكندنافية، والشعوب الفينية. والجدير بالذكر، أن الدول الحديثة مثل: روسيا البيضاء، وروسيا، وأوكرانيا، تدّعي جميعًا أن كييفان روس هو سلفهم الثقافي (496)، مع اشتقاق بيلاروسيا وروسيا أسماءهم من ذلك.

كييف ضد الخزر والآلان

رجوعًا لشعب الخزر؛ هذا الشعب قد تمكن من تطوير دولة تجارية كبيرة متعددة الأعراق، وسبب نجاحها هو تمكنه من السيطرة على الكثير من تجارة الممر المائي بين أوروبا وآسيا الوسطى. ومن نجاح إلى نجاح، أجبر الخزر منافسيهم في المنطقة على دفع جزية؛ فقد حصلوا على جزية من قبائل الآلان ومن المجرين والقبائل السلافية المختلفة، ومن مجموعات قوط القرم والإغريق في شبه جزيرة القرم، عن طريق التواصل والارتباط من خلال تجّارهم اليهود المتجولين في جميع الأنحاء، ووصل نجاحهم إلى الاتصال مع المراكز التجارية للهند وإسبانيا.

ولمدة ثلاثة قرون (٦٥٠-٩٦٥م) سيطر الخزر على المنطقة الشاسعة الممتدة من سهول فولغا دون، إلى شبه جزيرة القرم الشرقية وشمال القوقاز. لكن عام ٩٠٠م كان عامًا فاصلاً في تاريخهم؛ ففيه تم إسقاط التحالف بشكل كيدي، فقد تدخلت بيزنطة من أجل كسر نفوذهم، وبدأت في تشجيع الآلان على مهاجمة الخزرية وإضعاف قبضتها على القرم والقوقاز، وسعت إلى الحصول على اتفاقٍ مع كييف روس قوة روسيا الصاعدة في

الشمال، والتي كانت تطمح إلى التحول إلى المسيحية في هذا الوقت⁽⁴⁹⁷⁾. وفي عهد حاكم كييف روس "سفياتوسلاف الأول" وكذلك حلفاؤه، وتحديدًا بين أعوام ٩٦٥ و٩٦٩م، احتلت قوة كييف روس العاصمة أتيل، وقضوا على استقلال الخزرية، وتم تفتيت دولة الخزر، وكذلك آلان، وتفرق منهم ما تفرق، ومن استمر منهم تم استيعابه في السكان المحيطين.
غزو سفياتوسلاف لبلغاريا

كنا قد توقفنا في الصراع البيزنطي البلغاري عند مفاوضات السلام، مقابل الاعتراف بالسيطرة البلغارية على مقدونيا الداخلية، وكذلك زواج "بيتر بن سيمون"، من "ماريا ليكاينا"، حفيدة "رومانوس الأول"، والاعتراف به كقيصر.

مضى أربعون عامًا من السلام، اهتمت القوتان فيهم بتحسين أوضاعهم الداخلية، لكن كانت الغلبة للتطور البيزنطي؛ ففي هذه السنوات كانوا قد تمكنوا من تحقيق مكاسب إقليمية كبيرة ضد الخلافة العباسية في الشرق⁽⁴⁹⁸⁾، وتمكنوا من إبرام تحالفات مهمة في المحيط البلغاري⁽⁴⁹⁹⁾. وبحلول عام ٩٦٥م في محاولة لعدم تمديد الاتفاقية، رفض الإمبراطور البيزنطي الجديد المحارب "نقفور الثاني فوكاس" دفع الجزية السنوية المتفق عليها، التي كانت هي جزءًا من اتفاقية السلام، وقام بضرب المبعوثين وإعادتهم إلى بلغاريا بالتهديد والشتائم، ثم انتقل مع قواته إلى تراقيا، وأقام عرضًا متقنًا لاستعراض القوة العسكرية، ونهب بعض الحصون الحدودية البلغارية⁽⁵⁰⁰⁾.

وكان قرار نقفور الثاني بإحداث خرق للعلاقات مع بلغاريا، كرفض منه لعجرفة الخان البلغاري "بيتر الأول" أولًا، ومن ثم ردًا على المعاهدة الأخيرة التي وقّعها مع المجرين، والتي نصّت على السماح للمجرين بالمرور عبر البلاد، والإغارة على بيزنطة، مقابل وقف غاراتهم في بلغاريا.

بكل غضب قام نقفور بإعلان الحرب على بلغاريا، رغم انشغاله بحملاته في الشرق على العدو العباسي؛ نتيجة لذلك، لجأ إلى الوسيلة البيزنطية القديمة المتمثلة في استدعاء قبيلة من أوروبا الشرقية لمهاجمة بلغاريا؛ لتخوض حربًا بالوكالة عنه، وقتها لم يجد أقوى من حاكم روسيا "سفياتوسلاف"، فعرض عليه غزو بلغاريا من الشمال، فلبّى الطلب⁽⁵⁰¹⁾.

انتهز سفياتوسلاف الفرصة، وقام بشن حملة موسّعة فاقت توقعات البيزنطيين، استولى من خلالها على ٨٠ مدينة في شمال شرق بلغاريا، وتم نهبهم وتدميرهم، ولكن لم يتم احتلالهم بشكل دائم. في العام التالي، غادر سفياتوسلاف مع جزء من جيشه لمواجهة هجوم البيتشنيق الأتراك المزعجين على عاصمته في كييف؛ إما بتحريض من البيزنطيين، أو وفقًا للتاريخ الأوّلي السلافي الشرقي، من قبل البلغار. وفي نفس الوقت أرسل القيصر البلغاري

بيتر الأول مبعوثين جدًّا إلى بيزنطة، على عكس استقبالهم السابق، وتمت معاملة المبعوثين البلغاريين هذه المرة بشرف كبير. وبرغم الاستقبال الحافل، كان لـ "نقفور الثاني البيزنطي" شروط قاسية؛ أهمها استقالة القيصر بيتر الأول، ليحل محله "بوريس الثاني"، والسبب أن الإمبراطورين الشاينين، باسيل وقسطنطين، كانا يريدان الزواج من أميرات بلغاريات، بنات بوريس المسجون⁽⁵⁰²⁾.

بالفعل تم إطلاق سراح بوريس من الحجز البيزنطي، وتم الاعتراف به، وبشكل كامل كان قد نجح نقفور في مطالباته⁽⁵⁰³⁾؛ لكن فترة الإقامة القصيرة لسفياتوسلاف في الجنوب أيقظت فيه الرغبة في احتلال هذه الأراضي الخصبة والغنية، والفوز بها لنفسه⁽⁵⁰⁴⁾.

وفي صيف ٩٦٩م، عاد سفياتوسلاف إلى بلغاريا بقوة، واحتل أمير كيف روس المناطق العميقة والرئيسية للدولة البلغارية في شمال شرق البلقان في ٩٦٧-٩٦٩م، وأضحى على رأس إمبراطورية البلغار كلها، وانقلب على المخطط البيزنطي المتفق عليه، واستولى على سيادة القيصر البلغاري "بوريس الثاني" المعين من قبل البيزنطيين، وجعله حاكمًا صوريًا، وحكم البلاد فعليًا من خلاله، في خرق واضح لاتفاقه مع البيزنطيين⁽⁵⁰⁵⁾.

تنفيذًا لأطماعه، استغل سفياتوسلاف كره البلغار للبيزنطيين، وتمكن من حشد الدعم البلغاري ضد بيزنطة، وتوافد على جيشه الكثير من الجنود البلغار؛ ربما العامل الأساسي عرقهم السلافي المشترك، أو ربما جيل سفياتوسلاف لجذبهم، فعلى سبيل المثال: كان قد منع جيشه من نهب الريف، أو نهب المدن التي استسلمت بسلام⁽⁵⁰⁶⁾.

وبهذا الشكل تبديت خطة نقفور من النجاح إلى الفشل؛ فبدون أن يدري ساهم في إنشاء أمة مشتركة جديدة على الحدود الشمالية لإمبراطوريته، وقرر سفياتوسلاف مواصلة التوغل جنوبًا إلى بيزنطة، فحاول نقفور حث البلغار الموالين على استئناف الحرب ضد الروس، لكن مقترحاته لم يتم الالتفات إليها⁽⁵⁰⁷⁾.

قُتل نقفور الثاني في انقلاب القصر في ١١ ديسمبر من عام ٩٦٩م، وجاء من بعده "جون الأول تزيمسكيس" (حكم ٩٦٩-٩٧٦م)، فأرسل الإمبراطور الجديد مبعوثين إلى سفياتوسلاف؛ من أجل التفاوض على السلام، لكن وقتها طالب حاكم روسيا بمبلغ شريطة الانسحاب، وهدد أنه في حالة عدم دفع بيزنطة هذا المبلغ، يجب عليها أن تنسحب من أوروبا كلها، وتقيم دولتها في آسيا الصغرى فقط⁽⁵⁰⁸⁾.

رأت القوة الحاكمة في بيزنطة ما في ذلك من خطر كبير، فقد اتضح أمام الأعمى والمبصر أن هناك دولة روسية بلغارية جديدة قوية يتم تأسيسها حاليًا

في البلقان؛ لذا من الواجب تفتيتها، وبالفعل تم إيقاف تقدم روسيا عبر تراقيا في معركة أركاديوبوليس عام ٩٧٠م، وبعدها قاد الإمبراطور البيزنطي جون الأول تزيمسكيس جيشه شمالاً إلى بلغاريا عام ٩٧١م، واستولى على عاصمة الإمبراطورية البلغارية بريسلاف، بعد حصارٍ دام ثلاثة أشهرٍ لقلعة دوروستولون⁽⁵⁰⁹⁾؛ حيث حاصر المدينة بَرًّا وبحرًا بكل قوة ممكنة، وخاض الفريقان ثلاث معاركٍ ضارية، انتهت جميعها بانتصاراتٍ بيزنطية ساحقة.

بعد المعركة النهائية، أجبر الروس على الاستسلام⁽⁵¹⁰⁾، بعدها اضطر سفياتوسلاف الموافقة على الشروط مع البيزنطيين، وانسحب من بلغاريا. وقتها ضم جون الأول رسميًا بلغاريا الشرقية إلى الإمبراطورية البيزنطية، بعد أن تم تجريد بوريس علنًا من شارته الإمبراطورية. وفي كنيسة آيا صوفيا، تم تكريس التاج البلغاري لله⁽⁵¹¹⁾. أما معظم البلاد الواقعة في وسط وغرب البلقان، فكانت خارج السيطرة البيزنطية؛ مما كان له دور كبير في إحياء الدولة البلغارية في هذه المناطق مستقبلاً تحت حكم سلالة كوميتوبولي.

عاد بعدها ما تبقى من الجيش الروسي بقيادة سفياتوسلاف، بعد أن طوى أحلامه السابقة، والتي غزتها الخيبة والحسرة؛ لتتقلص قوة كيفان روس بشكل تدريجي، وضعف قوة كيفان روس الكاسرة سمح باعتلاء عرقيات وشعوب تاريخية أخرى في البلقان وأوروبا الوسطى، باستثناء البلغار.

* * *

٢٩- عرقيات فرضت نفوذها (أوروبا الوسطى والبلقان حتى عام ١٠٠٠م)

برغم الصراعات الملتهبة داخل البلقان، كان هناك أماكن يسيطر عليها الكثير من العرقيات، مستقلة نوعًا ما، بالإضافة إلى أن ضعف كيفان روس وضعف البلغار قد مكنا عرقيات أخرى من إعلان نفوذهم على بعض المناطق التاريخية.

كرواتيا من دوقية إلى مملكة

بعد أن كان الكروات البيض قد برزوا في الماضي، تمكنوا - بحلول أوائل القرن التاسع - من إنشاء دوقية سياسية مع دوق كرئيس لدولتهم المستقلة، وكانت دولتهم عبارة عن إقليم في حوض نهر سيتينا⁽⁵¹²⁾، مكون من ١١ مقاطعة. وكما ذكرنا من قبل أنها طالما كانت مطمئنًا للفرنجة والبيزنطيين؛ بسبب موقعها المميز. وانعكس التأثير البيزنطي على كرواتيا، في إنشاء القانون الكرواتي، وفي التجارة مع المدن الساحلية البيزنطية⁽⁵¹³⁾.

أما بانونيا التي كان فيها دوقية أخرى للكروات هناك، فكان الكروات فيها خاضعين للفرنجة لعدة سنوات، وقد قيل دوق "فوينومير" ملك بانونيا سيادة الفرنجة، الذين حاولوا تمديد حكمهم على الكروات في دالماتيا، وبالفعل تمكن الفرنجة من السيطرة على بانونيا ودالماتيا في تسعينيات القرن السابع والعقد الأول من القرن التاسع. وفي عام ٧٨٨م، بعد غزو لومبارد، اتجه شارلمان إلى الشرق وقهر إستريا، لكن بعدها تمردوا وهزموا الفرنجة بعد حرب استمرت سبع سنوات⁽⁵¹⁴⁾، ففي عام ٧٩٩م هُزم الفرنجة بقيادة "إريك فريولي" في معركة ترسات في ليورنيا، ومع ذلك، منذ عام ٨٠٣م تم الاعتراف بحكم الفرنجة في معظم شمال دالماتيا⁽⁵¹⁵⁾، وقد حدث ذلك بعد توقيع البيزنطيين والفرنجة على معاهدة سلام، في عام ٨١٢م، وبموجب تلك المعاهدة احتفظ البيزنطيون بالسيطرة على المدن الساحلية والجزر في دالماتيا، مع الاعتراف بالحكم الفرانكي على إستريا، والمناطق النائية الدلماسية⁽⁵¹⁶⁾، وبهذا الشكل كان معظم شمال دالماتيا تابعًا للإمبراطورية الكارولنجية.

واستنادًا لقسطنطين السابع، فقد تنصّر الكروات في القرن السابع، ولكن هناك بعض الآراء التي تذكر أن تنصّر الكروات كان ابتداءً منذ القرن التاسع، ويعتبر أول حاكم كرواتي الأصل معترف به من قبل البابا هو دوق "برانيمير"؛ حيث سماه البابا "يوحنا الثامن" بـ: دوق الكروات عام ٨٧٩م، وحكم الدوقية الكرواتية سلالتا تريميروفيتش ودوماغوجيف منذ عام ٨٤٥م. وفي حوالي عام ٩٢٥م، وخلال حكم توميسلاف بالتحديد، أصبحت كرواتيا مملكة، بعدما

أطلق على توميسلاف لقب "الملك" في رسالة من البابا "يوحنا العاشر"، التي يرجع تاريخها إلى عام ٩٢٥م في فترة مملكة كرواتيا، وتمكن الملك توميسلاف من إنهاء سيطرة الفرنجة، وكذلك التصدي للغزوات المجرية والبغارية، وتوسع نفوذ مملكته⁽⁵¹⁷⁾، مما سيجعل كرواتيا مملكة بارزة في الأحداث القادمة.

أما إمارة صربيا، فقد تحررت هي الأخرى من الاحتلال البغاري.
إمارة صربيا

كانت عبارة عن ولاية صربية مستقلة، في الأقاليم الغربية لجنوب شرق أوروبا، وقد حكمها أبناء سلالة فلاستيميروفيتش، بعد أن أنشأها "فيسيسلاف الأول"، (حكم ٧٨٠-٨٢٢م)، حاول البغار غزو صربيا، إلا أن جيشًا بقيادة حاكمهم "فلاستيمير" تمكن من الانتصار على الجيش البغاري في حرب استمرت ثلاث سنوات (٨٣٩-٨٤٢م)، وبعد هذا النصر أجبرت صربيا البغار على الخضوع للمفاوضات، وعاشا في سلام لعدة عقود. وعندما مات فلاستيمير، ورث أبنائه الثلاثة الحكم، ونجحوا في توحيد قراراتهم، بعدها شهدت صربيا عملية تنصير شاملة، وأصبح الدين المسيحي هو دين الدولة في عام ٨٦٩م تقريبًا، ومن ثم تم تأسيس أبرشية راس، أول أسقفية صربية⁽⁵¹⁸⁾.

بعدها أصبحت صربيا جزءًا رئيسيًا في الصراع على السلطة بين البيزنطيين والبغاريين، وبسبب شعورهم بالخطر البغاري أكثر، تحالفت صربيا معظم الوقت مع البيزنطيين، ولهذا السبب اشتعلت حروب صربية بلغارية كبيرة لمدة عقود، نتج عن هذه الحروب احتلال الجيش البغاري الأجزاء الوسطى من الإمارة لمدة ثلاثة أعوام (٩٢٤-٩٢٧م)، لكن بعدها جاء الأمير الصربي "كاسلاف" للحكم، وتمكن من تحرير الأراضي وتوحيد الأقاليم؛ ليصبح أقوى حاكم في سلالة فلاستيميروفيتش⁽⁵¹⁹⁾.

وبعد التنصير والصراع الصربي البغاري، ضم البيزنطيون الإمارة؛ لتنتهي الولاية التي بدأت في القرن الثامن حتى أعوام ٩٦٩-٩٧١م تقريبًا⁽⁵²⁰⁾.
على صعيد آخر، بدأت القبائل السلافية في التوسع بقوة في الممتلكات البيزنطية في البلقان، وبشكل أو بآخر أصبحت التجمعات السلافية مسرحًا للمواجهة بين المبشرين المسيحيين من القسطنطينية وروما، خاصة بعد أن اعترف السلاف الغربيون والكروات والسلوفينيون في النهاية بالكنسية الرومانية، وبعد اعتراف بلغاريا حوالي عام ٨٦٤م، وكييفان روس حوالي عام ٩٩٠م.

كانت أول الأنظمة السياسية السلافية الموثقة هي صربيا ومورافيا العظمى، والتي ظهرت تحت رعاية إمبراطورية الفرنجة في أوائل القرن التاسع، التي اجتاحتها المجرية في النهاية، والذين غزوا حوض بانونيا حوالي عام ٨٩٦م.

مورافيا العظمى

كانت هي الدولة الرئيسية الأولى التي كانت في الغالب من السلافية الغربية، والتي ظهرت في منطقة أوروبا الوسطى⁽⁵²¹⁾، وهي تشمل اليوم جزءاً من جمهورية التشيك، وسلوفاكيا، والمجر، والنمسا، وألمانيا، وبولندا، ورومانيا، وصربيا، وأوكرانيا. وكان إقليمها الأساسي هو المنطقة التي تسمى الآن: مورافيا، في الجزء الشرقي من جمهورية التشيك بجانب نهر مورافا. شهدت مملكة مورافيا العظمى ظهور أول ثقافة أدبية سلافية في اللغة السلافية للكنيسة القديمة، بالإضافة إلى توسع المسيحية؛ أولاً عن طريق المبشرين من شرق فرنسا، وبعد ذلك بعد وصول القديسين "سيريل" و"ميثوديوس" في عام ٨٦٣م، وخلق الأبجدية الغلاغوليتية⁽⁵²²⁾، وهي تعتبر الأبجدية الأولى المخصصة للغة السلافية، لاحقاً تم استبدال النص الغلاغوليت بالسيريلية؛ لأنه أسهل وأبسط.

لم تستطع المصادر التاريخية تعريف حدود هذه المملكة بالضبط، إلا أنها تبقت أن مورافيا وصلت إلى أقصى حد لها في عهد أميرها "سفاتوبلوك الأول" (حكم ٨٧٠-٨٩٤م) من الأراضي التي اجتاحتها المجرين، ثم قاموا بتضمين أراضي سلوفاكيا الحالية في مناطقهم. كذلك لم تستطع كتب التاريخ إيجاد تاريخ دقيق لانتهيار مورافيا؛ بسبب نقص الأدلة الوثائقية، لكنها أيقنت أنه وقع ما بين ٩٠٢ و٩٠٧م، فهناك مصادر قالت إن المجرين احتلوا مورافيا وأنهوا دولتها عام ٩٠٢م⁽⁵²³⁾، بينما قالت مصادر أخرى إن هذا حدث في ٩٠٣م أو ٩٠٤م⁽⁵²⁴⁾، ومصادر غيرها قالت إن مورافيا لم تُعد دولة قائمة في ٩٠٧م⁽⁵²⁵⁾.

بدأت نهاية مورافيا بعد أن توفي "سفاتوبلوك" بفترة وجيزة؛ حيث تفككت الدولة من بعده، بسبب أن القبائل التي خضعت لحكمه بالقوة كانت قد تملصت، وخرجت عن تبعيتها، بالإضافة لدور المجرين في سقوط مورافيا؛ فقد ذكرت المصادر أن أبناء سفاتوبلوك الأول احتفظوا بمملكته لفترة قصيرة وغير سعيدة بعد وفاته، لأن المجرين دمروا كل شيء فيها⁽⁵²⁶⁾، حيث بدأ المجرين غزوهم لحوض الكاربات بعد هزيمتهم في المناطق الواقعة في أقصى غرب سهوب بونتيك، حوالي عام ٨٩٥م على يد تحالف البلغار والبتشينق.

الغزو المجري لأوروبا

كنا قد توقفنا عند انتقال المجرين إلى محيط نهر الدون مع بدايات القرن الثامن، مع الوقت تمكنوا من تأسيس اتحاد كونفدرالي داخلي خاص بكتلتهم، متكون من ثماني قبائل، وهي: جينو، كير، كيزي، كورت، جيرمات، ميجر، نايك، تارجان. ومع حلول عام ٨٣٠م، حدثت ثورة داخل الخزر، وعلى إثرها خرجت ثلاث قبائل خزرية من الخاقانة الخزرية، واتحدت مع الكونفدرالية

المجرية⁽⁵²⁷⁾، التي أُطلق عليها حينها الإيتلكوز، وهي أرض بين جبال الكاربات ونهر الدنيبر، حينها ظهرت دولتهم المتحدة ككيان مستقل ومتحد ومنوع. بعدها بقليل، كان المجريون على موعد مع هجمات من قبائل البتشييق التركية عام ٨٥٤م، لكن مصادر أخرى تقول إن هجوم البتشييق كان السبب وراء رحيلهم إلى الإيتلكوز.

مع الوقت قاموا بالتصدي لتلك الهجمات، وقرروا إظهار قوتهم أمام الجيران حتى لا يهاجمهم أي طامع، هؤلاء الجيران هم: فارانجيون كييف روس، والسلافيون الشرقيون، فبدأ المجريون في شن سلسلة من غارات النهب من الإيتلكوز إلى حوض الكاربات بدايةً من عام ٨٦٢م، وكان النصب الأكبر من الخسارة في صف البلغار وإمبراطورية الفرنجة الشرقية، ومورافيا العظمى. ومع حلول عام ٨٩٦م، قادهم الزعيم "آرباد" وعبروا جبال الكاربات، وبسبب تحالفهم حينها مع بيزنطة، كانوا عُرضة لهجوم بلغاري صاحبه اعتداء آخر من الأعداء القدامى البتشييق الأتراك المتحالفين دومًا مع البلغار، وبرغم تعرضهم للهزيمة، قرر المجريون توحيد الصف، والانطلاق من منطقة تيسا العليا في حوض الكاربات؛ لتنفيذ عمليات إغارة ونهب لأوروبا كلها. وبحلول عام ٩٠٢م، اتسع نفوذهم، وضموا مورافيا⁽⁵²⁸⁾، وأنهوا حكمها للأبد. وفي وقت الهجرة المجرية، كانت الأرض مأهولة فقط من قبل عدد قليل من السكان السلاف، يبلغ عددهم حوالي ٢٠٠ ألف، الذين تم استيعابهم أو استعبادهم من قبل المجرين⁽⁵²⁹⁾.

من نجاح إلى نجاح، اشتدت العاصفة المجرية في عام ٩٠٧م، وتمكنت من تدمير الجيش البافاري في معركة بريسبورغ، فغزوا أراضي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا الحالية بشكل سريع ومدمر، وهزم المجريون الجيش الإمبراطوري لـ"لويس الرابع الطفل"⁽⁵³⁰⁾، الابن الشرعي الوحيد للإمبراطور "أرنولف كارينتي" من كارينثيا، وآخر سليل شرعي للفرع الألماني لمنزل شارلمان، بالقرب من أوغسبورغ في ٩١٠م، وكان أول انتصار مجري كبير.

فرضت القوة الجامحة الجديدة سيطرتها، وفي الفترة من ٩١٧ إلى ٩٢٥م، كانت قد اشتدت غاراتهم على بازل، والألزاس، وبورغوندي، وسكسونيا، وبروفانس، ولم يتم وضع حد لهذا الخطر القاتل، إلا في معركة ليشفيلد عام ٩٥٥م، وتمكن خلالها الجيش الألماني بقيادة الملك "أوتو الأول الكبير" مُجدد تاج الإمبراطورية المقدسة، من سحق جيش مجري بقيادة "هاركا بولتشي"، ولولا هذا النصر الألماني الكامل، لغزا المجريون أوروبا اللاتينية حتى آخر شبر⁽⁵³¹⁾.

مع الوقت، اعتنق قادة المجر الدين المسيحي، حينها وافق البابا علي توطيئهم والاعتراف بدولتهم، وتُوج "ستيفن الأول" (القديس ستيفن) ملكًا على المجر، وبهذا الشكل تم الاعتراف بالأمة المجرية القوية، وساهمت هذه

الأمة فيما بعد في حماية أوروبا المسيحية، وكانت حصنًا دفاعيًا قويًا ضد الغزوات القادمة من الشرق والجنوب، وخاصة هجمات الأتراك المسلمين، في هذا الوقت، بلغ عدد الأمة المجرية حوالي ٤٠٠ ألف مواطن⁽⁵³²⁾. وفي ظل هذه الحروب الهائلة، من أجل اقتطاع الأراضي وترسيم الحدود والنفوذ، سنتعمق أكثر في طبيعة حكم الدولة العباسية الإسلامية الجديدة، والطريقة التي أديرت بها شؤون البلاد وسياساتها التوسعية.

* * *

٣٠- صراع اقتطاع الأراضي (تفوق إسلامي نسبي)

على عكس أسلافهم الأمويين، لم يتابع الخلفاء العباسيون سياسة التوسع النشط أو الفتوحات، فيبدو أنهم كانوا راضين عن الحدود الإقليمية التي تم تحقيقها، وسواء أكانت الحملات الخارجية التي شنوها انتقاميةً أو استباقية؛ فقد كان طموحها محدودًا، حيث تهدف فقط إلى الحفاظ على حدودهم، وإقناع جيرانهم بالقوة والهيبة العباسية، على سبيل المثال - في محاولة لإثبات الذات - فرض "عبد الله بن محمد" الشهير بأبي العباس السفاح (حكم ٧٥٠-٧٥٤م)، مؤسس الدولة العباسية، سيطرته على الأراضي العربية وما تبعتها من أراضي الأمويين، بعد أن تخلص منهم، ولم يلتفت للمواجهة مع الأوروبيين طوال فترة حكمه التي لم تكن إلا أربع سنوات.

جاء بعده "أبو جعفر المنصور" (حكم ٧٥٤-٧٧٥م)، الذي بادر بإثبات الذات على الناحية الأوروبية، فقرر إلغاء الإعانات المدفوعة لمختلف الأمراء الأرمن (نخاران)، بل وفرض عليهم ضرائب باهظة، وقد أدت هذه الإجراءات إلى اندلاع ثورة كبرى ضد العباسيين في ٧٧٤م⁽⁵³³⁾ في أرمينيا، قاد الثورة رجل يُدعى "أرتوازد ماميكونيان"، وهاجم المتمردين على جبهة الضرائب العرب، ولم يتمكن الحاكم العربي المحلي "الحسن بن قحطبة"، من احتواء هذه الثورة، فأرسل له الخليفة المنصور مددًا بقيادة "أمير بن إسماعيل" ومعه جند كثير، ووقعت معركة باغريفاند في ٢٥ أبريل من عام ٧٧٥م، وفيها تعرض النخاران لهزيمة حاسمة، وتمكن العباسيون من إخماد ثورة الأرمن⁽⁵³⁴⁾.

تمكن العباسيون بعدها من فرض نفوذهم على منطقة القوقاز، وكسّر شوكة العديد من عائلات النخاران العصاة للحكم العباسي، وساد العنصر العربي في المدن والأراضي المنخفضة. وفي القرن التالي، تم أسلمة ألبانيا القوقازية بشكل فعال، بينما أصبح جزء كبير من أرمينيا تحت سيطرة سلسلة من الإمارات العربية⁽⁵³⁵⁾.

لم تشهد عهود الخلفاء العباسيين التاليين توغلات أو تقدمات واضحة أكثر من ذلك، حتى جاء الخليفة العباسي "هارون بن محمد"، الملقب بـ"هارون الرشيد" (حكم ٧٨٦-٨٠٩م)، والذي بدا عليه أنه كان طامعًا أكثر من أسلافه؛ فكان أكثر الحكام العباسيين نشاطًا في سعيه للحرب ضد بيزنطة، وقد ظهر ذلك في اختياره لمدينة الرقة⁽⁵³⁶⁾ بالقرب من الحدود كمقعد دائم له، وبدا إصراره على الفتح والمناوشات، بعدما شرع في إنشاء تشكيل خط دفاعي ثانٍ على طول شمال سوريا، فيما يسمى بالعواسم⁽⁵³⁷⁾ عام ٧٨٦م، واشتهر في السجلات الإسلامية والأوروبية بأنه كان يقضي سنوات متناوبة في الحج

سنة، وفي قيادة حملاته في الأناضول وآسيا الصغرى السنة التي تليها. عندما كان هارون ولياً للعهد، قبل أن يتسلم الحكم بأربع سنوات، بدأت حملة في عام ٧٨٢م، وانتهت بانتصار مذل للبيزنطيين، اضطرهم إلى رفع دعوى للحصول على هدنة مقابل جزية سنوية⁽⁵³⁸⁾. ومع قدوم عام ٧٨٥م، شرعت الإمبراطورة - وصية العرش - "أيرين أثينا" في وقف دفع هذه الجزية، وقررت استئناف الحرب مع العباسيين بسبب نفوذهم القوي على منطقة الأناضول.

وفي أوائل عام ٧٨٦م، أقدم البيزنطيون على نهب وهدم قلعة العباسيين ببلدة الحدث في قيليقية⁽⁵³⁹⁾، التي جهزوها طوال السنوات الخمس الأخيرة؛ من أجل ترسيخها كقاعدةٍ لشن حملاتهم الحدودية ضد بيزنطة⁽⁵⁴⁰⁾. ردًا على ذلك، قام هارون الرشيد، برئاسة حملة جديدة عام ٧٨٦م، وهو نفس العام الذي تسلم فيه الخلافة، وعلى مدار عامين، قام بشن هجمات متفاوتة القوة، لكن لم تؤدي هذه الهجمات ثمارها بشكل بارز، حتى بدأت قوتها في التبلور عام ٧٨٨م، عندما عبرت قوة استكشافية كبيرة بوابات كيليسيان⁽⁵⁴¹⁾ في موضوع الأناضول⁽⁵⁴²⁾.

وهذه المداهمة لم يتم ذكرها في أيٍّ من المصادر العربية والإسلامية، لكن وصفها المؤرخ البيزنطي سابق الذكر "ثيوفان المعتبر"، بأنها كانت بمثابة غزو ضخم؛ لذلك تطلب مواجهتها بكل قوة، فخرجت قوات من أقوى جيشين مواضعيين بيزنطيين؛ موضوع الأناضول نفسه، بجانب موضوع أوبسيكيون من شمال غرب آسيا (تركيا الحديثة)⁽⁵⁴³⁾.

لم يذكر ثيوفان أي تفاصيل كثيرة عن هذه المعركة، المعروفة باسم معركة كوبيداندون، لكن بحسب تاريخه قد انتهت بهزيمة دموية للبيزنطيين، وقد فقدوا فيها جنرالات كبارًا⁽⁵⁴⁴⁾، وبسببها قد استؤنفت حرب الحدود على شكل واسع النطاق بعد الهدوء النسبي منذ عام ٧٨٢م⁽⁵⁴⁵⁾، والتي استمرت حتى وفاة هارون في ٨٠٩م وما تلاها من حروب العباسيين. وقد شهد عهد هارون الرشيد تطورًا أكثر بكثير من سابقه بخصوص الاتصالات المنتظمة بين البلاط العباسي والبيزنطي؛ حيث كان تبادل السفارات والرسائل أكثر شيوعًا مما كان عليه في عهد الأمويين. وعلى الرغم من عداة هارون، فإن وجود السفارات هو علامة على قبول العباسيين أن الإمبراطورية البيزنطية كانت قوة يتعين عليهم التعامل معها بشروط متساوية⁽⁵⁴⁶⁾.

عندما جاء عهد الخليفة المأمون "عبد الله بن هارون"، كانت قد كثرت حوادث الخطف من أجل التوطين على الحدود بين الطرفين على أساس ديني؛ فالعرب يُهربون رعايا مسلمين من داخل حدود بيزنطة، وكذلك البيزنطيون يُهربون رعايا مسيحيين من الخلافة العباسية لتوطينهم بالقوة في

مزارع الأناضول؛ لزيادة عدد السكان، ولتوفير الزراعة بكثرة، وكذلك لصنع أعداد أكثر من الجنود.

ومع صعود "مايكل الثاني" (ميخائيل الثاني) إلى السلطة عام ٨٢٠م، اضطر مايكل للتعامل مع المتمرّد "توماس السلافي" - سابق الذكر - والذي قاد حربًا أهلية بيزنطية، بدعم من العباسيين، والذي شرع في حصار القسطنطينية عام ٨٢١م، وبمساعده للعباسيين في غضون أشهر قليلة، بقي اثنان فقط من المواضيع في آسيا الصغرى مخلصين للإمبراطور مايكل الثاني، وترتب على ذلك استيلاء العباسيين على ثيسالونيكي ثاني أكبر مدينة في الإمبراطورية، ولكن بعد وقتٍ بسيط استعادها البيزنطيون بسرعة، ولم يتجاوز حصار توماس للقسطنطينية أسوار المدينة، واضطر إلى التراجع (547).

وبسبب تصدي مايكل لثورة توماس السلافي، لم يكن لدى بيزنطة سوى عدد قليل من القوات، من أجل صد غزو عربي صغير - من ٤٠ سفينة و ١٠ آلاف رجل - شنته جزيرة كريت الإسلامية، والتي سقطت عام ٨٢٤م بأيدي المسلمين. وبعدها مباشرة اكتملت بشكل لا رجعة فيه سيطرة الأغالبة المسلمين (التونسيين) على صقلية، بعد غزوهم البطيء لها، باستخدام تونس كنقطة انطلاق لهم (548)، وسيحكم نسلهم الجزيرة حتى عام ١٠٥٣م. وفي عام ٨٤٦م، هاجم المسلمون روما نفسها، وردًا على ذلك، بدأ البابا "ليو الرابع" في بناء الجدران الليونية لمدينة الفاتيكان في ٨٤٧م، وتم الانتهاء منها عام ٨٥٣م. توفي مايكل الثاني، وخلفه ابنه "ثيوفيلوس" في عام ٨٢٩م، وبعد أن استحوذ الأندلسيون على صقلية، حاصروا باليرمو لمدة عام، ثم دخلوها في ٨٣١م، وسيظلون هناك لمدة ٢٠٠ عام لاستكمال غزوهم (549). في غضون ذلك، شن العباسيون أيضًا غزوًا للأناضول عام ٨٣٠م، وانتصر المأمون، وخسر البيزنطيون عددًا من الحصون البيزنطية. لكن ثيوفيلوس لم يتقبل الأمر، ففي عام ٨٣١م استولى على طرسوس (550) من المسلمين، ومع تبادل أدوار الهزيمة والنصر، كانت اليد العليا في النهاية للمأمون (551)، ويقال إن خسارة ثيوفيلوس تسببت في حزن كبير له، وكانت أحد أسباب وفاته عام ٨٤٢م.

مات ثيوفيلوس، وترك ابنه وخليفته "مايكل الثالث" الذي كان يبلغ من العمر عامين فقط، وحينها تولت والدته الإمبراطورة "ثيودورا"، منصب الواصي عليه، ومع ذلك لم يتوقف الصراع؛ فعلى الرغم من فشل رحلة استكشافية بيزنطية لاستعادة جزيرة كريت في عام ٨٥٣م، إلا أن البيزنطيين حققوا ثلاثة نجاحات كبيرة بين أعوام ٨٥٣ و ٨٥٥م، وكذلك أبحر أسطول بيزنطي نحو شاطئ مدينة دمياط المصرية دون معارضة تُذكر، وأضرّم النيران في جميع السفن في الميناء، واقتنص العديد من الأسرى، وعاد.

وعلى صعيد آخر، بدأ حاكم أرمينيا العربي "علي بن يحيى" يفقد سيطرته عليها؛ ففي عام ٨٦٣م هزم ودحر الجنرال البيزنطي "بتروناس" قوة غزو

عربية تحت قيادة "عمر الأقطه" في معركة لالاكاون؛ مما تسبب في خسائر فادحة وإزاحة إمارة مليتين كتهديد عسكري خطير⁽⁵⁵²⁾. توفي الأقطه في إحدى المعارك، وتم القضاء على فلول جيشه في اشتباكات لاحقة، مما سمح للبيزنطيين بالاحتفال بالنصر، انتقامًا من إقالة العرب في وقت سابق لعمورية⁽⁵⁵³⁾، بينما أثارت أنباء الهزائم أعمال شغب في بغداد وسامراء، وبعدها بأشهر قليلة نجح البيزنطيون في غزو أرمينيا، وقتلوا حاكم أرمينيا الأمير علي بن يحيى. وقد شكلت هذه الانتصارات البيزنطية نقطة تحول أدت إلى هجوم بيزنطي استمر قرنين من الزمان باتجاه الشرق على الأراضي الإسلامية⁽⁵⁵⁴⁾؛ ليكون القرن التاسع هو عنوانًا لخسارة العباسيين الهيمنة في الشرق.

(أما الأندلسيون، فكانوا وقتها في عز قوتهم وفتوحاتهم في الغرب كما ذكرنا)، وقد قرر مايكل الثالث حينها تصحيح الوضع من خلال استعادة جزيرة كريت أولًا من العرب، وكان هدفه من ذلك هو الفوز بهذا الموقع الاستراتيجي المهم، الذي إن اقتنصه سيُمكنه من استخدام الجزيرة كقاعدة ممتازة للعمليات في جنوب إيطاليا وصقلية، أو على الأقل قاعدة إمداد للسماح للقوات البيزنطية التي ما زالت تقاوم البقاء. لكن ما عطله أن خاله "برادس" في عام ٨٦٥م، كان على وشك شن غزو، عندما وقعت مؤامرة محتملة ضد زوجته من قبل "باسيل الأول" و"مايكل الثالث" (السابق هو الإمبراطور المستقبلي والمفضل لدى الإمبراطور الأخير)، ووسط الكثير من الفوضى والتخبط، تم اغتيال مايكل، وهكذا نجت جزيرة كريت الإسلامية من غزو أعظم جنرالات بيزنطة في ذلك الوقت (من وجهة نظر الباحثين الجدد)⁽⁵⁵⁵⁾.

كان المسلمون قد عززوا انتصاراتهم بالاستحواذ على إينا في ٨٥٩م، ومن بعدها جزيرة سرقوسة جنوب شرق إيطاليا⁽⁵⁵⁶⁾، وقد تسبب هذا في فتح جنوب إيطاليا والبحر الأدرياتيكي للغارات والاستيطان الإسلامي، وقد تسببت كل هذه الأحداث في استكمال الانتكاسة الموجودة داخل بيزنطة؛ فبرغم انتصارات الشرق على العباسيين، أثرت الخسائر المتعاقبة على العمق الأوروبي، مما أعطى للمسلمين تفوقًا نسبيًا.

٣١ - عودة القوة البيزنطية

(حروب النفوذ حتى عام ١٠٠٠م) في ظل ظهور السلالة المقدونية عام ٨٦٧م، جاء معها السلام الديني، بالإضافة إلى قيادة بيزنطية قوية وموحدة، ففي عهد مؤسس هذه السلالة "باسيل الأول"، تم استكمال النجاح البيزنطي في وادي الفرات في الشرق، بينما انقسمت الإمبراطورية العباسية إلى العديد من الفصائل بعد عام ٨٦١م، وبدأت كأنها أضعف.

وكذلك في عهده تم إعادة إحياء الإمبراطورية البيزنطية كقوة إقليمية خلال فترة التوسع الإقليمي، مما جعل الإمبراطورية أقوى قوة في أوروبا، بجانب سياسة كنسية تتميز بعلاقات جيدة مع روما، بعد أن تحالف باسيل مع الإمبراطور الروماني المقدس "لويس الثاني" ضد المسلمين، الذي أزاح أسطوله البحر الأدرياتيكي من غاراتهم، وتم طرد المسلمين من الساحل الدلماسي الإيطالي في عام ٨٧٣م⁽⁵⁵⁷⁾، وبمساعده استولى على باري من المسلمين، ومن ثم أصبحت بيزنطية في عام ٨٧٦م، لكن برغم ذلك سقطت سيراكيوز في يد المسلمين في عام ٨٧٨م، وتم ضمها إلى إمارة صقلية، وبدأ وكأن صقلية أصبحت إسلامية بشكل محكم، ومن المستحيل استردادها⁽⁵⁵⁸⁾، بعدها استحوذ المسلمون على كاتانيا عام ٩٠٠م، وأخيرًا القلعة من تاورمينا في ٩٠٢م⁽⁵⁵⁹⁾، وعلى الرغم من ضياع صقلية، نجح الجنرال "نقفور الثاني فوكاس" الأكبر، في الاستيلاء على تارانتو وجزء كبير من كالابريا عام ٨٨٠م، وبهذا الشكل فتحت النجاحات في شبه الجزيرة الإيطالية فترة جديدة من الهيمنة البيزنطية هناك، وأول ما قام به البيزنطيون هو تأسيس وجود قوي في البحر الأبيض المتوسط، وخاصة البحر الأدرياتيكي.

عندما توفي باسيل الأول في عام ٨٨٦م، استلم من بعده "ليو السادس"، وقد أدى عهده إلى نتائج سيئة ضد العرب، وفي عهده تم مدهامة كريت، واقتحمها الجيش البيزنطي والأسطول، وشقوا طريقهم نحو طرسوس وأحرقوا الميناء، الذي كان مهمًا للعرب مثل سالونيك لبيزنطة⁽⁵⁶⁰⁾⁽⁵⁶¹⁾، وكذلك

من الأحداث البارزة الأخرى خسارة تاورمينا⁽⁵⁶²⁾ عام ٩٠٢م، وحصار جزيرة كريت لمدة ستة أشهر، ولم يُرفع الحصار إلا عندما وصل خبر وفاة الإمبراطور لقائد الحملة "هميريوس"، فقذفوها من الخارج، وغادر هميريوس⁽⁵⁶³⁾.

مع بدايات هذا القرن (القرن العاشر) كانت الإمبراطورية البيزنطية مهتمة فقط بالبقاء والاحتفاظ بما لديها من مكاسب، وإلى الآن لم تكن حملاتهم على جزيرة كريت وصقلية تأتي بصيبٍ نافع، فبعد وفاة ليو السادس، تورطت الإمبراطورية في مشاكل مع وصاية "قسطنطين السابع" البالغ من العمر سبع سنوات، وكذلك مع غزوات تراقيا من قبل "سيمون الأول" ملك بلغاريا كما ذكرنا، لكن لما تولى الأدميرال "رومانوس الأول" السلطة كإمبراطور مشترك مع ثلاثة من أبنائه وقسطنطين السابع، كان قد أنهى المشاكل الداخلية مع الحكومة، وقد حالفه الحظ بانتهاء تحريشات سيميون البلغاري؛ بسبب وفاته دون تحقيق حلمه في عام ٩٢٧م، فتفرغ للعرب، وأمر بشن حملة عليهم؛ انتهت في حوالي عام ٩٥٠م، ومن خلالها تم توحيد أرمينيا داخل الإمبراطورية، واستمر النجاح حتى تم ضم ميليتين عام ٩٤١م، والتي كانت إمارة مدمرة منذ القرن التاسع، لكن أجبر الجيش البيزنطي بعد ذلك على تحويل جيشه شمالاً لمحاربة غزو "إيغور الأول" بن روريك من كييف، لكنه تمكن من العودة ليحاصر إديسا، يُذكر أنه لم يصل الجيش البيزنطي إلى هذا الحد منذ أيام هرقل⁽⁵⁶⁴⁾.

بعدها تولى قسطنطين السابع السلطة الكاملة عام ٩٤٥م، وفي عهده استولى البيزنطيون على ساموساتا (سميساط)⁽⁵⁶⁵⁾ في وادي الفرات عام ٩٥٨م⁽⁵⁶⁶⁾.

وفي عهد "رومانوس الثاني"، قام الجيش بإطلاق أكبر حملة استكشافية لم تحدث منذ أيام هرقل، حيث أبحرت قوة ضخمة قوامها ٥٠ ألف رجل، و١٠٠٠ وسيلة نقل ثقيلة، وأكثر من ٣٠٠ سفينة إمداد، وحوالي ٢٠٠٠ سفينة حريق يونانية، تحت قيادة "نقفور الثاني فوكاس" إلى كانديا، العاصمة الإسلامية لجزيرة كريت، ضربوا عليها حصارهم الذي استمر طيلة ثمانية أشهر، وشتاء قارس، بعدها تمكن نقفور من استعادة المدينة، وقوبلت أخبار الاستعادة بسرور كبير في القسطنطينية مع قداس ليلي للشكر؛ قدمه البيزنطيون في أيا صوفيا، وقتها كان على نقفور أن يترك الاحتفالات ويتجه بسرعة ناحية الشرق، فقد جاءت أخبار بأن أمير حلب "سيف الدولة الحمداني" المستقل عن العباسيين، قد حشد ٣٠ ألف رجل وزحف إلى بيزنطة من الشرق، بعد ما علم أن جيش البيزنطيين انشغل في كريت، وترك وراءه ولاياته التي تحت سلطته، دمشق وحلب وإميسا وأنطاكية⁽⁵⁶⁷⁾.

في بداية المعركة انتصر سيف الدولة، ولكن تبدل النصر بهزيمة؛ بعد وقوعه في كمين مخطط له ببراعة في الممرات الجبلية في آسيا الصغرى، وبلغت الحرب أوزارها، واتفق الفريقان على وقف القتال، وتم استبدال الأسرى المسيحيين بالمسلمين المكتسبين حديثاً.

بعدها مباشرة عمل نقفور على رفع كفاءة جيشه، وبعد عدة أشهر، كان نقفور وأخوه أمام أسوار حلب، واقتحم البيزنطيون المدينة في ٢٣ ديسمبر، ودمروا كل شيء، ما عدا القلعة التي كانت تحت سيطرة بعض جنود الأمير، حينها أمر نقفور بالانسحاب، بعد أن كسر القوة العسكرية لأمير حلب، ثم وصلت أخبار وفاة رومانوس الثاني إلى نقفور قبل مغادرته كابادوكيا، ليتسلم الحكم من بعده.

بعد انتصار نقفور الثاني في عام ٩٦٣م، ومع توليه الإمبراطورية، بدأ مرة أخرى في شن حملته ضد خصومه المسلمين في الشرق، فتمكن من إسقاط طرسوس في عام ٩٦٥م، بعد سلسلة من الحملات البيزنطية المتكررة في قيليقية، وفي نفس العام هاجم قبرص⁽⁵⁶⁸⁾، وفي عام ٩٦٧م، توفي سيف الدولة المهزوم بسكتة دماغية؛ مما أراح نقفور من التحدي الوحيد الذي يواجهه هناك، وبعد ذلك بوقت قصير، استعاد البيزنطيون مدينة أنطاكية في عام ٩٦٩م، أول مدينة كبرى في سوريا فقدتها المسلمون، وبرغم ذلك لم يكن النجاح البيزنطي شاملاً، ففي عام ٩٦٤م فشلت حملة الاستيلاء على صقلية مجدداً، وفي عام ٩٦٩م، تم اغتيال نقفور في مؤامرة القصر، على يد "جون تريمسكيس" (يوحنا الأول) الذي نأى بالعرش لنفسه⁽⁵⁶⁹⁾.

في ظل ضعف الدولة العباسية، ظهرت دولة الفاطميين الحديثة في عام ٩٧١م، ومن الوهلة الأولى أثبتوا قوتهم، فقد استطاعت الدولة الوليدة أخذ دور كبير في المشهد، بعد سيطرتها على مصر وفلسطين وجزء كبير من سوريا من العباسيين الضعفاء، الذين بدأوا يعانون من مشاكلهم التركية، لقد فرض الفاطميون نفوذهم، وفي ظل إضعاف الفاطميين للعباسيين، رأى البيزنطيون الفرصة سانحة للتطلع لما هو أكثر من أنطاكية وحلب، فتطلب الأمر غزواً شاملاً لأراضي المدينتين لترسيخ الحكم البيزنطي عليهما، والانطلاق منهما وصولاً لما هو أبعد وأعمق، فشنوا هجوماً فاشلاً على أنطاكية عام ٩٧١م، أعقبه هزيمة بيزنطية خارج أميدا، ومع ذلك سيُثبت الإمبراطور الحالي جون الأول، أنه أقوى من نقفور؛ فقد حشد ١٠ آلاف جندي غالبية ألمان، وانطلق بهم ناحية الجنوب، وأصبح يهدد بغداد بغزو لاحق، ويتعجب المؤرخون من عدم إتمامه لهذا الغزو وتراجعته، رغم أنه كان يقابله دفاعات عباسية محدودة جداً⁽⁵⁷⁰⁾.

بعد أن غادر جون، عاد مجدداً في ربيع عام ٩٧٥م، وتمكن من إسقاط سوريا

ولبنان وجزء كبير من فلسطين في أيدي جيوش الإمبراطورية البيزنطية⁽⁵⁷¹⁾، وقبل أن يدخل القدس بعد قصده لها، أصيب بالمرض في تلك السنة، وفي بداية العام الذي يليه عاد إلى بيزنطة، وبعد وفاته، تسلم الحكم "باسيل الثاني"، وقد تبدلت الأوضاع الداخلية، وتشتت الإمبراطور الجديد في حروبه الأهلية، وكذلك تمردت المقاطعات الغربية البلغارية؛ حيث اشتعلت ثورتهم بالرجوع للجبهة البلغارية سنرى أنه برغم ضم بلغاريا إلى الإمبراطورية البيزنطية في عام ٩٧١م، إلا أن البيزنطيين لم يتمكنوا من تأكيد سيطرتهم على المقاطعات الغربية لبلغاريا، فقاد الغربيون تمردًا بقيادة أربعة إخوة يُدعون Cometopuli (أي أبناء الكونت) وهم: "ديفيد"، و"موسى"، و"أرون"، و"صموئيل"، ومن أهم طلباتهم الوصاية على الأسير "بوريس الثاني" المعتقل، وفكرت الحكومة البيزنطية في حيلة، ربما سُنشعل الصراع في بلغاريا على قيادة هذه الثورة، تضمنت الفكرة السماح لـ بوريس الثاني وشقيقه "رومان" بالهروب من أسرهم الفخري في البلاط البيزنطي، على أمل أن يؤدي وصولهم إلى بلغاريا إلى انقسام بين الإخوة والقادة البلغاريين الآخرين على شارة القيادة، وبالفعل تم فك أسرهما، وعندما دخل بوريس وأخوه المنطقة الخاضعة للسيطرة البلغارية في عام ٩٧٧م، ترجل بوريس الثاني وتقدم على أخيه، وبسبب لباسه البيزنطي قُتل برصاصة في صدره من قبل دورية حدودية اشتبهت فيه على سبيل الخطأ، وتمكن رومان من تعريف نفسه للحراس الآخرين فنجا، وتم قبوله كقيصر، ومع ذلك، نظرًا لأنه كان خصيًّا، حيث قام البيزنطيون بخصيه بحيث لا يمكن أن يكون له أي ورثة، لم يكن قادرًا على تولي العرش، وبدلًا من ذلك، قاوم صموئيل، أصغر الإخوة المتمردين من أجل اعتلاء العرش.

كان صموئيل من أول لحظة مقاومًا للبيزنطيين، برغم خضوع بلاده كلها لهم، وهو الوحيد الذي هزم باسيل الثاني في معركة، فقد تمكن من هزيمته وطرده من ميدان بوابات تراجان ٩٨٦م، لدرجة أن الإمبراطور باسيل نجا من المعركة بأعجوبة، ودفع انتصار صموئيل "البابا غريغوري الخامس" للاعتراف به كقيصر، وتوج في روما عام ٩٩٧م، ومع هجوم صموئيل البلغاري عليه، كان باسيل الثاني على موعد مع ثورات الجنرال "برداس فوكاس"، والجنرال "برداس سكلروس"، وبرغم الفوضى تعين على الإمبراطور الاهتمام بأمر سوريا، بعدما أرسل إليه أميره على حلب البيزنطية حينها⁽⁵⁷²⁾، استغاثة ونجدة عام ٩٩٥م، فقد حاصرتها قوة عسكرية إسلامية فاطمية؛ بقيادة "أبو منصور نزار العزيز بالله"، حينها ترك باسيل الثاني كل شيء، وأسرع نحو القسطنطينية ليجهز جيشًا عتاده ٤٠ ألف جندي⁽⁵⁷³⁾، وصل أول ١٧ ألف جندي إلى حلب بسرعة كبيرة، وانسحب الجيش الفاطمي، تابعها باسيل جنوبًا،

ووصل حتى طرابلس⁽⁵⁷⁴⁾ وعاد بعدها إلى أوروبا، لياشر جبهة البلغار دون أي حملة أخرى ضد مصر عاصمة العدو الفاطمي وقتها.

بعدها ظهرت بعض المناوشات من قبل القوة الفاطمية، فدعم البيزنطيون انتفاضة وثورة ضد الفاطميين في مدينة صور، وفي عام ٩٩٨م شن البيزنطيون هجومًا على مدينة أفايا السورية، لكن هزمهم الفاطميون في معركة في ١٩ يوليو ٩٩٨م، وبسبب هذه الهزيمة اضطر باسيل الثاني للعودة مرة أخرى إلى سوريا في أكتوبر ٩٩٩م للانتقام، وخلال ثلاثة أشهر من تواجده؛ كان قد داهم بعلبك بلبنان حاليًا، واستولى على شيزر بسوريا حاليًا وحصنهم بالعسكر، وبرغم ذلك لم يتجه ناحية حمص، أما طرابلس فقد حاصرها لمدة شهر، لكن انتهى حصاره بالفشل، وعندما تم تحويل انتباه باسيل إلى التطورات في أرمينيا، غادر إلى قيليقية في يناير، وأرسل سفارة أخرى إلى القاهرة، وفي عام ١٠٠٠م تم إبرام هدنة لمدة عشر سنوات بين البيزنطيين والفاطميين⁽⁵⁷⁵⁾.

بعد إبرام باسيل الثاني الهدنة مع الفاطميين، قرر وضع حد للمسألة البلغارية بكل حزم، فعاد إليها في عام ١٠٠٢م، من أجل الانتقام من صموئيل البلغاري، اضطر صموئيل إلى التراجع إلى قلب بلاده، وبرغم ذلك ظل مقاومًا، وحافظت تكتيكاته على استقلال بلغاريا، بل أبقت باسيل بعيدًا عن المدن البلغارية الرئيسية، وبعدها بسنوات، وتحديدًا في ٢٩ يوليو ١٠١٤م، في كليديون (أو بيلاسيتسا)⁽⁵⁷⁶⁾ تمكن باسيل من حصر الجيش البلغاري الرئيسي على غفلة، الذي كان قائده صموئيل بعيدًا، وحقق انتصارًا ساحقًا، ووفقًا للأسطورة اللاحقة، فقد أعمى باسيل ١٤ ألف سجين، تاركًا رجلًا واحدًا من كل مائة مبصر بعين واحدة، ليقود رفاقه إلى الوطن، ووفقًا للأسطورة، كان مشهد هذه الفطائع أكثر من اللازم حتى بالنسبة لصموئيل، الذي ألقى باللوم على نفسه في الهزيمة، وتوفي بعد أقل من ثلاثة أشهر، في ٦ أكتوبر من نفس العام، وبسبب ذلك، عُرف باسل الثاني بـ "قاتل البلغار"⁽⁵⁷⁷⁾.

في ظل الاحتلال البيزنطي، تسلم الإمبراطور البلغاري الجديد "إيفان فلاديسلاف"، الذي قرر منذ بداية عهده ترميم تحصينات بيتولا عام ١٠١٥م، وقد تسبب ذلك في تنفيذ مؤامرة لاغتياله نفذها عملاء بيزنطيون؛ لكنه نجا منها، ووصلت تقارير للبيزنطيين تفيد بأن إيفان يحاول حث البييتشينق على مساعدته من أجل محاولة للمقاومة من جديد، وبرغم توغل الجيوش البيزنطية في عمق بلغاريا في عام ١٠١٦م، تمكن إيفان فلاديسلاف من حشد قواته، وبدأ حصار ديراتشيوم (دورازو)، في شتاء عام ١٠١٨م، لكن إيفان هُزم وقُتل، وبعد وفاته، قدم الكثير من النبلاء والبلاط البلغاريين، بما في ذلك أرملته "ماريا" وأبنائه، إلى باسل الثاني المتقدم؛ بغرض أخذ ضمانات للحفاظ

على حياتهم ووضعهم وممتلكاتهم، لتنتهي بذلك الانتفاضة البلغارية على يد باسيل.

ويُذكر أن عهد باسيل الثاني قد تميز بإنشائه مجموعة من السمات العسكرية الجديدة، تمتد شمال شرق حلب (محمية بيزنطية) إلى ملاذكرد، لدرجة أنه كان بإمكان البيزنطيين جمع قوة لا تقل عن ٢٠٠ ألف جندي في أسرع وقت، ومع حكم باسيل وصلت الإمبراطورية البيزنطية إلى ذروتها لما يقرب من خمسة قرون تالية، فيذكر التاريخ أنه لا يوجد إمبراطور بيزنطي اكتسب أراضي كما فعل باسيل، منذ أن تمكن هرقل من الاحتفاظ بهذه الأراضي من قبل، وقد ذكر المؤرخون أنه بحلول عام ١٠٢٥م، امتدت الأرض البيزنطية من مضيق ميسينا، وشمال البحر الأدرياتيكي في الغرب، إلى نهر الدانوب والقرم في الشمال، وإلى مدينتي مليتين وإديسا وراء نهر الفرات في الشرق⁽⁵⁷⁸⁾.

اقتربت الحروب البيزنطية العربية من الإغلاق، عندما حل على الساحة أعداء جدد، كالأتراك والمغول، فمن القرنين الحادي عشر والثاني عشر فصاعدًا، ستتحوّل الصراعات البيزنطية إلى الحروب البيزنطية – السلجوقية، مع استمرار الغزو الإسلامي للأناضول التي استولى عليها الأتراك السلجوقية. أما بالنسبة للأندلس فسوف تتعمق في تحليل الوضع الخاص بها والتحديات التي فرضتها عليها صراعات الساحة في هذا الوقت.

٣٢ - الأندلس نحو الأفول

(إيبيريا حتى عام ١٠٠٠م) الأندلس تمكنت من إخماد التمردات الداخلية للولاة، ووصلت إلى حد كبير من الاستقرار النوعي، وما لبثت أن تستفيق؛ حتى استهدفتها قوة النورمان، وهم مجموعة عرقية، نشأت في المنطقة الشمالية من فرنسا وتحديداً في نورماندية، وكان عرقاً مختلطاً للاتصال بين الفرنجة الأصليين، والغال الرومان، والمستوطنين الشماليين الفايكنج.

في عام ٨٤٤م، حاول هؤلاء النورمان غزو الأندلس عبر مدينة لشبونة الواقعة على الساحل الغربي، فأصاب الناس الخوف والذعر من أحفاد الفايكنج والفرنجة الذين اتسموا بالوحشية كأسلافهم، ووصل الرعب إلى إشبيلية التي هجرها سكانها خوفاً من الموت، فانتفض الوزراء يحشدون الناس في قرطبة والمدن القريبة منها؛ من أجل صد هذا الهجوم ومواجهته، وجرى بين الغازين وبين المسلمين بالأندلس عدة وقائع انهزم فيها المسلمون، وساروا يقتلون المسلمين حتى دخلوا إشبيلية، لكن جاء المدد من الحاكم الأموي "أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن الحكم" (عبد الرحمن الأوسط)، فاجتمع عليهم المسلمون من كل جهة فهزموهم، وأخذوا لهم أربعة مراكب بما فيها، وهرب النورمان في مراكبهم الباقية متجهين إلى بلادهم، بعد أن تصدى لهم الأندلسيون بكل ما أوتوا من قوة، وفكوا الحصار القائم لمدة شهرين، وبعد هروب النورمان، أجبروا على طلب الصلح والتعاهد بالسلام⁽⁵⁷⁹⁾.

مع بدايات القرن التاسع استهدف الأندلسيون أراضي الإمبراطورية الكارولنجية، فشنوا عليها غارات بحرية، وفي عام ٨٨٩م، اضطرت الأوضاع في فرنسا بسبب انتقال السلطة من الأسرة الكارولنجية إلى أسرة كاييه، فانقضت البحرية الأندلسية على إقليم بروقانس وسيطروا عليه، كخطوة أولى لبداية التوغل في العمق الأوروبي، ففي سنة ٩٣٠م غزوا ثغر فريجوس، وتبعه غزو ثغر طولون، وكلاهما بفرنسا الجنوبية⁽⁵⁸⁰⁾، وفي سنة ٩٣٩م غزوا منطقة فاله في جنوبي سويسرا، وبنوا هناك حصناً أندلسياً، واتخذوا منها قاعدة لغزو الأراضي المجاورة في سويسرا وإيطاليا، كما غزوا منطقة

جزبرون في شرقي سويسرا، ووصل توغلمهم إلى بُحيرة جنيف، وجاوزوها إلى مفاوز جورا الواقعة في شمالها، وتلا ذلك سيطرة كاملة على ولاية ليغوريا في شمالي إيطاليا، وفتح آكام الألب وممراتها، ثم نفذوا إلى منطقة نيس واخترقوا قلب ولاية دوفينيه، وغزوا غرونوبل وسيطروا عليها مدة طويلة، كما سيطروا على واديهما الخصب⁽⁵⁸¹⁾.

وبهذا الشكل أصبح نفوذ الأندلسيين في عز قوتهم قبل منتصف القرن العاشر؛ يمتد من لانجدوك⁽⁵⁸²⁾ غربًا إلى مشارف سويسرا شمالًا، ثم وصولًا إلى الأطراف الغربية من إيطاليا شرقًا، وهذا يعني أن الأندلسيين أصبحوا هم المتحكمين في غالبية ممرات جبال الألب، وكذلك الحدود بين فرنسا وإيطاليا والطرق التي تصلهما ببعضهما⁽⁵⁸³⁾، وقد انتعش اقتصاد الأندلس بعد نجاح الحملات التي كانت تُرسل لقتال الممالك المسيحية في الشمال ك أستورياس، وأرغون، وقشتالة، (سنتحدث عنهم لاحقًا باستفاضة)، والتي كانت تعود مُحملة بالغنائم والأموال، كما تحسنت أحوال البلاد الزراعية والصناعية⁽⁵⁸⁴⁾.

انزعج أباطرة أوروبا وملوكها من هذا التوغل العميق، فانتصب كل واحد منهم من أجل صد خطر الأندلسيين، وقد تعاونت إيطاليا مع بيزنطة كما وضعنا في الفقرة السابقة، وتمكنا من صد توغل المسلمين، وأجبروهم على التراجع وكانا على وشك الانتصار والقضاء التام على نفوذ الأندلسيين خارج ديارهم، لولا أن الاضطرابات التي وقعت في الداخل الإيطالي أجبرت إيطاليا على عقد صلح مع المسلمين مُقابل أن يتمركزوا في رءوس الألب وممراته؛ ويُغلقوا الطرق بوجه حُصومها⁽⁵⁸⁵⁾، إلى هذه النقطة كان المسلمون قد فرضوا سيادتهم الكاملة على جنوبي بروقانس، وتمكنوا من بناء سلسلة متصلة من القلاع الحصينة، وجعلوها مركزًا لغزواتهم على لومبارد شمال إيطاليا، وعلى جارتها سويسرا، غير أنهم أخرجوا من بعض الجهات في بيدمونت شمال غرب إيطاليا.

في عز توهج الأندلس، كانت الدولة على موعد مع الأفول؛ مع نهايات عهد تاسع أمراء الدولة الأموية في الأندلس "المستنصر بالله" (٩١٥ - ٩٧٦ م)، الذي تميز بالازدهار⁽⁵⁸⁶⁾، ولعل خطأه الوحيد هو وصيته بالولاية من بعده لابنه الصغير "هشام المؤيد بالله"، فعندما تسلم ولده كان منزوع الصلاحية؛ بسبب صغر سنه، وكان الواصي عليه أمه "صُبح البشكنجية"، التي كانت جارية عند أبيه، وأم ولديه "هشام" المختص بالذكر؛ وأخيه "عبد الرحمن" الذي توفي، رأت بطانة القصر أن فرصتهم سانحة في التحكم في مصير الدولة، فاتفق اثنان منهم: حاجب الخليفة "جعفر بن عثمان المصحفي"، وقائد الشرطة "محمد بن أبي عامر" على سيادة القرار، وجعل الخليفة وواصيته جالسين

على الحكم بشكلٍ صوري، فأصبحت سلطة البلاد بين قبضتهما⁽⁵⁸⁷⁾.

رويدًا رويدًا تخلص رئيس الشرطة ابن أبي عامر من كل المزاحمين له في القرار، وانفرد بالنفوذ وحده، بعد أن تمكن من استصدار مرسوم من الخليفة القاصر بمساعدة من أمه، يأمر فيه بعزل المصحفي وسجنه، وبعد أن رسخ موضعه، قام بإقضاء صبح حليفته السابقة، والحجر على ولدها هشام المؤيد، ودُعي له على المنابر، وأصبحت سلطة الخليفة الطفل وأمّه شبه ملغاة، واشتهر بين الناس أن ابن أبي عامر الذي لقبوه بـ "الحاجب المنصور"، هو سيد قرار الدولة، وبناءً على ذلك تمكن من تأسيس دولة داخل الدولة، لقبها المؤرخون بـ الدولة العامرية⁽⁵⁸⁸⁾، وأصبحت هذه الدولة واصمة على الدولة الأم، كوصاية السلاجقة على حكم العباسيين بالشرق على سبيل المثال، وعلى إثر ذلك مكن البربر من المناصب القيادية في الجيش؛ لدرجة أن القيادة العربية كانت شبه مندثرة، وبرغم ذلك، تمكن المنصور من قيادة الأندلس ببراعة على المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية، واتسعت غزواته وفتوحاته في الشمال، ومع نزوح هشام المؤيد بالله، كانت لا تزال الدولة في قبضة الحاجب المنصور، وبعد وفاته، تسلمها ولده الحاجب "عبد الملك المظفر بالله" عام ١٠٠١م، وعلى نفس العهد انتهى نهج أبيه، ولما توفي شابًا في عام ١٠٠٨م، خلفه أخوه "عبد الرحمن شنجول"، الذي قيل إنه الذي دس له سمًا، وقيل فيه أسوأ الصفات من طيش ولهو واستهتار ومجون، وبعد شهر واحد من توليه الخلافة أجبر الخليفة الصوري على إعلانه ولاية العهد له، أي نزع الخلافة وانتقالها من بني أمية إلى بني عامر⁽⁵⁸⁹⁾، رغم أن أباه الذي كان أقوى وأشد، لم يبادر بهذه الخطوة لمدة ثلاثين عامًا؛ حفاظًا على مشاعر الأندلسيين، فظهرت فتنة جديدة تُسمى "فتنة شنجول".

بسبب غروره وسوء خلقه نفر القوم منه، فغالبًا ما كان يُحقرهم، ويطغى عليهم، واستاء الأمويون في الأندلس من هذا العبث، واعتبروا أن ذلك بمثابة اغتصاب للخلافة هناك، فقاد أمير أموي اسمه "محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر" تمردًا واسعًا في نفس العام، واشتدت الثورة حتى تمكنت من الإطاحة بالحاجب شنجول؛ وكذلك الخليفة الصوري "هشام المؤيد بالله"، وولى الأمير "محمد بن هشام" نفسه خليفةً على الأندلس، بعد أن لقبوه بالمهدي بالله⁽⁵⁹⁰⁾، وعين ابن عم له وليًا لعهد، وهو "سليمان بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر"، ومن الوهلة الأولى طرد العامريين والبربر من مناصبهم القيادية في الدولة والجيش، وبدلهم بعرب أمويين. بدلاً من الفرار والتخفي، قرر شنجول التوجه إلى قرطبة، ومعه مجموعة من بعض أنصاره وأخواله الإسبان من مقاطعة كاريون في جليقية، وعندما اقترب من قرطبة تمكن الجند الموالي للمهدي بالله من قتله⁽⁵⁹¹⁾.

حكم المهدي بالله بكل رعونة وطيش هو الآخر، وقيل إنه استغل وجود شَبِّهِ بين موتى أحد المسيحيين في قرطبة وبين الخليفة المخلوع هشام المؤيد بالله بن المستنصر، فأعلن عن وفاته زورًا ليأمن سخط الناس، وبالفعل صدقته العامة، وبسبب تصرفاته الغير مسئولة، رأى بعض كبار الأسرة الأموية أن ما يفعله المهدي سيضعهم جميعًا على حافة الانهيار، وعداوته المجهرة للبرابرة وباقي الطوائف ستدخلهم في عداوة مباشرة مع كل الأندلس المتنوع عرقيًا، فقرر "هشام بن سليمان" عمه ووالد ولي العهد التحالف مع بقايا القادة العسكريين العامريين والصقالبة والبربر، فاجتمعوا جميعًا وأرسلوا إلى المهدي بالله طالبين منه خلع نفسه عن العرش، لكن المهدي بالله تجاهل طلبهم، فحانت لحظة الصدام، ودار القتال بين الطرفين، وانتصر المهدي عليهم، وأسر عمه هشام وابنه ولي العهد، وأخاه أبا بكر، والكثير من الزعماء الآخرين، وأصدر المهدي قراره بقتلهم جميعًا، واشتدت الفتنة، وزاد اقتطاع الرءوس، وتعمد المهدي الإساءة للبربر الذين كانوا يشكلون مع المرتزقة الصقالبة معظم جيش العامريين، ولم يمنع العامة من التحرش بالبربر، وكذلك نفى عددًا من الفتيان الصقالبة العامريين⁽⁵⁹²⁾.



خلافة قرطبة عام ١٠٠٠ م

كان ممن فر من المذبحة ابن أخي هشام، الذي يدعى "سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر"، فتجمع حوله البربر والصقالبة المضطهدون، وبايعوه كخليفة؛ واتخذ لقب "المستعين بالله"، وكان "سانشو غارسيا" كونت قشتالة يتابع الأحداث عن كثب، ورأى أن من مصلحته التحالف مع البربر وأميرهم المستعين بالله، وبعد التحالف توجّهوا إلى قرطبة، وهزموا جيش المهدي في معركة جبل قنتش، التي كان من نتائجها فرار المهدي بالله إلى طليطلة، ودخول المستعين بالله القصر، ليصبح هو الخليفة الجديد في

عام ١٠٠٩م (593).

كان هذا العام هو بداية النهاية، فقد أصبحت الأندلس على موعد مع التفتت الداخلي، وبوادر الضعف، وظهر أمراء يدعون الخلافة في أماكن شتى، وشهدت تصارعًا من الأمويين والبربر والحموديين على السُلطة، فتقسمت الدولة إلى دُولٍ صغيرة، وقد قررت كل طائفة إدارة شئونها وتعيين

حآكمها؁ فَعُرِفَت الفِترَة التآلية تاريخيآ باسم دول "ملوك الطوائف" (594).
بهذا الشكل - على التوازي - وفي كل الجبهات؁ انتهت العصور الوسطى
المبكرة؁ لتبدأ العصور الوسطى العآلية.

الفصل الثالث

العصور الوسطى

الْعُلْيَا (المتوسطة) ٣٣ - إحياء

الإمبراطورية الرومانية المقدسة
(توطيد لسلطة بابا الكنيسة) بعد أن
استمر لقب الإمبراطور الروماني
المقدس في عائلة كارولينجيان الذين
أسسوا مجتمعات كفرنسا وألمانيا
وإيطاليا وغيرهم، وبعد أن تنازع عليه
حكام إيطاليا في سلسلة من الحروب
الأهلية حتى وفاة آخر مدعٍ إيطالي
"بيرنغار الأول"، رافق هذه الحروب
الأهلية تفكك الإمبراطورية
الكارولنجية، ومداهمات من قبل قوى
خارجية، على رأسهم الفايكنج كما
ذكرنا، وفي عام ٩١١م، تحصل زعيم
الفايكنج "رولو" (٨٤٥-٩٣٢م) على

موافقة من ملك الفرنجة "شارل الثالث"، ليستقر هو ومن معه في منطقة مستقلة؛ عُرفت بعد ذلك بنورماندي (595)، ثم ازدادت الأحداث سوءًا مع هجمات الغزو المجري؛ الذي تحرش بالمناطق الشرقية من ممالك الفرنجة، أضف إلى كل هذا، أن ضعف وتفكك الدولة العباسية على قدر ما هو أفاد أوروبا؛ إلا أنه قسّم النفوذ الإسلامي لدويلات صغيرة، فأصبحت كل دولة لها مطمع توسعي خاص بها، فمنهم من توغل بإيطاليا وصقلية، ومنهم من سيطر على الأجزاء الجنوبية من مملكة الفرنجة

والأندلس (596).

بعد كل هذه الفترة، كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة على موعدٍ جديدٍ مع إحياء لقبها في عام ٩٦٢م، عندما توج "البابا يوحنا الثاني عشر"، "أوتو الأول" ملك ألمانيا، إمبراطورًا مقدسًا، وأصبح خليفةً لشارلمان (597)، وبفضله

بدأ الوجود المستمر للإمبراطورية المقدسة لمدة ستزيد عن ثمانية قرون، والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين يرون أن هذا ليس إحياء؛ بل هو ميلاد الإمبراطورية الفعلية (598).

اكتسب أوتو هذا الانتساب لما أحدثه من تطورات، فمنذ انضمامه وحتى القرن الثاني عشر، كانت الإمبراطورية أقوى نظام ملكي في أوروبا، وُصفت تاريخيًا بأنها ربما أقوى دولة أوروبية في العصور الوسطى كلها (599).

عندما توفي الشاب أوتو عام 1002م، جاء من بعده ابن عمه "هنري الثاني"، الذي ركز معظم اهتمامه على ألمانيا، وبالرغم من ذلك؛ كان نشطًا جدًا في إجراء الاتصالات الدبلوماسية من أجل نشر التنصير والثقافة اللاتينية في أوروبا، وقد ساعده في ذلك أستاذه ومعلمه "البابا سيلفستر" (600)، وفي خطة شبيهة بالتي قامت بها الإمبراطورية البيزنطية من قبل، تمكنوا من تنصير وتجميع مجموعة جديدة من الدول (السلافية) في إطار الإمبراطورية المقدسة، تتمحور جميعها حول البابا والإمبراطور في روما (601).

بعدهما توفي هنري الثاني عام 1024م، تم انتخاب "كونراد الثاني"، مؤسس سلالة ساليان، ووقتها كانت الإمبراطورية الرومانية مكونة من أربع ممالك: مملكة ألمانيا (جزء من الإمبراطورية منذ عام 962م) - مملكة إيطاليا (من 962 حتى 1801م) - مملكة بوهيميا (602) (من عام 1002 باسم دوقية بوهيميا قبل أن تُرفع إلى مملكة عام 1198م) - مملكة بورغندي (603) (من 1032 إلى 1378م).

بعد وفاة كونراد الثاني، تسلم ابنه "هنري الثالث" الحكم (1016 - 1056م)، وتمكن من إنهاء الإنقسام البابوي، أما في الدوقات فقد فرض هنري حَقًّا ملكيًا سياديًا للتصرف، وعندما تسلم من بعده "هنري الرابع" (حكم من 1056 - 1106م)، قابله بعض العناد البابوي، حيث كان البابا الإصلاحية "غريغوري السابع" مصممًا على معارضة تدخل الملوك واستخدام الأساقفة في الشؤون الإدارية والمناصب الكنسية (604)، أدى ذلك إلى جدل استثماري مع هنري الرابع ملك الرومان والإمبراطور الروماني المقدس، ردًا على ذلك نبذ هنري تدخل البابا وأقنع أساقفته بحرمان البابا، فرد البابا بوجوب حرمان الإمبراطور نفسه؛ وأعلن عزله وحل قسم الولاء لهنري (605).

في غضون ذلك وجد هنري نفسه بلا دعم سياسي تقريبًا، واضطر إلى القيام بالمسيرة الشهيرة إلى كانوسا (606) في عام 1077م، وأجبر هنري على التذلل منتظرًا على ركبته لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال أمام بوابة دخول قلعة ماتيلدي، من أجل أن يتوب، وأن يرفع عنه غريغوري الحرمان، وبالفعل رُفع عنه الحرمان الكنسي على حساب الإذلال، وبرغم رفع الحرمان؛ انتخب الأمراء

الألمان ملكًا آخر غيره، وهو "رودولف شوابيا"⁽⁶⁰⁷⁾، فبات الصراع وشيكًا. في اللحظة التي بدأ فيها الصراع، كان الفريقان في موقع ضعف، لكن ثالثهما الذي وقف في موقف قوة، هو البابا غريغوي السابع، الذي أظهر أمام الجميع أن لا عناد يفوق إرادة البابا، حتى وإن كان عناد الإمبراطور نفسه. إيبيريا هي الأخرى – اعتلى صوت الممالك المسيحية فيها، وبدأت تُظهر ما يسمى "الحرب المقدسة من أجل الاسترداد"، وبدأت تُعد العُدّة من أجل مواجهة الأندلسيين.

٣٤ - تقييد عرش الأندلسيين

(الممالك المسيحية وبداية الاسترداد) يعتبر أول إعلان عن ظهور الممالك المسيحية في شمال إيبيريا، أو كما يسميها الغرب "ظهور بداية الاسترداد"، هي معركة كوفادونجا⁽⁶⁰⁸⁾ (٧١٨ أو ٧٢٢م)، كأول انتصار معروف للقوات المسيحية في هسبانيا منذ فتحها الأموي عام ٧١١م، عندما هزم المتمرّدون بقيادة نيل القوط "بيلاجيوس" جيشًا مسلمًا في جبال شمال هسبانيا، وأسسوا مملكة أستورياس المسيحية المستقلة⁽⁶⁰⁹⁾، لتصبح أول كيان سياسي مسيحي تأسس بعد الفتح الأموي لإسبانيا⁽⁶¹⁰⁾، ثم أسس "فرولا الأول" عاصمتها؛ مدينة أوفييدو⁽⁶¹¹⁾ (٧٢٧-٧٢٨)، وبعد أن تم اغتياله؛ خلفه عدة ملوك (أوريليوس، سيلو، موريفاتو، وبرمودو الأول، الشماس)، وأخيرًا "ألفونسو الثاني"، الذي استأنف شن الحملات الكبرى ضد المسلمين في الأندلس، وعندما جاء "ألفونسو الثالث"، واصل هو أيضًا غزواته

حتى جبل الشارات⁽⁶¹²⁾، وأسس بوجوس⁽⁶¹³⁾، العاصمة المستقبلية لمملكة قشتالة.

ثار على ألفونسو الثالث أبناؤه، فتنازل عن التاج، وقسم أراضي مملكة أستورياس، التي سرعان ما أصبحت أراضيها خاضعة لسيطرة مملكة ليون المستقبلية، في شمال غرب شبه جزيرة إيبيريا، فتأسست مملكة ليون عام ٩١٠م، عندما تم نقل العاصمة من أوفييدو إلى مدينة ليون، وفي عام ١١٣٩م، انفصلت كوتية البرتغال لتأسس مملكة البرتغال، (ستنضم لاحقًا باقي أراضي مملكة ليون إلى مملكة قشتالة عام ١٢٣٠م)⁽⁶¹⁴⁾.

كانت أراغون نقطة تجمع أخرى في عملية الاسترداد، الاثنان الأخريان، نافار (نيرة - بامبلونة)، وكاتالونيا، كانتا تم وضعهما حسب ظروف أصلهما في علاقات غريبة مع فرنسا، إلى أن تمرد الباسك على جانبي جبال البرانس الغربية غير راضين عن حكم الفرنجة، (معركة ممر رونسفال)، وفي عام ٨٢٤م عزز انتصار آخر على الفرنجة من تأكيد استقلال الباسك في بامبلونة، حتى وصل الحكم إلى "سانشو الثاني" الذي تنازل عن العرش لصالح ابنه "غارسيا الثاني"، والذي بدوره قرر الاشتباك مع الأندلسيين في معركة فالديجونكويرا، بعد أن حشد جيشي مملكتي ليون ونافار في ٢٦ يوليو ٩٢٠م، وانتهت المعركة بانتصار لقرطبة؛ بقيادة أميرهم "عبد الرحمن الثالث" أبو المُطَرِّف عبد الرحمن الناصر لدين الله؛ ضد الجيوش المتحدة⁽⁶¹⁵⁾.

رغم ذلك، انهارت خلافة قرطبة الذهبية نتيجة للحروب الأهلية، التي وقعت بين أعوام ١٠٠٩ و ١٠١٣م، كمؤشر لنهاية هذه الإمارة وإلغائها عام ١٠٣١م، وانقسمت الأندلس إلى عدد من الدول الصغيرة المستقلة عن بعضها في الغالب، سميت هذه الدول أو الإمارات بالطوائف، كما ذكرنا، أصبح عدد هذه الطوائف يصل إلى ما يقارب ستًا وعشرين دولة تتفاوت فيما بينها في الحجم والقوة والضعف، وكان لكل مدينة حاكم يُلقب بالوالي أو الأمير أو الملك، وكانت حدودهم غير ثابتة؛ نظرًا لكثرة الحروب بينهم، فكلما كانت أقوى كلما تعدت على أملاك الآخرين، في حين كانت الممالك المسيحية في الشمال تتزايد من قوتها، ولا تكف عن التدخل في شئون تلك الدول، فتفرض الجزية على الكثير منها، وفي أحوال أخرى تقتنص أملاكها⁽⁶¹⁶⁾.

في نهاية المطاف تحولت غارات المسيحيين إلى غزوات كاملة، وردًا على ذلك اضطر ملوك الطوائف إلى طلب المساعدة من المرابطين، وتدخلت إمبراطورية المرابطين، التي كانت سلالة إمبراطورية أمازيغية مسلمة متمركزة في أراضي المغرب الحالي⁽⁶¹⁷⁾، وصدت الهجمات المسيحية على

المنطقة، وفي نفس الوقت، أطاحت بالأمراء المسلمين الأندلسيين الضعفاء، ودمجت الأندلس تحت الحكم الأمازيغي المباشر، كبداية لضم الأندلس لمدة قرن ونصف قادمين، لتبعيات إمبراطوريات المسلمين البرابرة، (المرابطين أولاً، ثم الموحيدين، ثم المرينيين، وجميعهم كان مقرهم في مراكش المغرب).

في عهد "ألفونسو السادس"، ملك قشتالة وليون، دخل المرابطون أول الأمازيغ الداخلين؛ في عام ١٠٨٦م لمناصرة الأندلس، بقيادة حاكم المغرب المرابطي "يوسف بن تاشفين"، فعبر ابن تاشفين المضيق إلى الجزيرة الخضراء، ووقعت معركة ساجراجاس في ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م، التي شهدت خسارة فادحة للمسيحيين، وبحلول عام ١٠٩٤م، أزاح ابن تاشفين جميع الأمراء المسلمين في إيبيريا وضم ولاياتهم، باستثناء ولاية سرقسطة فقط، واتخذت سلالة المرابطين عاصمتها في مراكش، وحكمت منها أراضيها في الأندلس⁽⁶¹⁸⁾.

من ناحية أخرى، منح ألفونسو السادس ابنته "أوراكا" و"تيريزا" للزواج من "ريموند" و"هنري" من بورغندي، اللذين أسسا سلالتين: سلالة أسرة البرتغال، وسلالة قشتالة وليون، والتي بدأت مع "ألفونسو السابع"، لكن أثناء حكم ألفونسو السابع تم فصل قشتالة وليون مرة أخرى، تاركًا قشتالة لابنه سانشو الثالث، وليون لفرديناند⁽⁶¹⁹⁾.

وظلت الأندلس تابعة للمرابطين المغاربة، بعد دخول ابن تاشفين، الذين انغمسوا في مقاومة تخطيطات الشمال المسيحي من أجل استرداد الأرض، وظهر مصطلح "الحرب الصليبية" لأول مرة في التاريخ الأوروبي. أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية؛ فبرغم قوتها التي تم ترسيخها بشكل مذهل على يد "باسيل الثاني"؛ كان نشاطها في عملية التنصير قد قل نوعًا ما عن نشاط الكنيسة الغربية اللاتينية، ربما لأن الإمبراطورية البيزنطية قد غاصت في معاناة جديدة. ما هذه المعاناة؟

٣٥ - الانشقاق العظيم

(بيزنطة نحو الانتكاسة) بعد قوة باسيل الثاني وانتصاراته، في عام ١٠٥٤م، وصلت العلاقات بين التقاليد الشرقية والغربية للكنيسة الخلقيدونية إلى أزمة عظيمة ونهائية، بعد الإعلان الرسمي بالانفصال المؤسسي في ١٦ يوليو؛ عندما دخل ثلاثة مندوبين بابويين آيا صوفيا؛ خلال القداس الإلهي بعد ظهر يوم السبت، ووضعوا ثورًا من الحرمان الكنسي على المذبح، فيما يسمى بـ "الانشقاق العظيم"، وهو في الواقع نتاج نهائي لقرون من الانفصال التدريجي⁽⁶²⁰⁾، وبهذا الشكل حدث الانقسام بين الأرثوذكسية والكاثوليكية عام ١٠٥٤م، أي بمعنى أوضح؛ الانقسام بين الشرق والغرب دينيًا ومؤسسيًا.

لم يكن هذا الحدث هو ما قصدت به وصف المعاناة الجديدة للبيزنطيين، فهذا الانقسام هو نتاج لصراعات ماضية، وكان قادمًا لا محالة، لكن معاناة البيزنطيين كانت تكمن في صعوباتهم السياسية، التي كانت متأزمة وقت هذا الانقسام، بسبب تقويض نظام الموضوع وإهمال الجيش، فعلى سبيل المثال - كان نقفور الثاني، وجون وباسيل الأول والثاني - في السابق - قد اعتمدوا على الجنود المحترفين المرتزقة باهظي الثمن، بدلًا من الجنود الوطنيين المتوجهين لنصرة وطنهم، وبعد نجاح باسيل الثاني منقطع النظر، لم يتمكن البيزنطيون من الحفاظ على نجاحاته، ولا زرع حاميات وتحصينات كبيرة لكل ما قد ضمه⁽⁶²¹⁾؛ بسبب التكلفة باهظة الثمن، فلا شك في أنه ترك بعد وفاته

أراضي وممتلكات وخزانة مزدهرة، لكنه في الواقع أهمل التخطيط لخلافته، فلم يكن لدى أيٍّ من خلفائه المباشرين أي موهبة عسكرية أو سياسية لإدارة مثل هذا النفوذ العظيم، ووقعت الإدارة الإمبراطورية بشكل متزايد في أيدي الخدمة المدنية، وترتب على كل هذا انحدار الاقتصاد البيزنطي، ووصل إلى تضخم حاد، وهبطت العملة الذهبية، لدرجة أن البيزنطيين قد نظروا إلى الجيش على أنه نفقة غير ضرورية وتهديد سياسي للدولة، وتم تسريح عدد من الوحدات المحلية الدائمة، مما زاد من اعتماد الجيش على المرتزقة، خاصةً المرتزقة المتاحين عند الطلب لتوفير التكلفة⁽⁶²²⁾.

في ظل هذا التخبط، ظهر لبيزنطة أعداء جدد، فهناك يقف النورمان مهديين مقاطعاتها في جنوب إيطاليا، بعد وصولهم إلى هناك في بداية القرن الحادي عشر - كما ذكرنا في موضعٍ آخر، حينما استغلوا الصراع بين القسطنطينية وروما.

كان النورمانديون قد تقدموا ببطء ولكن بثبات إلى إيطاليا البيزنطية⁽⁶²³⁾، واستولى القائد "روبرت جيسكارد"؛ على ريجيو عاصمة تاجما كالابريا عام ١٠٦٠م، وتبعها أوترانتو عام ١٠٦٨م، ثم تبعهما حصار باري، المعقل البيزنطي الرئيسي في بوليا بأغسطس من عام ١٠٦٨م، حتى سقطت في أبريل ١٠٧١م⁽⁶²⁴⁾.

تفاقت الأوضاع عندما قام "قسطنطين التاسع" بحل جيش موضوع إيبيريا بالأناضول في حوالي عام ١٠٥٣م، وقد تسبب تسريح هؤلاء الجنود في إلحاق ضرر كارثي بالدفاعات الشرقية للإمبراطورية، ففي الأناضول قامت الطبقة الأرستقراطية العسكرية بانتخاب واحد منهم في عام ١٠٦٨م، واضطر قسطنطين لعقد هدنة مع السلاجقة الروم، الدولة الإسلامية القوية الصاعدة حينها، التي أسستها سلالة السلاجقة التركية المنحدرة من قبيلة "قنق" من أتراك الأوغوز؛ والتي كان لها وقتها تأثير قوي في سياسة العالم المعروف⁽⁶²⁵⁾، واستمرت الهدنة حتى عام ١٠٦٤م، عندما خرقتها السلاجقة، وهاجم جيش سلجوقي كبير بقيادة "ألب أرسلان" موضوع إيبيريا، وأخذ مدينة العاني الآرمينية؛ بعد حصار دام ٢٥ يومًا⁽⁶²⁶⁾.

وفي عام ١٠٦٨م، تولى الإمبراطور "رومانوس الرابع ديوجينيس" السلطة، والذي قام بترميم ما يمكن ترميمه في العسكرية، وفي تأكيد تام لعدم احتياجه للغرب اللاتيني في صد خطورة المسلمين، أمر بشن حملة استكشافية ضد السلاجقة، انتصرت الحملة في البداية، واستولت على شمال شرق حلب في سوريا، وأحبطت ردًّا تركيًّا بهجوم مضاد⁽⁶²⁷⁾، لكن بعدها تحول النصر لهزيمة، فقد تمكن السلاجقة من الرد وأسر قادة الحملة، وبرغم النجاح السلجوقي، سعى أرسلان سريعًا إلى إبرام معاهدة سلام مع

البيزنطيين، وبالفعل تم التوقيع عليها في عام ١٠٦٩م؛ وما استدعى ألب رسلان لذلك، هو إيمانه بأن عدوه الأول هو العدو الفاطمي القاطن في مصر، فقرر تأجيل المواجهة البيزنطية حتى يرتب الأولويات⁽⁶²⁸⁾.

في فبراير من عام ١٠٧١م، أرسل رومانوس مبعوثين إلى أرسلان لتجديد معاهدة ١٠٦٩م؛ الذي لم يفكر في الأمر كثيرًا، وقرر الموافقة؛ حرصًا منه على تأمين جناحه الشمالي من الهجوم، وبعد تخليه عن حصار الرها، قاد جيشه على الفور لمهاجمة حلب التي يسيطر عليها الفاطميون آنذاك. لكن يبدو أن رومانوس كان قد عرض عليه تجديد المعاهدة كفخ؛ أو لمجرد الإلهاء، ففي ظل انشغال السلاجقة في حلب، نقض رومانوس عهده، وقاد جيشًا كبيرًا إلى أرمينيا لاستعادة القلاع المفقودة في ظل غياب السلاجقة، وحاول استدراج جيش السلاجقة الغير مجهز هناك، في معركة ملاذكرد، ١٠٧١م بالقرب من مانزكيرت، موضوع إيبيريا (مالازجيرت الحديثة في مقاطعة موش، تركيا)⁽⁶²⁹⁾، والتي لا شك في أنها كانت محاولة إثبات للغرب المنشق؛ أن الإمبراطورية البيزنطية كانت وما زالت هي الأقوى والأرقى والأهم..

٣٦ - تقويض قوة الإمبراطورية البيزنطية (السلاجقة وانتصار ملاذكرد) بسرعة البرق؛ استدعى "ألب أرسلان" جيشه، وألقى كلمة في صباح يوم المعركة، من خلال الظهور برداء أبيض يُشبهه كفن المتوفى المسلم (630)، وكان قصده من ذلك إبراز أهمية هذه المعركة، وتوضيح أنه على استعداد أن يموت فيها، وبدأ السلاجقة بهجمات رماة الخيول طوال اليوم حتى انتهى النهار (631).

في اليوم التالي، اكتشفت بعض مجموعات البحث عن الطعام تحت قيادة "برينيوس"، القوة السلجوقية القادمة إليهم من بعيد، وأجبروا على التراجع إلى مانزكرت، فأرسل رومانوس الجنرال الأرمني "باسيليك" وبعض سلاح الفرسان، حيث لم يعتقد رومانوس أن هذا هو جيش ألب أرسلان كاملاً، وبعد أن انطلق سلاح الفرسان، قام رومانوس بتوجيه قواته إلى التشكيل، ليكون الجناح الأيسر تحت قيادة برينيوس، الذي كان له النصيب الأكبر من الضغط، حيث إنه كان محاطاً تقريباً من قبل الأتراك الذين يقتربون بسرعة؛ فأجبروه على التراجع، ومع قدوم الليل اختبأت القوات السلجوقية بين التلال القريبة، مما جعل من المستحيل تقريباً على رومانوس القيام بهجوم مضاد (632).

مع صباح اليوم التالي ٢٥ أغسطس، وقعت مفاجأة في معسكر جيش رومانوس المعتمد على المرتزقة، لقد انشق عنه بعضهم وانضموا إلى أقاربهم الأتراك، وفي ظل موقفه الضعيف، عرض عليه أرسلان السلام، لكنه رفض، على أمل تسوية المسألة الشرقية المزعجة، والتوغلات، والاستيطان التركي المستمر، بنصر عسكري حاسم للأبد، وانتهى يوم ٢٥ أغسطس المخصص للتفاوض بدون قتال.

مع قدوم ٢٦ أغسطس، اجتمع الجيش البيزنطي في تشكيله القتالي الكامل، وبدأ في السير نحو المواقع التركية، مع الجناح الأيسر تحت قيادة برينيوس، والجناح الأيمن تحت قيادة "ثيودور أليتس"، وكان المركز تحت قيادة الإمبراطور نفسه، وقتها رأتهم قوات الاستطلاع السلجوقية، وصاح

جندي تركي لألب أرسلان قائلاً: "يا سلطان، جيش العدو يقترب".
فرد ألب أرسلان بكل ثقة قائلاً: "إدًا نحن أيضًا نقترب".
عهد الإمبراطور البيزنطي في هذه اللحظة قيادة قوات الاحتياط في
المؤخرة لـ "أندرونيكوس دوكاس"، وقد اعتبره المؤرخون الغربيون خطأً
فادحًا؛ بسبب الولاءات المشبوهة لعائلة دوكاس، وقتها تم تنظيم السلاجقة
في تشكيل هلال على بعد حوالي أربعة كيلومترات⁽⁶³³⁾، وهاجم الرماة
السلاجقة كالمعتاد الجيش البيزنطي من بعيد وهو يقترب، وبحرفية عالية كان
مركز الهلال يتحرك باستمرار للخلف، بينما تحركت الأجنحة لتطويق القوات
البيزنطية⁽⁶³⁴⁾.

لم يهتز الجيش البيزنطي الذي تقدم بقوة، على الرغم من هجمات الأسهم،
وبحلول نهاية فترة ما بعد الظهر تمكن من الاستيلاء على معسكر ألب
أرسلان، لكن لم ينتبه الإمبراطور من ضعف الجناحين الأيمن والأيسر، حيث
تسبب رماة الأسهم في خللتهما، وعندما انتبهوا، حاولت الوحدات الفردية
إجبار السلاجقة على خوض معركة ضارية؛ لكن قام سلاح الفرسان السلاجقة
ببساطة بفك الاشتباك، ومع تجنب السلاجقة المعركة، اضطر رومانوس أن
يأمر قواته بالانسحاب بحلول الليل، لكن لم يتفهم الجناح اليميني الأمر أو
ربما تجاهله، في نفس الوقت تعمد دوكاس في المؤخرة عدم القيام بتغطية
انسحاب الجيش، وعاد مباشرة إلى المعسكر البيزنطي خارج ملاذكرد، وأثناء
هذا التخبط وعدم تغطية الجانب الأيمن من الجيش، انتهر السلاجقة الفرصة
وهجموا⁽⁶³⁵⁾.



لوحة بعنوان ألب أرسلان والإمبراطور المتهان رومانوس الرابع . من ترجمة فرنسية مصورة من القرن الخامس عشر لكتاب بوكاتشيو

. De Casibus Virorum Illustrium

بسهولة بالغة تمت هزيمة ميمنة الجيش البيزنطي فورًا، وقد أذلتهم الهزيمة السريعة، فبرروا ذلك بأنهم قد تعرضوا للخيانة، ليس من قبل دوكاس وحسب، لكن لوحت أصابع الاتهام نحو الأرمن، ومعهم المساعدون الأتراك،

أما الجناح الأيسر البيزنطي السليم فصامد حتى الآن؛ وتحت قيادة برينيوس استمر يقاتل لفترة أطول قليلاً، لكنه سرعان ما تعرض للهزيمة هو الآخر⁽⁶³⁶⁾، وبأسلوب تكتيكي احترافي حاصر السلاجقة بقايا المركز البيزنطي، وجرح الإمبراطور رومانوس، ووقع أسيراً في يد السلاجقة⁽⁶³⁷⁾، وبحلول الفجر، تم تدمير النواة المهنية للجيش البيزنطي، في حين فر العديد من القوات التي كانت تحت قيادة أندرونيكوس دوкас⁽⁶³⁸⁾.

كانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة في التاريخ التي أصبح فيها إمبراطور بيزنطي أسيراً لقائد مسلم، والمرة الأولى التي يقع فيها إمبراطور روماني على قيد الحياة من قبل قوة معادية، وكان لهذه المعركة دور مهم في تقويض السلطة البيزنطية في الأناضول وأرمينيا⁽⁶³⁹⁾، وكذلك سمحت بالاصطباغ التركي التدريجي للأناضول، فقد كان هذا الانتصار بالنسبة للسلاجقة مدخل إلى آسيا الصغرى، من ناحية أخرى - كارثة إستراتيجية طويلة الأمد لبيزنطة، وبسبب أن الخسائر البيزنطية كانت منخفضة نسبياً⁽⁶⁴⁰⁾، لم تُغير المعركة بشكل مباشر ميزان القوى بين البيزنطيين والسلاجقة بنسبة واضحة، لكن الحرب الأهلية التي تلت ذلك داخل الإمبراطورية البيزنطية؛ هي التي فعلت ذلك، وأتمت عملية التقويض لصالح الأتراك⁽⁶⁴¹⁾.

تسببت هذه المعركة في خسارة معقل الأناضول الخاص بالإمبراطورية الرومانية الشرقية للأبد، حيث إن الموضوعات في الأناضول كانت هي قلب الإمبراطورية، فقد رأى المؤرخون أنها أعظم كارثة عانت منها الإمبراطورية في سبعة قرون ونصف من وجودها⁽⁶⁴²⁾، وقيل إنها كانت الكارثة الأكثر حسماً في التاريخ البيزنطي.

والآن لننتقل من الشرق إلى الغرب، إلى بريطانيا الأنجلو ساكسونية، التي لم تسلم هي الأخرى من خطر النورمان..

٣٧ - الغزو النورماني لإنجلترا
(قيام الإمبراطورية الأنجلو نورماندية) بعد أن
عاشت إنجلترا تحت حكم الممالك
الساكسونية، في عام ١٠٠٢م تزوج الملك
"إثيلريد أونريدي الثاني" ملك إنجلترا (من
عائلة ويسيكس الأنجلو ساكسونية) من "إيما"
النورماندية، أخت "ريتشارد الثاني" دوق
نورماندي⁽⁶⁴³⁾، وأنجبا ابنتهما "إدوارد المعترف"،
الذي تولى العرش الإنجليزي في عام
١٠٤٢م⁽⁶⁴⁴⁾.

جلب إدوارد الحاشية والجنود ورجال الدين النورمانديين أخواله؛ ذاك العرق
المختلط من الفرنسيين والفايكنج، وقام بتعيينهم في مناصب السلطة؛ أبرزها
كانت الكنيسة⁽⁶⁴⁵⁾، وعندما توفي إدوارد في عام ١٠٦٦م، أدى عدم وجود
وريث شرعي واضح له لظهور خلافة متنازع عليها بقوة، حيث طالب العديد
من المتنافسين بعرش إنجلترا⁽⁶⁴⁶⁾، كان الخليفة المباشر لإدوارد هو "هارولد
جودوينسون"، أغنى وأقوى الأرسقراطيين الإنجليز، وبالفعل تم انتخابه ملكاً.
بعد انتخابه، على الفور واجه هارولد تحدياً كبيراً من قبل اثنين من الحكام
المجاورين الأقوياء، فقد ادعى دوق نورماندي "ويليام الأول"، أن الملك إدوارد
قد وعد بالعرش قبل وفاته، وأن هارولد أقسم على ذلك⁽⁶⁴⁷⁾، أما المتحدي
الآخر فهو الملك "هارالد الثالث" ملك النرويج، المعروف باسم هارالد
هاردرادا، والذي اتهم الانتخاب هو أيضاً بالبطلان، استندت مطالبته للعرش
على اتفاق يقول إنه قد وقع بين سلفه "ماغنوس الأول" ملك النرويج، والملك
الإنجليزي السابق "هارتاكنوٲ" (كانوت الثالث)، أنه في حالة موت أحدهما
دون وريث، فإن الآخر يرث كلا من إنجلترا والنرويج سويّاً⁽⁶⁴⁸⁾.

شرع المدعيان ويليام وهارالد في تجميع جيوشهما، والتسابق من أجل غزو
إنجلترا، ودعم "توستيج جودوينسون" أخاه الملك هارولد جودوينسون

بسلسلة من الهجمات في شمال إنجلترا في عام ١٠٦٦م، لكنه هُزم على يد النرويجي هاردرادا، الذي تمكن من غزو شمال إنجلترا في أوائل سبتمبر من نفس العام⁽⁶⁴⁹⁾، وبعد قتال دموي، قُتل كل من هاردرادا النرويجي، وتوستيج أخو هارولد، إلى جانب معظم النرويجيين المشاركين في الغزو، في معركة ستامفورد بريديج⁽⁶⁵⁰⁾، وعلى الرغم من أن هارولد صد الغزاة النرويجيين، إلا أن جيشه هُزم على يد ويليام والنورمان، بعد أقل من ثلاثة أسابيع، وقُتل هارلود نفسه في هذه المعركة المعروفة باسم معركة هاستينغز في ١٤ أكتوبر، وسرعان ما احتلت قوات ويليام جنوب إنجلترا⁽⁶⁵¹⁾، وتم تدوين المعركة تقليدياً على أنها ترمز إلى نهاية عصر الفايكنج.

عندما حكم النورماندي "ويليام الأول" الملقب بوليام الفاتح (حكم ١٠٦٦-١٠٨٧م) عرش إنجلترا، واجهته الثورات التي قمعها بالقوة قبل التدخل في شمال شرق إنجلترا، وقد أدى ذلك إلى سيطرة النورمانديين على يورك وتدمير المنطقة، وبعد أن أحكم النورمانديون قبضتهم، واجتهدوا العديد من التحديات في الحفاظ على سيطرتهم⁽⁶⁵²⁾، والسبب هو قلة عددهم مقارنةً بالسكان الإنجليز الأصليين، حيث قَدَّر المؤرخون المستوطنين النورمان بحوالي ٨٠٠٠ فقط⁽⁶⁵³⁾.

كان أتباع ويليام يعتقدون أنه سيمنحهم الأراضي والألقاب مقابل خدمتهم في الغزو، لكنه لم يفعل ذلك، فقد استولى ويليام على جميع الأراضي في إنجلترا التي منحها له جيوشه بحكم الأمر الواقع، واستولى كذلك على جميع الأراضي مباشرة في الحياة الإقطاعية مقابل الخدمة العسكرية، ولتجنب غضب النورمانديين، قرر ويليام مصادرة ممتلكات جميع اللوردات الإنجليز الذين قاتلوا وماتوا مع هارولد؛ وأعاد توزيع جزء من أراضيهم على أتباعه النورمان⁽⁶⁵⁴⁾.

أدت هذه المصادرات إلى ثورات كبيرة، عاقبها ويليام بالمزيد من المصادرات بطريقة معاندة، واستمرت دائرة المصادرات والثورات تتسع لمدة خمس سنوات، وبسبب زيادة هذه الثورات قام النورمانديون ببناء القلاع والتحصينات بأعداد غير مسبوقه من أجل صد أي تطاول، كما مارس ويليام وباروناته سيطرة أكثر إحكاماً على وراثه الممتلكات من قبل الأراامل والبنات، لكي يجبرهم بذلك على الزواج من النورمانديين، واستخدم بعض اللوردات النورمانديين إنجلترا كنقطة انطلاق للهجمات على جنوب وشمال ويلز⁽⁶⁵⁵⁾.

قبل وفاة ويليام، شكلت إنجلترا الجزء الأكبر من الإمبراطورية الأنجلو نورماندية، التي تحكمها شبكة من النبلاء الذين يمتلكون أراضي في جميع أنحاء إنجلترا ونورماندي وويلز، وبسبب زيادة الثورة في إنجلترا تمكن الملوك

النورمان من استعراض قوتهم عبر المنطقة، بما في ذلك حملات التمويل على طول حدود نورماندي⁽⁶⁵⁶⁾.

توفي وليام الفاتح في عام ١٠٨٧م، وعلى إثر ذلك تم تقسيم أراضيه إلى قسمين، القسم الأول - أراضيه النورماندية: قد تحصل عليها الابن الأكبر "روبرت كورثوس"، أما القسم الثاني - أراضيه الإنجليزية: فقد تحصل عليها الأصغر "ويليام روفوس"، انزعج النبلاء من هذا التقسيم بسبب رغبتهم في توحيد إنجلترا ونورماندي تحت حاكم واحد، وبالتالي قرروا مناهضة ويليام صاحب الأراضي الإنجليزية لصالح روبرت صاحب الأراضي النورماندية، وأطلقوا تمرّدًا عام ١٠٨٨م، بقيادة الأسقف القوي "أودو من بايو"، الذي كان الأخ غير الشقيق لويليام الفاتح⁽⁶⁵⁷⁾.

ومن التوتر في بريطانيا نذهب لنرى التوتر في الإمبراطورية البيزنطية بعد الهزيمة مباشرةً.

٣٨- استغاثة الشرق بالغرب اللاتيني
(نحو الحروب الصليبية المقدسة) معركة
ملاذكرد التي تبدو وكأنها بسيطة؛ هي بداية
لسلسلة من الأحداث السيئة على الواقع
البيزنطي، فقد تلاها مؤامرات العرش وأسر
رومانوس، وكذلك محاولة "روسيل دي
بيلول"، الذي كان يحاول أن ينصب لنفسه
مملكة مستقلة في غلاطية مع ٣٠٠٠ من
المرتزقة الفرنجة والنورمان والألمان⁽⁶⁵⁸⁾،
والكثير من التوترات والتبعيات.

منذ انتهاء المعركة؛ اقتصرَت الإمبراطورية البيزنطية على المنطقة
المحيطة مباشرة بالقسطنطينية فقط لا غير، ولم يعد للبيزنطيين قوة
عسكرية جادة⁽⁶⁵⁹⁾، من ناحية أخرى - رأى الغرب في ملاذكرد إشارة إلى أن
بيزنطة لم تعد قادرة على أن تكون حامية للمسيحية الشرقية؛ أو الحجاج
المسيحيين وطريقهم إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأوسط، وقد وضحت
الأدلة أن الإمبراطورية أصبحت غير قادرة على وضع جيش فعال في الميدان
لسنوات عديدة⁽⁶⁶⁰⁾.

أما السلاجقة - فبحلول عام ١٠٨١م، تمكنوا من توسيع حكمهم على هضبة
الأناضول بأكملها تقريبًا؛ من أرمينيا في الشرق إلى البيشنية في الغرب،
وأسسوا عاصمتهم في نيقية، على بعد ٩٠ كيلومترًا فقط من القسطنطينية
بمنتهى التحدي⁽⁶⁶¹⁾، أما رومانوس الأسير؛ فقد وُضع مقابل رأسه فدية،
وأطلق سراحه، وعاد إلى القسطنطينية⁽⁶⁶²⁾، ليصطدم بمواجهة "مايكل
دوكاس" الذي انقلب عليه طامعًا في السلطة، والذي سرعان ما واجه
معارضة "نقفور برينيوس"، و"نقفور الثالث بوتانيات".

بعد فترة من الاضطرابات، وصل الحكم لاحقًا إلى سلالة كومنينوس، التي
بدأت عند وصول "ألكسيوس الأول" للسلطة في عام ١٠٨١م، ومنذ توليه؛
كان المبدأ القائم في القسطنطينية هو تنفيذ الاستعادة، ولكن على الرغم من

أن القسطنطينية خسرت قلب الإمبراطورية في الأناضول لصالح السلاجقة الروم، إلا أن معظم الجهود العسكرية البيزنطية خلال هذه الفترة كانت موجهة ضد القوى الغربية الطامعة، وعلى وجه الخصوص النورمانديون⁽⁶⁶³⁾، والسبب هو أن صقلية - المتنازع عليها - بعدما كانت إمارة إسلامية قوية ومستقلة، دائماً ما كانت تسبب وصَبًا في رأس جيرانها، وبحلول القرن الحادي عشر، اضطرت القوتان البيزنطية المسيحية واللومباردية الجنوبية إلى استئجار مرتزقة من النورمان، غزا النورمان صقلية بشبه الجزيرة الإيطالية بقيادة "روجر الأول"، وتمكنوا من طرد المسلمين في عام ١٠٦٨م، واستمر الصراع لسنوات، إلى أن حاصر النورمان باليرمو، (كان هذا بداية لما أعقبه من السيطرة النورماندية التامة بحلول عام ١٠٩١م)، لكن النورمان رافضون إلى الآن تسليم صقلية، وطمعوا فيها لأنفسهم، بل وقادهم طمعهم للتوسع في المزيد من المستعمرات، وواجه ألكسيوس هجوماً هائلاً من قبل النورمانديين، ولكن خفت وفاة "جيسكارد النورماني" عام ١٠٨٥م مؤقتاً من خطورة النورمان، فاستغل ألكسيوس انشغال السلاجقة بخصوماتهم الداخلية بعد موت سلطانهم المعظم أرسلان، وقرر مفاجأة البيشنيك (البيشنيق) أبناء عمومتهم، وسحقهم في معركة ليفونيون في ٢٨ أبريل ١٠٩١م⁽⁶⁶⁴⁾.

بعد التوافق الجزئي مع الغرب اللاتيني؛ تمكن ألكسيوس من تحويل انتباههم إلى الصعوبات الاقتصادية الشديدة، وتفكك الدفاعات التقليدية للإمبراطورية، وأنه لم يكن لديه ما يكفي من القوة البشرية لاستعادة الأراضي المفقودة في آسيا الصغرى؛ والتقدم ضد السلاجقة المسلمين، وفي مجلس بياتشينزا عام ١٠٩٥م، كان هناك مبعوثون من ألكسيوس إلى البابا "أوربان الثاني"؛ قد أرسلهم من أجل شرح معاناة مسيحي الشرق، وليأكدوا أنهم بدون مساعدة من الغرب سيستمرون في المعاناة تحت تهديد المسلمين⁽⁶⁶⁵⁾.

رأى أوربان في طلب ألكسيوس فرصة عظيمة مزدوجة لتدعيم أوروبا الغربية وارتقائها؛ وإعادة توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، فقط تحت حكمه هو⁽⁶⁶⁶⁾، وفي ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، دعا أوربان مجلس كليرمون وهتف في الجميع، ليحثهم على حمل السلاح تحت رمز الصليب، وإطلاق رحلة حج مسلح لاستعادة القدس والشرق كله من المسلمين، وكانت الاستجابة في أوروبا الغربية ساحقة وأكثر من المتوقع، بعد أن أقنع أوربان الحضور، بأن الحج المسلح من أجل الجنة، وأن من سيموت في المهمة ستُغفر خطاياهم⁽⁶⁶⁷⁾، لتنهزم التهليلات⁽⁶⁶⁸⁾.

مفهوم الحروب الصليبية المقدسة

ذكرنا من قبل أن الصراع بين المسيحيين والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية؛ قد أعلن مصطلح الحرب الصليبية (الاسترداد)، لكن على سبيل

التوضيح - حينما سيأتي عام ١١٤٧م، ستكون الحملات الصليبية لم يُقصد بها الحروب مع المسلمين وحسب، بعكس ما هو شائع، فسُتعتبر الحملات في شمال أوروبا ضد القبائل الوثنية حملات صليبية، كذلك في عام ١١٩٩م سيبدأ البابا إنوسنت الثالث ممارسة إعلان الحروب الصليبية ضد الهراطقة المسيحيين، وكذلك في القرن الثالث عشر، سيتم استخدام الحملات الصليبية ضد الكاثار في لانغدوك و ضد البوسنة، وستستمر هذه الممارسة ضد جماعة الوالدان (فقراء ليون) في سافوي وهوسيتس في بوهيميا في القرن الخامس عشر، وأيضًا ضد البروتستانت في القرن السادس عشر، ومنذ منتصف القرن الرابع عشر سيتم استخدام الخطاب الصليبي ردًا على صعود الإمبراطورية العثمانية، إلى أن ينتهي هذا المصطلح للأبد حوالي عام ١٦٩٩ بحرب العصبة المقدسة. ويُعتبر من أشهر الحروب الصليبية في سجلات التاريخ جمعاء، هي الحروب الصليبية على الأرض المقدسة، والتي بدأت عام ١٠٩٥ بدعوة واستغاثة ألكسيوس البيزنطي هذه ضد السلاجقة والمسلمين في الشرق، وستستمر لزمٍ طويل يقارب قرنين من الزمان⁽⁶⁶⁹⁾.

بدأت هذه الحروب الصليبية من أجل الرغبة الشديدة في انتزاع الأرض المقدسة من المسلمين، وكذلك ترميم الإمبراطورية البيزنطية عسكريًا، لتشهد ثماني حملات صليبية كبرى، إلى جانب عشرات الحروب الصليبية الصغيرة خلال القرنين⁽⁶⁷⁰⁾.

ما زاد طلبات الصليبيين لهذه الحملة، أنه بعد فشل محاولة بيزنطة في ردع السلاجقة المسلمين، في نفس العام، انتزع زعيم الحرب "أتسز بن أوق" الخوارزمي التركي، القدس من الفاطميين، ثم ضم لمملكته معظم سوريا وفلسطين كجزء من توسع السلاجقة في جميع أنحاء الشرق الأوسط، فبات الصليبيون يخططون لتأمين طريق حجهم، والسيطرة على الأماكن المقدسة هناك، والتخلص من تهديدات المسلمين في الشرق كله⁽⁶⁷¹⁾.

ومن هنا انطلقت الحملات الصليبية على الأراضي المقدسة...

٣٩ - بداية الحملات الصليبية المقدسة
(حملات: الفقراء - الصليبية الأولى - ١١٠١م)
كانت الحملة الأولى في الأساس قد خُطط لها
قبل استغاثة بيزنطة، ففي عام ١٠٧٤م، بدأ
البابا "غريغوريوس السابع" في التخطيط لشن
حملة عسكرية لتحرير الأرض المقدسة،
واستمر الأمر محل نظر لمدة عشرين عامًا،
حتى جاء البابا "أوربان الثاني" وقرر تنفيذ
الحلم الباباوي بعد استغاثة الكسيوس، فبدأت
حملة شعبية صغيرة كنوع من الاستجابة
الدينية في قلوب فقراء أوروبا.

حملة الفقراء

بعد نداء البابا للفوز بالجنة، على الفور قاد القس الفرنسي "بيتر" (بطرس
الناسك)، الآلاف من المسيحيين الفقراء في الغالب، وقد عُرفت باسم حملة
الشعب الصليبية⁽⁶⁷²⁾، للتمييز عن الحملة الصليبية الأولى الخاصة بالنبلاء،
وعندما مروا بألمانيا، قاموا بذبح الجاليات اليهودية هناك، فيما يعرف تاريخيًا
باسم مذابح راينلاند، خلفت وراءها خرابًا ونهبًا في المجر والصرب واليونان
وآسيا الصغرى وحول القسطنطينية، كانت الحملة منتزعة القيادة تتحرك
بشكل همجي، حتى قابلتهم قوات السلاجقة الأتراك في ٢١ أكتوبر عام
١٠٩٦م، وتم القضاء على الجسد الرئيسي للصليبيين في معركة سيفيتوت،
وتشتت الحملة⁽⁶⁷³⁾.

الحملة الصليبية الأولى

استجابة لدعوة أوربان، اتحدت مجموعة جيوش تحت اسم الصليب من
فرنسا وإيطاليا، قاد "جودفري دي بوبون الرابع" أتباعه، وانضم إليه أخوه
الأكبر الكونت "يوستاس من بولون"، وأخوه الأصغر "بلدوين من بولون" أيضًا،
كما انضم "بودوان له بورغ" ابن عم جودفري، والكونت "بودوان من إينو"،
والكونت "رينو من تول"، وانطلقت الجيوش في أغسطس من عام ١٠٩٦م،

وساروا على طريق الدانوب؛ ووصلوا إلى القسطنطينية في نهاية عام ١٠٩٦م⁽⁶⁷⁴⁾.

عندما وصلت الحملة إلى بيزنطة استقبلهم الإمبراطور بحذر⁽⁶⁷⁵⁾، فما توقعه ألكسيوس قد حدث، فقد كانت المساعدة على شكل قوات مرتزقة من الغرب، لاسيما النورمانديون الذي طالما توجس ريبه منهم، لم يشعر ألكسيوس بالراحة عندما أخبروه أن القادة الثمانية للحرب الصليبية منهم أربعة نورمان، وفي نفس الوقت توتر بسبب أنه لم يكن مستعداً تماماً للقوة الهائلة وغير المنضبطة التي وصلت الآن إلى الأراضي البيزنطية، وبناءً على ذلك، طلب من قادة الحملة أن يقسموا له بالولاء، وعلى أن يعيدوا إلى الإمبراطورية أي مدن أو مناطق يحتلونها من الأتراك في طريقهم إلى الأرض المقدسة، وبعد القسم، أعطاهم أدلة ومرافقة عسكرية، وأخبرهم بأن الأولوية يجب أن تكون اقتناص نيقية من السلاجقة، فحاصروها في يونيو ١٠٩٧م، وقاوم النورمانديون لساعات قبل وصول جيش السلاجقة الرئيسي؛ مما تسبب في فوزهم بنيقية عاصمة السلاجقة الحديثة⁽⁶⁷⁶⁾.

زحف الجيش الصليبي نحو مدينة أنطاكية البيزنطية السابقة، والتي كانت تحت سيطرة المسلمين منذ عام ١٠٨٤م، وبدأ الصليبيون حصارها بأكتوبر ١٠٩٧م، وقتلوا لمدة ثمانية أشهر، حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها، وقتلوا الكثير من المسلمين والمسيحيين⁽⁶⁷⁷⁾، ونشأت قوة لاستعادة المدينة من قبل "كريغا"، أتاك السلاجقة في الموصل فاشتد القتال هناك، واستمرت الجبهة متوترة عليها.

بعدها، حاصر القائد ريمون عرقة الشامية، في منتصف فبراير ١٠٩٩م، ثم رفع ريمون حصار عرقة في مايو دون الاستيلاء على المدينة، وتوجهت الحملة الصليبية جنوباً على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهناك جاءتهم أخبار بأن الفاطميين من مصر قد استعادوا القدس من السلاجقة، عرض الصليبيون تقسيم الأراضي المحتلة مقابل حقوق المدينة، ولكن رُفض العرض⁽⁶⁷⁸⁾.

استكمل الصليبيون الزحف، واستولوا على الرها، وأسسوا إمارتهم الثانية عليها، واتجهوا إلى مدينة القدس في ٧ يونيو ١٠٩٩م، وفشل هجومهم الأول عليها، فقرروا حصارها، حتى خرقوا الجدران في ١٥ يوليو ١٠٩٩م، وقتها اضطر حاكمها وقائد حاميتها "افتخار الدولة الفاطمي"، عرض الاستسلام مقابل ممر آمن إلى عسقلان، وفي الأيام التالية ذبح الصليبيون سكان المدينة، ومارس ريمون معهم أساليب دموية فظيعة، وتوفي "أوربان الثاني" في ٢٩ يوليو ١٠٩٩م، بعد أربعة عشر يوماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين، وقبل أن تصله أخبار دخولهم⁽⁶⁷⁹⁾.

أقام الصليبيون مملكة القدس اللاتينية، بالإضافة إلى عدة مناطق حكم

صليبية أخرى، ك الرها وأنطاكية وطرابلس بالشام، بعد أن سهلت الخلافات بين حكام المسلمين المحليين الهزيمة، كالخلافات بين الفاطميين بالقاهرة، والسلاجقة الأتراك المهزومين بنيقية بالأناضول وقتها.

وفي ٢٢ يوليو ١٠٩٩م، عُقد مجلس في كنيسة القيامة، على إثره تولى "جودفري أوف بوالون" القيادة، ولم يُدعى ملكًا، بل كان يحمل لقب (المدافع عن القبر المقدس)⁽⁶⁸⁰⁾، اعتبر معظم الصليبيين أن مهمتهم قد انتهت، وعادوا إلى أوروبا، وتركوا جودفري معه قوة مكونة من ٣٠٠ فارس و ٢٠٠٠ جندي مشاة، للدفاع عن المملكة، لا أكثر من ذلك، وفي أغسطس ١٠٩٩م، هزم الصليبيون قوة إغاثة مصرية أخيرة في معركة عسقلان.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى بنجاح، بعد أن أدت مهمتها التي تحركت من أجلها⁽⁶⁸¹⁾.

الحملة الصليبية ١١٠١م: لم تتوقف من بعدها محاولات الاسترداد الإسلامية، فشعر الصليبيون بالوضع غير المستقر للقوات المتبقية في الأرض المقدسة، فقرروا دعمها مجددًا، فشنوا حملة تُعتبر هي الموجة الثانية للحملة الصليبية الأولى، وفيها واجه الصليبيون عدوهم القديم السلاجقة الأتراك، بقوات من اللومبارد والوحدات الفرنسية في أغسطس ١١٠١م في معركة مرسيفان، حيث استولى السلاجقة على المعسكر الصليبي، وتم تدمير كتيبة كاملة في نفس الشهر في هيراكليا الإيطالية، مع القضاء على كل القوة تقريبًا، باستثناء الكونت "ويليام" وعدد قليل من رجاله، ووصل الأكواتيون والبافاربيون إلى هيراكليا في سبتمبر؛ فتم سحقهم.

كانت الموجة الثانية من الحملة الصليبية عام ١١٠١م كارثة كاملة عسكريًا وسياسيًا بالمقارنة مع نجاح الموجه الأولى، والأهم من ذلك أنها أظهرت للعدو الاسلامي أن الصليبيين ليسوا أقوياء للدرجة التي توهموها⁽⁶⁸²⁾.

برغم كل ذلك، نجاح الحملة ككل عبر الموجتين، كان واضحًا كالشمس، لقد أخذت القدس كما خططت، وفوقها عدة مناطق أخرى، أما الإمبراطورية البيزنطية، فكانت صاحبة النصيب الأكبر من المكاسب، فإمبراطورها "ألكسيوس الأول كومنينوس" الذي دعا لشن أول حملة في التاريخ على الشرق المسلم؛ أنقذها بقدر المستطاع، لقد غير جبهات المعارك مع السلاجقة بعدما كانت على بعد ٩٠ كم من قصره في عاصمته؛ إلى الشرق الأوسط، وبمساعدة النورمان؛ تمكن من استعادة عدد من المدن والجزر المهمة، وجزء كبير من غرب آسيا الصغرى، وقد أخلصوا له بموجب معاهدة ديفول في عام ١١٠٨م، ويرى المؤرخون أن هذه المعاهدة هي نهاية التهديد النورماندي في عهد ألكسيوس⁽⁶⁸³⁾، وقد توفي في يوم ١٥ أغسطس من عام ١١١٨م، تاركًا هذا النجاح لابنه "جون الثاني كومنينوس" (يوحنا الثاني).

لكن هل سيتوقف الأمر عند هذا الحد، أم هناك عدو جديد سيدخل الأحداث؟

٤٠ - نجاح بيزنطي مؤقت

(ظهور عدو جديد) مرت سنوات من الصراعات بين الصليبيين والفاطميين من جهة، والصليبيين والسلاجقة من جهة أخرى، حتى ظهر "عماد الدين زنكي" في سبتمبر ١١٢٧م، عندما ولاه "ال خليفة المسترشد" كأتابك الموصل، وسرعان ما استخدم منصبه في توسيع سيطرته إلى حلب في يونيو ١١٢٨م، وفي ١١٣٥م؛ تحرك زنكي ضد أنطاكية، ففشل الصليبيون في صدّه، فاستولى على عدة مدن سورية مهمة، وهزم ملك القدس "فولك" في معركة برين عام ١١٣٧م، ومن ثم استولى على قلعة برين ⁽⁶⁸⁴⁾، وفي عام ١١٣٧م، دخل زنكي طرابلس وقتل "بونس" كونت طرابلس ⁽⁶⁸⁵⁾، فتدخل فولك من أجل الدعم، لكن قوات زنكي أسرت "ريمون الثاني" خليفة بونس من طرابلس، وحاصرت فولك في قلعة مونتفيران الحدودية، فاستسلم فولك في القلعة؛ ودفع لعماد الدين فدية مقابل حرّيته هو وريمون.

بعد أن تسلّم الحكم الإمبراطور البيزنطي "جون الثاني كومنينوس" (يوحنا

الثاني)، (حكم ١١١٨ حتى ١١٤٣م)، صمم على دعم الحملة الصليبية، وإصلاح الضرر الذي خلفته معركة ملاذكرد قبل ٥٠ عامًا⁽⁶⁸⁶⁾، وبسبب تدينه كان نموذجًا استثنائيًا للحاكم العادل، في وقت كانت فيه القسوة هي القاعدة السائدة⁽⁶⁸⁷⁾، وخلال عهده أقام جون تحالفات مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب، وهزم بشكل حاسم البيشنيك في معركة بيرويا⁽⁶⁸⁸⁾، وكذلك أحبط التهديدات المجرية والصربية، وكان جون كوالده؛ لا يمل من المطالبة بأحقته في صقلية كإمارة بيزنطية، خاصة أنه قضى ليلة عيد الميلاد من عام ١١٣٠م، في مرارٍ شديد، ففي هذه الليلة تم اكتمال اقتطاف المرتزقة النورمان المؤجرين من بيزنطة ولومبارد؛ صقلية للأبد، بعد أن طمعوا فيها لأنفسهم، وقرروا إعلان مملكتهم عليها.

بالفعل تم الإعلان عن تأسيس مملكة النورمان في إيطاليا على يد "روجر الثاني" ملك صقلية بموافقة البابا "إنوسنت الثاني"، ووجد روجر الأراضي التي ورثها عن والده روجر الأول⁽⁶⁸⁹⁾، تضمنت هذه المناطق الأرخيبيل المالطي⁽⁶⁹⁰⁾، بعد إتمام طرد العرب منهم أيضًا، وكذلك دوقية بوليا، ومقاطعة صقلية، التي كانت مملوكة لابن عمه "ويليام الثاني" بعد سيطرتهم عليها من قبل، حتى أن تركها وويليام وتوفي في عام ١١٢٧م؛ ومعهم توابع النورمانديين الآخرين، وبسبب الحسرة والادعاء البيزنطي لملكية صقلية، تحالف جون مع الإمبراطور الألماني "لوثير الثالث" ضد الملك النورماندي "روجر الثاني" ملك صقلية⁽⁶⁹¹⁾.

وبرغم هذا الملف المخزي بالنسبة لـ جون (يوحنا)، كان له نجاحات عسكرية أخرى في أماكن متفرقة، فرض فيها نفوذ الإمبراطورية في الشرق، لاسيما على الأتراك السلاجقة، والإمارة الدنماركية في ملبتين، واستعادة احتلال قيليقية بأكملها، وكذلك سار جون إلى الأرض المقدسة على رأس القوات المشتركة للإمبراطورية والدول الصليبية بعد وفاة أبيه، ولكن على الرغم من نشاطه الكبير في الضغط على الحملة، خيبت آماله بسبب خيانة حلفائه الصليبيين، لاسيما ضياع صقلية⁽⁶⁹²⁾.

من ناحية أخرى، منذ أن تسلم جون الحكم في عام ١١١٨م، كان الشغل الشاغل، التأكيد كذلك على الادعاءات البيزنطية لقيليقية وأنطاكية؛ مما أجبر "ريموند من بواتيه" على تقديم الولاء، وفي أبريل ١١٣٨م، حاصر البيزنطيون والفرنجة حلب بقواتهما المشتركة، وبرغم عدم نجاحهما في ذلك، استولت الجيوش الصليبية مجتمعة على عدد من المستوطنات المحصنة؛ وفي النهاية حاصرت شيزر سوريا الإسلامية، استولى الحصار على المدينة، لكنه فشل في الاستيلاء على القلعة، وتركها بعد شهر⁽⁶⁹³⁾، وفي عام ١١٤٢م، عاد جون

للضغط بادعاءاته لأنطاكية مجددًا.

من ناحية أخرى، هاجمت قوات زنكي، أعظم أمير مسلم في المنطقة في ذلك الوقت، جيش الحلفاء، وأبرزت الحملة حتى هذا الوقت الطبيعة المحدودة للسيطرة البيزنطية على الولايات الصليبية الشمالية، وعدم وجود هدف مشترك بين الأمراء اللاتين والإمبراطور البيزنطي.

قُتل فولك في حادث صيد، في يوم عيد الميلاد عام ١١٤٣م، وتم تتويج ابنه "بالدوين الثالث" من القدس حاكمًا مشتركًا مع والدته، في نفس العام، بعد أن أعد جيشه لهجوم متجدد على أنطاكية، ذهب جون الثاني كومنينوس لصيد الخنزير البري، وجرح نفسه بسهم مسموم عن طريق الخطأ، وتوفي في ٨ أبريل ١١٤٣م، وخلفه ابنه "مانويل الأول كومنينوس" كإمبراطور بيزنطي⁽⁶⁹⁴⁾.

بعد وفاة جون، انسحب الجيش البيزنطي، تاركًا الساحة للزنكي، من ناحية أخرى - تركت وفاة فولك؛ "يوسلين الثاني" من الرها دون حلفاء أقوياء للمساعدة في الدفاع عن الرها، وعلى الفور جاء زنكي شمالًا لبدء حصار الرها الأول؛ في ٢٨ نوفمبر ١١٤٤م، وبرغم المعرفة بقدم قواته، المدينة لم تكن مستعدة للمقاومة، وليس في إمكانهم فعل شيء، فهرعت قوات زنكي إلى المدينة، وتعرض الصليبيون لهزيمة كبرى لأول مرة منذ شن الحملة الصليبية الأولى⁽⁶⁹⁵⁾.

توفي عماد الدين زنكي في ١٤ سبتمبر ١١٤٦م، وخلفه ابنه نور الدين، وفي عهده استعاد الفرنجة المدينة خلال حصار الرها الثاني عام ١١٤٦م على حين غفلة، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة أو حتى محاصرتها بشكل محكم، فقام نور الدين بتنظيم حصار مضاد، استولى من خلاله على المدينة مجددًا⁽⁶⁹⁶⁾، فسقطت الرها، التي بسببها سُئِن حملة صليبية جديدة مستقبلًا.

في هذا الوقت عادت الإمبراطورية البيزنطية للتذكير بادعاءاتها الكثيرة، والتي طالما نادى بها في كل وقت وحين، وبعد وفاة "جون الثاني" تولى بعده ابنه الرابع، "مانويل الأول كومنينوس"، (حكم ١١٤٣ - ١١٨٠م) الذي شن حملة عدوانية ضد جيرانه في كل من الغرب والشرق في وقت واحد، وكذلك قام بالتحالف مع مملكة القدس الصليبية، وأرسل أسطولًا كبيرًا للمشاركة في الغزو المشترك لمصر الفاطمية، مما عززه كرائد في الدول الصليبية، خاصة بعد هيمنته على أنطاكية والقدس باتفاق مع "رينالد"، أمير أنطاكية، و"أماريك" ملك القدس⁽⁶⁹⁷⁾.

ومن نجاح إلى نجاح، حاول استعادة السيطرة البيزنطية على موانئ جنوب إيطاليا، فأرسل رحلة استكشافية إلى إيطاليا عام ١١٥٥م، لكنها فشلت، وبرغم هذا الفشل؛ نجحت جيوش مانويل في غزو الأجزاء الجنوبية من مملكة المجر عام ١١٦٧م، وهزمت المجرين في معركة سيرميوم، وبحلول عام

١١٦٨م؛ كان كل ما يقرب من الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي واقع في يد مانويل البيزنطي⁽⁶⁹⁸⁾، وكذلك أقام مانويل عدة تحالفات مع البابا والممالك المسيحية الغربية اللاتينية، ونجح في تمرير الصليبيين عبر إمبراطوريته⁽⁶⁹⁹⁾، لكنه كان على موعد مع خسارة كبرى في الشرق، عام ١١٧٦م في معركة ميريوكيفالون، ضد الأتراك السلاجقة، وبرغم الخسارة تمكن من استرداد الخسائر بسرعة، وقام القائد البيزنطي "جون فاتاتزيس"، بمواجهة السلاجقة في معارك هيليون وليموشير وهزمهم، وأحضر قوات من العاصمة، وحشد جيشًا كبيرًا على طول الطريق، وكأنها رسالة للسلاجقة واستعراض للقوة⁽⁷⁰⁰⁾، وقد أدت هذه القوة إلى زيادة الاستقرار الحدودي في آسيا الصغرى، وتأمين الحدود الأوروبية للإمبراطورية، وفي عام ١١٨٠م؛ أكدت تقارير الجيش البيزنطي أن الحدود آمنة بإحكام، وقد ذكر أن بيزنطة تحت حكم السلالة الكومنية كانت أكثر ازدهارًا من أي وقت مضى منذ الغزوات الفارسية في القرن السابع⁽⁷⁰¹⁾.

وكما ذكرنا - الحملات الصليبية كانت دعوة لم تقم على الشرق الإسلامي فقط، لكن قامت كذلك ضد الغرب الوثني، وباقي الممالك الأوروبية الصاعدة، من هذه الممالك أمم أصبحت مسيحية بعد الوثنية بعد أن دب الخوف في قلوب الأوروبيين.

٤١ - ممالك بين التنصير والاتحاد
(تفوق كاثوليكي لاتيني) مع الوصول للعصور
الوسطى العالية، اندثرت قوة بعض الممالك؛
كالبلغارية، والفارانجية الروسية، كذلك بعض
الخاقانات التركية، بينما اعتلت ممالك أخرى،
وتم دعمها من أجل اعتناق المسيحية، وكان
هناك صراع بين كنيستي الشرق والغرب من
أجل التنصير طبقًا لكل مذهب منهما، وبسبب
مشكلات الإمبراطورية البيزنطية وانشغالاتها؛
تفوقت الكنيسة الغربية في هذا التبشير بنسبة
واضحة، ومن هذه الممالك والاتحادات: اتحاد
المجر وكرواتيا

بعد أن تأسست المملكة الهنغارية عام ١٠٠٠م، أصبحت واحدة من أقوى
دول العصور الوسطى في أوروبا الوسطى والغربية، لاسيما بسبب غزوها
السابق لغالبية الأماكن التاريخية في أوروبا، ووصف المؤرخون المعاصرون
الملك "سانت ستيفن الأول" ملك المجر الذي حكم في عام ١٠٠٠م⁽⁷⁰²⁾،
كملك متدين وتقي، بعد أن قدّم المسيحية إلى المنطقة، وبرغم صرامته مع
شعبه؛ كان كريمًا ولطيفًا مع الأجانب، وبسبب حزمه؛ تمكن من القضاء على
بقايا التنظيم القبلي في المملكة، وأجبر الناس على توطين واعتماد الدين
المسيحي والأخلاق الدينية.

أما خلفاؤه فقد احتفظوا بعلاقة وثيقة مع روما التي انضموا لكنيستها بدلًا
عن القسطنطينية؛ مثل القديس "لاديسلاوس الأول" ملك المجر⁽⁷⁰³⁾، الذي
اشتهر بسماحته وحلمه، وبدخولها في اتحاد شخصي مع مملكة كرواتيا وإنشاء
دول تابعة أخرى؛ أصبحت المجر إمبراطورية صغيرة لكنها متوسطة القوة؛
بسطة سيطرتها على البلقان ومنطقة الكاربات، وبرغم تبعية كرواتيا لها
سياسيًا، فإن الملكية على كل كرواتيا لن تتحقق حتى عهد "كولومان"، وبرغم
التبعية احتفظت كرواتيا بدرجة كبيرة من الاستقلالية الداخلية بشكل عام،

بينما بقيت القوة الحقيقية في أيدي النبلاء المحليين (704).
ويُذكر أن البيت الملكي المجري هو الذي أعطى معظم القديسين للكنيسة
الكاثوليكية الرومانية الغربية خلال العصور الوسطى، وبحلول القرن الثاني
عشر، أصبحت المملكة المتحدة قوة أوروبية متوسطة داخل العالم
الغربي (705).

تنصير الدول الإسكندنافية

كما اتضح من الأحداث السابقة مدى الاندماج والاختلاط التام بين هؤلاء
النورسمان الشماليين؛ وشعوب السلاف، وأدى ذلك إلى انصهار ثقافتها مع
بعض، ففي العصور الوسطى تم نقل كمية كبيرة من الأدوات من المناطق
السلافية إلى الدول الإسكندنافية، وكانت الدنمارك بوتقة تنصهر فيها العناصر
السلافية والإسكندنافية (706)، وكان "إريك" الملقب بالمنتصر أول ملك
للسويديين، متزوجًا من "جونهيلد" من منزل بياست البولندي السلافي،
وبالمثل، وقع ابنه "أولوف"، في حب "إدلا"، المرأة السلافية (707) وأنجب منها
ابنًا وابنة: "إموند العجوز" ملك السويد، و"أستريد" ملكة النرويج، أما "كانوت
العظيم"، ملك الدنمارك وإنجلترا والنرويج، هو ابن ابنة "ميسكو الأول" ملك
بولندا (708)، كذلك من المحتمل أن تكون ملكة بولندا السابقة للسويد زوجة
إريك.

كانت معتقدات الفايكنج الدينية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالأساطير
الإسكندنافية، ومركزة بشكل كلي على القتال والمعارك والشرف، وعندما
وصلتهم المسيحية متأخرة عن معظم أجزاء أوروبا، تم تنصيب "هارالد
بلوتوث جورمسون" في الدنمارك؛ حوالي 980م، وبدأت عملية التنصير في
النرويج في عهد "أولاف تريغفاسون" (990 - 1000م)، و"أولاف الثاني
هارالدسون" (1010م - 1030م)، ثم تم تعميم أولاف؛ و"أولاف الثاني" طواعية
خارج النرويج، تمكن أولاف الثاني من جلب رجال الدين الإنجليز إلى بلاده،
وكان هؤلاء المبشرون الإنجليز هم سبب تحول النرويج من الدين
الإسكندنافي إلى المسيحية، عن طريق الكنيسة الأنجليكية، وتم إعدام
مستخدمي التقليد الإسكندنافي ما قبل مسيحي (709).

اعتمد الكومنولث الآيسلندي (710) المسيحية في عام 1000م بعد الميلاد، بعد
ضغوط من النرويج، وبعد ذلك احتاجت السويد إلى مزيد من الوقت للانتقال
إلى المسيحية، حيث كانت الممارسات الدينية الأصلية شائعة في المجتمعات
المحلية حتى نهاية القرن الحادي عشر، وبحلول منتصف القرن الثاني عشر،
أصبح الفصل المسيحي هو الأكثر نجاحًا وانتصاريًا، لدرجة أن مركز أوبسالا
الذي كان مقاومًا في السابق ضد المسيحية، أصبح مقرًا لرئيس الأساقفة

السويدي في عام ١١٦٤م، ويُعتقد أن تبني المسيحية قد ساعد في استيعاب مجتمعات الفايكنج في الإطار الديني والثقافي الأكبر للقارة الأوروبية، وشق طريق شعوب إسكندنافيا نحو الاتحاد.

اتحاد ليتوانيا وبولندا

تأسست بولندا في منتصف القرن العاشر، ثم برزت بولندا كدوقية فارضة نفسها على الواقع السياسي؛ بعد أن غزا "ميسكو الأول"، حاكم البولان، القبائل المحيطة في المنطقة، واختار ميسكو أن يتم تعميده في الطقوس اللاتينية الغربية عام ٩٦٦م، ثم في عام ١٠٢٥م تحت حكم "بوليسلاف الأول"، أصبحت بولندا مملكة، ومن بعده قاد الأمة البولندية سلسلة من الحكام الذين حولوا السكان إلى المسيحية، وأنشأوا مملكة قوية ودمجوا بولندا في الثقافة الأوروبية⁽⁷¹¹⁾.

أما ليتوانيا فقد تأسست في بدايات القرن الثالث عشر⁽⁷¹²⁾ من قبل الليتوانيين، الذين كانوا في ذلك الوقت أمة متعددة الآلهة والديانات، وُلدت من عدة قبائل في البلطيق⁽⁷¹³⁾، وبعد توحيد قبائلها، أصبحت لفترة وجيزة مملكة بدلاً من دوقية من عام ١٢٥١ إلى عام ١٢٦٣م، وبعد اغتيال ملكها المسيحي الكالوثيكي الأول "ميندوجاس"، عُرفت ليتوانيا باسم دوقية ليتوانيا الكبرى، واستهدفت الدولة الوثنية فيها، في حملة دينية صليبية من قبل الفرسان التوتونيين والنظام الليفوني، فيما سيأتي ذكره تفصيلاً..
نجا الاتحاد وتصدى للحملتين، وبدأ التوسع الإقليمي السريع في أواخر عهد "غيديميناس" بسرعة إلى الشرق بسبب الفتوحات، وأصبحت واحدة من أكبر الدول في أوروبا⁽⁷¹⁴⁾.

العصر الذهبي لجورجيا

في هذه الفترة ظهرت جورجيا كقوة ملكية؛ خاصةً خلال فترة الحكم الناجح للملك "ديفيد الرابع" (١٠٨٩-١١٢٥م)، وتمكنت هذه المملكة الصاعدة من صد وطرد الإمبراطورية السلجوقية من أراضيها، بعدما انتصروا عليهم في معركة ديدجوري عام ١١٢١م، وبعد استعادة عاصمتهم المفقودة تبليسي، بدأ عصر جورجيا الذهبي في السطوح⁽⁷¹⁵⁾، ولم يتوقف الأمر بوفاة ديفيد، بل استمرت حفيدته الملكة "تمارا" في النجاح والصعود، خاصةً بعد تعديلاتها الداخلية، وتسوية خلافاتها مع المعارضين وتحبيدهم، وتوافقها مع النخبة العسكرية للمملكة، فعملوا جميعاً على توطيد نفوذ الإمبراطورية، لتسيطر على أراضٍ شاسعة؛ تمتد من جنوب روسيا الحالية على البحر الأسود إلى بحر قزوين، وكانت قوة إقليمية مزدهرة وصاعدة، اتسمت بعلاقات مميزة مع اليونان وروما⁽⁷¹⁶⁾، وشهدت هذه الفترة ازدهار العمارة الجورجية؛ والرسم والشعر في العصور الوسطى، والتي تم التعبير عنها كثيرًا في تطور الفن الكنسي،

فضلاً عن إنشاء الأعمال الرئيسية الأولى للأدب العلماني.
ومن الممالك الصغيرة إلى الأمبراطورية الرومانية المقدسة، التي تتحكم
فيها الكنيسة الغربية بشكلٍ كلي، حيث ظهر ذلك في انتصار البابا على
الإمبراطور الروماني المقدس، عن طريق مسيرة الإذلال إلى كانوسا..

٤٢ - انتهاء قضية الاستثمار

(الحملة الصليبية الثانية) توقفنا عند إجبار "هنري الرابع" رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة على الإذلال، في رحلة محفوفة بالمخاطر من شباير إلى قلعة كانوسا، ووقوفه ذليلاً منتظرًا على ركبته لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ أمام بوابة دخول قلعة ماتيلدي، من أجل أن يرفع عنه البابا الحرمان، وبعد أن رُفِع عنه الحرمان الكنسي على حساب الإذلال، صعد "رودولف شوايا" على الحكم، فتصارع الفريقان.

تمكن هنري بالفعل من هزيمة رودولف، لكن برغم ذلك واجهته انتفاضات غاضبة، وبعد وفاته، توصل ابنه الثاني "هنري الخامس"، إلى اتفاق مع البابا والأساقفة في عام ١١٢٢م⁽⁷¹⁷⁾، وهي اتفاقية كونكوردات من الديدان، كانت اتفاقية بين الكنيسة الكاثوليكية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، نظمت إجراءات تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة في الإمبراطورية، وتم وضع حد للجدل بشأن قضية الاستثمار، بعد أن تفاقم النزاع بين الدولة والكنيسة حول الحق في تعيين أصحاب المناصب الدينية، وبناءً على ذلك تم الحفاظ على السلطة السياسية للإمبراطورية، لكن الصراع أظهر حدود سلطة الحاكم، خاصةً فيما يتعلق بالكنيسة، وسُلب من الملك الوضع المقدس الذي كان يتمتع به سابقًا، وبهذا الشكل ظهر البابا والأمراء الألمان كلاعبين رئيسيين في النظام السياسي للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

توفي هنري الخامس دون وريث في عام ١١٢٥م، وبذلك تكون قد انتهت سلالة ساليان، وقرر الأمراء ألا ينتخبوا أقرب أقربائهم، ووقع الاختيار على "لوثير"، دوق ساكسونيا المعتدل، وبسبب تقدمه في السن لم يمض في الحكم وقتًا كافيًا؛ فقد توفي عام ١١٣٧م، سعى الأمراء مرة أخرى إلى السيطرة على السلطة الملكية، وبناءً على ذلك، لم ينتخبوا الوريث المفضل للوثير، صهره "هنري العاشر" دوق بافاريا، من عائلة ولف، ولكن تم انتخاب

"كونراد الثالث" من عائلة هوهنشتاوفن، حفيد الإمبراطور هنري الرابع، وابن أخ الإمبراطور هنري الخامس.

عندما تسلم كونراد الثالث الحكم؛ أظهر حزمه، وطرد عائلة ولف؛ وأخذ ممتلكاتهم، وقد شاركه في ذلك فيما بعد ابن أخيه وولي عهده "فريدريك الأول"؛ الشهير بـ بربروسا، اللذان أطاعا نداء البابا صاحب الموقف القوي، من أجل قيادة حملة صليبية ثانية، فقد توارث سلطة البابا آخرون جاءوا بنفس القوة والصلاحيات..

الحملة الصليبية الثانية

بعد أن سقطت الرها في يد "نور الدين زنكي" مجددًا، أصاب الصليبيون في القدس وأوروبا الغربية حالة ذعر، فظهرت الدعوات لشن حملة صليبية جديدة فورًا، وكانت الأولى التي يقودها ملوك أوروبا، وتم ربطها برحلة الاسترداد الخاصة بالحملة الصليبية الشمالية⁽⁷¹⁸⁾.

سيقود أقوى ملوك أوروبا الجيوش، بعد أن دعا البابا "برنارد كليرفو" إلى التبشير بالحملة الصليبية الثانية، ومنح نفس الغفران الذي مُنح للصليبيين الأوائل، وكان من بين الذين استجابوا للنداء ملكان أوروبيان، "كونراد الثالث" ملك ألمانيا ومعه ولي عهده بربروسا، و"لويس السابع" ملك فرنسا، وسجد لويس وزوجته "إليانور من أكيثاين" وكونراد وفريدريك بربروسا، والعديد من الأمراء والأباطرة عند قدمي برنارد لأخذ الصليب⁽⁷¹⁹⁾.

غادرت الكتيبة الفرنسية في يونيو ١١٤٧م، وعلى عكس جيوش الحملة الصليبية الأولى، دخل الألمان والفرنسيون آسيا بدون مساعدة بيزنطية، في أثناء المغادرة، اشتبك كونراد الثالث بجيشه الألماني مع سلاجقة الروم في عهد السلطان "مسعود الأول"، ابن وخليفة "ألب أرسلان"، حَصم الحملة الصليبية الأولى، ودمر مسعود جزءًا كبيرًا من قوات كتيبة كونراد، في معركة صورليوم الثانية بالأناضول؛ في ٢٥ أكتوبر ١١٤٧م⁽⁷²⁰⁾.

بعدها التقى الفرنسيون ببقايا جيش كونراد المهزوم في شمال تركيا، فانضم كونراد إلى قوة لويس، وصدوا هجوم السلاجقة في معركة افسوس⁽⁷²¹⁾ في ٢٤ ديسمبر ١١٤٧م، واستمرت الاشتباكات لأيام، حتى انتصروا مرة أخرى في معركة وادي مندريس الأصغر، وبرغم الانتصارات، وقعت معركة ثالثة، في جبل قدموس⁽⁷²²⁾ في ٦ يناير ١١٤٨م، وأسقط جيش مسعود خسائر فادحة في جيوش الصليبيين، بعد ذلك بوقت قصير، أبحرت بقايا الجيوش نحو أنطاكية منهكين، لكي يتمكن المرض من الكثير منهم بعد ذلك⁽⁷²³⁾.

وصل الجيش الصليبي المجروح إلى أنطاكية في ١٩ مارس ١١٤٨م؛ بهدف التحرك لاستعادة الرها، لكن غير "بلدوين الثالث" ملك القدس؛ وفرسان

الهيكل، هدف الحملة في مجلس عكا في ٢٤ يونيو ١١٤٨م، وقرروا أن هدفهم سيكون دمشق بدلاً من الرها، الحليف السابق للمملكة الذي حوّل ولاءه إلى الزنكيين، وخاض الصليبيون معركة بُصرى مع الدمشقيين صيف ١١٤٧م، والتي انتهت دون فوز من الطرفين⁽⁷²⁴⁾، فقرر الصليبيون حصار دمشق لمدة خمسة أيام في الفترة من ٢٤ إلى ٢٨ يوليو ١١٤٨، لكنه كان حصارًا فاشلاً؛ لم يعتمد على تكتيكات حربية عميقة⁽⁷²⁵⁾، وبالتالي سحب بارونات القدس دعمهم؛ وتراجع الصليبيون خوفاً من وصول جيش الإغاثة بقيادة نور الدين، وبناءً على ذلك، تراجعت المعنويات، وفُقدت الثقة في الحملة⁽⁷²⁶⁾.



لوحة تخيلية عن معركة عتاب

وقعت أول مواجهة مباشرة بعد قدوم الحملة الصليبية الثانية، بين الصليبيين وقوات نور الدين زنكي، في معركة عتاب⁽⁷²⁷⁾ في ٢٩ يونيو ١١٤٩م، التي كانت

بقيادة "ريمون من بواتيه"، بصفته أميرًا لأنطاكية، فُتِل ريمون في عام ١١٥٠م⁽⁷²⁸⁾، ثم هزم نور الدين "جوسلين الثاني" من الرها للمرة الأخيرة، مما أدى إلى إصابة جوسلين بالعمى، (سيظل مسجونًا حتى موته في عام ١١٥٩م)، وفي ١٨ مايو ١١٥٧م؛ بدأ نور الدين في محاصرة فرقة فرسان الإسبتارية في بانياس على مرتفعات الجولان.

توفي بلدوين الثالث في ١٠ فبراير من عام ١١٦٣م، وتُوج "أمالريك الأول ملكًا" على القدس بعده، وبسبب ضعف حكم الفاطميين في مصر؛ قام بسلسلة من أربع غزوات ضدها من ١١٦٣ إلى ١١٦٩م، حينها سمح نور الدين بالغزو الأول لجنرال "شيركوه بن شاذي بن مروان"، برفقة ابن أخيه "صلاح الدين بن يوسف بن أيوب بن شاذي" من أجل دخول مصر⁽⁷²⁹⁾، وكان "شاور"، الوزير المخلوع للخليفة الفاطمي في مصر، متحالفًا مع أمالريك، وقام بمهاجمة شيركوه في حصار بلبس⁽⁷³⁰⁾ الثاني؛ الذي بدأ في أغسطس ١١٦٤م، بعد حصار أمالريك الأول الفاشل في سبتمبر ١١٦٣م، انشغل أمالريك بهذه النزاعات وترك الأرض المقدسة ومقاطعات الشام دون تحصينات، فتمكنت قوات نور الدين من هزيمة الصليبيين في معركة حارم بسوريا في أغسطس ١١٦٤م، وأسرت قواته معظم قادة الفرنجة⁽⁷³¹⁾.

اشتبكت قوة أمالريك الصليبية مجددًا مع جيش شيركوه في معركة البابين بالجيزة المصرية، في ١٨ مارس ١١٦٧م، والتي لم ينتصر فيها أحد، وفي عام ١١٦٩م، مات كل من الوزير شاور وشيركوه، ووقع الاختيار على صلاح الدين كوزير لمصر، وفي أواخر أكتوبر حاصر الصليبيون دمياط شمال مصر، فجاءت التعزيزات من نور الدين لصلاح الدين، وتمكن صلاح الدين من الانتصار وفك الحصار⁽⁷³²⁾.

نجا صلاح الدين من محاولات اغتيال فاشلة من قبل طائفة الحشاشيين، لكنه لم ينجُ من هزيمة "بلدوين الرابع" و"رينالد من شاتيلون" وفرسان الهيكل؛ في معركة تل الجزر⁽⁷³³⁾ في ٢٥ نوفمبر ١١٧٧م، لكن رد عليهم صلاح الدين بالنصر في يونيو ١١٧٩م؛ من خلال معركة مرج عيون⁽⁷³⁴⁾، وفي أغسطس سقطت قلعة مخاضة يعقوب على نهر الأردن في يد صلاح الدين، ومع ذلك، صدت المملكة هجماته في معركة قلعة بلفوار في عام ١١٨٢م، ولاحقًا فكوا حصار الكرك عام ١١٨٣م⁽⁷³⁵⁾، وعلى الرغم من هزيمته في معركة الفولة بفلسطين في خريف ١١٨٣م، زاد صلاح الدين من هجماته ضد الفرنجة؛ مما أدى إلى هزيمتهم في معركة عين جوزة بלבنا حاليًا في ١ مايو ١١٨٧م، فتجمع جيش الصليبيين أكبر من أي وقت مضى، فاستدرج صلاح الدين هذه القوة إلى التضاريس الوعرة، دون إمدادات للمياه؛ ودفعهم لمعركة حطين بفلسطين

في ٤ يوليو ١١٨٧م، وكان "ريمون الثالث" من طرابلس أحد القادة الرئيسيين الذين رأوا قواته تنهار، وقد فر هاربًا، فاعتبره الصليبيون خائنًا وجبانًا⁽⁷³⁶⁾.

نتيجة هذا الانتصار الساحق، سقط جزء كبير من فلسطين بسرعة في يد صلاح الدين الأيوبي، وبدأ حصار القدس في ٢٠ سبتمبر ١١٨٧م؛ وعلى إثر ذلك؛ سُلمت المدينة المقدسة لصلاح الدين؛ من قبل "بليان من إبلين" في ٢ أكتوبر، ويُذكر أن في ١٩ أكتوبر ١١٨٧م؛ توفي البابا "أوربان الثالث" بعد سماعه بأخبار الهزيمة⁽⁷³⁷⁾، بعد ولاية قصيرة جدًا لا تتخطى عامين.

عادت القدس مرة أخرى في أيدي المسلمين، وفر الكثير من الصليبيين إلى صور، ولم ينجح هجوم صلاح الدين اللاحق في حصار صور؛ الذي بدأ في نوفمبر ١١٨٧م، لكنه أكمل حصار صفد في أواخر عام ١١٨٨م، لتكتمل بذلك سيطرة صلاح الدين على الأراضي المقدسة⁽⁷³⁸⁾.

ومن القدس إلى العمق الأوروبي، فقد تم تسوية نزاع صقلية بعد ادعاءات كبيرة قد مضت، لنرى كيف حدث ذلك..

٤٣ - ضم صقلية للإمبراطورية المقدسة (زواج تبعه اتحاد)

أما صقلية فسنعود لتاريخها للوراء قليلاً، وتحديدًا إلى الوقت الذي تم فيه الإعلان عن تأسيس مملكة النورمان في إيطاليا على يد "روجر الثاني"، بموافقة البابا "إنوسنت الثاني"، فبعد توحيد الأراضي، فاجأ روجر البابا بدعمه لـ "أنتيبوب أناكليتوس الثاني"، الذي كان مناضلاً ومعارضاً للبابا آنذاك "إنوسنت الثاني"، ونصّب روجر بكل تحدٍّ ملكًا على صقلية؛ في يوم عيد الميلاد عام ١١٣٠م⁽⁷³⁹⁾.

على إثر ذلك؛ غضب البابا إنوسنت من تولية أنتيبوب، وفي عام ١١٣٦م كان قد تمكن من إقناع الإمبراطور الروماني المقدس آنذاك "لوثير الثالث"، بمهاجمة مملكة صقلية؛ بمساعدة من الإمبراطور البيزنطي وقتها "جون الثاني كومنينوس"، واتفق الفريقان على الاتحاد من أجل غزو صقلية، ومع الغزو استسلم "وليام من لوريتيلو" للوثير؛ وفتح له بوابات تيرمولي (ترملة - ترمليس)⁽⁷⁴⁰⁾⁽⁷⁴¹⁾، بعدها قرر الإمبراطور لوثير منح كابوا وبوليا من مملكة صقلية لأعداء روجر، لكن عارضه البابا إنوسنت واحتج، مدعيًا أن بوليا تقع تحت الملكية البابوية، حينها قرر لوثير الاتجاه شمالًا من أجل استكمال الغزو، وأثناء عبوره جبال الألب وافته المنية في ٤ ديسمبر من عام ١١٣٧م. في محاولة للدفاع عن بوليا؛ نصب "روجر الثالث" دوق بوليا؛ كمينًا للقوات البابوية بألف فارس في غالوتشيو في يوم ٢٢ مارس ١١٣٩م، وتمكن من خلاله أسر البابا نفسه⁽⁷⁴²⁾، وفي ٢٥ مارس ١١٣٩م، أجبر إنوسنت على الاعتراف بملكية وممتلكات روجر بموجب معاهدة مينيانو⁽⁷⁴³⁾.

تمكن روجر الثالث بعد ذلك من غزو ساحل إفريقيا من الزيريين (أحفاد زيري بن مناد، القائد العسكري للخلافة الفاطمية ومؤسس السلالة⁽⁷⁴⁴⁾)، ومنح نفسه لقبًا غير رسمي، وهو لقب "ملك إفريقيا"، وأعلن آنذاك عن تأسيس مملكة إفريقية النورماندية، ومن نجاح إلى نجاح، قرر مهاجمة الدولة البيزنطية بأسطوله القوي في محاولة لغزوها، وكان هذا إعلانًا واضحًا عن أن صقلية قوة بحرية رائدة في البحر الأبيض المتوسط لمدة قرن تقريبًا⁽⁷⁴⁵⁾.

تسلم من بعده ابنه "ويليام الأول"، المعروف تاريخيًا باسم "ويليام السيئ"؛ بسبب افتقاره للتأييد الشعبي في مملكته، وقمعه للثورات البارونية في الداخل، وفي ظل الفوضى التي سادت حكمه؛ فقد وليم غالبية ممتلكاته الإفريقية؛ في سلسلة من الثورات التي قام بها أمراء شمال إفريقيا المحليون، ووصولًا لعام ١١٦٠، كان قد استولى الموحدون، على معقل

المهدية الإفريقي النورماندي الأخير.

انتهى عهد ويليام في عام ١١٦٦م، وفي عهد ابنه "ويليام الثاني"، كادت الاضطرابات في المملكة أن تُسقط الأسرة الحاكمة، ويُذكر أن عمته "كونستانس"، الوريثة الوحيدة للعرش وابنة "روجر الثاني"، كانت منعزلة لفترة طويلة في دير كراهبة، بعد منعها من الزواج بسبب التنبؤ بأن "زواجها سيدمر صقلية"، من ناحية أخرى - كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة في نفس هذا الوقت، يحكمها الإمبراطور الروماني بربروسا؛ الذي تسلم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد وفاة عمه كونراد الثالث، الذي شارك في الحملة الصليبية الثانية كما توقفنا (746).

عقد بربروسا السلام مع عائلة ولف، وأعاد ابن عمه "هنري الأسد" إلى ممتلكاته، التي كانت نوعًا ما قليلة، وشدد على الهوية الرومانية للإمبراطورية، كمحاولة لتبرير سلطة الإمبراطور بشكل مستقل عن البابا صاحب الموقف القوي، وكان اهتمام بربروسا الأول تجاه إيطاليا، فاصطدم مع مدن الشمال الأكثر ثراءً وذات العقلية الحرة، وخاصة ميلانو، والأصعب من ذلك أنه قد تورط في صراع آخر مع البابوية من خلال دعم مرشح تنتخبه أقلية ضد البابا "ألكسندر الثالث" (١١٥٩-١١٨١م) (747).

دعم بربروسا سلسلة من المناوئين قبل أن يتصالح أخيرًا مع ألكسندر في عام ١١٧٧، أما في ألمانيا بالتحديد، فقد زادت الشكاوى من هنري الأسد، ورغم ذلك لم يتوقف بربروسا عن دعمه له أبدًا، وبرغم المساندة المستميتة؛ خذل هنري بربروسا؛ فعندما اشتدت عليه الحروب مع المدن الإيطالية المعارضة، طلب الإمبراطور من ابن عمه الذي نصره طيلة الوقت دعمًا عسكريًا، لكنه لم يلبّ طلبه، وبسبب صدمة بربروسا ومرارته أمر بحظر عام ومصادرة جميع أراضي ابن عمه هنري، وظل متألمًا من هذا الموقف طيلة حياته.

برغم اشتداد المعارضة الإيطالية كانت صقلية حليفة، بسبب الرغبة في زواج ابنه "هنري السادس" من عمه ملكها ويليام الثاني، فبرغم التنبؤ بأن زواج كونستاس سيدمر صقلية، في عام ١١٨٤م تمت خطبتها لـ هنري السادس الإمبراطور المستقبلي، وابن بربروسا، وقد بارك ويليام هذا الزواج، وسُمي الزوجان "ورثة العرش"؛ وأقسم النبلاء اليمين، لكن البطانة والحاشية كانوا غير راغبين في أن يحكمهم ألماني، وبعدما مات ويليام في عام ١١٨٩م، ظهرت بوادر تدهور المملكة والصراع على الحكم (748)، وانشغل بربروسا في الحملة الصليبية الثالثة في نفس العام.

كما هو متوقع حدثت الفوضى، وبدعم من الحاشية والمسؤولين استولى "تانكريد" الابن الغير شرعي لـ "روجر الثالث" دوق بوليا؛ على العرش، وفي

عام ١١٩٠م، توفي الأب بربروسا في مملكة قيليقية الأرمنية⁽⁷⁴⁹⁾.
أما تانكريد فبعد مواجهته الكثير من التحديات توفي عام ١١٩٤، وانتصر
الزوجان كونستانس وهنري ورثة العرش، وسقطت المملكة في يد سلالة
هوهنشتاوفن⁽⁷⁵⁰⁾ عام ١١٩٤م، بعد أن تم خلع الابن الصغير لـ تانكريد، وتزوج
هنري وكونستانس ملكاً ومملكة⁽⁷⁵¹⁾، وعلى يد هنري وصلت سلالة
هوهنشتاوفن إلى ذروتها، بعد إضافة مملكة صقلية النورماندية من خلال هذا
الزواج.
وفي أقصى الغرب نشب صراع، سبب عليه نزاع قومي قادم بين القومية
الفرنسية والقومية الإنجليزية...

٤٤ - الإمبراطورية الأنجوية (بوادر النزاع الأنجلو فرنسي)

كما ذكرنا تفاصيل الغزو النورماني لإنجلترا، وما أعقبه من وفاة "ويليام الفاتح"، وانقسام أراضيه إلى قسمين بين ابنه، وانزعاج النبلاء من هذا التقسيم لرغبتهم في توحيد إنجلترا ونورماندي تحت حاكم واحد، ومناهضتهم لـ "ويليام روفروس" وريث الأراضي الإنجليزية لصالح أخاه "روبرت كورثوس" وريث الأراضي النورماندية.

حاول ويليام حشد مؤيديه لكنه فشل، فاضطر لطلب الدعم من اللوردات الإنجليز بالفضة والمال والوعود بحكومة أفضل، وتمكن من هزيمة التمرد، وفي عام ١٠٩١م غزا نورماندي وسحق قوات روبرت، وأجبره على التنازل عن جزء من أراضيه، لكن بعدها تراضى الأخوان.

بعد أن مات ويليام، توقع روبرت أن ميراث أخيه سينضم إلى ممتلكاته، لكنه تفاجأ باستيلاء شقيقهما الأصغر "هنري الأول" على السلطة على الفور في إنجلترا⁽⁷⁵²⁾، غضب روبرت، وقام بغزو إنجلترا عام ١١٠١م، وانتهت هذه الحملة العسكرية بتسوية تفاوضية بين الأخوين؛ أكدت أن هنري ملكًا، لكن لم يدم السلام طويلًا، حيث بادر هنري الأول بخرق السلام؛ وغزا دوقية نورماندي في ١١٠٥ و ١١٠٦م، بل تمكن من هزيمة روبرت في معركة تينشبراي، وسجن أخاه روبرت مدى الحياة، تم تحدي سيطرة هنري على نورماندي من قبل "لويس السادس" ملك فرنسا، و"بالدوين من فلاندرز"، و"فولك أوف أنجو"، ودعموا تمردًا كبيرًا في الدوقية بين ١١١٦ و ١١١٩م، وبعدها بعام تم الاتفاق على تسوية سلمية مع لويس في ١١٢٠م⁽⁷⁵³⁾.

هنري الأول، اعتبره المعاصرون حاكمًا قاسيًا؛ لكنه كان فعالًا، حيث شجع الإصلاح الكنسي، وكان له ابن شرعي وحيد، وهو ويليام الذي توفي على متن السفينة البيضاء في كارثة عام ١١٢٠م، مما أثار أزمة جديدة حول ميراث العرش، فاضطر هنري لتعيين ابنته "ماتيلدا" وريثةً له، ولكن بعد وفاته عام ١١٣٥، ظهر ابن عمها "ستيفن من بلوا" ونصب نفسه ملكًا⁽⁷⁵⁴⁾، قررت ماتيلدا دخول نورماندي للمطالبة بميراثها، وأعلنت نفسها "سيدة الإنجليز"؛ مما أدى إلى حرب أهلية تسمى "الفوضى"، وهُزم على إثرها ستيفن وأسر في معركة لينكولن ١١٤١م، حكمت ماتيلدا مع زوجها الكونت "جيفري"، لكنها كانت هي الحاكمة الفعلية للبلاد، وبعد وقت قليل أجبرت على إطلاق سراح ابن عمها ستيفن في تبادل الرهائن مع أخيها غير الشقيق "روبرت إيرل غلواستر الأول"، وبعد فترة أعيد تتويج ستيفن بعد إطلاق سراحه، وبهذا الشكل استمر الصراع في إنجلترا بشكل غير حاسم، ومع ذلك، أمّن جيفري زوج ماتيلدا، دوقية

نورماندي لنجلهما هنري الثاني، من خلال تزويجه من "إليانور" من أكتاين، وحصل "هنري الثاني" على دوقية أكتاين وأصبح الآن ثريًا للغاية، ومن خلال التفاوض الماهر مع بارونات إنجلترا الذين أنهكهم الصراع والحرب والملك ستيفن، وافق الجميع على معاهدة والينجفورد، وتم الاعتراف به باعتباره وريث ستيفن⁽⁷⁵⁵⁾.

بعد وفاة ستيفن عام ١١٥٤م، تولى هنري الثاني رسميًا، وبسبب أنه كان كونت أنجو في شمال فرنسا، أضاف ممتلكاته القديمة إلى ممتلكاته الواسعة في نورماندي وأكتاين، وأصبحت إنجلترا جزءًا رئيسيًا من مجموعة غير متماسكة من الأراضي المنتشرة في جميع أنحاء أوروبا الغربية، والتي سميت فيما بعد بإمبراطورية أنجفين⁽⁷⁵⁶⁾، وكانت أراضيها واقعة ما بين جبال البرانس جنوبًا؛ حتى أيرلندا شمالًا، بعد أن حكمت هذه الإمبراطورية إنجلترا وحوالي نصف فرنسا، بالإضافة إلى جزء من أيرلندا، وكانت جارة لمملكة نبرة ومملكة أرغون من الجنوب نحو شبه الجزيرة الإيبيرية.

بكل حزم وقوة أكد هنري سلطته على بريطانيا وما تبعها، حتى إنه أعاد تنظيم الدوقية إلى ثماني مناطق إدارية وأدخل إصلاحات قانونية في أنجفين، وقد ذُكر أنه اتبع سياسة عدوانية في ويلز، واستعاد الأراضي التي فقدتها الأمراء الأنجلو نورمان، وقام بأربع حملات عقابية ضد أمراء ويلز؛ مما أدى إلى خضوعهم لسلطته، وبرغم تأكيده للسلطة الكاملة؛ لم يؤكد الغزو المباشر لإسكتلندا عندما انضم الملك الإسكتلندي لتمرد ضده، لكن لاحقًا تم أسره، وسمح لهنري بانتزاع الولاء من الملك الإسكتلندي بموجب معاهدة فاليز ١١٧٤م، والتي كانت تبريرًا للتدخلات اللاحقة في الملكية الإسكتلندية⁽⁷⁵⁷⁾.

أما أيرلندا، ففي منتصف القرن الثاني عشر، كانت خاضعة لحكامها المحليين، على الرغم من أن سلطتهم كانت محدودة أكثر من نظرائهم في بقية أوروبا الغربية، وعندما حُلع الملك "ديارمايت ماك مورتشادا" ملك لينستر، ذهب إلى هنري من أجل طلب المساعدة في عام ١١٦٧م، لى هنري طلبه، وسمح لديارمايت بتجنيد المرتزقة من إمبراطوريته، على الفور؛ قام ديارمايت بتجميع قوة من المرتزقة الأنجلو نورمان والفلمنكيين من المسيرات الويلزية، بما فيهم النبيل "ريتشارد دي كلير الثاني"، وبالفعل استعاد لينستر ممتلكاته بعد هذا الدعم، لكنه توفي بعد ذلك بوقت قصير في عام ١١٧١م، فطالب دي كلير بحكم لينستر⁽⁷⁵⁸⁾، انتهز هنري هذه الفرصة لدخول أيرلندا بنفسه، ووصل في أكتوبر من عام ١١٧١م⁽⁷⁵⁹⁾، بعد أن شجعه البابا ألكسندر من أجل تأسيس سلطة بابوية على الكنيسة الأيرلندية⁽⁷⁶⁰⁾.

نجح هنري في ضم أيرلندا، مع قبول كل من الأيرلنديين والأنجلو نورمان في

جنوب وشرق أيرلندا حكمه، وبرغم ذلك فإن معاهدة وندسور عام ١١٧٥م، بموجبها سيتم الاعتراف بـ "روري أوكونور" كملك أيرلندا الأعلى، مع تكريم هنري والحفاظ على الاستقرار هناك نيابةً عنه، وهذا يعني أنه كان لديه القليل من السيطرة المباشرة⁽⁷⁶¹⁾.

كان لهنري خمسة أبناء، وعندما تزوج أصغرهم، أهداه ثلاث قلاع كهدية الزواج، دفع بذلك أبناءه الثلاثة الأكبر، وزوجته إلى التمرد في ثورة ١١٧٣-١١٧٤م، وشجع ملك فرنسا "لويس السابع" الأبناء الثلاثة الأكبر سنًا على زعزعة استقرار أقوى موضوع له؛ وعدم انتظار ميراثهم، لم يتمكن هنري الثاني من إجبار المتمردين على الخضوع لسلطته إلا بعد سنة ونصف⁽⁷⁶²⁾، وفي عام ١١٨٢م جمع هنري الثاني أبناءه في لومان، من أجل التخطيط للميراث الجزئي، ووهب لابنه الأكبر: المعروف أيضًا باسم هنري، إنجلترا ونورماندي وأنجو - والثاني: ريتشارد، دوقية أكتاين - والثالث: جيفري، بريتاني - والرابع: جون، أيرلندا.

أدى هذا التقسيم إلى صراعٍ جديد، وتمرد هنري الابن مرةً أخرى؛ لكنه مات من الزحار⁽⁷⁶³⁾ في عام ١١٨٦م، وكذلك توفي جيفري نتيجة لحادث، فخلفه ورثه ريتشارد الأول.



فرنسا عام ١١٨٠. استولى ملوك إنجلترا الأنجفين على جميع الأراضي الغربية باللون الغامق
 ثوج "ريتشارد الأول"، الذي لقبوه بقلب الأسد من قبل تتويجه، بفضل
 سمعته كقائد عسكري ومحارب عظيم⁽⁷⁶⁴⁾، ففي عمر السادسة عشرة، قاد
 ريتشارد جيشه، وأخضع التمردات على عرش أبيه هنري الثاني في بواتو،
 وكذلك لقب بالطاغية، حيث يُذكر أن في يوم تتويجه كانت هناك مذبحة
 جماعية لليهود، وُصفت بأنها محرقة⁽⁷⁶⁵⁾.

قام ريتشارد بسرعة بترتيب شئون الإمبراطورية الأنجوفية؛ حتى غادر في الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق الأوسط، وفي صقلية قام بإقحام نفسه في صراع مع "تانكريد الأول"، بشأن حقوق أخت ريتشارد الملكة "جوان"، أرملة الملك السابق ويليام الثاني، فاستولى ريتشارد على مدينة ميسينا في ٤ أكتوبر ١١٩٠م، واستخدمها لإجبار تانكريد على عقد اتفاقية سلام⁽⁷⁶⁶⁾، أما قبرص فقد ضمها ريتشارد لمملكته، وسط اعتراض واضح من الإمبراطور البيزنطي آنذاك "إسحاق الثاني أنجيلوس"؛ بسبب ادعاءاته لها. لنرى توابع هذه الخطوات التي اتخذها ريتشارد، والتي سيحصد نتائجها بعد رجوعه من الحملة الصليبية الثالثة...

٤٥ - عودة الحملات الصليبية المقدسة (الحملة الصليبية الثالثة – حملة ١١٩٧) مر أكثر من عام ونصف على استرداد صلاح الدين الأيوبي للقدس، عظم فيهما انتصاره الأول بانتصاراتٍ أكبر تبعته، ووجد مصر وسوريا وجعل القدس في القلب.

لم يكن أمام أوروبا الغربية خيار سوى شن حملة جديدة تُعيد ما تم فقده، بقيادة ملوك أوروبا هذه المرة، ففي ٢٩ أكتوبر ١١٨٧م حث البابا "غريغوري الثامن" (خليفة أوربان المتوفى من الحسرة)، جميع المسيحيين على حمل السلاح من أجل القدس، في حملة صليبية ثالثة سيقودها "فريدريك بربروسا"؛ و"ريتشارد الأول" ملك إنجلترا،⁽⁷⁶⁷⁾ بالإضافة إلى "فيليب الثاني أغسطس" ملك فرنسا، الذي رأى أن ريتشارد قد تعدى على مناطق نفوذه، لكن هذا ليس وقته، فالجميع الآن مشغول بالحملة.

الحملة الصليبية الثالثة

تقدمت الجيوش الغاضبة القادمة من أوروبا الغربية عبر الأناضول، وهزمت الأتراك ووصلت إلى قيليقية، لكن في ١٠ يونيو ١١٩٠م، غرق فريدريك بربروسا سالف الذكر، وتسبب موته في مغادرة عدة آلاف من الجنود الألمان، ثم تحرك الجيش الألماني المتبقي تحت قيادة القوات الإنجليزية والفرنسية التي وصلت لاحقًا⁽⁷⁶⁸⁾.

وعند وصول ريتشارد وفيليب إلى الأرض المقدسة، قاد ريتشارد دعمه لحصار عكا المتوقع بمنتهى الغضب، استسلم المدافعون المسلمون في ١٢ يوليو ١١٩١م، وظل ريتشارد في القيادة الوحيدة للقوات الصليبية بعد رحيل فيليب إلى أوروبا بسبب مشاكل صحية في ٣١ يوليو ١١٩١م، تحرك ريتشارد جنوبًا من عكا إلى عسقلان، وهزم قوات صلاح الدين في معركة أرسوف بفلسطين في ٧ سبتمبر ١١٩١م، وبعد ثلاثة أيام، استولى ريتشارد على يافا، التي كانت تحت سيطرة صلاح الدين منذ عام ١١٨٧م، وتقدم إلى الداخل باتجاه القدس⁽⁷⁶⁹⁾، لكنهم تراجعوا بسبب مناوشات صلاح الدين، ثم اقتربوا من المدينة في يونيو، قبل أن يضطروا إلى التراجع مرة أخرى.

دوق بورغندي "هيو الثالث" زعيم الفرنجة، كان مُصرًّا على مهاجمة القدس بشكل مباشر، وأبدى اعتراضه على التراجع أكثر من مرة، أدى هذا إلى

تقسيم الجيش الصليبي إلى فصيلين مؤيد ومعارض، لم يكن أي منهما قوياً بما يكفي لتحقيق هدفه، وبدون قيادة موحدة، أجبر الفصيلان على التراجع إلى الساحل، وفي أعقاب ذلك، بدأ جيش صلاح الدين في التجهير لمعركة يافا في ٢٧ يوليو ١١٩٢م، واستولى على المدينة، لكن اقتحمت قوات ريتشارد يافا من البحر وطردها المسلمين مجدداً، وفشل صلاح الدين في استعادتها⁽⁷⁷⁰⁾.

في ٢ سبتمبر ١١٩٢م، دخل ريتشارد وصلاح الدين في معاهدة يافا السلمية، وكان شرط صلاح الدين أن تظل القدس تحت سيطرة المسلمين، مع ضمان السلام والأمن للحجاج والتجار المسيحيين العزل، لتنتهي الحملة الصليبية الثالثة⁽⁷⁷¹⁾.

كان ريتشارد شخصية قوية، لكن معاملاته وآراءه كانت مختلطة، فقد رفض وأهان أخت ملك فرنسا فيليب أغسطس، وأهان ورفض توزيع غنائم الحملة الصليبية الثالثة على نبلاء، مثل: "ليوبولد الخامس" دوق النمسا، وأتهم بالترتيب لاغتيال "كونراد الأول" من مونتفيرات، الملك الفعلي للقدس بحكم زواجه من "إيزابيلا الأولى" من القدس في ٢٤ نوفمبر من عام ١١٩٠م، وقد تجلت قسوته في مجزرتة التي راح ضحيتها ٢٦٠٠ سجين في عكا⁽⁷⁷²⁾، وعلى الرغم من ذلك تجده يحظى بالاحترام لقيادته العسكرية وأخلاقه في البلاط، مما يصيب حيرتك.

حقق ريتشارد انتصارات في الحملة الصليبية الثالثة؛ لكنه فشل في الاستيلاء على القدس، وانسحب من الأرض المقدسة⁽⁷⁷³⁾، ليكون على موعد مع القدر وتصفية الحسابات.

أثناء عودته، أجبرت سوء الأحوال الجوية سفينة ريتشارد على الوصول إلى كورفو⁽⁷⁷⁴⁾؛ في أراضي الإمبراطور البيزنطي آنذاك "إسحاق الثاني أنجيلوس"، الذي رأى أن ريتشارد اغتصب منه قبرص، وبعد أن تنكر في زي فارس، أبحر ريتشارد من كورفو مع أربعة مرافقين، لكن سفينته تحطمت بالقرب من أكويليا⁽⁷⁷⁵⁾، مما أجبر ريتشارد ورجاله على سلك طريق بري خطير عبر وسط أوروبا، من أجل الوصول إلى أراضي صهره هنري الأسد، وفي وسط الطريق تم القبض على ريتشارد بالقرب من فيينا؛ من قبل "ليوبولد النمساوي" الذي أهانه من قبل، والذي حاول اغتيال ابن عمه "كونراد من مونتفيرات"، وتم نقل الحضانة إلى هنري الأسد، وفي ٢٨ مارس ١١٩٣م، تم تسليمه إلى الإمبراطور الروماني المقدس آنذاك والذي توقفنا عند قصته: "هنري السادس"، الذي سجنه في قلعة تريفلس بألمانيا، وبسبب احتياج الإمبراطور المقدس إلى المال لتكوين جيش جديد؛ وتأكيد حقوقه في جنوب إيطاليا، استمر في احتجاز ريتشارد وطالب بدفع فدية، عبارة عن ١٥٠ ألف مارك

(١٠٠ ألف جنيه من الفضة)، وهو نفس المبلغ الذي جمعه عشور صلاح الدين قبل بضع سنوات فقط⁽⁷⁷⁶⁾، ومرتين إلى ثلاثة أضعاف الدخل السنوي للتاج الإنجليزي تحت حكم ريتشارد.

عملت والدة ريتشارد على دفع الفدية، وتم فرض ضرائب على رجال الدين والعلمانيين على حد سواء مقابل ربع قيمة ممتلكاتهم، وتمت مصادرة الكنوز الذهبية والفضية للكنائس، في الوقت نفسه، قدم خصما ريتشارد: "جون"، شقيق ريتشارد نفسه، والملك "فيليب الثاني" ملك فرنسا، عرضًا للإمبراطور هنري السادس ليحتجز ريتشارد حتى عيد القديسين للعام الجديد، رفض هنري العرض، وتم تحويل الأموال إلى ألمانيا من أجل إنقاذ الملك، وأخيرًا في ٤ فبراير ١١٩٤م؛ تم إطلاق سراح ريتشارد⁽⁷⁷⁷⁾، وعندما عاد لمملكته، وجد أن في فترة غيابه؛ اجتاح فيليب ملك فرنسا الكثير من نورماندي، بينما سيطر جون أخو ريتشارد على الكثير من الأراضي المتبقية، فقرر شن الحملات العسكرية من أجل استرجاع أراضيه.

بهذا الشكل قد انتهت الحملة الصليبية الثالثة، لكن بسبب عدم تحقيق الحملة أهدافها، كان لها موجة ثانية، فبعد ثلاث سنوات، أطلق هنري السادس الإمبراطور الروماني المقدس؛ حملة صليبية عام ١١٩٧م، وعندما كانت القوات في طريقها للقدس، توفي هنري فجأة في ميسينا في ٢٨ سبتمبر ١١٩٧م، لتفشل الموجة الثانية من الحملة.

أما ريتشارد فقد أزاح جون وأعاد سيطرته على الأراضي المسلوبة، ثم ترك إنجلترا في عام ١١٩٤م، من أجل محاربة فيليب على مدى السنوات الخمس التالية، وبالقرب من الإنتصار التام والساحق، غافله رامي، وأصابه بسهم أثناء حصار قلعة شالوس شابرول⁽⁷⁷⁸⁾، فظل يصارع الآلام طيلة عشرة أيام، حتى توفي في عام ١١٩٩م⁽⁷⁷⁹⁾.

بهذا الشكل انتهت حياة ريتشارد، وكذلك انتهت الحملة الصليبية الثالثة، لكن حتمًا هذا لا يعني أن الحملات الصليبية انتهت، لنرى ما هو قادم.

٤٦ - الحملة الصليبية الرابعة (الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية)

بيزنطة - ٢٤ سبتمبر ١١٨٠م، حيث وفاة الإمبراطور "مانويل الأول كومنينوس"، تاركًا العرش لابنه "ألكسيوس الثاني كومنينوس"، والذي كان يبلغ من العمر حينها ١١ عامًا، مع وصاية والدته "ماريا" من خلفية أنطاكية الفرنجية، وكانا غير كفاء ولا يحظيان على شعبية⁽⁷⁸⁰⁾، ربما بسبب خلفية أمه الفرنجية.

بعد فترة أصبح الصبي شابًا، لكنه كان على موعد مع انقلاب عنيف، فقد أطلق "أندرونيكوس الأول كومنينوس"، الذي هو حفيد ألكسيوس الأول، ثورة ضد قريبه الأصغر، وتمكن من الإطاحة به في انقلاب دموي، وسار أندرونيكوس المنقلب إلى القسطنطينية في أغسطس من عام ١١٨٢م، من أجل التحريض على الانفصال عن الغرب، بل حرض على مذبحه ضد اللاتين، وبعد القضاء على منافسيه المحتملين، توج نفسه بنفسه إمبراطورًا مشاركًا في سبتمبر ١١٨٣م، وأقال ولي العهد الشاب ألكسيوس الثاني؛ وأخذ زوجته الفرنسية "أغنيس" البالغة من العمر ١٢ عامًا وقتها من زوجها⁽⁷⁸¹⁾.

وبرغم انقلابه وسلوكه العنيف، كانت فترة بداية حكمه ناجحة، فقد أشاد المؤرخون بدوره وإجراءاته التي اتخذها لإصلاح حكومة الإمبراطورية، ومكافحة الفساد والوساطة والمحسوبية، وتم دفع رواتب مناسبة للمسؤولين للحد من إغراء الرشوة، مما حسن أداء الحكومة بشكل ملحوظ، ولكن من الطبيعي أن يغضب الأرستقراطيون من أفعاله، بالإضافة إلى أنه مع مرور الوقت، أصبحت أفعاله غير متوازنة بشكل متزايد، وأصبحت عمليات الإعدام والعنف تُنفذ بشكل أكبر وأوسع، وكان عهده الباقي يسمى بـ "عهد الرعب"⁽⁷⁸²⁾، وتحول نضاله ضد الطبقة الأرستقراطية إلى مذابح جماعية، واستخدم

العنف بكل أشكاله من أجل دعم نظامه⁽⁷⁸³⁾.

ومن إخفاقاته: فشله في التعامل مع "إسحاق كومنينوس" (١١٥٥ تقريبًا - ١١٩٥ / ١١٩٦م)، الذي حكم قبرص بين عامي (١١٨٤ - ١١٩١م)، قبل غزو ريتشارد الأول ملك إنجلترا لقبرص خلال الحملة الصليبية الثالثة، وكذلك فشل في التعامل مع "بيلا الثالث" (حكم ١١٧٢ - ١١٩٦م) من المجر، الذي أعاد دمج الأراضي الكرواتية في المجر كما ذكرنا، وكذلك "ستيفن نيمانيا"، من صربيا الذي أعلن استقلاله عن الإمبراطورية البيزنطية.

والأكثر من ذلك، تتبلور المصيبة الأفظع في عجزه عن صد قوة الغزو، التي قام بها "ويليام الثاني" من صقلية، وبرغم كل هذا كان العدو الأول لأندرونيكوس، هو "إسحاق الثاني أنجيلوس"، المطالب بالعرش، لذلك نصب

له محاولة اغتيال، انتهت بالفشل، وعلى إثرها "إسحاق الثاني أنجيلوس" بعد نجاته، استولى على السلطة بمساعدة الشعب، وقتل أندرونيكوس⁽⁷⁸⁴⁾.

برغم أن عهد "إسحاق الثاني أنجيلوس" قد بدأ بنصر حاسم على النورمان وملكهم وليام في إيطاليا، لكنه فشل في أمور كثيرة، فقد فشل في استعادة قبرص من النبيل المتمرد "إسحاق كومنينوس"، وتسببت الضرائب الباهظة التي فرضها في عام ١١٨٦م على البلغار والفلاح⁽⁷⁸⁵⁾؛ في بدء ثورة وتمرد انتهيا بتشكيل الإمبراطورية البلغارية الثانية، وبشكل عام - قد شهد عهد إسحاق الثاني أنجيلوس، وزاد الأمر في عهد شقيقه "ألكسيوس الثالث"، انهيار ما تبقى من الآلية المركزية للحكومة والدفاع البيزنطيين، وتميزت سلالة أنجيلوس (أنجيلوي) يونانية الأصل، والتي بدأت مع انقلاب "أندرونيكوس" بالإخفاق، وفي عهدهم تم تبيد الثروة العامة، وضعفت سلطة الإمبراطورية بشدة، والأكثر من ذلك، أن الفراغ المتزايد في وسط الإمبراطورية قد شجع على التجزئة والانقسام، فهناك أدلة على أن بعض الورثة الكومنينيين يُنشئون الآن دولة شبه مستقلة في طرابزون ١٢٠٤، فيرى المؤرخون أن سلالة أنجيلوي عجلت من خراب الإمبراطورية، التي ضعفت بالفعل من الخارج، وانفصلت من الداخل⁽⁷⁸⁶⁾.

انغمس الإمبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس لمدة خمس سنوات في محاربة البلغار والفلاح المتمردين، وأثناء قيادته بنفسه حملة في عام ١١٩٥م، استغل شقيقه "ألكسيوس الثالث" غيابه عن المعسكر لساعات في رحلة صيد، واجتمع بقيادة الجيش، ونفذ انقلابًا اعترف به القادة والجنود، وأعلن نفسه إمبراطورًا على البلاد، وعندما عادوا للقسطنطينية؛ اعتقل الشاب "ألكسيوس الرابع" ابن أخيه إسحاق وولي عهده، واحتجز أخاه الأكبر إسحاق نفسه، وقام بسمل عينيه وسجنه.

بعد مرور ست سنوات، وتحديدًا في عام ١٢٠١م، تم تهريب الشاب ألكسيوس الرابع من القسطنطينية إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، حيث لجأ إلى صهره "فيليب شوابيا"، ملك الألمان، وهناك تقابل مع "ماركيز بونيفاس" من مونتفيرات، ابن عم فيليب، الذي تم اختياره لقيادة الحملة الصليبية الرابعة، التي كان قد أعدها البابا "إنوسنت الثالث"⁽⁷⁸⁷⁾، كان الهدف المعلن للحملة الصليبية هو غزو مصر، والقضاء على سلطة الأيوبيين القوية؛ لأنها كانت تعتبر مركز القوة الإسلامية في بلاد الشام.

الحملة الصليبية الرابعة

بدأت الدعوات لحملة صليبية رابعة في عام ١١٩٨م، من قبل البابا الجديد "إنوسنت الثالث"، وكان المخطط أن يقود هذه الحملة وينظمها ثلاثة فرنسيين، وهم: "ثيوبولد شامباني" و"لويس بلوا" و"بالدوين فلاندرز"، وبعد

وفاة ثيوبالد المبكرة، حل محله "بونيفاس الإيطالي" من مونتفيرات كقائد جديد للحملة.

بالفعل تعاقدوا مع جمهورية البندقية لنقل ٣٠ ألف صليبي بتكلفة ٨٥ ألف مارك، ومع ذلك، اختار الكثيرون موانئ ركوب أخرى؛ ووصل حوالي ١٥ ألف فقط إلى البندقية، فاقترح دوجي البندقية "إنريكو داندولو" أن عوضًا عن ذلك؛ يتم وعد البندقية بأرباح الفتوحات المستقبلية بدءًا من الاستيلاء على المدينة المسيحية زارا.

وبرى المؤرخون أن دور البابا إنوسنت الثالث كان متناقضًا، لقد أدان الهجوم فقط عندما بدأ الحصار برغم اتفاهه على ذلك، وقد رأى المؤرخون أن الرغبة البابوية في إنقاذ الحملة الصليبية بالنسبة له؛ فاقت الاعتبار الأخلاقي لسفك دماء المسيحيين أنفسهم⁽⁷⁸⁸⁾.

انضم إلى الحملة الصليبية الملك "فيليب" ملك شوابيا، صهر ألكسيوس المنفي، فطلب ألكسيوس من فيليب ومن بونيفاس الإيطالي، المساعدة في إقناع القادة والبابا، بتحويل الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، حتى يتمكن من استرجاع عرش والده المحتجز، والإطاحة بعمه المغتصب، مقابل عرضه إعادة توحيد الكنيسة البيزنطية مع روما، ودفع ٢٠٠ ألف مارك فضية للصليبيين، والانضمام إلى الحملة الصليبية بـ ١٠ آلاف جندي، وتوفير كل الإمدادات التي يحتاجونها للوصول إلى مصر⁽⁷⁸⁹⁾، كل هذا مقابل الإطاحة بعمه الإمبراطور ألكسيوس الثالث فقط، فوافق القادة على ذلك⁽⁷⁹⁰⁾.

وصل الجيش الصليبي إلى البندقية في صيف عام ١٢٠٢م، واستأجر أسطول البندقية من أجل نقلهم إلى مصر، لكنهم استولوا على ميناء زارا (المسيحي) بمملكة كرواتيا⁽⁷⁹¹⁾، كأول حدث رئيسي خلال الحملة الصليبية الرابعة، وأول هجوم على مدينة كاثوليكية من قبل الصليبيين الكاثوليك أنفسهم، ثم وصل الأسطول الصليبي إلى القسطنطينية في صيف عام ١٢٠٣م، وهاجموها وأحدثوا فيها حريقًا هائلًا، وفر ألكسيوس الثالث من كرسي الإمبراطور وترك العاصمة، وارتقى للعرش الشاب ألكسيوس الرابع أنجيلوس، وتم تحرير أبيه مُسمل العينين، لكن لم يتمكن ألكسيوس الرابع وإسحاق الثاني من الوفاء بوعودهما، وتم عزلهما من قبل "ألكسيوس الخامس"، ودفعت المقاومة اليونانية ألكسيوس الرابع إلى السعي للحصول على دعم مستمر من الحملة الصليبية؛ حتى يتمكن من الوفاء بالتزاماته المتفق عليها معهم، لكن قُتل ألكسيوس غرقًا في ثورة عنيفة ضد اللاتين، وما زاد الأمر سوءًا، أن الصليبيين أصبحوا بدون سفن أو مؤن أو طعام صالح للإبحار، فكان طريق الهروب الوحيد عبر المدينة، فاستولوا على المدينة مرة أخرى في ١٣ أبريل ١٢٠٤م، ليأخذوا بالقوة ما وعد به ألكسيوس، واستمروا

لمدة ثلاثة أيام ينهبون الكنائس ويقتلون الكثير من السكان المسيحيين الأرثوذكس⁽⁷⁹²⁾، وتم سرقة الأيقونات والآثار؛ وغيرها من الأشياء التي لا تُقدر بثمن؛ وشُحنت إلى أوروبا الغربية والبنديقية، ووفقًا للمؤرخ "كوميناتوس شوناتس"⁽⁷⁹³⁾، تم تعيين عاهرة على العرش الأبوي⁽⁷⁹⁴⁾.

بعدها تم انتخاب "بالدوين الأول" من فلاندرز إمبراطورًا لإمبراطورية لاتينية جديدة على أرض القسطنطينية المحتلة لأول مرة في التاريخ، وشملت الأراضي المقسمة بين القادة معظم الممتلكات البيزنطية السابقة، واحتلت جمهورية البندقية المتوجة نفسها مناطق رئيسية في القسطنطينية⁽⁷⁹⁵⁾.

بعد أن اكتمل نهب القسطنطينية من قبل الصليبيين اللاتينيين في عام ١٢٠٤م، تم إنشاء دولتين خلفيتين بيزنطيتين: إمبراطورية نيقية واستبداد إبيروس، مع الأخذ في الاعتبار إنشاء الإمبراطورية الثالثة طرابزون من الكومنينوس كما ذكرنا من قبل، التي أنشأها سلالة كومنينوس، والتي قامت بشكل فعلي بعد حملة "ألكسيوس الأول ميغاس كومنينوس"، على جورجيا؛ في تشيلديا قبل أسابيع قليلة من نهب القسطنطينية⁽⁷⁹⁶⁾.

بهذا الشكل سقطت الإمبراطورية البيزنطية العظيمة على يد الغرب اللاتيني، لكن خطر الحملات الصليبية لم يتوقف عند هذا الحد.

٤٧ - عودة الحملات الصليبية على الشرق
(حملات: الأطفال - الخامسة - السادسة -
البارونات) بعد أن توفي الإمبراطور "هنري
السادس" ابن بربروسا فجأة في عام ١١٩٧م،
أدى موته إلى الانهيار الجزئي

لإمبراطوريته⁽⁷⁹⁷⁾، وعندما تسلم ابنه "فريدريك
الثاني"؛ تسبب صغر سنه في فراغ خطير في
السلطة، لذا اختار الأمراء الألمان انتخاب ملك
بالغ، وتسبب ذلك في انقسام؛ على إثره ظهر
انتخاب مزدوج، لابن فريدريك بربروسا الأصغر
"فيليب من شوابيا"، و"هنري" نجل الأسد أوتو
من برونزويك، الذي تنافس على التاج، بعد
مقتل فيليب في نزاع خاص عام ١٢٠٨م.

عندما كبر فريدريك الثاني وأصبح شابًا، كان البابا "إنوسنت الثالث"، الذي
كان يخشى التهديد الذي يشكله اتحاد الإمبراطورية المقدسة وصقلية،
مدعوًا الآن من قبل فريدريك الثاني الذي أصبح شابًا، والذي سار إلى ألمانيا
وهزم أوتو من أجل استرداد ميراثه، وواصل الإصلاح بعد مواجهته للصراعات
في الداخل، وتم إقناع فريدريك من قبل البابا بالمشاركة في الحملة الصليبية
الخامسة؛ نظرًا لعدم تحقيق الحملة الرابعة أهدافها.

لكن قبل ذلك بخمس سنوات، كان هناك حدث فريد، يُبين سيطرة الكنيسة
على عقول الأطفال حول فكرة الحرب والاسترداد الصليبي، مما كان سببًا
في انطلاق حملات صليبية للأطفال.

حملتنا الأطفال الصليبية



PLATE NO. LXII.—THE CRUSADE OF CHILDREN.

318

حملة الأطفال الصليبية ، بريشة غوستاف دوريه
مجموعة أطفال ، قادتهم قناعتهم أنهم قادرون على القيام بما لم يتمكن منه
الفرسان والنبلاء، كتلية لنداءات الوعاظ المتجولين، الذين غرسوا فيهم فكرة

أن القدس لم يرغب الرب في وهب شرف تحريرها للفرسان الأمراء والملوك الطماعين، وأنها عمل مبارك لهم فقط، فانطلقت حملتان صغيرتان جدًا من الأطفال، لم تتحدث عنهما المصادر التاريخية باستفاضة، بين ٢٥ مارس و١٣ مايو ١٢١٢م، في مناطق ألمانيا المجاورة لنهر الرين، حيث اندفع الآلاف من الرعاة والأولاد الآخرين الذين يساعدون آباءهم في الشئون المنزلية إلى الجنوب، وكان قائدهم صبيًا في العاشرة اسمه "نيكلاس"، وكذلك في يونيو ١٢١٢م في فرنسا الشمالية ظهر الراعي "إيتان" البالغ من العمر ١٢ سنة، وأعلن نفسه رسول الرب، فتبعته جموع الفقراء.

مات الكثير من هؤلاء الأطفال بسبب الجوع والظروف القاسية، ووصلت الحملة الأولى إلى جنوة وهناك تفرقت الجموع، وأكمل البعض إلى برينديزي، وركب بعضهم السفن حتى اقتنصهم القراصنة، الذين باعوهم كعبيد في أسواق النخاسة، أما الحملة الثانية فوصلت إلى مرسليليا؛ واختلف المؤرخون على ما قد حدث بعد ذلك، فيقال إن رجلين محتالين هتفا في جموع الأطفال، ليخبروهم أنهم على استعداد لنقلهم إلى الأرض المقدسة عبر سفنهم، فركبوا في سبع سفن، غرقت اثنتان منها في عاصفة، وتم بيع ركاب الخمس الباقين كعبيد في أسواق النخاسة بشمال إفريقيا، ولم يصل أي طفل من أطفال الحملتين إلى الأرض المقدسة (798).

الحملة الصليبية الخامسة

تلبية لنداء البابا، بدأت الحملة الصليبية الخامسة التي شنّها الأوروبيون الغربيون عام ١٢١٧م، بغرض استعادة القدس؛ من خلال غزو مصر أولًا، التي يحكمها السلطان "العاقل سيف الدين أبو بكر"، شقيق "صلاح الدين الأيوبي" منذ عام ١٢١٣م، وكانت تحصينات دمياط البوابة الشمالية والبحرية لمصر، مثيرة للإعجاب، حيث شملت برج السلسلة المتوج بسلاسل ضخمة، لكن بدأ حصار دمياط في يونيو ١٢١٨م بهجوم ناجح على البرج، وتمكنوا منه.

كان فقدان البرج صدمة كبيرة للأيوبيين، وبعدها بوقت قصير، تُوفي السلطان العادل، فخلفه ابنه "الكامل ناصر الدين محمد"؛ بعدها انتظر الصليبيون وصول القوات الإضافية، بما في ذلك المندوب "بيلاجيوس" مع وحدة من الرومان، ثم وصلت مجموعة من إنجلترا بعد ذلك بوقت قصير (799).

وبحلول فبراير ١٢١٩م، حاصر الصليبيون دمياط كلها، فاضطر الكامل طرح المفاوضات على الصليبيين، وقدم عرضًا مذهبًا غير متوقع، لقد عرض الاستسلام وتسليم مملكة القدس، ناهيك عن حصون الكرك وقلعة مونتريال، وغيرها من المكاسب، مقابل إخلاء مصر، وافق "جون من برين" والقادة العلمانيون الآخرون، لإيمانهم بأن الهدف الأصلي للحملة هو استعادة القدس، لكن بيلاجيوس وقادة فرسان الهيكل رفضوا العرض (800)، وفي وقت لاحق؛ وصل "فرنسيس الأسيزي" مؤسس الفاتيكان، للتفاوض مع السلطان، لكن

لم يأخذ منه عرضًا أكبر من ذلك⁽⁸⁰¹⁾.

في نوفمبر ١٢١٩، دخل الصليبيون دمياط، وتفاجئوا بأنها مهجورة، بعد أن نقل الكامل جيشه سرًّا إلى الجنوب، وقام بتقوية معسكره الجديد في المنصورة، وأرسل "فريدريك الثاني" قواته، مع أوامر بعدم بدء العمليات الهجومية حتى يصل إليهم لاحقًا⁽⁸⁰²⁾، وفي يوليو ١٢٢١م، بدأ بيلاجيوس بالتقدم إلى الجنوب، وفي أواخر أغسطس وقعت معركة المنصورة، التي توافقت تاريخيًا مع فيضان النيل، ففتح المصريون السدود والمسالك الموجودة على طول الضفة اليمنى لنهر النيل؛ مما أدى إلى إغراق المنطقة وجعل المعركة مستحيلة⁽⁸⁰³⁾.

وبخطة محكمة، قطع المسلمون طريق التراجع على الصليبيين، وحاصروهم بأعداد كبيرة، فغرق المئات بمياه الفيضان، لم يكن أمام بيلاجيوس الذي لم يعجبه قيادة فريدريك خيار سوى الاستسلام، فعرض الصليبيون على السلطان الانسحاب من دمياط؛ وهدنة لمدة ثماني سنوات؛ مقابل السماح للجيش الصليبي بالإجلاء، والإفراج عن جميع الأسرى، وإعادة بقايا الصليب الحقيقي، كان الطرفان يحتفظان برهائن، من بينهم "جون برين" و"هيرمان" من سالزا للجانب الفرانكي، وابن الكامل من الجانب المصري⁽⁸⁰⁴⁾، ووقع الصلح في ٣٠ أغسطس ١٢٢١م لمدة ٨ سنوات، وباءت المحاولة الصليبية بالفشل.

الحملة الصليبية السادسة

بعد سبع سنوات، تم إطلاق الحملة الصليبية السادسة، في ١٢٢٨م، من أجل معالجة خيبات الحملة الخامسة، والتي تُعرف أيضًا باسم حملة "فريدريك الثاني" الصليبية، أما السلطان الأيوبي الكامل فقد انخرط في صراعات في سوريا، وبعد أن حاول دون جدوى التفاوض مع الغرب ابتداءً من عام ١٢١٩م، حاول مرة أخرى تجديد العرض⁽⁸⁰⁵⁾، وعرض عودة جزء كبير من الأراضي المقدسة مقابل دعم عسكري⁽⁸⁰⁶⁾.

أبحرت أولى فرق الصليبيين في أغسطس ١٢٢٧م، وانضمت إلى قوات المملكة، وقامت بتحسين المدن الساحلية، وأبحر فريدريك في ٨ سبتمبر ١٢٢٧م، ولكن قبل أن يصل، أصيب بالطاعون؛ ونزل في طريقه لتأمين الرعاية الطبية، وعقد العزم على الوفاء بيمينه للبابا، فأرسل أسطوله إلى عكا بدونه، وفي نفس الوقت أرسل مبعوثه لإبلاغ البابا "غريغوري التاسع" بما وقع فيه، لكن البابا لم يهتم بمرض فريدريك فقط؛ لأنه لم يرق إلى اتفاهه، وتم طرد فريدريك وحرمانه كَنَسِيًّا في ٢٩ سبتمبر ١٢٢٧م، ووصفه البابا بأنه منتهك لقسمه المقدس عدة مرات، وأعلن عدم مباركة حملته⁽⁸⁰⁷⁾.



فريدريك الثاني (على اليسار) والكامل (على اليمين) حاول فريدريك إثبات ولائه مجددًا، وحاول التصالح مع غريغوري، لكن الثاني لم يبالٍ، فأبحر فريدريك بقرارٍ فردي من برينديزي (808) في يونيو ١٢٢٨م، بعد توقف في قبرص، ووصل إلى عكا في ٧ سبتمبر ١٢٢٨م، لم يكن جيش فريدريك كبيرًا، وكان معظمه من الألمان والصقليين والإنجليز (809)، فالكثير من القوات التي أرسلها عام ١٢٢٧م عادوا إلى ديارهم، لم يكن قادرًا على تحمل أو شن حملة مطولة في الأرض المقدسة في ضوء نزاعه مع البابوية في روما، لكن ستكون الحملة الصليبية السادسة واحدة من المفاوضات المستقبلية (810).

في هذا الوقت بالتحديد كان موقف الكامل في سوريا أقوى، وقد تمكن من إخماد الصراعات هناك، بشكل أفضل مما كان عليه من عام، الآن أصبح أقوى ولا يحتاج لدعم عسكري، وبرغم ذلك وافق على تسليم القدس، ولأسباب غير واضحة بشكل كامل للمؤرخين، توصل الجانبان إلى اتفاق، تم بموجبه إبرام معاهدة يافا في ١٨ فبراير ١٢٢٩م، التي نصت على التسليم الكامل للقدس، باستثناء بعض الأماكن الإسلامية المقدسة، والموافقة على هدنة لمدة عشر سنوات (811).

بالفعل دخل فريدريك المحروم كَنَسِيًّا القدس في ١٧ مارس ١٢٢٩ وتسلم المدينة، وفي اليوم التالي ١ مايو ١٢٢٩م توج نفسه، ولاحقًا حصل على إغاثة البابا من حرمانه في ٢٨ أغسطس ١٢٣٠م في معاهدة سيرانو (812).
وبرغم سعادة الكامل بالاتفاق، إلا أن المسلمين اعتبروا المعاهدة كارثة لا يُمكن استيعابها (813)، على كل حال، نجحت الحملة الصليبية السادسة في إعادة القدس إلى الحكم المسيحي، دون تدخل أو مباركة بابوية لأول مرة.
حملة البارونات ١٢٣٩-١٢٤١م

أدان البابا "غريغوري التاسع" الهدنة الموقعة مع السلطان الكامل منذ البداية، وفي عام ١٢٣٤م دعا إلى حملة صليبية جديدة، لكن رحيل الحملة الصليبية قد تأخر لأن "فريدريك الثاني"، الذي كان الصليبيون يعتزمون عبور أراضيه، عارض أي نشاط صليبي قبل انتهاء هذه الهدنة احترامًا لها، مرة أخرى تم طرد فريدريك في عام ١٢٣٩م؛ مما تسبب في تجنب باقي الصليبيين أراضيه أثناء عبورهم نحو الأرض المقدسة (814).

كانت حملة البارونات عبارة عن سلسلة من الحملات الصليبية على الأراضي المقدسة، وتعتبر من الناحية الإقليمية الأكثر نجاحًا منذ الحملة الصليبية الأولى (815)، قاد البعثات الكبرى "ثيوبالد الأول" من نافارا، و"ريتشارد" من كورنوال بشكل منفصل، وعلى الرغم من أن حملة البارونات الصليبية قد اكتسبت أراضٍ وقلعًا، وأعادت المملكة إلى حجمها الأكبر منذ عام ١١٨٧م، إلا أن المكاسب ستعكس بشكل كبير بعد بضع سنوات، ففي ١٥ يوليو ١٢٤٤م، تحولت المدينة إلى أنقاض أثناء حصار القدس على يد الجيش الخوارزمي؛ الذي كان تابعًا للسلاجقة قبل الانفصال عنهم، وبعد بضعة أشهر،

شلت معركة غزة القوة العسكرية المسيحية في الأرض المقدسة بشكل دائم على يد الدولة الأيوبية، بقيادة الملك "الصالح نجم الدين أيوب"، والذي دعم جيشه بمجموعات خوارزمية، وردًا على ذلك قرر الصليبيون تنظيم حملة صليبية سابعة على مصر الأيوبية أولًا بقيادة "لويس التاسع" [\(816\)](#)، ثم توجه بعد ذلك إلى القدس والشام.

وفي ظل تخطيطات الغرب اللاتيني للتوسع واستعادة القدس، كان أقصى الشرق على موعد مع واحدة من أبشع الهجمات التي مرت على أوروبا كلها؛ إنه الغزو المغولي المرعب...

٤٨ - الغزو المغولي لشرق ووسط أوروبا
(أعظم رعب في تاريخ أوراسيا) ظهرت
الإمبراطورية المغولية، بعد ما قامت مجموعة
قبائل رُحل مغولية وتركية، بتوحيد أنفسهم
وتشكيل اتحادهم، في ما يُعرف الآن منغوليا،
وبدأت بحكم المؤسس "تيموجين" (جنكيز
خان) في عام ١٢٠٦م، لتصل في وقت قريب
إلى أن تكون أكبر إمبراطورية بكتلة قارية
واحدة في التاريخ كله، وثاني أضخم
إمبراطورية مساحة في التاريخ بعد
الإمبراطورية البريطانية⁽⁸¹⁷⁾، وتعتبر بلا منازع؛
أعظم رعب مر على تاريخ أوراسيا.

وبدون شك، سيكون أول المتضررين في أوروبا، هي الإمارات السلافية
الشرقية، التي تُعتبر بوابة أوروبا من ناحية العدو المرعب، مثل كيف
وفلاديمير، قبل أن يصل الغزو الجامح بعد ذلك إلى قلب أوروبا ووسطها.
غزو كيف روس

غزا المغول آسيا الوسطى كلها، وقضوا على الإمبراطورية الخوارزمية
هناك، ثم تقدموا نحو أوروبا، وفي عام ١٢٢٣م، هزم المغول جيشًا مكون من
(٥٠ ألف) روسي، في معركة نهر كالكا بالقرب من ماريوبول الحديثة، وبعد
عقدٍ من الزمان، أعطى "أوجيوك خان" أوامره للشاب القائد "باتو خان" بغزو
روس في عام ١٢٣٥م⁽⁸¹⁸⁾، على الفور وصلت القوة الرئيسية إلى ريزان
الروسية في ديسمبر ١٢٣٧م، واقتحموها وقاموا بنهبها، ثم اقتحموا سوزداليا،
وهُزمت جيوش روس؛ وقُتل "يوري الثاني" ملك فلاديمير في معركة نهر
سيت في ٤ مارس ١٢٣٨م، وتم الاستيلاء على المدن الكبرى مثل فلاديمير
وتورجوك وكوزيلسك، بعد ذلك، غير المغول اتجاههم إلى السهوب، وسحقوا
قبائل بيشنيك والآن ونهبوا شبه جزيرة القرم، وقام المغول بنهب كيف في ٦

ديسمبر ١٢٤٠م، ودمروا سوتيجسك واستولوا على هاليتش، واشتبكوا مع الجيش البولندي فهزموهم⁽⁸¹⁹⁾.

غزو وسط أوروبا

أصبح القائد "سوبوتاي" المغولي، يملك شهرة مرعبة على مدى واسع، بعد أن دمر إمارات روس المختلفة بمنتهى الوحشية، والآن بات يخطط من أجل التقدم إلى قلب أوروبا، فأرسل جواسيسه إلى بولندا والمجر والنمسا الشرقية قبل الغزو⁽⁸²⁰⁾، وعندما جاءت التقارير، أعد هجومًا بقيادة باتو خان، واثنين من الأمراء الآخرين، لكن بلا شك سوبوتاي كان الإستراتيجي والقائد في الميدان والأمر النهائي، وقد بدا ذلك من حضوره الدائم في كل من الحملات الشمالية والجنوبية ضد إمارات روس⁽⁸²¹⁾، كما قاد العمود المركزي الذي تحرك ضد المجر، الذي ألحق هزيمة ساحقة بالملك "بيلا الرابع" ملك المجر في معركة موهي.

غزو بولندا

ثلاثة جيوش مغولية كانوا منوطين بغزو قلب أوروبا، الجيش الأول: هزم تحالفًا شمل قوات من بولندا المجزأة وحلفاءهم، بقيادة "هنري الثاني"، دوق سيليزيا، في معركة لينيتز - والجيش الثاني: عبر جبال الكاربات - أما الثالث: فقد سار عبر نهر الدانوب، من أجل غزو المجر، وبعدها وصل المغول إلى بولانك على شاطئ كزارنا هايتشا، بين الصخور، ما بين بولندا وبيلاروسيا حاليًا، وهناك أقاموا معسكرهم⁽⁸²²⁾، وعلى حين غفلة، هاجمهم جيش بولندي أصر على هزيمة الغزاة أو الموت، فكان للبولنديين الانتصار الأولي، لكن عندما أدرك المغول الضعف العددي الفعلي للبولنديين، أعادوا تجميع صفوفهم، واخترقوا صفوف البولنديين وهزموهم.

غزو أراضي التاج البوهيمي (بوهيميا، مورافيا، سيليزيا) تقدم المغول، وواصلوا أعمال النهب في جميع أنحاء بولندا والممالك المجاورة لها، فوصلوا إلى سيليزيا ومورافيا، وحينما سمع "وينسلاوس الأول" ملك بوهيميا عن الاجتياح الوحشي، هرب من بوهيميا، لكنه جمع التعزيزات من تورينجيا وساكسونيا أثناء انسحابه، وعاد متأخرًا، ليتفاجأ بحجم الدمار والخراب الذي حل بسيليزيا ومورافيا، فأمر القوات بالتأهب أعلى المناطق الجبلية في بوهيميا؛ حتى لا يتمكن المغول من استخدام سلاح الفرسان بشكل فعال في هذه التضاريس⁽⁸²³⁾.

كانت القوات المغولية قد انقسمت إلى قسمين، أحدهما بقيادة باتو وسوبوتاي اللذين كانا يخططان لغزو المجر، والآخر بقيادة بايدر وكادان، اللذين كانا يشقان طريقهما عبر سيليزيا ومورافيا، وعندما وصلوا لمهاجمة بوهيميا، تفاجئوا بدفاعات المملكة التي تصدت لهم، وأجبرتهم على الانسحاب إلى مدينة أوتماشو⁽⁸²⁴⁾⁽⁸²⁵⁾، بعدها هاجمت قوة صغيرة من المغول الموقع

الإستراتيجي في بلدة غلاتس في سيليزيا⁽⁸²⁶⁾، لكن سلاح الفرسان البوهيمي بقيادة وينسلاوس تمكنوا من صدّهم وردّهم، ثم حاول المغول السيطرة على بلدة أولمويتس في التشيك حاليًا، لكن وينسلاوس تمكن من الحصول على مساعدة نمساوية وصدوا الغارة، وتحت قيادة وينسلاوس، ظلت بوهيميا واحدة من عدد قليل من ممالك أوروبا الشرقية التي لم ينهبها المغول أبدًا، على الرغم من تدمير معظم الممالك المحيطة بها مثل بولندا ومورافيا⁽⁸²⁷⁾، وبعد هذه المحاولات الفاشلة، واصل بيدر وكادان مدهمة مورافيا، قبل أن يتجها أخيرًا جنوبًا؛ لكي يندمجا مع قوات باتو وسوبوتاي في المجر.

غزو المجر

أرسل باتو رسالة إلى ملك المجر "أندراس الثاني" يأمره بتسليم مملكته دون قيد أو شرط، مهددًا إياه بمواجهة دمار شامل، لم يرد الملك، فجاءته رسالتان أخريان، بعدها مات الملك أندرو؛ ثم دعا خليفته الملك بيلا الرابع رجاله للانضمام إلى جيشه للدفاع عن البلاد، وكذلك طلب المساعدة من البابوية وحكام أوروبا الغربية، جاءت المساعدة الأجنبية؛ تحت قيادة دوق النمسا "فريدريك الثاني"، لكنها كانت صغيرة، ومع الاختلاف في وجهات النظر غادرت القوات النمساوية من حيث أتت، وتركت المجرين في مواجهة الغزو وحدهم.

المجر التي أرعبت أوروبا في الماضي لم تكن هي المجر، فلم تعد يسكنها جنود في الغالب، حيث تم تدريب النبلاء الأثرياء فقط كسلاح فرسان مدرع ثقيل، ونسي المجرّيون منذ فترة طويلة إستراتيجية سلاح الفرسان الخفيف وتكتيكات أسلافهم، والتي كانت مماثلة لتلك التي يستخدمها المغول الآن، فلو كان الجيش المجري القديم موجودًا الآن لربما تمكن من هزيمة المغول.

قتل الغزاة السكان المجرّيين، وأحرقوا معظم مستوطناتهم، وسحقوهم في معركة موهي في ١١ أبريل ١٢٤١م، الحرب التي قُتل فيها نصف سكان المجر آنذاك⁽⁸²⁸⁾، وبدل من مواصلة المغول الغزو عبر بانونيا إلى أوروبا الغربية، أمضوا وقتًا في تأمين الأراضي المحتلة وتهديتها، وفي يوم عيد الميلاد عام ١٢٤١م، سحقوا المقاومة والتمردات، وحاصروا إزترجوم، العاصمة والمركز الاقتصادي لمملكة المجر، مما أجبر العاصمة على الانتقال إلى بودا⁽⁸²⁹⁾.

ومع قدوم فصل الشتاء لم يتوقف الغزو المغولي، على عكس الإستراتيجية التقليدية لجيوش البدو، التي تبدأ حملاتهم فقط في فصل الربيع، وتحت الأمطار عبر المغول نهر الدانوب واستمروا في احتلالهم المنتظم، بما في ذلك بانونيا، حتى وصلوا في النهاية إلى الحدود النمساوية؛ وشواطئ البحر الأدرياتيكي في دالماتيا، وقد عين المغول "داروغانثي" على المجر، وسكوا عملات معدنية باسم خاقان المغول⁽⁸³⁰⁾.

غزو كرواتيا

أما كرواتيا، التي كانت قد اتحدت مع المجر من قبل، هرب ملكهما "بيلا الرابع"، قبل أن يأتي الغزو، واختبأ في زغرب، فأرسل باتو المغولي ٢٠ ألف رجل مسلحين، تحت قيادة كادان لملاحقة بيلا، وكانت زغرب ضعيفة التحصين؛ فدُمرت من الوهلة الأولى، وأحرق المغول كاتدرائيتها⁽⁸³¹⁾، فانخرط سكان زغرب في بناء جدران وأبراج دفاعية حول مستوطناتهم، استعدادًا لأي غزو آخر⁽⁸³²⁾، بعد أن خرج المغول من زغرب عبروا بابونيا إلى دالماتيا؛ إستكمالًا لمطاردة بيلا الذي فر منهم، وأثناء المطاردة، هاجم المغول بقيادة كادان قلعة كليس في كرواتيا في مارس ١٢٤٢م، فلم يتمكنوا منها بسبب التحصينات القوية لها، ونزل المغول وتسلقوا الجدران باستخدام المنحدرات القريبة، وقتها تمكن المدافعون من إلحاق عدد من الضحايا بالمغول، الأمر الذي أثار غضب المغول ودفعهم إلى القتال باليد في الشوارع، لكن بمجرد أن علموا أن الملك بيلا هرب إلى مكان آخر، تخلوا عن الهجوم وانشقوا⁽⁸³³⁾.

طارد المغول بيلا من مدينة إلى أخرى في دالماتيا، وبعد هذه الحرب الاستنزافية، تراجع المغول، وتم منح بيلا الرابع المدن الكرواتية، ويدعي بعض المؤرخين أن التضاريس الجبلية لدالماتيا كانت قاتلة للمغول، بسبب الخسائر الفادحة التي عانوا منها في كمائن الكروات على الممرات الجبلية⁽⁸³⁴⁾، في النهاية، على الرغم من تعرض الكثير من كرواتيا للنهب والتدمير، إلا أن احتلالها لم ينجح بشكل مكتمل.

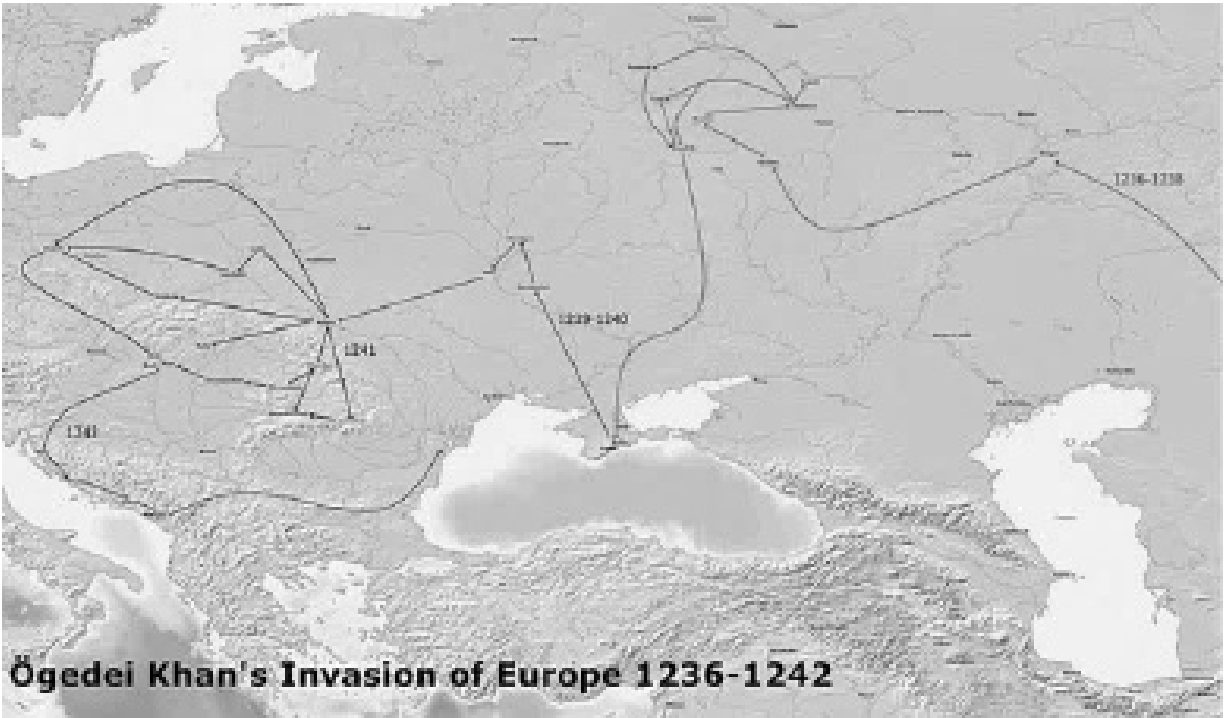
غزو ألمانيا

في ٩ أبريل ١٢٤١م، دخل المغول أيضًا إمارات ميسين ولوساتيا في منطقة ولاية ساكسونيا الألمانية، بعد انتصار المغول الحاسم في معركة ليجنيتز في بولندا على القوات البولندية والأوروبية المشتركة كما ذكرنا⁽⁸³⁵⁾، وتمكنت وحدات الاستطلاع المغولية الخفيفة بقيادة أوردا خان، بنهب مدينة ميسن وحرقت معظم بنيتها بشكلٍ وحشي⁽⁸³⁶⁾.

غزو النمسا

بعد السيطرة على المجر واحتلالها، أصبح الطريق مفتوحًا لغزو فيينا، فأطلق المغول أولًا أسرابًا صغيرة لمهاجمة المستوطنات المعزولة في ضواحي فيينا، كمحاولة نفسية لغرس الخوف والذعر بين السكان العزل هناك، وفي عام ١٢٤١م داهم المغول المناطق المجاورة لها بجنوب فيينا، وتحملت وينرنيوستادت المعاناة الكبرى للهجوم، وارتكب فيها المغول فظائع مروعة، كما تعرضت مدينة كورنوبورغ، الواقعة شمال فيينا مباشرة، للنهب والتدمير⁽⁸³⁷⁾، دوق النمسا "فريدريك الثاني" الذي كان له سابقة اشتبك فيها

مع المغول في أولوموتس في المراحل الأولى من معركة موهي، علم أن الغزو في داره، فقرر الاستفادة من الخطأ السابق، وعلى عكس المجر، تمكنت فيينا بقيادة فريدريك وفرسانه وحلفائه الأجانب، من حشد القوات بشكل أسرع والقضاء على السرب المغولي الصغير⁽⁸³⁸⁾، كما هزم الفرسان النمساويون المغول على حدود نهر مورافا في ديفين بالقرب من حدود سلوفاكيا والنمسا حاليًا، وبعد الغارات الأولية الفاشلة، انسحب بقية المغول، وهدأت الأمور قليلًا بعد أن علموا ب وفاة الخان العظيم "أوقطاي خان" في ديسمبر من عام ١٢٤١م، حيث عاد جميع "أمراء الدم"، إلى منغوليا لانتخاب خان جديد، غير مُنصتين لأوامر سوبوتاي الذي طلب منهم البقاء وعدم خسارة المواقع المكتسبة⁽⁸³⁹⁾.



الغزو المغولي لأوروبا ١٢٣٦-١٢٤٢
ليشكل هذا استراحة مؤقتة من هذا الغزو، مما مكن الأماكن المحتلة في شرق وقلب أوروبا من ممارسة هجمات المقاومة.
أما الغرب الأوروبي غير المتأثر بهذه الهجمات حتى الآن، جهز لحملة صليبية جديدة، بعد توقف هذا الغزو بسبع سنوات فقط.

٤٩- محاولة جديدة لغزو مصر (الحملة الصليبية السابعة – والثامنة)

بدأت الحملة الصليبية السابعة ١٢٤٨م، بقيادة "لويس التاسع" ملك فرنسا الملقب بالقديس، كأول مشاركة له، وكان هدف الحملة هو استعادة الأرض المقدسة من خلال مهاجمة مصر، المقر الرئيسي للسلطة الإسلامية في الشرق الأوسط، كرد على الانتكاسات التي حدثت في مملكة القدس، بدءًا من خسارة المدينة المقدسة عام ١٢٤٤م، وقد بشر بها "إنوسنت الرابع" بالتزامن مع حملة صليبية ضد الإمبراطور فريديك الثاني، والحروب الصليبية البروسية والتوغلات المغولية⁽⁸⁴⁰⁾.

قاد لويس الحملة الصليبية في ١٢ أغسطس ١٢٤٨م، بصحبة زوجته "مارجريت بروفانس"، واثنين من إخوته، "تشارلز الأول" ملك أنجو، و"روبرت الأول" ملك أرتوا، (سيتبعهم أخوهم الأصغر "ألفونس من بواتيه" في العام التالي)، وكذلك "هيو الرابع" من بورغوندي، و"بيتر مولسيرك" و"هيو الحادي عشر" من لوزينيان، والرفيق الملكي والمؤرخ "جان دي جوينفيل"، والسير "ويليام لونجسبي" حفيد "هنري الثاني" ملك إنجلترا، والكثير من النبلاء والداعمين⁽⁸⁴¹⁾.

بعد أن تم الاتفاق على أن مصر هي الهدف، تذكر الكثيرون كيف كان والد السلطان مستعدًا لاستبدال القدس نفسها بدمياط في الحملة الصليبية الخامسة، وقد أوحى ذلك لـ لويس بحتمية دخول دمياط، حيث لم يكن مستعدًا للتفاوض مع المسلمين الكفار من وجهة نظره، لكنه سعى دون جدوى إلى تحالف فرنسي مع المغول الكفار الآخرين، مما يعكس التناقض الذي سعى إليه البابا عام ١٢٤٥م⁽⁸⁴²⁾.

في ٥ يونيو ١٢٤٩م حاصر الأسطول الصليبي دمياط، وكنوع من التعلم من أخطاء الماضي؛ انتظر لويس حتى هدأت فيضانات النيل، وبنهاية أكتوبر ١٢٤٩م، انحسر النيل ووصلت التعزيزات، فانطلق جيش الفرنجة نحو المنصورة لملاحقة قوات الأيوبيين.

في غضون ذلك توفي السلطان الأيوبي "الملك الصالح نجم الدين أيوب" في نوفمبر ١٢٤٩م، وقررت زوجته "شجر الدر" إخفاء خبر موته⁽⁸⁴³⁾، وبحلول ديسمبر؛ كان لويس مخيمًا على ضفاف النهر المقابل للمنصورة، ولمدة ستة أسابيع، واجهت جيوش الغرب ومصر بعضها على جانبي النهر، واشتد قتالهما في معركة المنصورة، التي انتهت في ١١ فبراير ١٢٥٠م بانتصار صليبي مبدئي، وبرغم الانتصار خسر لويس الكثير من قواته وقادته، ونجا الكثير منهم بأعجوبة، من بين الناجين كان "تمبلر غيوم دي سوناك"، الذي فقد عينه،

"هامبرت الخامس دي بوجيو"، شرطي من فرنسا، و"يوحنا الثاني" من سواسون، ودوق بريتاني "بيتر مولكيرك"، بينما كان من بين القتلى شقيق الملك "روبرت الأول"، و"ويليام لونجسي"، ومعظم أتباعه الإنجليز، وفجأة تبدل الانتصار إلى نكسة⁽⁸⁴⁴⁾، ففي ١١ فبراير ١٢٥٠م، هاجم المصريون مرة أخرى بعد اتحاد الأهالي مع الجيش الذي تم تعزيزه بتكتيكات جديدة، قُتل تمبلر غيوم، ومدير فرسان الإِسبتارية بالإِنابة "جان دي روناى"، بل تم تطويق "ألفونس من بواتيه"، الذي كان يحرس المعسكر، وأنقذه أتباع المعسكر بشق الأنفس، وعند حلول الظلام، تخلى المسلمون عن الهجوم⁽⁸⁴⁵⁾.

في ٢٨ فبراير ١٢٥٠م، وصل "المعظم توران شاه" ابن السلطان الأيوبي المتوفى من دمشق ومعه تعزيزات، وبدأ هجومًا مصريًا شرسيًا، واعترض القوارب التي جلبت الطعام من دمياط، ليلقى الصليبيون مصيرهم من الجوع والعطش والمرض⁽⁸⁴⁶⁾، وفي معركة فارسكور في ٦ أبريل ١٢٥٠م؛ هُزمت جيوش لويس بشكل حاسم، فقرر لويس إجلاء ما تبقى من جيشه إلى دمياط من أجل الهروب، لكن سرعان ما تبعهم المصريون مهرولين، وفي اليوم التالي حاصر المسلمون الجيش وهاجموه بكامل قوتهم، فقبض على لويس نفسه في ضواحي فارسكور، واقتيد الملك وحاشيته بالسلاسل إلى المنصورة من أجل اعتقالهم، وبدأت المفاوضات للإفراج عنهم، كانت الشروط المتفق عليها قاسية، حيث كان يتوجب على لويس أن يفدي نفسه باستسلام جيشه كاملاً، ودفع مليون بيز (تم تخفيضه لاحقًا إلى ٨٠٠ ألف)، وبعد تنفيذ المطالب المصرية، تم إطلاق سراحه، وذهب إلى عكا، وتعتبر هذه نهاية الحملة الصليبية السابعة الفاشلة⁽⁸⁴⁷⁾.

الحرب الصليبية الثامنة

بعد هزيمة الصليبيين في مصر، بقي لويس في عكا حتى عام ١٢٥٤م، من أجل توحيد الدول الصليبية⁽⁸⁴⁸⁾، أما مصر - فسرعان ما نشب فيها صراع على السلطة بين مختلف قادة المماليك وبقيّة الأمراء الأيوبيين الضعفاء الباقين، وقد تم تهديد مصر من قبل المغول الذين عادوا في هذه الأثناء لاحتلال العالم مجددًا، فصعد إلى السلطة الأمير المملوكي "قطز" عام ١٢٥٩م، وبعد اتحاده مع فصيل آخر بقيادة "بيبرس"، تمكنا من هزيمة المغول في عين جالوت، خلال تلك الفترة قضى المماليك على القوة المغولية الموجودة بفلسطين وسحقوها بالكامل، كما قبضوا على قائدها "كتبغا" وقطعوا رأسه عام ١٢٦١م، وقد وضعت هذه المعركة حدًا لانتشار المغول، ثم سيطر المماليك بسرعة على دمشق وحلب؛ قبل اغتيال قطز وتولّي بيبرس زمام الأمور⁽⁸⁴⁹⁾.

في عام ١٢٧٠م حوّل تشارلز حملة شقيقه الملك لويس المهزوم لصالحه، عن طريق إقناعه بمهاجمة تونس، واستولوا على قلعة قرطاجا القديمة،

ولكن وقع وباء تفشى في صفوف الفرسان، توفي على إثره لويس التاسع، وأفراد العائلة المالكة المرافقة؛ باستثناء "فيليب الثالث"، الابن البكر للملك الذي شفي، وفي نفس يوم وفاة الملك وصل أخوه تشارلز الأول، ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م، وخاضت قواته برفقة قوات لويس المتوفى؛ بقيادة خلفه فيليب؛ بضع معارك ناجحة نوعًا ما ضد قوات أمير تونس "أبو عبد الله المستنصر"، وفي أول نوفمبر ١٢٧٠م وقعت معاهدة صلح مع المستنصر، على أن يقوم بدفع جزية مضاعفة إلى ملك صقلية، كما شملت حقوقًا تجارية متبادلة، وبعد ١٧ يومًا من التوقيع، عاد الأسطول إلى فرنسا.

لكن بعدها وصل الأمير إدوارد، ملك إنجلترا المستقبلي، مع حاشية صغيرة بعد فوات الأوان، مقررين الوصول إلى الأراضي المقدسة؛ فيما يُعرف باسم حملة "اللورد إدوارد الصليبية"⁽⁸⁵⁰⁾، ثم نجا إدوارد من محاولة اغتيال فاشلة، وتفاوض على هدنة لمدة عشر سنوات، فعاد لإنجلترا، ناهيًا آخر جهد صليبي كبير في شرق المتوسط⁽⁸⁵¹⁾.

تبع ذلك؛ زوال قوة الدول الصليبية في البر الرئيسي كله، مع سقوط طرابلس عام ١٢٨٩م، وعكا عام ١٢٩١م، وقد تم إجلاء العديد من المسيحيين اللاتينيين، ولكن على الرغم من ذلك، تُظهر سجلات التعداد العثماني للكنايس البيزنطية أن معظم الأبرشيات في الدول الصليبية السابقة، بقيت على الأقل حتى القرن السادس عشر وظلت مسيحية⁽⁸⁵²⁾.

كانت هذه أبرز أحداث العصور الوسطى العالية، وقبل الانتقال للعصور الوسطى الأخيرة؛ دعنا نلقي نظرة على أحوال أوروبا في هذه الفترة التي لا تتعدى الثلاثة قرون...

٥٠ - أحوال القوى العظمى الأوروبية (نهاية العصور الوسطى العليا)

بيزنطة ومحاولة استعادة المجد المفقود

ضعفت سلطنة سلاجقة الروم الأتراك بعد الغزو المغولي لها في عام ١٢٤٢-١٢٤٣م، وقد أراح ذلك البيزنطيين مؤقتًا، فقد أعطى الغزو المغولي لنيقية أيضًا فترة راحة مؤقتة من هجمات السلاجقة، مما سمح لها بالتركيز على الإمبراطورية اللاتينية في شمالها، على الرغم من أن هذا قد سمح للكثير من جماعات البيليكس والغازي الأتراك بتأسيس إماراتهم الخاصة في الأناضول، مما أضعف سيطرة البيزنطيين على آسيا الصغرى مجددًا، وفي أعقاب ذلك، أنشأ "عثمان الأول" (عثمان بن أرطغرل)، من نسل قبيلة قايي من الأوغوز الأتراك⁽⁸⁵³⁾، دولة عثمانية سيكون لها دور تاريخي مهم في الأحداث القادمة.

كانت قد تمكنت إمبراطورية نيقية، التي أسستها سلالة لاسكاريد، من التأثير على استعادة القسطنطينية من اللاتين في عام ١٢٦١م، وهزيمة استبداد إيبروس القوية جنوب شرق أوروبا، والتي طالما اعتدت على مقدرات البيزنطيين، وقد أدى ذلك إلى إحياء قصير الأمد للثروات البيزنطية في عهد "مايكل الثامن باليولوج"، الذي حكم كإمبراطور مشارك لإمبراطورية نيقية قبل ذلك، لكن الإمبراطورية التي أنهكها الحرب، لم تكن مجهزة للتعامل مع الأعداء الذين أحاطوا بها؛ للحفاظ على حملاته ضد اللاتين، فاضطر مايكل لسحب القوات من آسيا الصغرى وفرض ضرائب باهظة على الفلاحين؛ مما تسبب في الكثير من الاعتراضات ضده⁽⁸⁵⁴⁾، تم الانتهاء من إعادة الإعمار في القسطنطينية لإصلاح الأضرار التي لحقت بها جراء الحملة الصليبية الرابعة، وبرغم التطوير كان المزارعون في آسيا الصغرى يعانون من الغياب الأمني وكانوا عرضة لهجمات المسلمين⁽⁸⁵⁵⁾، وبدلاً من إصلاح هذا الخلل، وعلاج ثغرة التعري العسكري في آسيا الصغرى، اختار مايكل توسيع الإمبراطورية، وبالفعل حقق نجاحًا مؤقتًا في تجنب أي نهب آخر للعاصمة من قبل اللاتين من الغرب، لكنه كان نجاحًا قصير المدى، مما تسبب في سخط مزارعي آسيا الصغرى على مايكل والقسطنطينية⁽⁸⁵⁶⁾.

من بعده ظهرت جهود "أندرونيكوس الثاني"، ولاحقًا حفيده "أندرونيكوس الثالث"، والتي تعتبر آخر محاولات بيزنطة الحقيقية لاستعادة مجد الإمبراطورية المفقود، ولكن الخطأ الذي وقع فيه أندرونيكوس الثاني هو جلب المرتزقة مجددًا، وقد تسبب ذلك في سلبات أكثر منها إيجابيات، حيث اجتاحت الشركة الكاتالونية الريف وتزايد الاستياء تجاه القسطنطينية⁽⁸⁵⁷⁾.

بعد وفاة أندرونيكوس الثالث غاصت بيزنطة في صعاب أسوأ مما سبقت، فقد انطلقت فيها الحروب الأهلية، واستمرت لمدة ست سنوات، دُمرت خلالها الإمبراطورية، وقد سمحت هذه الفوضى للحاكم الصربي "ستيفان دوشان" بالتوغل داخل معظم الأراضي المتبقية للإمبراطورية وإنشاء إمبراطورية صربية، ومن سوء إلى أسوأ، وقع زلزال في عام ١٣٥٤م، دمر حصن جاليبولي في منطقة مرمرة، شرق تراقيا، وقد سمح ذلك للعثمانيين أبناء أرطغرل بإقامة أنفسهم في أوروبا بشكلٍ واضح (858).

الصراع الأنجلو فرنسي

وفي إنجلترا، بعد وفاة "ريتشارد قلب الأسد"، تمكن أخوه "جون" من إعادة تأسيس سلطته في إنجلترا، وخطط لاستعادة نورماندي وأنجو، كانت الإستراتيجية هي سحب الفرنسيين من باريس، وفي أوائل عام ١٢١٤م، تم تجميع ائتلاف ضد الملك "فيليب أغسطس" ملك فرنسا، من أجل رغبته في استعادة نورماندي، وقد تألف التحالف من الملك جون ملك إنجلترا، و"أوتو الرابع"، وكونت "فيران من فلاندرز"، وكونت "رينو من بولوني"، ودوق "هنري الأول" ملك برابان، وكونت "ويليام الأول" ملك هولندا، ودوق "ثيوالد الأول لورين"، ودوق ليمبورغ "هنري الثالث"، كان هدف التحالف عكس الفتوحات التي قام بها فيليب أغسطس في وقت سابق من عهده، في محاولة لكبح القوة الصاعدة لملك فرنسا، واستعادة ممتلكات أنجفين القارية التي فقدها الملك جون ملك إنجلترا قبل عقد من الزمان.

برغم قوة التحالف، هُزم فيليب إنجلترا والتحالف في معركة بوفينس، المعركة الختامية للحرب الأنجلو- فرنسية ١٢١٣-١٢١٤م، والتي تعتبر واحدة من أكثر المعارك رمزًا وحسمًا في التاريخ الفرنسي (859)، كان للمعركة عواقب مهمة وشديدة الأهمية، فبعد انسحاب أوتو ابن أخت جون سرعان ما تمت الإطاحة به، أما الملك جون نفسه فقد اضطر إلى قبول هدنة لمدة خمس سنوات، كان انتصار فيليب الناجح حاسمًا في تنظيم السياسة في كل من إنجلترا وفرنسا، وكانت المعركة مفيدة في تشكيل الملكية المطلقة والمستقلة في فرنسا من الآن وصاعدًا (860).

وبسبب هزيمته في فرنسا، اهتزت هبة الملك جون في إنجلترا، فتمرد أتباعه، وأدى تمردهم إلى معاهدة تسمى ماجنا كارتا، والتي حدثت من السلطة الملكية وأرست القانون العام، وسيشكل هذا أساس كل معركة دستورية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وبالرغم من ذلك، لم يلتزم البارونات ولا التاج بشروط ماجنا كارتا؛ مما أدى إلى حرب البارونات الأولى، التي دعا فيها البارونات المتمردون الأمير "لويس الثامن" ابن فيليب أغسطس ملك فرنسا لغزو إنجلترا؛ فغزا لويس إنجلترا، ويعتبر هذا من قبل بعض المؤرخين إيذانًا بنهاية فترة أنجفين وبداية سلالة بلانتاجنت بوفاة جون،

وتعيين ويليام مارشال حاميًا لـ "هنري الثالث" البالغ من العمر تسع سنوات، ربح مارشال الحرب بانتصاراته في معركتي لينكولن ودوفر عام ١٢١٧م؛ مما أدى إلى معاهدة لامبيث التي تخلى لويس بموجبها عن مطالبه⁽⁸⁶¹⁾.

أعيد بعد ذلك تأسيس السلطة الملكية من قبل البارونات المواليين لهنري الثالث الشاب⁽⁸⁶²⁾، وظلت هياكل السلطة في إنجلترا وتوابعها غير مستقرة لسنوات عديدة، حتى اندلعت حرب البارونات الثانية عام ١٢٦٤م، والتي وقعت بين هؤلاء البارونات والملك نفسه، بسبب محاولة "هنري الثالث" تأكيد سلطته وسيادته الملكية في تعيين المستشارين؛ كرفض وخرق لما أصدره مجلس البارونات لشروط أكسفورد عام ١٢٥٨م، وخرقًا لقوانين ويستمنستر عام ١٢٥٩م، ولم تكن هذه القرارات مقبولة لدى هنري الثالث، لأنها تحد من صلاحياته، وتجعل السلطة بيد مجلس البارونات، من أجل ذلك، لجأ البارونات إلى إعلان الحرب على الملك بزعامة "سيمون دي مونتفورت" عام ١٢٦٣م، رافضين وساطة "لويس التاسع" ملك فرنسا؛ بسبب اعتقادهم عدم حياده. قاد الأمير "إدوارد الأول" ابن هنري القوات الملكية للانتصار في معركة إيفشام عام ١٢٦٥م، وقتل دي مونتفورت، وأعاد والده هنري الثالث إلى السلطة فيما بعد، بعد ذلك، ضعفت قوة البارونات واستسلموا للملك عام ١٢٦٧م، بعد أن عجزوا عن تحطيم سلطته المطلقة.

صقلية وحرب صلاة الغروب

بعد حروب طويلة ضد الولايات البابوية، تمكنت مملكة صقلية من الدفاع عن ممتلكاتها، مما أجبر البابوية على إعلان تخليها عن الحرب، والرجوع عن ضم هذه المملكة، بسبب عدم ولاء آل هوهنشتاوفن للبابوية⁽⁸⁶³⁾، لكن هذا التخلي في الحقيقة كان ذريعة وحيلة بابوية ماهرة، ففي السر توصل البابا إلى اتفاق مع "لويس التاسع" ملك فرنسا، لكي يدخل صقلية ويعين أخاه "تشارلز الأول" ملكًا على صقلية، وفي المقابل، يُعطي تشارلز اعترافًا واضحًا بسيادة البابا في المملكة، ودفع جزءًا من الدين البابوي، والموافقة على دفع جزية سنوية للولايات البابوية⁽⁸⁶⁴⁾.

بدعم من البابا نزل تشارلز إلى إيطاليا وهزم مانفريد في معركة بينيفينتو عام ١٢٦٦م، وكذلك "كونرادي" هُزم وتوفي في عام ١٢٦٨م في معركة تاجليكوزو، الذي كان آخر وريث ذكر لهوهينشتاوفن⁽⁸⁶⁵⁾.

رأى المواطنون أن هذا احتلال فرنسي بحت، وما زاد من أوجاعهم الضرائب الجبرية المفروضة، فجاءتهم دعوات بالتمرد مدعومة من قبل عملاء من تاج أراغون ومن الإمبراطورية البيزنطية، نتج عن هذه الدعوات قيام تمرد ناجح سُمي بـ "تمرد صلاة الغروب"، الذي بدأ في عيد الفصح لعام ١٢٨٢م؛ ضد حكم الملك الفرنسي الجديد تشارلز الأول، وفي غضون ستة أسابيع، قُتل ما

يقرب من ١٣ ألف رجل وامرأة فرنسيين على يد الثائرين المتمردين، وفقدت حكومة تشارلز السيطرة على الجزيرة، تلا ذلك دعوة وتدخل من قبل الملك "بيتر الثالث" ملك أراغون في عام ١٢٨٢م، وبدأت حرب صلاة الغروب الصقلية؛ حتى انتهت بصلح كالتابيلوتا عام ١٣٠٢م، وعلى إثر ذلك قُسمت مملكة صقلية القديمة إلى قسمين - القسم الأول: جزيرة صقلية، المعروفة باسم "مملكة صقلية وراء المنارة" أو مملكة تريناكريا، والتي أصبحت من نصيب "فريدريك الثالث" من أسرة برشلونة، الذي كان يحكمها - أما القسم الثاني: أقاليم شبه الجزيرة (جنوب إيطاليا)، التي كانت تسمى في الوقت نفسه مملكة صقلية وأحيانًا نابولي، وكانت من نصيب "تشارلز الثاني" من منزل أنجو، الذي كان يحكمها هو أيضًا.

ويتضح من ذلك أن السلام الذي تم هو مجرد اعتراف بالوضع الراهن، وضمان عدم تعدي أي من الطرفين على مناطق حكم الآخر⁽⁸⁶⁶⁾، وأصبح هذا التقسيم دائمًا حتى عام ١٣٧٢م بموجب معاهدة فيلنوف، ومع تطور الأحداث يتضح أن ملك إسبانيا كان قادرًا على الاستيلاء على التاجين في القرن السادس عشر، إلا أن إدارات شطري مملكة صقلية ظلت منفصلة حتى عام ١٨١٦م، عندما تم لم شملهما في مملكة الصقليتين فيما بعد.

الأمبراطورية الرومانية المقدس وفترة خلو العرش

توقفنا عند مشاركة فريدريك الثاني في الحملة الصليبية السادسة، الذي يتضح أنه على الرغم من ادعاءاته الإمبراطورية، كان حكمه نقطة تحول رئيسية نحو تفكك الحكم المركزي في الإمبراطورية، فقد أهمل الإمبراطورية كلها ولاسيما ألمانيا، وركز على إقامة دولة مركزية حديثة في صقلية، وبسبب غيابه عن ألمانيا؛ كان قد أصدر حزمة امتيازات بعيدة المدى لأمراء ألمانيا العلمانيين والكنسيين هناك، لكن كان عليه أن يتغلب على الغزو البابوي لصقلية في حرب المفاتيح (١٢٢٨-١٢٣٠م)⁽⁸⁶⁷⁾، بعدما خلف فريدريك وعده للبابا بالحفاظ على انفصال العالمين وعدم اتحادهما.

بعد وفاة فريدريك الثاني عام ١٢٥٠م؛ ظهر ما يسمى بأزمة خلو العرش، حكم المملكة "كونراد الرابع" ملك ألمانيا؛ الوريث الشرعي التالي، بسبب أن الوريث الشرعي الأول كونراد الثاني كان صغير السن، لكن استولى "مانفريد من صقلية" (الابن غير الشرعي لفريدريك) على السلطة، وحكم المملكة لمدة خمسة عشر عامًا، وخلالها كان ورثة هوهنشتاوفن الآخرون يحكمون مناطق مختلفة في ألمانيا⁽⁸⁶⁸⁾، تبع وفاة كونراد فترة انتقال العرش، وفي هذه الفترة لم يتمكن أي ملك من تحقيق اعتراف عالمي بسلطته كإمبراطور مقدس، مما سمح للأمراء والنبل بتعزيز ممتلكاتهم والاستقلال بها كحكام، وفي غضون ذلك ظهر نزاع على التاج بين "ريتشارد كورنوال"، الذي كان مدعومًا من حزب جيلف، وهو حزب مكون من مجموعة فصائل كانت تدعم

البابا والإمبراطور الروماني المقدس علي التوالي، في دولتي المدن الإيطالية في وسط إيطاليا وشمال إيطاليا - وبين ألفونسو العاشر ملك قشتالة، وليون، وجاليسيا، الذي اعترف به حزب هوهنشتاوفن لكنه لم تطأ قدمه الأرض الألمانية، وبعد وفاة ريتشارد كورنوال عام ١٢٧٣م، استمرت الفوضى والصراع بين ملوك ضعاف لم يرتقوا لأباطرة، واستمر الأمر لأكثر من ثلاثة عقود، حتى بدأ الملك الفرنسي "فيليب الرابع" في السعي بقوة؛ من أجل الحصول على دعم شقيقه "تشارلز دي فالوا"، ليتم انتخابه ملكًا جديدًا للرومان، وكان ذلك لاعتقاد منه أنه قد ضمن دعم البابا الفرنسي "كليمنت الخامس"، وأن احتمالاته في جلب الإمبراطورية إلى بيت العائلة الملكية الفرنسية قوية، وعلى الفور قام بتوزيع الأموال والهدايا من أجل رشوة الناخبين الألمان.

على الرغم من أن تشارلز دي فالوا كان يحظى بدعم رئيس أساقفة كولونيا "هاينريش الثاني" المؤيد للفرنسيين، إلا أن الكثيرين لم يكونوا حريصين على رؤية توسع في النفوذ الفرنسي، على الأقل من "كليمنت الخامس"، وكان المنافس الرئيسي لتشارلز هو "رودولف الثاني"، كونت بلاتين نهر الراين، لكن الناخبين أنفسهم لم يكونوا راضين عن وجود تشارلز أو رودولف، وعدم الاقتناع بأن أحدهما منهم سيتمكن من ملء كرسي الإمبراطورية الذي كان خاليًا لعقود، وانتخبوا بدلًا منهما "هنري السابع" كونت لوكسمبورغ، بمساعدة أخيه "بالدوين"، رئيس أساقفة ترير، وأخيرًا تم تتويج هنري السابع ملكًا في آخن في ٦ يناير ١٣٠٩م، وكإمبراطور من قبل البابا كليمنت الخامس في ٢٩ يونيو ١٣١٢م في روما، لتنتهي فترة خلو العرش.

الفصل الرابع

العصور الوسطى الأخيرة (المتأخرة)

٥١ - نهاية تقدم المغول

(التصدي الأوروبي لغزوات المغول)

بعد سنوات قليلة تسلمتها الفوضى في

الداخل المغولي، منذ موت أوقطاي

خان، وتقسيم الإمبراطورية، عاد

المغول لاستكمال الغزو من جديد،

فهاجموا بلغاريا مجددًا، وظهرت

خطورة القبيلة الذهبية التي قررت

عودة الغزو وإحكام سيطرتها على

المستعمرات.

نهاية تقدم المغول وظهور القبيلة الذهبية

بعدما استأجر الملك "بيلا الرابع" مساعدة فرسان الإسبتارية، بالإضافة إلى تدريب فرسانه المحليين، استعدادًا للغزو المغولي الثاني للمجر، أعقب ذلك؛ التكيف مع التكتيكات المغولية ودراستها خاصةً في المجر، من خلال بناء تحصينات أفضل ضد أسلحة الحصار وتحسين سلاح الفرسان الثقيل⁽⁸⁶⁹⁾.

استقلت خانية القبيلة الذهبية عن إمبراطورية المغول في سنة ١٢٦٠م، على يد "باتو خان"، وعلى التو، عادت لتعزيز قوة المغول في أوروبا الشرقية، خاصةً الإمارات الروسية، وفرضت على الأمراء الروس الجزية والضرائب، وتركت لهم الحكم الإقطاعي تحت عباءتهم هم، واتجه فرسان القبيلة الذهبية نحو المجر من أجل شن غزو تال، وقتها زادت المجر من نسبة الفرسان بقيادة "لاديسلاوس الرابع" ملك المجر آنذاك، وتمكنوا من فرض قوتهم

بشكلٍ بارز لأول مرة، وهزموا جيش خانية القبيلة الذهبية الرئيسي في تلال غرب ترانسيلفانيا⁽⁸⁷⁰⁾.

في نفس الوقت كانت دول أوروبا الشرقية التي كانت متنازعة ومتحاربة، قد توحدت من أجل طرد هذا الغزو الجامح، وبعد الاتحاد تمكنوا أخيرًا من طرد بقايا القبيلة الذهبية، ومن أهم الأسباب التكتيكية، هي حرب العصابات والمقاومة الشديدة التي اتبعتها العديد من الأوروبيين، خاصة أولئك الموجودين في كرواتيا ودوردزوكيتيا، والتي مكنتهم من منع المغول من فرض سيطرة دائمة عليهم وإخراجهم بعد مواجهات استنزافية⁽⁸⁷¹⁾.

الأسباب الحقيقية لانسحاب المغول ليست معروفة تمامًا، ولكن توجد العديد من التفسيرات المقبولة فكريًا، منها تمددهم الأوروبي الواسع، وأن الغزو المغولي قد تعثر في سلسلة من الحصارات المكلفة والمحيطة، حيث حصلوا على القليل من الغنائم وواجهوا مقاومات شديدة، وكذلك قيل إنهم كانوا قد عانوا من تمرد من قبل الكومان (عاد باتو لإخماده، وقضى ما يقرب من عام في القيام بذلك)، بينما يرى آخرون بأن الطقس السيئ في أوروبا كان له تأثير، حيث قيل إن من المحتمل أن يكون الطقس قد حول السهل المركزي للمجر إلى مستنقع ضخم، لذلك بسبب نقص المراعي لخيولهم، كان على المغول العودة إلى روس بحثًا عن أراضي عشبية أفضل⁽⁸⁷²⁾.

على كل حال - كان المغول قد انسحبوا تمامًا من أوروبا الوسطى بحلول منتصف عام ١٢٤٢م، على الرغم من أنهم ما زالوا يشنون عمليات عسكرية في الشرق في هذا الوقت، وأبرزها الغزو المغولي للأناضول في (١٢٤١-١٢٤٣م)، من ناحية أخرى يعتقد بعض المؤرخين أن سبب توقف باتو عند نهر موهي؛ هو أنه لم يكن ينوي أبدًا المضي أو التمدد قدمًا⁽⁸⁷³⁾، خاصة بعدما مات الخان العظيم، كان عليه أن يهرع إلى منغوليا للإخبار بمطالبته بالسلطة، فاضطر لإنهاء توسعه غربًا، خاصة بعد استدعاء سوبوتاي، في نفس الوقت؛ أصبحت الجيوش المغولية بدون رأس روعي وإستراتيجي أساسي هناك، وبهذا الشكل لم يكن باتو قادرًا على استئناف خطته للغزو إلى "البحر العظيم" (المحيط الأطلسي) حتى عام ١٢٥٥م.

غارات مغولية جديدة على أوروبا

شنت القبيلة الذهبية غارات جديدة في ثمانينيات نفس القرن، وطالت بلغاريا والمجر وبولندا، وكانت أكبر بكثير من الغزو السابق في أعوام ١٢٤١-١٢٤٢م، وذلك بفضل انتهاء حروبهم الأهلية وقتها، وقد تمت الإشارة إلى هذه الهجمات بأنها "الغزو المغولي الثاني لأوروبا"، أو "الغزو التتار المغولي الثاني لوسط وجنوب شرق أوروبا"، أو "الغزو المغولي الثاني لأوروبا الوسطى"⁽⁸⁷⁴⁾.

بدأت بوادر ضعف الهيمنة الذهبية على وسط وشرق أوروبا بحلول منتصف

القرن الرابع عشر، ولم تتردد العديد من الممالك الأوروبية في شن غارات مختلفة على الأراضي التي يسيطر عليها المغول، بهدف استعادة الأراضي المحتلة، فاستعادت مملكة جورجى الهيمنة على أراضيها، بقيادة الملك "جورج الخامس" الملقب بجورج اللامع، وكذلك استولت على إمبراطورية طرابزون من أيدي المغول⁽⁸⁷⁵⁾، من ناحية أخرى - استغلت ليتوانيا الصراعات الداخلية في القبيلة الذهبية التي نشأت حينها، وبدأت غزوًا مستقلًا دون دعم، وهزمت المغول في معركة جزيرة بلو ووترز⁽⁸⁷⁶⁾، وفاق نجاحهم التوقع، لدرجة أنهم قاموا باحتلال أراضي القبيلة الذهبية مثل إمارة كييف، على طول الطريق إلى نهر دنيبر، ولكن توقف تقدمهم بعد هزيمتهم في معركة نهر فورسكلا⁽⁸⁷⁷⁾⁽⁸⁷⁸⁾، ومن ناحية أخرى - بدأت دوقية موسكو أيضًا في استعادة العديد من أراضي روس، وتطورت في النهاية إلى روسيا القيصرية في عام ١٣٤٥م، أما مملكة المجر - فكانت قد تشجعت وأطلقت قواتها الخاصة من أجل غزو الأراضي المنغولية المكتسبة، واستردت مولدافيا بحدودنا الحديثة⁽⁸⁷⁹⁾.

أدت انتفاضة الشرق الأوروبي وجرأته، إلى إغراء بعض جيوش أوروبا الغربية بالتخلص من هذا الكابوس، ومقابلة المغول في الأراضي المحتلة في كفا في شبه جزيرة القرم، بعد عام؛ حاصر الجنوة موانئ المغول في المنطقة، مما أجبر "جانبيغ" على التفاوض، وفي عام ١٣٤٧م سُمح للجنوة بإعادة تأسيس مستعمرتهم في تانا على بحر آزوف⁽⁸⁸⁰⁾، لينتهي شبح المغول الذي أربع أوروبا كلها.

٥٢ - أزمة أواخر القرون الوسطى
(مجاعات - طاعون - ثورات) اتسمت فترة
العصور الوسطى الأخيرة؛ بالصعوبات
والأزمات، فقد اجتاحتها الجوع والمرض،
كالمجاعة الكبرى في الفترة من ١٣١٥ إلى
١٣١٧م (والتي تُذكر أحيانًا ١٣١٥ - ١٣٢٢م)،
والتي تُعتبر الكارثة الأولى في سلسلة من
الأزمات واسعة النطاق التي ضربت أوروبا في
أوائل القرن الرابع عشر⁽⁸⁸¹⁾.

المجاعة الكبرى

تسببت فترة العصور الدافئة السابقة، في انفجار التضخم السكاني لأوروبا؛ مقارنة بالعصور السابقة، ليشهد الرخاء تحولًا عكسيًا مميّزًا، فبين عامي ١٣١٠ و١٣٣٠م، شهد شمال أوروبا بعضًا من أسوأ فترات سوء الأحوال الجوية وأكثرها استدامة في العصور الوسطى، والتي تميزت بشتاء قارس وصيف ممطر وبارد، وربما قد وقع حدث بركاني خلال العصر الجليدي الصغير⁽⁸⁸²⁾، بسبب كل هذا تغيرت أنماط الطقس، وقابله عدم فعالية الحكومات في التعامل مع الأزمات، وإلى جانب الارتفاع السكاني، وعجز إنتاج الغذاء، وقعت المجاعة الكبرى.

تسببت المجاعة في العديد من الوفيات على مدى عدد ممتد من السنوات؛ وشكلت نهاية واضحة لفترة النمو والازدهار النسبي من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر⁽⁸⁸³⁾، المسمى بنهضة القرن الثاني عشر، واستمر فشل المحاصيل حتى عام ١٣١٦م؛ وصولًا إلى موسم الحصاد الصيفي عام ١٣١٧م، ولم تتعاف أوروبا تمامًا حتى عام ١٣٢٢م، لم يكن فشل الزراعة والحصاد هو المشكلة الوحيدة، لكن تسبب أيضًا مرض وموت الماشية والأغنام في انخفاض الثروة الحيوانية بنسبة تصل إلى ٨٠٪، وقد أدت هذه المجاعة إلى انتشار الجريمة والتطرف وقتل الأطفال والموت الجماعي وكذلك أكل لحوم البشر، وكانت الحياة صراعًا قصيرًا ووحشيًا من أجل البقاء حتى وقت أكبر على قيد الحياة، وقد أدى هذا إلى انخفاض واضح للسكان في

غالبية الأماكن، ففي إنجلترا على سبيل المثال وصل لنسبة تتعدى ٤٢٪⁽⁸⁸⁴⁾.
هذه المجاعات الكارثية تبعها خطر آخر، وهو الموت الأسود.

الطاعون الأسود

نشأ الموت الأسود في آسيا الوسطى وانتشر من إيطاليا إلى جميع أنحاء البلدان الأوروبية الأخرى، وفي عام ١٣٤٧م، ظهر الموت الأسود في أبنشع سلالاته على مر التاريخ، وقد أدى ذلك إلى مقتل ثلث سكان أوروبا، وبسببه يعتقد بعض المؤرخين أن المجتمع أصبح فيما بعد أكثر وحشية ودموية، فبسبب الفرص الأقل في الحياة، زادت الحرب والجريمة والثورات الشعبية وموجات الجراد والاضطهاد بشكل أكبر مما خلفته المجاعات⁽⁸⁸⁵⁾.

بدأ الوباء الجامح بهجوم شنه المغول على آخر محطة تجارية للتجار الإيطاليين في المنطقة، وهي منطقة كافا في شبه جزيرة القرم⁽⁸⁸⁶⁾ في أواخر عام ١٣٤٦م، وعلى الفور انتشر الطاعون بين المحاصرين وتوغلوا في المدينة، وقامت القوات المغولية برمي جثث موبوءة بالطاعون إلى كافا كشكل من أشكال الهجوم، وهي أولى الحالات المعروفة والمسجلة للحروب البيولوجية⁽⁸⁸⁷⁾، ومع حلول الربيع، فر التجار الإيطاليون على متن سفنهم حاملين الموت الأسود لبلادهم دون أن يعلموا، وانتقل الطاعون الذي حملته البراغيث على الفئران إلى البشر، بالقرب من البحر الأسود، ثم إلى الخارج، ومن ثم إلى بقية أوروبا، ونتيجة لفرار الناس من منطقة إلى أخرى، هاجرت الجرذان مع البشر، مسافرة بين أكياس الحبوب والملابس والسفن والعربات وقشور الحبوب⁽⁸⁸⁸⁾.

الثورات الشعبية

قبل القرن الرابع عشر، لم تكن الانتفاضات الشعبية معروفة، بسبب أنها كانت محلية في نطاقها، لكن مع مرور القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أدى تأثير الأزمات الاقتصادية على الفقراء إلى حركات جماهيرية وانتفاضات شعبية في جميع أنحاء أوروبا، فعلى سبيل المثال: في ألمانيا بين عامي ١٣٣٦ و١٥٢٥م، كان هناك ما لا يقل عن ستين مرحلة من الاضطرابات الفلاحية المتشددة⁽⁸⁸⁹⁾، وهذه الظاهرة رغم تسميتها بثورات الفلاحين لم تقتصر على الفقراء والفلاحين فقط، فهناك تمردات أخرى قام بها البرجوازيون في المدن، ضد النبلاء ورؤساء الأديرة والملوك، عبرت هذه الثورات، وساعدت في إحداث انقسام سياسي واجتماعي؛ مما مهد الطريق لتوسيع الإمبراطورية العثمانية في البلقان.

الأسباب الرئيسية المذكورة لهذه الانتفاضات الجماهيرية هي: اتساع الفجوة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء بشكل متطرف⁽⁸⁹⁰⁾، وانخفاض دخل الفقراء،

وارتفاع التضخم والضرائب، والأزمات الخارجية للمجاعة والطاعون والحرب، وردود الفعل الدينية، وكذلك بسبب لجوء الملوك الذين احتاجوا إلى المال؛ لتمويل الحروب إلى خفض قيمة العملة؛ عن طريق قطع العملات الفضية والذهبية بمعدن أقل قيمة؛ مما أدى إلى زيادة التضخم، وفي النهاية، زيادة معدلات الضرائب، فثار النبلاء أيضًا⁽⁸⁹¹⁾، وتسببت أزمات المجاعة والطاعون والحرب في القرن الرابع عشر، في بناء ضغوط إضافية على من هم في القاع، وأدى الطاعون إلى انخفاض كبير في عدد الأشخاص الذين كانوا عمالًا وأنتجوا ثروة⁽⁸⁹²⁾.

الانقسام (الانشقاق) الغربي

من أبرز الأزمات الأخرى كان الانشقاق الغربي (الانشقاق البابوي)، أو المواجهة مع الفاتيكان، وهو انقسام داخل الكنيسة الكاثوليكية استمر من عام ١٣٧٨ إلى عام ١٤١٧م، وفي هذه الأزمة ادعى كل من الأساقفة المقيمين في روما وأفينيون أنهم البابا الحقيقي لا غيرهم، وانضم إليهم سلالة ثالثة من المطالبين من أبرشية الروم الكاثوليك في بيزا في عام ١٤٠٩، ويتضح أن هذه الانشقاقات كانت مدفوعة بالشخصيات والولاءات السياسية، مع ارتباط بابوية أفينيون ارتباطًا وثيقًا بالنظام الملكي الفرنسي، في النهاية؛ هذه المطالبات المتنافسة بشكل سخيف أضرت بهيبة المنصب البابوي⁽⁸⁹³⁾.

تم حل الانقسام أخيرًا عندما دعا المطالب البيزاني "يوحنا الثالث والعشرون" مجلس كونستانس (١٤١٤-١٤١٨م)، ورتب المجلس تنازل كل من البابا الروماني "غريغوري الثاني عشر"، والبابا البيزاني "جون الثالث والعشرون"، وحرموا البابا "أفينيون بنديكتوس الثالث عشر"، وانتخبوا "مارتن الخامس" ليكون البابا الجديد الذي يحكم من روما.

يشار إلى هذه القضية أحيانًا باسم الانشقاق الكبير⁽⁸⁹⁴⁾، على الرغم من أن هذا المصطلح يستخدم عادة للإشارة إلى الانقسام بين الشرق والغرب في عام ١٠٥٤م، بين الكنائس التي ظلت في شراكة مع الكرسي الروماني والكنائس الأرثوذكسية الشرقية، كما ذكرنا.

٥٣ - أزمة أواخر القرون الوسطى (صراعات وحروب قومية) حرب المائة عام

أدى الصراع الأنجلو فرنسي وحروب البارونات إلى سلسلة من النزاعات المسلحة بين مملكتي إنجلترا وفرنسا خلال أواخر العصور الوسطى، ونشأت مطالبات متنازع عليها بشأن العرش الفرنسي بين البيت الإنجليزي بلانتاجنيت؛ والبيت الملكي الفرنسي لفالوا، ومع مرور الوقت اتسع الصراع، وتشارك فيه فصائل من جميع أنحاء أوروبا الغربية؛ بسبب القومية الناشئة على كلا الجانبين، واستمرت هذه الحرب التي تُعتبر من أهم الصراعات في العصور الوسطى؛ لمدة ١١٦ عامًا، تسببت فترات سيء وهدنات، وفيها قاتل خمسة أجيال من الملوك من سلالتين متنافستين من أجل عرش المملكة المهيمنة في أوروبا الغربية، وبسببها أنتج كلا الجانبين ابتكارات في التكنولوجيا؛ والتكتيكات العسكرية؛ والجيش الدائمة المحترفة؛ والمدفعية؛ والفروسية، وبسببها ترسخت الهويات الوطنية الأقوى في كلا الجانبين، وأصبحت أكثر مركزية، وظهر الفريقان بشكل تدريجي كقوى عالمية⁽⁸⁹⁵⁾.

الحروب التوتونية

بدأت هذه الحروب بالاستيلاء التوتوني على مدينة دانزيغ في ١٣ نوفمبر ١٣٠٨م، وحينها نفذوا مذبحه لسكانها، فيما يُعرف بمذبحة غدانسك⁽⁸⁹⁶⁾، وبعد دمار المدينة، تم تسوية النزاع مع بولندا مؤقتًا في معاهدة كاليش (١٣٤٣م)، قبل أن تُعاد المدينة إلى بولندا في صلح تورون/ ثورن عام ١٤٦٦م، ثم تلا ذلك الحرب العظمى المعروفة باسم: الحرب البولندية الليتوانية والتوتونية (الحرب العظمى)، التي بادر فيها النظام التوتوني بغزو لبولندا في أغسطس ١٤٠٩، والذي استمر حتى عام ١٤١١م، وقد تصدى لهؤلاء الفرسان التوتونيين فرسان مملكة بولندا الحليفة ودوقية ليتوانيا الكبرى، بشكل حاسم في معركة جرونوالد، ومن نجا منهم من القتل تم أسره، ولقي ما يقرب من ٢٠٠ راهب حتفهم في هذه المعركة، التي تعتبر إحدى أكبر المعارك في أوروبا في العصور الوسطى⁽⁸⁹⁷⁾، واستمرت النزاعات الإقليمية حتى صلح ميلنو عام ١٤٢٢م، وغيرت الحرب ميزان القوى في أوروبا الوسطى، وشهدت صعود الاتحاد البولندي الليتواني باعتباره القوة المهيمنة في المنطقة⁽⁸⁹⁸⁾، ثم تلاها حرب جولوب التي استمرت شهرين في نفس عام ١٤٢٢⁽⁸⁹⁹⁾، وانتهت بتوقيع معاهدة ميلنو التي حلت النزاعات الإقليمية بين الفرسان والاتحاد، ثم تجدد الصراع بعد سنوات (١٤٣١-١٤٣٥م)، وانتهى بمعاهدة سلام لصالح بولندا⁽⁹⁰⁰⁾، ثم تلا ذلك حرب الثلاثة عشر عامًا (١٤٥٤-١٤٦٦م)، بين الاتحاد البروسي

المتحالف مع تاج مملكة بولندا، والنظام التوتوني، وكانت عبارة عن انتفاضة قام بها سكان المدن البروسية والنبلاء المحليين؛ للفوز بالاستقلال عن الفرسان التوتونيين، وانتهت بانتصار الاتحاد البروسي وبولندا، من خلال معاهدة سلام ثورن الثاني (١٤٦٦)، وسرعان ما أعقب ذلك الحرب البولندية التوتونية الأخيرة (١٥١٩-١٥٢١م)، والتي انتهت بتسوية ثورن في أبريل ١٥٢١، وبعد أربع سنوات، بموجب معاهدة كراكوف، أصبح جزء من الدولة الرهبانية الكاثوليكية التابعة للنظام التوتوني علمانيًا باسم دوقية بروسيا لأول مرة رسميًا⁽⁹⁰¹⁾.

فترة خلو العرش البرتغالي

في مكان متوتر آخر وقعت حرب أهلية في الفترة ما بين ١٣٨٣ و١٣٨٥م، هناك في البرتغال، وفي هذا الصراع لم يحكم أي ملك متوج البرتغال، فقد بدأت فترة خلو العرش عندما توفي الملك "فرديناند الأول" دون وريث ذكر، وانتهت عندما تُوج الملك جون الأول عام ١٣٨٥م بعد انتصاره في معركة الجوباروتا، وفي التاريخ البرتغالي: تم تفسير هذه الحقة على أنها أولى حركات المقاومة الوطنية لمواجهة التدخل القشتالي، وأنها الكاشف العظيم للوعي القومي⁽⁹⁰²⁾.

الحروب البورغندية

نشبت حرب مفتوحة بين دولة بورغونديان؛ والكونفدرالية السويسرية القديمة وحلفائها، بين أعوام (١٤٧٤-١٤٧٧م).

جلب توحيد الإمارات الإقليمية ذات الثروات المتفاوتة في ولاية بورغوندي فرصًا اقتصادية كبيرة وثروة للسلطة الجديدة، بسبب أن العديد من النخب رأوا أن توحيد أراضيهم هو الضمان الآمن نسبيًا لتحقيق ربح في ظل دوقية بورغوندي المستقرة اقتصاديًا⁽⁹⁰³⁾، لكن انهار حلمهم، وهُزم دوق بورغندي "شارل الجريء"؛ في ثلاث معارك متتالية، وانتهى الصراع بمقتله في معركة نانسي في عام ١٤٧٧م، لتُصبح دوقية بورغندي مع العديد من الأراضي البورغندية الأخرى جزءًا من فرنسا، وورثت "ماري" ابنة شارل دوق بورغونيا، الأراضي المنخفضة البورغندية وفرانش كونته، لكن هذه المناطق انتقلت في نهاية المطاف إلى عائلة هابسبورغ بعد وفاة ماري بسبب زواجها من "ماكسيمليان الأول"، أرشيدوق النمسا، الذي أصبح فيما بعد إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا.

الحروب العثمانية البيزنطية

في ظل ضعف الإمبراطورية البيزنطية، أصبح موقع الإمبراطورية البيزنطية في أوروبا غير مؤكد، بسبب وجود الممالك المتنافسة لاستبداد إبيروس وصربيا والإمبراطورية البلغارية الثانية، وبسبب الضعف التام؛ تم سحب

القوات الأخيرة من الأناضول للحفاظ على قبضة بيزنطة على تراقيا⁽⁹⁰⁴⁾، وبرغم أن دولة سلاجقة الروم الأتراك قد ضعفت؛ لم تستفد بيزنطة من هذا الضعف، فقد بدأ النبلاء المعروفون بالغازيين في إقامة إقطاعيات على حساب الإمبراطورية البيزنطية، وكذلك شارك العديد من البايات⁽⁹⁰⁵⁾ الأتراك في غزو الأراضي البيزنطية والسلجوقية أيضًا، وكان من أبرزهم البيك "عثمان الأول"، الذي شكلت أراضيه أكبر تهديد لنيقية والقسطنطينية، وفي غضون ٩٠ عامًا من تأسيس عثمان الأول للبيك العثماني، فقد البيزنطيون جميع أراضهم الأناضولية، وبحلول عام ١٣٨٠م، فقد البيزنطيون تراقيا البيزنطية أيضًا للعثمانيين⁽⁹⁰⁶⁾.

في هذا الوقت كان هناك العديد من الحملات الصليبية الصغيرة في القرن الرابع عشر، قام بها ملوك أو فرسان أفراد، إضافة إلى حرب مستمرة في شمال أوروبا على طول ساحل البلطيق، وبعد معركة كوسوفو عام ١٣٨٩م، احتل العثمانيون معظم دول البلقان؛ وقلصوا الإمبراطورية البيزنطية إلى المنطقة المحيطة مباشرة بالقسطنطينية.

وردًا على القوة العثمانية الصاعدة، تحالف الصليبيون من القوات المجرية والكرواتية والبلغارية، والوالاشية، والفرنسية، والبورغندية، والألمانية (بمساعدة البحرية الفينيسية)، ضد العثمانيين في معركة نيكوبوليس، في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م، وأسفرت عن هزيمة جيش الصليبيين ونهاية الإمبراطورية البلغارية الثانية، كذلك مع حلول عام ١٤٠٠م، أصبحت أراضي الإمبراطورية البيزنطية ضئيلة جدًا مقارنةً مع سابق عهدا.

غالبًا ما يشار إليها باسم حملة نيكوبوليس الصليبية، لأنها كانت واحدة من آخر الحملات الصليبية في العصور الوسطى، جنبًا إلى جنب مع الحملة الصليبية لفارنا في (١٤٤٣-١٤٤٤م)، وحملة فارنا كانت حملة صليبية، فاشلة شنّها العديد من القادة الأوروبيين لصد التوسع العثماني في أوروبا الوسطى، والتي انتهت بانتصار عثماني حاسم على التحالف الصليبي في معركة فارنا في ١٠ نوفمبر ١٤٤٤م، وتميزت معظم هذه الفترات بالتوسع العثماني في البلقان، حققت الإمبراطورية العثمانية مزيدًا من التوغلات في أوروبا الوسطى، وبلغت ذروتها في ذروة المطالبات الإقليمية العثمانية في أوروبا⁽⁹⁰⁷⁾، وبعد أن سقط البلقان في قبضة الإمبراطورية العثمانية⁽⁹⁰⁸⁾، لم يكن هناك رد رادع؛ بسبب أن الدول المتبقية في القارة كانت حبيسة صراعات قومية دولية، أو صراعات داخلية⁽⁹⁰⁹⁾.

سمحت كل هذه الانتصارات بتسهيل مهمة فتح العثمانيين للقسطنطينية.

٥٤ - نهاية الإمبراطورية البيزنطية للأبد
(سقوط القسطنطينية الأخير) بحلول الوقت
الذي انتهت فيه الحروب الأهلية البيزنطية،
كان العثمانيون قد هزموا الصرب وأخضعوهم
كأتباع في ميدان الحرب، ومع بداية عام
١٤٥٢م، أعطى صاحب العشرين عامًا؛
السلطان العثماني الجديد "محمد خان الثاني"
ابن مراد العثماني، أوامره لبناء قلعة ثانية
روملي هيساري - حصار؛ على الجانب
الأوروبي من مضيق البوسفور، على بعد عدة
أميال شمال القسطنطينية، وتقع القلعة
الجديدة مباشرة عبر المضيق من قلعة
الأناضول حصاري، التي بناها جده الأكبر
"بايزيد الأول"، وكان هذا التوازي بين الحصنين
كفيل للسيطرة الكاملة على حركة المرور
البحري على مضيق البوسفور⁽⁹¹⁰⁾، وكذلك
حصن ضد هجوم مستعمرات جنوة الإيطالية
على ساحل البحر الأسود إلى الشمال.

وفي أكتوبر ١٤٥٢م، قام محمد بتجميع قوة حامية كبيرة في البيلوبونيز لمنع
الأمراء البيزنطيين "توماس باليولوج" و "ديمترىوس باليولوج" من جنوب
اليونان؛ من تقديم المساعدة للإمبراطور البيزنطي "قسطنطين الحادي عشر
باليولوج" خلال الحصار الوشيك للقسطنطينية، وكذلك أمر القائد "كاراجا
باشا"، بتجهيز الرجال لإعداد الطرق من أدريانوبل إلى القسطنطينية؛ حتى

تتمكن الجسور من التعامل مع المدافع الهائلة، وأمر خمسين نجارًا و ٢٠٠ حرفي بتعزيز الطرق عند الضرورة⁽⁹¹¹⁾.

علم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر بما حدث، وعلى الفور فهم نوايا محمد الحقيقية، واتجه مسرعًا إلى أوروبا الغربية من أجل طلب الإغاثة؛ ولكنه كان يعلم أنه مُطالب بدفع ثمن قرون من الحرب والعداوة بين الكنائس الشرقية والغربية، فشلت محاولة الاتحاد، في ظل تنفيذ تكتيكات العثمانيين الواضحة وضوح الشمس، وعندما اكتمل روملي حصار في صيف عام ١٤٥٢م، وأصبح تهديد العثمانيين معلنًا، كتب قسطنطين إلى البابا مجددًا، واعدًا بتنفيذ الاتحاد بكل شروطه في ١٢ ديسمبر ١٤٥٢⁽⁹¹²⁾، مع أنه كان يعلم تمام العلم أن البابا "نيكولاس الخامس" لم يكن له تأثير على الملوك والأمراء الغربيين، الذين كان بعضهم قلقًا من زيادة السيطرة البابوية، والأهم من ذلك أن هؤلاء الحكام الغربيين كانوا منهمكين في أوضاعهم الداخلية، ولم يكن لديهم ما يكفي للمساهمة في هذا الدفاع، لاسيما في ضوء حالة الضعف التي سادت فرنسا وإنجلترا من حرب المائة عام، وكذلك انغماس إسبانيا في ملف الاسترداد، والقتال المشتعل في الإمبراطورية الرومانية المقدسة أثناء وبعد فترة خلو العرش، وهزيمة المجر وبولندا في معركة فارنا عام ١٤٤٤م، وبعد تفكير ومشاورات طويلة، وصلت بعض القوات الغربية كي تدعم دفاع المسيحيين عن القسطنطينية، لكنها وصلت متأخرة، بعد أن انتزع العثمانيون ما تبقى من الأراضي البيزنطية، وبقي أمامهم القسطنطينية فقط⁽⁹¹³⁾، وأصبحت القسطنطينية المهلهلة الآن، أكثر بقليل من مجموعة قرى تفصلها الحقول.

وعلى الرغم من وصول هذه القوات الصغيرة من دول المدن التجارية في شمال إيطاليا، إلا أن المساهمة الغربية لم تكن كافية لموازنة القوة العثمانية، برغم وصول مجموعات أخرى من بعض الأفراد الغربيين للمساعدة في الدفاع عن المدينة لحسابهم الخاص، فوصل الكاردينال "إيزيدور"، بتمويل من البابا، ومعه ٢٠٠ من رماة السهام، وكذلك وصل الفارس البار "جيوفاني جوستينياني" من جنوة الإيطالية، في يناير ١٤٥٣م مع ٤٠٠ رجل من جنوة، و ٣٠٠ رجل من خيوس اليونانية التي كانت تابعة لجنوة⁽⁹¹⁴⁾، وبسبب خبرته العسكرية في الدفاع عن المدن المحاطة بالأسوار، وأنه متخصص في ذلك، كان الفارس جوستينياني هو المنوط بالقيادة الشاملة للدفاع عن الأسوار الأرضية من قبل الإمبراطور، في ذات الوقت سمع قباطنة السفن الفينيسية التي تصادف وجودها في القرن الذهبي بالأمر، فأقبلوا وعرضوا خدماتهم على الإمبراطور، باستثناء أوامر معاكسة من البندقية، من ناحية أخرى تعهد البابا نيكولاس بإرسال ثلاث سفن محملة بالمؤن، والتي حددت الإبحار قرب نهاية

مارس⁽⁹¹⁵⁾، وفي نفس الوقت، شهدت البندقية اجتماعات ومداولات من أجل مناقشة نوع المساعدة التي ستقدمها الجمهورية للقسطنطينية، فاتفق مجلس الشيوخ على إرسال أسطول مجهز في فبراير ١٤٥٣م، لكن لأسباب تجهيزية تأخر رحيل الأسطول حتى أبريل، أي بعد فوات الأوان، وقد أثر ذلك في قتل الروح المعنوية للبيزنطيين.

بدأت التدابير البيزنطية من أجل صد أي هجوم بحري محتمل على طول شواطئ القرن الذهبي، فأمر الإمبراطور بوضع سلسلة دفاعية عند مصب الميناء، وكانت هذه السلسلة الغليظة، قوية بما يكفي لمنع أي سفينة تركية من دخول الميناء، كان هذا السلاح واحدًا من أسلحة البيزنطيين التي أعطتهم بعض الأمل في تمديد الحصار حتى وصول المساعدات الغربية المحتملة⁽⁹¹⁶⁾.

فكر محمد في اختراق السلسلة المعقدة من الجدران والخنادق التي تحمي القسطنطينية، ونزل جيشه خارج المدينة في يوم الاثنين ٢ أبريل ١٤٥٣م، وبدأ العثمانيون خبراء الحصار في محاصرة القسطنطينية، وتجلت خبرتهم في معرفتهم أن آفة سابقهم كانت الأمراض والمجاعات، فكان عليهم حرق الجثث والتخلص الصحي من الفضلات والاهتمام الشديد بمصادر المياه الخاصة بهم⁽⁹¹⁷⁾.

أما في الجانب البيزنطي - فكان للمدينة حوالي ٢٠ كم من الأسوار، وهي واحدة من أقوى مجموعات الجدران المحصنة في الوجود، وكانت قد منحت المدافعين التفاؤل بأنهم قادرون على الصمود حتى وصول المساعدة من الغرب، بالإضافة إلى ذلك، كان المدافعون مجهزين بشكل جيد نسبيًا بأسطول مكون من ٢٦ سفينة: ٥ قادمين من جنوة، ٥ قادمين من البندقية، ٣ قادمين من فينيسيا كريت، ١ من أنكونا، ١ من أراغون، ١ من فرنسا، وحوالي ١٠ كانوا ملكًا للإمبراطورية البيزنطية نفسها⁽⁹¹⁸⁾.

وعلى الرغم من أن المدافعين البيزنطيين كان لديهم مدافع أيضًا، إلا أن الأسلحة كانت أصغر بكثير من أسلحة العثمانيين، والارتداد يميل إلى إتلاف جدرانهم.

في بداية الحصار، أرسل محمد بعضًا من أمهر قواته لتقليص ما تبقى من معقل البيزنطيين خارج مدينة القسطنطينية، وأطلقت مدافعه الضخمة نيرانها على الجدران لأسابيع، ولكن نظرًا لعدم دقة القصف وتحديد مرماه بعناية، ومعدل إطلاق النار البطيء للغاية، كان البيزنطيون يتمكنون من إصلاح معظم الأضرار بعد كل طلقة، مما خفف من تأثير المدفعية العثمانية حينها⁽⁹¹⁹⁾، ولم يتمكن الأسطول العثماني من دخول القرن الذهبي بسبب السلسلة عبر المدخل.

تمكن أسطول صغير مكون من أربع سفن مسيحية من الدخول للدعم بعد

قتال عنيف، وهذا الأمر قد أصاب السلطان بالحر، وعزز الروح المعنوية لدى البيزنطيين⁽⁹²⁰⁾، وكان الرد على ذلك أن أمر محمد ببناء طريق من جذوع الأشجار المشحونة عبر جالاتا على الجانب الشمالي من القرن الذهبي، وتمكنوا من صنع تل، وسحب سفنه فوق التل مباشرة إلى القرن الذهبي في ٢٢ أبريل، متجاوزًا حاجز السلسلة⁽⁹²¹⁾، هدد هذا الإجراء بشكل خطير تدفق الإمدادات القادمة، وفي ليلة ٢٨ أبريل، جرت محاولة لتدمير السفن العثمانية الموجودة في القرن الذهبي باستخدام سفن النار، لكن العثمانيين أجبروا البيزنطيين على التراجع، ومع فشل هجومهم على السفن العثمانية، اضطر المدافعون إلى تفريق جزء من قواتهم للدفاع عن الأسوار البحرية على طول القرن الذهبي، وبعد هذه الهجمات غير الحاسمة، سعى العثمانيون لاختراق الجدران من خلال بناء أنفاق لتعدينها من منتصف مايو إلى ٢٥ مايو⁽⁹²²⁾، بينما قام مهندس يُدعى "يوهانس غرانت"؛ ألماني جاء مع كتيبة جنوة؛ بحفر ألغام مضادة، مما سمح للقوات البيزنطية بدخول المناجم، واعترض البيزنطيون النفق الأول ليلة ١٦ مايو، وفي ٢١ مايو قام السلطان بإرسال سفير إلى القسطنطينية، وعرض على الإمبراطور رفع الحصار، والمغادرة الآمنة مع ممتلكاتهم إذا استسلموا، واعتراقًا بالإمبراطور كحاكم لليلوبونيز، قابل عرض السلطان عرضًا آخر من الإمبراطور؛ وهو عدم ترك القسطنطينية مقابل دفع جزية أعلى، والاعتراف بوضع جميع القلاع والأراضي المحتلة في أيدي الأتراك على أنها ممتلكات عثمانية، فرفض الطرفان العرضين.

بدأت الاستعدادات العثمانية من أجل التركيز على الهجوم الأخير مساء ٢٦ مايو؛ واستمرت حتى اليوم التالي، ولمدة ٣٦ ساعة متواصلة حشد العثمانيون على نطاق واسع قوتهم البشرية من أجل الهجوم العام⁽⁹²³⁾.

ومع قدوم ليلة ٢٨ مايو؛ أطلق العثمانيون ٥٠٠٠ طلقة من مدافعهم باستخدام ٥٥٠٠٠ رطل من البارود⁽⁹²⁴⁾، وبعد منتصف ليل اليوم التالي، بدأ الهجوم العثماني الواسع؛ من خلال القوات المسيحية التابعة للإمبراطورية العثمانية أولاً، تلتها موجات متتالية من القوات غير النظامية، الذين ركزوا على جزء من الجدران المتضررة في الجزء الشمالي الغربي من المدينة، وتمكنت نخبة التركمان من اختراق هذا الجزء من الجدران ودخلوا المدينة بالفعل، لكن تمكن المدافعون من إرجاعهم بسرعة، حتى جاء دور النخبة الإنكشارية، التي هاجمت أسوار المدينة، وأصيب الجنرال "جيوفاني جوستينياني"، القبطان الجنوبي الذي جاء خصيصًا للدعم؛ بسبب سمعته السابقة في الدفاعات والتحصينات؛ بجروح خطيرة، وخار على الأرض، وأدى إنقاذه وسحبه للداخل إلى حالة من الذعر في صفوف المدافعين⁽⁹²⁵⁾.

لم يتمكن رجال قسطنطين في النهاية من منع العثمانيين من دخول

المدينة، وقد شوهدت الأعلام العثمانية ترفرف فوق الأسوار، وتبع ذلك حالة من الذعر؛ فانهار الدفاع؛ واستغل الإنكشاريون الفرصة وتقدموا إلى الأمام، وهرع العديد من الجنود اليونانيين إلى ديارهم لحماية عائلاتهم، وتراجع الفينيسيون إلى سفنهم؛ وهرب عدد قليل من الجنوة إلى جالاتا، أما الباقون فمنهم من استسلم، ومنهم من انتحر قافراً من على أسوار المدينة⁽⁹²⁶⁾.

سقطت القسطنطينية أخيراً في يد العثمانيين بعد حصار دام شهرين في ٢٩ مايو ١٤٥٣م، وقد شوهد آخر إمبراطور بيزنطي، قسطنطين الحادي عشر باليولج، وهو يلقي بزبه الإمبراطوري؛ ويلقي بنفسه في قتال بالأيدي بعد أن تم الاستيلاء على أسوار المدينة⁽⁹²⁷⁾، حتى توفي.

أدى سقوط القسطنطينية إلى مغادرة سلمية لعدد كبير من علماء وفلاسفة المدينة البيزنطيين، من روم وغيرهم، إلى الدويلات والإمارات والممالك الأوروبية المجاورة، وأغلب هؤلاء حطت به الرحال في إيطاليا؛ حيث لعبوا دوراً في إحياء العلوم والمعارف المختلفة هناك، مما جعل تلك البلاد رائدة عصر النهضة الأوروبية فيما بعد.

٥٥ - نظرة على عموم البلاد الأوروبية (دماء في كل البقاع) شمال أوروبا

في الشمال الإسكندنافية تغير الوضع بشكل واضح، فقد فشل اتحاد السويد والنرويج في الفترة من ١٣١٩ إلى ١٣٦٥م، وتلا ذلك تأسيس اتحاد كالمار في عام ١٣٩٧م⁽⁹²⁸⁾، كان هذا الاتحاد تحت هيمنة الدنماركيين، أما السويديون فكانوا أعضاءً مترددين في الاتحاد، وفي ظل الهيمنة الدنماركية؛ قتل الملك "كريستيان الثاني" ملك الدنمارك أعدادًا كبيرة من الأرستقراطية السويدية في "حمام الدم" في ستوكهولم عام ١٥٢٠م، فتسبب ذلك في نشوب الأعمال العدائية؛ مما أدى إلى انفصال السويد نهائيًا في عام ١٥٢٣م⁽⁹²⁹⁾، ومن ناحية أخرى، أصبحت النرويج حزبًا أدنى من الاتحاد، وظل متحدًا مع الدنمارك حتى عام ١٨١٤م.

أما أيسلندا فكانت بعيدة، وقد أفادتها عزلتها النسبية في النجاة من الطاعون، فأيسلندا كانت آخر دولة إسكندنافية يضربها الموت الأسود، وفي الوقت نفسه، انقرضت مستعمرة الإسكندنافية في جرينلاند، ويرجع العلماء أن سبب الانقراض هو الظروف الجوية القاسية في القرن الخامس عشر، بسبب تأثير العصر الجليدي الصغير⁽⁹³⁰⁾.

شمال غرب أوروبا

في إسكتلندا، أوقعت وفاة ملكها "الإسكندر الثالث" عام ١٢٨٦م البلاد في أزمة خلافة وصراع على الحكم، وتم الاستعانة بالملك الإنجليزي "إدوارد الأول"، كوسيط وحكم في النزاع، لكنه فاجأهم بالسيطرة على إسكتلندا؛ مما أدى إلى حروب الاستقلال الإسكتلندي، هُزم الإنجليز في النهاية، وتمكن الإسكتلنديون من تطوير دولة أقوى تحت حكم أسرة ستيوارت⁽⁹³¹⁾.

أما إنجلترا، فمنذ عام ١٣٣٧م، كان اهتمامها ومجهودها موجهًا إلى حد كبير تجاه الصراع مع فرنسا في حرب المائة عام، وقد أدى انتصار "هنري الخامس" في معركة أجينكورت عام ١٤١٥م، لتمهيد الطريق لفترة وجيزة لتوحيد المملكتين، لكن مع اعتلاء ابنه "هنري السادس" للحكم؛ سرعان ما أهدر جميع المكاسب السابقة⁽⁹³²⁾، وقد أدى فقدان فرنسا إلى استياء في الداخل الإنجليزي، وبعد فترة وجيزة من نهاية الحرب في عام ١٤٥٣م، بدأت صراعات السلالات الحاكمة في حروب الورود (١٤٥٥-١٤٨٥م)، والتي شملت السلالات المتنافسة من آل لانكستر وبيت يورك⁽⁹³³⁾.

بعد ذلك، انتهت الحرب بانضمام "هنري السابع" من آل تيودور، وقرر مواصلة البناء الذي بدأه ملوك يوركسترا، بهدف تأسيس نظام ملكي مركزي

قوي لإنجلترا، وفي ظل الانشغال الإنجليزي؛ أصبح اللوردات النورمان في أيرلندا أكثر اندماجًا في المجتمع الأيرلندي، وسُمح للجزيرة بتطوير استقلال فعلي برغم السيادة والتبعية الإنجليزية⁽⁹³⁴⁾.

أوروبا الغربية

أما فرنسا، فقد كان بيت فالوا الفرنسي، الذي أعقب بيت الكابتن في عام ١٣٢٨م، يُعاني من التهميش في بداية حكمه، أولًا على يد القوات الغازية الإنجليزية في حرب المائة عام؛ ولاحقًا من قبل دوقية بورغوندي القوية، ثم أدى ظهور "جان دارك" كقائدة عسكرية إلى تغيير مسار الحرب لصالح الفرنسيين، وقام الملك "لويس الحادي عشر" بتنفيذ المبادرة⁽⁹³⁵⁾.



جان دارك ترندي درغًا وسط حصار أورليانز. لوحة لجول يوجين لينبفيو

في ذات الوقت، واجه "تشارلز بولد"، دوق بورغندي، مقاومة في محاولاته لتوحيد ممتلكاته، خاصة من الاتحاد السويسري؛ الذي تم تشكيله عام ١٢٩١م، ثم قُتل تشارلز في حروب بورغوندي في معركة نانسي عام ١٤٧٧م، وقد أدى مقتله لانضمام دوقية الدوقية من بورجوندي لفرنسا مرةً أخرى، في ذات الوقت، دخلت مقاطعة بورغوندي وهولندا البورغندية الثرية إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت سيطرة هابسبورغ، مما سيؤدي إلى نشوب صراع لعدة قرون قادمة⁽⁹³⁶⁾.

جنوب غرب أوروبا

أما إيطاليا، فبعد أن كانت أفينيون جنوب شرق فرنسا حاليًا⁽⁹³⁷⁾ هي مقر البابوية من ١٣٠٩ إلى ١٣٧٦⁽⁹³⁸⁾، مع عودة البابا إلى روما عام ١٣٧٨م، تطورت الدولة البابوية في روما إلى قوة علمانية كبرى، وبلغت ذروتها في البابوية الفاسدة أخلاقيا لـ "إسكندر السادس"⁽⁹³⁹⁾، كذلك نمت فلورنسا إلى مكانة بارزة بين دول المدن الإيطالية من خلال الأعمال المالية والاقتصادية، وأصبحت العائلات الثرية هي المهيمنة، كعائلة ميديتشي التي كانت من المروجين المهمين لعصر النهضة؛ من خلال رعايتهم للفنون، كذلك وسعت المدن الأخرى في شمال إيطاليا أراضيها وعززت قوتها، منهم: ميلانو في المقام الأول، والبندقية وجنوة⁽⁹⁴⁰⁾، أما جنوب إيطاليا تحديداً - فقد تم تقسيمه بسبب "حرب صلاة الغروب في صقلية" التي ذكرناها سابقًا، إلى مملكة أراغون في صقلية ومملكة أنجو في نابولي، ومع حلول عام ١٤٤٢، اتحدت المملكتان فعليًا تحت سيطرة أراغون⁽⁹⁴¹⁾.

أما في الأندلس، بعد أن انتهت دولة المرابطين بدأت دولة الموحيدين، وهم سلالة أمازيغية أخرى، وقد تمكنوا من الانتصار بقيادة "أبو يوسف يعقوب المنصور"، على قشتالة بقيادة "ألفونسو الثامن" في معركة الأركوس عام ١١٩٥م، وبعدها بسبعة عشر عامًا، تحالف الملوك المسيحيون مع قشتالة، وتمكن ألفونسو الثامن من هزيمة الموحيدين في معركة لاس نافاس دي تولوسا؛ عام ١٢١٢م، وبرغم الهزيمة تمكن الموحدون من حكم الأندلس لعقد آخر، ولكن بسبب انخفاض هيبتهم وقوتهم اندلعت الحروب الأهلية بعد وفاة "أبو يعقوب يوسف الثاني"، لتظهر طوائف جديدة، ولينفكك التوحيد، وتترصد البرتغال وقشتالة وأراغون لكل إمارة تعلن استقلالها، فيفتكون بها أو يضمونها، وبعد سقوط مورسيا عام ١٢٤٣م، والغارف عام ١٢٤٩م، أصبحت إمارة غرناطة هي الدولة الوحيدة المسلمة في أرض إيبيريا كلها، وأصبحت تحت حكم السلطنة المرينية الأمازيغية المسلمة؛ بينما باقي الأراضي الأندلسية قد تم استردادها فيما يُعرف بالحروب المقدسة، وأدى زواج "إيزابيلا الأولى" ملكة قشتالة، من "فرديناند الثاني" من أراغون عام ١٤٦٩م،

وكذلك وفاة "يوحنا الثاني" ملك أراغون عام ١٤٧٩م، إلى إنشاء إسبانيا الحديثة⁽⁹⁴²⁾، وأنتج هذا الاتحاد فتوى كنسية من البابا "سيكستوس الرابع"، الذي أقنع الملك والملكة بإعلان حربهما كحملة صليبية مقدسة، وسحق الملوك الكاثوليك مراكز المقاومة الاسلامية، وبعد حصار طويل؛ تمكنوا في ٢ يناير من عام ١٤٩٢م من اجتياح غرناطة، واستسلم آخر سلطان للإمارة "أبو عبد الله محمد الثاني عشر" المعروف في أوروبا باسم عبديل، أمام الملكة إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة⁽⁹⁴³⁾، تبع ذلك محاكم التفتيش؛ التي كان من شأنها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم؛ للقضاء على الإسلام في الأندلس المُحل، وانتهاء فترة الاسترداد المسيحي بشكل تام؛ لينتهي الأندلس للأبد.

أوروبا الوسطى

القرن الرابع عشر هو القرن الذهبي لبوهيميا، حيث أصبح ملك بوهيميا في المرتبة الأولى بين الناخبين الإمبراطوريين للإمبراطورية الرومانية المقدسة، لكن في ظل هذا الازدهار نشبت ثورة داخلية سُميت بثورة هوسيت، أوقعت البلاد في أزمة، على إثر ذلك، انتقلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى آل هابسبورغ في عام ١٤٣٨م، حيث بقيت حتى حلها في عام ١٨٠٦م⁽⁹⁴⁴⁾، وعلى الرغم من مساحة الأراضي الواسعة التي كانت تحت سيطرة آل هابسبورغ؛ ظلت الإمبراطورية المقدسة نفسها مجزأة، ومكونة من الإمارات الفردية، وأصبحت تحت سيطرة المؤسسات المالية، مثل: الرابطة الهانزية، وعائلة فوجر، التي كانت تتمتع بسلطة كبيرة بسبب وضعهم المالي والاقتصادي⁽⁹⁴⁵⁾.

أما مملكة المجر، فقد عاشت عصرًا ذهبيًا خلال القرن الرابع عشر، وقد انتعشت اقتصاديًا؛ بسبب أنها كانت المورد الأوروبي الرئيسي للذهب والفضة، وقاد "لويس العظيم" حملات ناجحة من ليتوانيا إلى جنوب إيطاليا؛ ومن بولندا إلى شمال اليونان، ثم تحول انتباهه إلى شرق بولندا، حيث أنشأ الكومنولث مع ليتوانيا؛ كيانًا هائلًا في المنطقة، ويعتبر الاتحاد مع ليتوانيا وتحولها بمثابة نهاية للوثنية في أوروبا كلها⁽⁹⁴⁶⁾.

وبعد وفاة لويس عام ١٣٨٢م دون وريث، اشتعلت حربًا داخلية، حقق فيها "سيغيسموند" في النهاية سيطرة كاملة على المجر، وأسس محكمته في بودا وفيسغراد، وورث سيغيسموند عرش بوهيميا والإمبراطورية الرومانية المقدسة نفسها، واستمر في إدارة الإمبراطورية من المجر، لكنه انشغل في محاربة ناحيتين - الناحية الأولى: هوسيتس، تلك الحركة المسيحية البروتستانتية التشيكية التي اتبعت تعاليم المصلح "يان هوس"، الذي أصبح أشهر ممثل للإصلاح البوهيمي - الناحية الثانية: الإمبراطورية العثمانية، التي أصبحت الخطر الأكبر على أوروبا كلها دون مبالغة.

وعندما جاء حكم الملك "ماتياس كورفينوس" على المجر، قرر تجميع أكبر جيش من المرتزقة، سُمي بالجيش الأسود للمجر، من أجل تنفيذ غزو واسع لبوهيميا، والنمسا، وكذلك صد الإمبراطورية العثمانية، لكنه لم ينجح في ذلك، وتعتبر المجر ثاني دولة أوروبية ظهر فيها عصر النهضة بعد إيطاليا⁽⁹⁴⁷⁾، قبل أن ينتهي مجد المملكة في أوائل القرن السادس عشر، عندما قُتل الملك "لويس الثاني" ملك المجر في معركة موهاج عام ١٥٢٦ على يد الإمبراطورية العثمانية، وتم غزو العثمانيين للمجر، لكي ينتهي عصر ازدهارها خلال حقبة القرون الوسطى.

أوروبا الشرقية

أما في أرض روس، فقد سقطت دولة كيف روس للمرة الأخيرة خلال القرن الثالث عشر على يد الغزو المغولي كما ذكرنا، وعلى إثر ذلك، صعدت دوقية موسكو الكبرى، وحققت انتصارًا عظيمًا على القبيلة الذهبية في معركة كوليكوفو عام ١٣٨٠م، وبرغم الانتصار لم ينته حكم التتار في المنطقة، وكان المستفيد المباشر من هذا الانتصار؛ هو دوقية ليتوانيا الكبرى التي بسطت نفوذها شرقًا، ومع الوصول لعهد "إيفان الكبير" (١٤٦٢-١٥٠٥م)، أصبحت موسكو قوة إقليمية رئيسية، وأرسي ضم جمهورية نوفغورود الشاسعة عام ١٤٧٨م أسس دولة وطنية روسية⁽⁹⁴⁸⁾، وبعد سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين، بدأ الأمراء الروس يدعون بأنهم ورثة الإمبراطورية البيزنطية، وبالفعل أخذوا في النهاية اللقب الإمبراطوري للقيصر، ووصفت موسكو نفسها بأنها روما الثالثة⁽⁹⁴⁹⁾.

جنوب شرق أوروبا

كانت بلغاريا في حالة تدهور بحلول القرن الرابع عشر، وقد انكسرت شوكة إمبراطوريتها الثانية، بعد النصر الصربي عليهم في معركة فيلبزد في عام ١٣٣٠م، وبحلول عام ١٣٤٦م، تم إعلان الملك الصربي "ستيفان دوسان" إمبراطورًا⁽⁹⁵⁰⁾.

أما صربيا، فبرغم الانتصار لم تدم الهيمنة الصربية طويلًا، فقد هُزم الجيش الصربي على يد الجيش العثماني في معركة كوسوفو عام ١٣٨٩م، وقُتل معظم النبلاء الصرب، وأصبح جنوب البلاد خاضعًا للحكم العثماني، كما هو الحال في معظم جنوب بلغاريا، بعد معركة ماريتسا ١٣٧١م، وتم غزو بقايا بلغاريا الشمالية أخيرًا بحلول عام ١٣٩٦م، على التوالي، سقطت صربيا عام ١٤٥٩م، والبوسنة عام ١٤٦٣م، وأصبحت ألبانيا أخيرًا في عام ١٤٧٩م بعد سنوات قليلة فقط من وفاة "سكاندرج" هي الأخرى تحت الحكم العثماني، أما بلغراد، التي كانت منطقة مجرية في ذلك الوقت، كانت آخر مدينة بلقانية كبيرة تقع تحت الحكم العثماني، في حصار بلغراد عام ١٥٢١م، وبحلول نهاية

فترة العصور الوسطى، تم ضم شبه جزيرة البلقان بأكملها تقريبًا للحكم
العثماني، كما ذكرنا من قبل [\(951\)](#).

بهذا الشكل انتهت عصور أوروبا الوسطى، وقبل الانتقال لما بعد ذلك، دعنا
نلقي نظرة أقرب على أحوال سكانها أثناء هذه القرون...

الفصل الخامس

الحياة في العصور الوسطى

٥٦ - العصور الوسطى المبكرة

(جوانب حياة الفرد والمجتمع) اتسمت الحياة في العصور الوسطى المبكرة بعدة سمات مختلفة خاصة به، دينياً وثقافياً ولغوياً واقتصادياً وعلمياً وأدبياً... إلخ، ومن أهم هذه السمات: الإقطاعية

النظام الإقطاعي هو ملكية الأفراد من الطبقة الإقطاعية للأراضي التي تُشكل الوسائل الإنتاجية للمجتمع، ومن أجل عملية الإنتاج يتطلب الأمر استغلال الفلاحين الذين يعانون من الفقر للعمل الإقطاعي في الأرض، كما حدّد هذا النظام نوعية طبقات الأفراد في المجتمع؛ ممّا أدّى إلى ظهور مصطلح المُجتمع الإقطاعي.

في أوروبا نشأ النظام الإقطاعي مع الغزو الجرمني سابق الذكر؛ لأن القوة وقتها كانت قوة الخيالة الفرسان، بسبب أن الجرمان كانت خبرتهم في الزراعة قبل الغزو قليلة، لكن بسبب أن الرومان أنفسهم كانوا أهل مدن ومشاة عسكريين؛ وخبرتهم في الزراعة قليلة أيضاً؛ اقترح بعض الباحثين أن الإقطاعية نظام روماني لا جرمني، ونتج عن ذلك ظهور مدرستين لدراسة النظام الإقطاعي، وهما: المدرسة الرومانية والمدرسة الجرمانية⁽⁹⁵²⁾.

ومن أشهر أمثلة العصور الوسطى الإقطاعية؛ حينما قال ملك إنجلترا "ألفريد العظيم" مقولته الشهيرة في القرن التاسع: "الله خلق العالم على شكل مثلث، ضلع يحكم، وضلع يصلي، وضلع يخدم الضلعين الآخرين"، لتوضح أمامنا هذه المقولة رؤية الحكام للإقطاعية، ونشأة هذا التسلسل الهرمي للالتزامات المتبادلة.

كان كل رجل ملزماً بخدمة رئيسه مقابل حمايته، وقد أدى هذا إلى ارتباك السيادة الإقليمية؛ لأن الولاءات كانت عُرضة للتغيير بمرور الوقت، وكانت أحياناً متناقضة بشكل متبادل، وترتب على ذلك انخفاض حجم التجارة على طول طرق المسافات الطويلة وفي مدن السوق خلال هذه الفترة، على

الرغم من عدم توقفها تمامًا؛ تداعت الطرق الرومانية واعتمدت التجارة لمسافات طويلة بشكل أكبر على النقل المائي.
الكنيسة الإقطاعية

أما رجال الدين في الغرب الأوروبي، ففي أول الأمر كانت حياتهم بسيطة في ظل الوثنية؛ ولكن في القرن الرابع الميلادي تحولت الإمبراطورية إلى المسيحية، وحرص الملوك على إعطاء الأراضي؛ أو ما عُرف بالأراضي الموقوفة للإنفاق على المساكن والأمراء لصالح الكنيسة؛ فازداد ثراء رجال الكنيسة، وتحول الأساقفة إلى رتبة "أمراء أكليروس"، حيث يكون الأمير رجل دين بدون أن يرتدي ملابس رجال الدين.

بسبب النظام الإقطاعي كانت كنيسة أوائل العصور الوسطى تتكون أساسًا من الأديرة⁽⁹⁵³⁾، فممارسة السيمونية تسببت في أن تصبح المكاتب الكنسية ملكًا للأمراء المحليين، لكن ما هي السيمونية؟
السيمونية (الشرطونية) الهرطقة

كانت الديانات الأولى للشعوب الجرمانية والبربرية هي الوثنية، ولكن لم يمل الآريون من نشر المسيحية الآريونية، حتى وصلت إلى شمال أوروبا، ومع حلول بداية القرن الثامن يمكننا أن نقول إن الدين السائد في أوروبا الشمالية ينقسم إلى ثلاثة أشكال، مسيحية آريوسية - وثنية جرمانية - وثنية مسيحية⁽⁹⁵⁴⁾.

في غضون ذلك تسلل للمنطقة السيمونية، وهي طريقة ابتدعها سيمون الساحر "سمعان المجوسي"، وهي عبارة عن بيع الدرجة الكهنوتية لمن يدفع رشوة أكبر دون استحقاق ديني، وهو المذكور في سفر أعمال الرسل⁽⁹⁵⁵⁾⁽⁹⁵⁶⁾، لقد اشمزت الكنيسة من هذا الفعل، وأدركت بشاعة وشناعة هذه الخبيثة، وأطلقت اسم السيمونية على كل من يتاجر في الوظائف الكنسية⁽⁹⁵⁷⁾.

أطلق على أتباع سيمون اسم السيمونية، نظرًا لضلالتهم واعتقادهم بأن سيمون هو مسيحهم الفادي، وهم شعبة صغيرة من شيع الغنوسيين، ولم تعتبرهم الكنيسة مسيحيين؛ لأنهم يعتبرون سيمون مظهر قوة الله، وقيل إن سيمون هذا هو أبو الغنوسيين، ولكن أصل ومصدر الهرطقة الغنوسية غير معروف تمامًا، فقد يكون الربط بين سيمون الساحر السامري مع فكرة الغنوسية أمرًا غير سليم⁽⁹⁵⁸⁾.

ورجوعًا لأوروبا فسنجد أن السيمونية كانت على هوى الكثير، وبدأت المسيحية الكاثوليكية بالكاد بالانتشار في شمال أوروبا بحلول هذا الوقت، ولكن على الطريقة السيمونية، حيث قام الأمراء المحليون ببيع المناصب الكنسية بالمزاد العلني، من يدفع أكثر يُكرم بمنصب كهنوتي، مما جعل الكهنة

والأساقفة يعملون كما لو كانوا من النبلاء الآخرين تحت رعاية الأمير⁽⁹⁵⁹⁾، وظهر بعد ذلك، بيع صكوك الغفران التي بحسب المعتقدات الدينية الكاثوليكية هي الإعفاء الكامل أو الجزئي من العقاب الدنيوي على الخطايا التي تم الصفح عنها، وأصبح الدين أداة للتحكم في الناس بشكل خاطئ. في المقابل، نشأت شبكة من الأديرة عندما سعى الرهبان للانفصال عن العالم، وظلت هذه الأديرة مستقلة عن الأمراء المحليين، وبالتالي شكلت "الكنيسة" لمعظم الأوروبيين الشماليين خلال هذا الوقت؛ نظرًا لكونهم مستقلين عن الأمراء المحليين، فقد برزوا بشكل متزايد كمراكز تعليمية ومنح دراسية وكمراكز دينية، حيث يمكن للأفراد تلقي المساعدة الروحية أو المالية⁽⁹⁶⁰⁾.

وفي نفس الأثناء بدأ الأنجلو ساكسون في إنجلترا أيضًا التحول من تعدد الآلهة الأنجلو ساكسوني بعد وصول المبشرين المسيحيين في 597م، وعلى هذا النحو شكلت الأديرة المؤسسة الكنسية الوحيدة المستقلة عن الأمراء المحليين، بالإضافة إلى ذلك، كانت البابوية ضعيفة نسبيًا، وكانت قوتها محصورة في الغالب في وسط إيطاليا⁽⁹⁶¹⁾، وكانت الممارسة الدينية الفردية غير شائعة؛ لأنها تتطلب عادةً عضوية في نظام ديني، بالإضافة إلى أن الأوامر الدينية لم تنتشر حتى العصور الوسطى، أما المسيحي المتدين بحق في هذا الوقت كانت مشاركته الدينية محصورة إلى حد كبير في تلقي القداس من حين لآخر من الرهبان المتجولين في الشارع وخارج الكنيسة فقط، والمحفوظ هو الذي يحصل على هذا القداس أكثر من مرة في الشهر⁽⁹⁶²⁾، وبحلول نهاية هذه الفترة، أصبحت الممارسة الفردية للدين أكثر شيوعًا، حيث بدأت الأديرة في التحول إلى شيء يشبه الكنائس الحديثة، وفيها يُلقى الرهبان خطبًا من حين لآخر.

وطوال فترة العصور الوسطى المبكرة اتسع الانقسام بين المسيحية الشرقية والغربية، وفي الإمبراطورية الغربية توسعت سلطة أسقف روما، وتم استخدام لقب بابا لأول مرة في عام 607م، للأسقف "بونيفاس الثالث"، وعندما جاء البابا "غريغوري الأول" استخدم مكتبه كقوة زمنية سلطوية، ووسع جهود روما التبشيرية لتشمل الجزر البريطانية، وأرسى الأسس لتوسيع الرهبنة، ومن ثم حلت تقاليد الكنيسة الرومانية وممارساتها تدريجيًا محل المتغيرات المحلية، بما في ذلك المسيحية السلطية في الجزر البريطانية، أما الجرمان الأوائل فكانوا وثنيين تمامًا كما ذكرت، ولم يكونوا أبدًا جزءًا من الإمبراطورية المسيحية، حتى اندمج أحفادهم فيما بعد في العالم المسيحي⁽⁹⁶³⁾.

الأديرة

عندما غزا الفايكنج سواحل شمال أوروبا؛ استهدفوا الأديرة ودمروا الكثير منها، لم يكن السبب في المقام الأول هو الانتقام الديني أو تدمير الكتب لانتقام ثقافي؛ ولكن لأنها أيضًا كانت تحتوي على مقتنيات ثمينة، أما في الشرق البيزنطي - حصلت الأديرة ومكتباتها على تبرعات من مانحين أثرياء، وبحلول القرن التاسع، كان هناك فهرس يضم ٦٦٦ مخطوطة، بما في ذلك الأعمال الدينية والنصوص الكلاسيكية والتاريخ والأطروحات الرياضية⁽⁹⁶⁴⁾، وفي القرن العاشر، تم العثور على أكبر مكتبة في العالم البيزنطي في أديرة جبل آتوس (اليونان الحديثة)، والتي جمعت أكثر من ١٠٠٠٠ كتاب.

العلم

في الغرب - مع بداية العصور الوسطى ونهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية وتدهور المراكز الحضرية، انخفض التعليم والتعلم بشكل مقلق، كان الكثير من التعلم في عهد الإمبراطورية الرومانية باليونانية، ومع ظهور الانفصال بين الشرق والغرب، أصبح قليلون في الغرب يمكنهم التحدث أو القراءة باللغة اليونانية، وبسبب الإزاحة الديموغرافية التي صاحبت نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية، كان معظم الأوروبيين الغربيين في هذه المرحلة منحدرين من البرابرة الأميين بدلًا من الرومان المتعلمين، وبرغم قساوة الحدث، لم ينقرض التعليم تمامًا من الغرب، لكنه استمر في النهاية متاحًا فقط في الأديرة والكاتدرائيات، حتى ظهرت "نهضة" التعليم الكلاسيكي في الإمبراطورية الكارولنجية في القرن الثامن⁽⁹⁶⁵⁾، وبحلول القرن السادس زاد التدريس والتعلم في مدارس الرهبنة والكاتدرائية، وأضافوا عليه دراسة النصوص التوراتية⁽⁹⁶⁶⁾، وبشكل محدود استمر تعليم العلمانيين مع انقطاع بسيط في إيطاليا وإسبانيا والجزء الجنوبي من بلاد الغال، حيث كانت التأثيرات الرومانية طويلة الأمد، وفي القرن السابع، توسع التعلم في أيرلندا والأراضي السلتية، حيث كانت اللاتينية لغة أجنبية ودُرست النصوص اللاتينية بشغف⁽⁹⁶⁷⁾.

عصر النهضة الكارولنجية

مع الوصول لعصر الإمبراطورية الكارولنجية تغير الأمر، وكأنك قذفت حجرًا في ماءٍ راكد، فبعد مرحلة تخلف وتخبط وهرطقة وتجارة بالدين وانحطاط فكري وثقافي، حدثت طفرة نوعية في أواخر القرن الثامن، وظهر من جديد الاهتمام بالآثار الكلاسيكية كجزء من عصر النهضة الكارولنجية، وقاد "شارلمان" إصلاحًا في التعليم، ثم وضع الراهب الإنجليزي "ألكوين من يورك" مشروعًا للتطوير العلمي، كان هدفه إحياء المعرفة الكلاسيكية، ومنذ عام ٧٨٧م فصاعدًا، بدأ تعميم المراسيم التي توصي بترميم المدارس القديمة؛ وإنشاء مدارس جديدة في جميع أنحاء الإمبراطورية الكارولنجية، وكانت هذه

المدارس الجديدة إما تحت مسؤولية الدير باعتبارها مدارس رهبانية، أو كاتدرائية، أو محكمة نبيلة، وعندما سيأتي القرنان الثاني عشر والثالث عشر، ستصبح العديد من هذه المدارس التي تأسست تحت رعاية شارلمان؛ وخاصة مدارس الكاتدرائية؛ جامعات.

الشرق المسيحي

أما في الشرق - تم الحفاظ على التعلم، وأصبح مستواه أعلى مما هو عليه في الغرب، وتم التأكيد على نظام التعليم الكلاسيكي، الذي اعتمد لمئات السنين على قواعد اللغة اليونانية والبلاغة، وبحلول القرن الرابع، تم تنصيب هذا النظام التعليمي، وأوضح "أوغسطين" كيف يتناسب التعليم الكلاسيكي مع النظرة المسيحية للعالم: (المسيحية هي دين الكتاب، لذلك يجب أن يكون المسيحيون متعلمين)، بينما كان "ترتليان" الملقب بوالد المسيحية اللاتينية، ومؤسس اللاهوت الغربي، أكثر تشككًا في قيمة التعلم الكلاسيكي، متسائلًا: "ما علاقة أئينا بالفعل بالقدس؟" (968).

بيزنطة وعصرها الذهبي

لا شك أن قانون جوستينيان هو من أهم الأعمال الفكرية البيزنطية طوال التاريخ البيزنطي، وقد تضمن العمل قسمًا يلخص مبادئ القانون الروماني بطريقة يمكن تطبيقها على أي موقف، وفي الشرق البيزنطي كان مستوى معرفة القراءة والكتابة أعلى بكثير عن الغرب اللاتيني، وكان التعليم منتشرًا بسهولة، لدرجة أن التعليم الابتدائي كان متاحًا على نطاق أوسع، وأحيانًا في الريف، والمدارس الثانوية كانت لا تزال تدرس الإلياذة وغيرها من الكلاسيكيات، أما بالنسبة للتعليم العالي، فقد تم إغلاق الأكاديمية الأفلاطونية المحدثة في أئينا عام 526، كانت هناك أيضًا مدرسة في الإسكندرية ظلت مفتوحة حتى الفتح الإسلامي لمصر عام 640، وتحت حكم السلالة المقدونية تمتعت بيزنطة بعصر ذهبي وإحياء للتعلم الكلاسيكي، لكن انحدر بشكل كبير البحث الأصلي، واقتصر العلم على دراسة المعاجم والمختارات والموسوعات والتعليقات.

العلوم

استند التدريس الفلسفي والعلمي في العصور الوسطى المبكرة؛ إلى عدد قليل من النسخ والتعليقات للنصوص اليونانية القديمة؛ التي ظلت في أوروبا الغربية بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية، وتمت دراسة معظمهم باللغة اللاتينية فقط؛ لأن معرفة اللغة اليونانية كانت محدودة للغاية كما ذكرنا، وترتب على ذلك؛ توقف البحث العلمي منذ انتهاء الجانب الهلنستي من الإمبراطورية الرومانية، وحققت المحاولات الرومانية المتأخرة لترجمة الكتابات اليونانية إلى اللاتينية نجاحًا محدودًا، لكنه لا يُذكر (969).

مع تراجع المعرفة اليونانية، وجد الغرب اللاتيني نفسه مقطوعًا عن بعض

جذوره الفلسفية والعلمية اليونانية، وتمت متابعة دراسة الطبيعة لأسباب عملية أكثر من كونها علمية، فعلى سبيل المثال: أدت الحاجة إلى رعاية المرضى إلى دراسة الطب والنصوص القديمة التي تمكنهم من الدواء، وكذلك أدت حاجة الرهبان إلى تحديد الوقت المناسب للصلاة إلى دراسة حركة النجوم ومعرفة أوقات اليوم⁽⁹⁷⁰⁾، وأيضًا حاجتهم إلى حساب تاريخ عيد الفصح؛ دفعتهم إلى دراسة وتعليم الرياضيات وحركات الشمس والقمر⁽⁹⁷¹⁾، مما يعني أنهم كانوا مجبرين غير مبدعين.

وقد دفعهم كل هذا لاستيراد غالبية هذه العلوم أو ترجماتها من العرب ومسلمي الأندلس وصقلية، حيث أثر العالم الإسلامي على جوانب عديدة من الثقافة الأوروبية في العصور الوسطى وصولًا لعصر النهضة، من خلال الابتكارات الأصلية التي تم إجراؤها خلال العصر الذهبي الإسلامي، بما في ذلك مختلف المجالات مثل الفلسفات والعلوم والفنون والطب والزراعة والكيمياء والموسيقى والفخار... إلخ، وسنذكر ذلك لاحقًا بالتفصيل.

٥٧ - العصور الوسطى العالية (جوانب حياة الفرد والمجتمع)

الاقتصاد والتجارة

صاحَبَ زمنَ العصور الوسطى العالية طقس دافئ بشكل استثنائي، فيما يُعرف بـ "الحقبة القروسطية الدافئة"، وتحديدًا الفترة من منتصف القرن العاشر إلى بداية القرن الرابع عشر، هذه الفترة اللطيفة مكنت المزارعين من زراعة القمح شمالًا إلى الدول الإسكندنافية، وكذلك عنب النبيذ في شمال إنجلترا، وخلال هذا الوقت؛ أدى ارتفاع الطلب على النبيذ والحجم الثابت لاستهلاك الكحول إلى إحداث ثورة وطفرة في زراعة الكروم⁽⁹⁷²⁾⁽⁹⁷³⁾، وبسبب هذه الزراعات وتفادي المجاعات زاد عدد سكان أوروبا، وبشكل واضح ساهمت هذه الزيادة السكانية في تأسيس مدن جديدة، وزيادة النشاط الصناعي والاقتصادي، وبجانب ازدهار تجارة الكحول؛ زاد إنتاج الغذاء أيضًا خلال هذا الوقت مع إدخال طرق جديدة للزراعة؛ التي جاءت من الثورة الزراعية العربية الكبرى، بما في ذلك استخدام المحراث الأثقل، وكذلك الخيول بدلًا من الثيران.

في شمال أوروبا، تأسست الرابطة الهانزية في القرن الثاني عشر، وهي اتحاد للمدن الحرة لتعزيز التجارة عن طريق البحر، بدءًا من تأسيس مدينة لوبيك، التي سيطرت لاحقًا على الاتحاد، وفي أعوام 1108-1109م؛ أصبحت العديد من المدن الشمالية للإمبراطورية الرومانية المقدسة مدن هانزية، بما في ذلك أمستردام وكولونيا وبريمن وهانوفر وبرلين، كان هناك مدن هانزية أخرى خارج الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ ووصل مجموع الكل إلى مدينة ٨٠، وفي هذه الفترة بدأ الألمان في استعمار أوروبا خارج الإمبراطورية، في بروسيا وسيليزيا.

في أواخر القرن الثالث عشر، أصبح مستكشف البندقية المسمى "ماركو بولو" من أوائل الأوروبيين الذين يسافرون على طريق الحرير إلى الصين، وأصبح الغربيون أكثر وعيًا بالشرق الأقصى عندما وثق بولو رحلاته، ثم تبعه العديد من المبشرين المسيحيين إلى الشرق.

العسكرية والجيوش

خلال العصور الوسطى العالية، بدأت فكرة المحارب المسيحي تتغير مع تزايد بروز المسيحية في أوروبا، وصعدت الفروسية وازدهرت، ونشأت قوانين الفروسية للتعريف بالفارس المثالي، وحثته أن يكون مُخلصًا للمسيحية، ومن ناحية أخرى شرسًا ضد من يهددون إخوانه الضعفاء⁽⁹⁷⁴⁾، أصبح سلاح الفرسان الثقيل شائعًا في القرن الحادي عشر في جميع أنحاء

أوروبا، وتم اختراع البطولات والمسابقات، وفي القرن الثاني عشر، روج رهبان مدينة كلوني (بفرنسا حاليًا) للحرب الأخلاقية، وأنشأوا وسام الفروسية، وبمقتضى ذلك ظهر "فرسان الهيكل" وغيرهم، وتم إنشاء ألقاب النبيل الموروثة خلال هذه الفترة، وفي القرن الثالث العاشر، أصبح لقب الفروسية لقبًا آخر قابلاً للتوريث في ألمانيا؛ لكونه رمزًا للنبيل والشهامة، وبهذا الشكل انتشر في بلدان أخرى، وعلى إثر ذلك، ظهرت جماعات الفرسان المسيحية المتعددة.

الدين

نفى البابا "ليو التاسع" والبطيريك "ميخائيل الأول" بعضهما البعض، خاصة بسبب الخلافات حول استخدام الخبز الفطير في الليتورجيا وأيام الصيام، ووجود سلطة بابوية على الآباء الشرقيين الأربعة، وكذلك الخلاف حول التبعية، كانت هذه من أهم الأسباب الظاهرية التي تسببت في الانشقاق والانقسام بين الشرق والغرب عام ١٠٥٤م، أما الأسباب الأكثر عمقًا فقد ذكرناها في سير الأحداث.

وتعتبر هذه الفترة، وتحديدًا من أواخر القرن الحادي عشر، وأوائل منتصف القرن الثاني عشر، هي ذروة العصر الذهبي للرهنة المسيحية، فظهر النظام البينديكتيني – (الرهبان ذوو الرداء الأسود)، وهو نظام ديني رهباني للكنيسة الكاثوليكية في أعقاب حكم القديس "بندكت"، ويُطلق عليهم أحيانًا اسم الرهبان السود، في إشارة إلى لون عاداتهم الدينية، وكذلك النظام السيسترتسي – (رهبان يرتدون ملابس بيضاء)، وهم طائفة دينية كاثوليكية من الرهبان والراهبات تشعبت من البينديكتين وتتبع حكم القديس بندكت، بالإضافة إلى مساهمات القديس "برنارد من كليرفو" شديد التأثير، (مؤسس فرسان الهيكل).

وفي سياق الحروب الصليبية، تم إنشاء أوامر عسكرية رهبانية أصبحت نموذجًا لأوامر الفروسية في العصور الوسطى العالية، وستصبح كذلك في العصور الوسطى المتأخرة، وكان فرسان الهيكل أهم نموذجًا لذلك، قبل أن يتم حل التنظيم في عام ١٣٠٧م، واتهامه بالهرطقة، كنهاية لتهديدهم للكيان الكنسي بإنشاء دولة مستقلة بهم.

أما فرسان الإيستارية فقد تحولت من تقديم الرعاية للمرضى إلى منظمة دينية عسكرية، برعاية الكنيسة والدول الصليبية.

الفرسان التوتونيون كذلك، أصبحوا منظمة دينية عسكرية، وكان لهم أدوار صليبية في أوروبا نفسها، كغزوهم لبروسيا الوثنية بقصد إضفاء الطابع المسيحي على منطقة البلطيق، ومع ذلك، قبل وبعد تحول ليتوانيا الخصم الوثني الرئيسي للرهنة إلى المسيحية، هاجمت المنظمة بالفعل دولًا مسيحية أخرى مثل نوفغورود وبولندا، وشاركوا في عشرة حروب صليبية في المجموع، مما يُبرز تناقض البابا؛ وبوضوح أن أغراض الكنيسة كانت سلطوية

سياسية لا تبت للدين بصلة، وأن البابا كان يُنصب نفسه وكأنه من السماء. وكذلك ظهر ما يُسمى بـ "أوامر التسول"، وهي تُشير إلى بعض الطوائف الدينية المسيحية التي تبنت أسلوب حياة من الفقر والسفر والعيش في المناطق الحضرية؛ في سبيل أغراض الوعظ والتبشير والخدمة، وخاصة تجاه الفقراء، وكانت هذه الأوامر جديدة من نوعها؛ حيث رفضت النموذج الرهباني المعمول به سابقًا، وحدد هذا النموذج العيش في مجتمع واحد مستقر ومعزول؛ حيث يعمل الأعضاء في تجارة وممتلكات مشتركة، بما في ذلك الأراضي والمباني وغيرها من الثروات، على النقيض من ذلك؛ تجنب المتسولون امتلاك العقارات على الإطلاق، وغالبًا ما كانوا متجولين، ومن أشهر هذه الأوامر:

الفرنسيسكان (الإخوة الأصاغر، المعروفون باسم الرهبان الرماديين)، عام ١٢٠٩م.

الكرمليون (ناسك السيدة العذراء مريم من الكرمل، المعروفون باسم الرهبان البيض)، والتي تأسست في ١٢٠٦-١٢١٤م.

الدومينيكان (رتبة الواعظين، المعروفة باسم الرهبان السود)، والتي تأسست عام ١٢١٥.

حركات هرطقة

الهرطقة أو البدع الدينية؛ انتشرت في أوروبا قبل القرن الحادي عشر؛ ولكن بشكل محدود وبأعداد صغيرة ومحلية، على شكل كاهن مارق أو متمرّد، أو قرية ارتدت وعادت تمارس التقاليد الوثنية، لا أكثر من ذلك، لكن مع بداية القرن الحادي عشر، ظهرت حركات هرطقة جماهيرية، ربما يعود ذلك إلى ظهور المدن الحضرية، أو التجار الأحرار، أو الاقتصاد الجديد القائم على المال، وقد نشأت أولى الحركات الهرطقية واسعة النطاق في أوروبا الغربية في المناطق المتحضرة حديثًا؛ مثل جنوب فرنسا وشمال إيطاليا، وربما تأثرت بالطائفة المسيحية بوغوميل، التي نشرت أفكارًا جديدة تدعو إلى العودة إلى ما اعتبروه تعليمًا روحيًا مبكرًا، رافضين التسلسل الهرمي الكنسي، وقد انتشرت بسرعة في البلقان، وتوسعت تدريجيًا في جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية؛ ووصلت لاحقًا إلى كييف روس، والبوسنة، ودالماتيا، وصربيا، وإيطاليا، وفرنسا.

كان هناك حركات ثنائية أخرى، تؤمن بعلم الكونيات الثنائي، وهو الاعتقاد الأخلاقي أو الروحي بوجود مفهومين أساسيين، غالبًا ما يعارض كل منهما الآخر، وكانت الازدواجية الأخلاقية في نظرهم هي الإيمان بالمكمل العظيم، وهذه الحركات الثنائية كانت تعتقد أن الأحداث التاريخية كانت نتيجة الصراع بين قوة جيدة وقوة شريرة؛ وأن الشر يحكم العالم، على الرغم من أنه يمكن السيطرة عليه أو هزيمته من خلال الزهد والأعمال الصالحة.

وانتشرت هذه الحركات بقوة حينما كانت أوروبا، لاسيما الغربية، مسيحية

أورثوذكسية خلال القرون الوسطى بالاسم فقط، على إثر ذلك؛ قامت هذه الحركات بالتشكيك بالتعاليم الكنسية، ووصفت الكنيسة أنها لا تعمل وفق الكلمة، وهاجموا جميعهم بيع صكوك الغفران، وممارسات عبادة القديسين الشائعة في ذلك الوقت، وقرروا التمرد على تجاوزات الكنيسة، وإنشاء نسخة خاصة بهم من المسيحية، وكلها كانت عقائد متأثرة بالمانوية الفارسية والغنوصية اليونانية، والمسيحية.

تم إدانة هذه الحركات، ووصفها بالهرطقة، ولاحقًا تم سحقها بقسوة ووحشية من قبل الكنيسة الكاثوليكية القروسطية؛ لكي تحافظ على قوتها وسلطتها، وكان هناك العشرات من الحركات، لكن أبرزهم ٦ حركات: الكاثارية - البليكانية - البوغوميلية - اللولارديّة - الهوسيون - الوالدينسية.

وتُعتبر طائفة الوالدينسية (الوالدان) من رواد الإصلاح البروتستانتي في الأحداث القادمة، وقد انصهروا في البروتستانتية مع ظهور الإصلاح؛ وأصبحوا جزءًا من التقليد الإصلاحي الأوسع؛ بعد أن أثبتت آراء "جون كالفن" وخلفائه اللاهوتيين في جنيف أنها مشابهة جدًا لفكرهم اللاهوتي، وللعلم، لا تزال الكنائس الوالدانية موجودة في عدة قارات.

انتشرت الهرطقة في هذا الزمان على نطاق لم تشهده الكنيسة الكاثوليكية من قبل؛ كان الرد بالنسبة للبعض هو القبول والاندماج: كما حدث مع تبجيل القديس "فرنسيس الأسيزي" مؤسس الفرنسيسكان، أو الإقصاء والقمع: كما حدث مع حركة الكاثار، وغالبًا ما كان هذا القمع على شكل ذبح جماعي لمجموعات بشرية لا علاقة لها بالهرطقة، كنتيجة لإصرار الكنيسة على أنها السلطة الروحية؛ والممثل الوحيد للإله على الأرض، وبالتالي استمرت تُرهب الناس بتفسيرها الخاص لمفهومي "الجحيم" و"المطهر"⁽⁹⁷⁵⁾.

كان الشخص المُتهم بالهرطقة يُعامل مثلما يُعامل الشخص المصاب بمرض مُعدٍ، يتم عزله تمامًا حتى لا يصيب الناس بعدوى أفكاره، خاصة بعد فشل المبشرين في محاولة رده وهديه أو هديانه، ولكن بعد وقت قصير أثبت أن المهترطقين يتغلبون على الإكليروس الكنسي في المحاورّة والجدال، لذا اتخذت الكنيسة لاحقًا إجراءات أكثر حزمًا وصرامة أدت إلى كوارث وخراب، مثل حملة ألين الصليبية (١٢٠٩-١٢٢٩م)، وكذلك البشاعة التي نفذتها محاكم التفتيش القروسطية⁽⁹⁷⁶⁾.

وكانت الفوضى الدينية بهذا الشكل، من ناحية حركات جديدة صنعت مسيحية خاصة، ومن ناحية أخرى كانت الكنيسة أيضًا قد صنعت مسيحية على أهوائها، واستغلت تبجيل الناس لرجال الدين، وانتشرت الخرافات والفتاوى التافهة والمنحرفة بشكل لم يسبق له مثيل.

وباستثناء الهراطقة، أصبحت محاكم التفتيش الأداة الرهيبة في وجه علماء الطبيعة والمفكرين الاجتماعيين والسياسيين والاقتصاديين؛ الذين حاولوا

طرح أفكار لا تنسجم مع تعاليم الكنيسة.

العلم والأدب

تغير سيناريو العجز عن ترجمة النصوص القديمة، الذي كان سائدًا في القرون الوسطى المبكرة، وخلال عصر النهضة في القرن الثاني عشر، بدأ التنشيط الفكري لأوروبا مع ولادة جامعات علمية جديدة، وقد سمح الاتصال المتزايد مع العالم الإسلامي في إسبانيا وصقلية خلال فترة الاسترداد؛ والعالم البيزنطي وبلاد الشام خلال الحروب الصليبية؛ للأوروبيين بالوصول إلى النصوص العلمية العربية واليونانية، بما في ذلك أعمال "أرسطو" و"ابن الهيثم" و"ابن رشد"، ساعدت الجامعات الأوروبية مادياً في ترجمة ونشر هذه النصوص، وبدأت بنية تحتية علمية جديدة، ومع بداية القرن الثالث عشر، أصبح متاحًا ترجمات علمية لاتينية دقيقة، للأعمال الرئيسية لجميع المؤلفين القدامى ذوي الأهمية الفكرية⁽⁹⁷⁷⁾، وتلا ذلك عملية سلسلة لنقل الأفكار العلمية بشكل سليم عبر الجامعات والأديرة المدرسية، وترتب على ذلك، بدء العلم الطبيعي الموجود في هذه النصوص في التوسع؛ من خلال علماء بارزين مثل "روجر بيكون"، و"روبرت جروسيتيست"، و"ألبرتوس ماغنوس"، و"دونس سكوت"، لتبدأ دورة علمية جديدة في الانطلاق الأولي.

وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كان هناك المزيد من الاختراعات التي تم تطويرها وتطبيقها بشكل مفيد، بما في ذلك اختراع الطواحين الهوائية، والطواحين المائية، والطباعة الأولية، والبارود، والإسطرلاب، والنظارات، ومقص الشكل الحديث، والساعة المستحدثة، والسفن المحسنة بشكل كبير، وأتاح التقدمان الأخيران بزوغ فجر عصر الاكتشاف، ويرجع الفضل في كل هذا الاحتكاك الذي أثر على هذه الاختراعات؛ بالثقافة والمجتمع الأجنبي لاسيما الإسلامي والمغولي.

في الهندسة، حلت العمارة القوطية محل العمارة الرومانية.

في الأدب، أثر التنوع الثقافي المذكور في أدب العصور الوسطى العليا، لكن بقيت الثقافة المسيحية هي الأقوى في الأدب، فقد كان الارتباط بالمسيحية أعظم ما في الأدب اللاتيني، مما أثر على اللغات المحلية في الدورة الأدبية لموضوع روما، والدورات الأدبية الأخرى.

وفي بيزنطة - على الرغم من التدهور السياسي خلال أواخر القرن الثاني عشر ومعظم القرن الثالث عشر، ظل التقليد الأكاديمي البيزنطي مثيرًا بشكل خاص خلال هذه الفترة، وتم إعادة تنشيط الأفلاطونية الحديثة على الأسس المسيحية؛ ودعم دراسة النصوص الفلسفية القديمة، إلى جانب المساهمة في التاريخ والقواعد والبلاغة.

وكذلك ازدهر التقليد التاريخي البيزنطي في بداية القرن الثالث عشر، وفي نفس الوقت تقريبًا، ارتفعت شعبية ما يسمى بالرواية البيزنطية مع توليفها

من الموضوعات الوثنية القديمة، والموضوعات المسيحية المعاصرة. وفي جنوب فرنسا - ظهر الأدب الأوكيتاني، الذي تضمن عناصر من الأدب اللاتيني وإسبانيا وشمال إفريقيا المتأثرة بالعرب، وامتد تأثير هذا الأدب بعد ذلك إلى عدة ثقافات في أوروبا الغربية، ووصل الأدب البروفنسالي أيضًا إلى صقلية وشمال إيطاليا، وتعتبر أهم قصيدة في أواخر العصور الوسطى، هي: الكوميديا الإلهية المجازية.

الفنون

كانت الموسيقى في العصور الوسطى العالية ذات طبيعة دينية، حيث كانت الترانيم الغريغورية هي الشكل السائد لموسيقى الكنيسة، وخلال القرن الحادي عشر، كان "جيريدو من أريزو"، من أوائل الذين طوروا النوتة الموسيقية، مما سهل على المغنيين تذكر الهتافات الغريغورية، ثم وُلدت ظاهرة تعدد الأصوات التي ظهرت في أعمال مدرسة نوتردام الفرنسية، وكانت الحركة العلمانية الأكثر أهمية هي حركة التروبادور، من جنوب فرنسا، وغالبًا ما كانوا متجولين، يغنون أغاني مكتوبة حول مجموعة متنوعة من الموضوعات، مع التركيز بشكل خاص على حب البلاط.

أما المسرح، فقد أدت التغييرات الاقتصادية والسياسية في العصور الوسطى العليا إلى تكوين النقابات ونمو المدن، وقتها، بدأت النقابات التجارية في أداء المسرحيات، التي كانت غالبيتها بطابع ديني، وغالبًا ما كانت تتعامل مع قصة دينية تشير إلى مهنتهم، على سبيل المثال: قامت نقابة الخبازين بإعادة تمثيل العشاء الأخير⁽⁹⁷⁸⁾، أما في الجزر البريطانية، فقد تم إنتاج مسرحيات في حوالي ١٢٧ مدينة، وبقي عدد أكبر من المسرحيات من فرنسا وألمانيا في هذه الفترة، وتم عرض نوع من الدراما الدينية في كل دولة أوروبية تقريبًا من الآن إلى أواخر العصور الوسطى، واحتوت العديد من هذه المسرحيات على كوميديا وشياطين وأشرار ومهرجين⁽⁹⁷⁹⁾، وارتفعت شعبية الفرسان في المسرح بشكل كبير منذ بداية القرن الثالث عشر، وجاءت غالبية هذه المسرحيات من فرنسا وألمانيا.

كانت هذه محاولات لبث شعاع نور في ظلام أوروبا القادم، وكُللت هذه المحاولات والتشبهات بنجاحهم المكتمل في النهاية، فيما يُعرف بأوروبا الحديثة، فيما سيأتي ذكره...

٥٨ - العصور الوسطى الأخيرة (جوانب حياة الفرد والمجتمع) تميزت هذه الفترة بالمجاعات والأمراض والأوبئة والقذارة، فبعد انتهاء العصر الدافي؛ أصبحت الحياة تجربة شاقة، وصلت لحد الترويع.

الحياة العسكرية

أدى التأثير المتراكم للأوبئة والمجاعات المتكررة إلى انخفاض عدد سكان أوروبا، وأصبحت لا تزيد على ثلث ما كانت عليه قبل قرن، ليتسبب ذلك في نزاعات مسلحة شاملة.

في هذه الحقبة استنتج أمراء الأقاليم العظماء في أوروبا أن الميزة العسكرية لسلاح الفرسان الإقطاعي قد ضاعت، وأن المشاة المجهزة جيدًا هي الأفضل، وقد أثر ظهور البارود بشكل كبير على سير أحداث المعارك، ومن خلال استخدام المدافع كأسلحة حصار تم إحداث تغيير كبير، وبسبب ذلك ستؤدي الأساليب الجديدة في النهاية إلى تغيير الهيكل المعماري للتحصينات⁽⁹⁸⁰⁾.

كذلك ظهرت تغيرات في نظام التجنيد وتكوين الجيوش، وتم استبدال استخدام الضريبة الوطنية أو الإقطاعية تدريجيًا بقوات مدفوعة الأجر من الحاشية المحلية، أو المرتزقة الأجانب⁽⁹⁸¹⁾، في الوقت نفسه، شهدت هذه الفترة أيضًا ظهور الجيوش الدائمة الأولى.

التجارة والاقتصاد

برغم العثرات، في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، حدثت طفرة تجارية، أطلق عليها المؤرخون "ثورة تجارية"⁽⁹⁸²⁾، من بين ابتكارات هذه الطفرة أشكال جديدة للشراكة وإصدار التأمين، وكلاهما ساهم في تقليل مخاطر المشاريع التجارية، كذلك ظهرت الكمبيالة وغيرها من أشكال الائتمان؛ التي تحايلت على القوانين الكنسية للأمم ضد الربا؛ وألغت مخاطر حمل السبائك، وظهرت أشكال جديدة للمحاسبة، ولاسيما ظهور الدفاتر ذات القيد المزدوج، وقد سمح ذلك بعمليات تجارية أكثر أمانًا⁽⁹⁸³⁾.

وعلى الرغم من أنه لا يوجد شك في أن الأزمة الديموغرافية في القرن الرابع عشر تسببت في انخفاض كبير في الإنتاج والتجارة من حيث القيمة المطلقة، فقد ظهر نقاش تاريخي قوي؛ حول ما إذا كان الانخفاض أكبر من

عدد السكان الناجين أم لا⁽⁹⁸⁴⁾، في الوقت نفسه؛ اعتبرت الأرثوذكسية القديمة أن الإنتاج الفني لعصر النهضة كان نتيجة لبذخ أكبر، وأشارت أحدث الدراسات إلى أنه ربما كان هناك ما يسمى بـ "كساد عصر النهضة"⁽⁹⁸⁵⁾.

العلوم

في القرن الرابع عشر، تم تحدي الاتجاه الأكاديمي السائد للمدرسة السكولاستية الفلسفية المبنية على الفئات الأرسطية لأول مرة منذ العصور القديمة؛ من قبل الحركة الإنسانية، على الرغم من أن هذه الحركة كانت في الأساس محاولة لتنشيط اللغات الكلاسيكية، إلا أنها ساهمت في ابتكارات في مجالات العلوم والفن والأدب، وقد ساعدتهم في ذلك هؤلاء العلماء البيزنطيون الذين اضطروا إلى اللجوء إلى الغرب بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م⁽⁹⁸⁶⁾.

حرر النهج الجديد التكهات العلمية من القيود العقائدية للعلم الأرسطي، ومهد الطريق لمقاربات جديدة، وتم إحراز تقدم كبير في مجال نظريات الحركة على وجه الخصوص، عندما تحدى العلماء أعمال أرسطو⁽⁹⁸⁷⁾.

كان لبعض الاختراعات التكنولوجية في تلك الفترة - سواء كانت من أصل عربي، أو صيني، أو ابتكارات أوروبية فريدة - تأثير كبير على التطورات السياسية والاجتماعي، ولاسيما البارود والمطبعة والبوصلة، فلم يؤثر إدخال البارود إلى ميدان المعركة على التنظيم العسكري فحسب، بل ساعد في تقدم الدولة القومية، وكان لمطبعة جوتنبرج المتحركة المقدره على نشر المعرفة؛ التي من شأنها أن تؤدي إلى مجتمع أكثر مساواة بشكل تدريجي، كذلك كان للبوصلة؛ إلى جانب الابتكارات الأخرى مثل طاقم العمل، والإسطرلاب البحري، والتطورات في بناء السفن، دور مساهم وقوي للأوروبيين في المراحل الأولى من الاستعمار، وكان للاختراعات الأخرى تأثير أكبر على الحياة اليومية، مثل النظارات وساعة قياس الوزن وغيره⁽⁹⁸⁸⁾.

أما في الهندسة، ففي نهاية العصور المتأخرة؛ كان "جيوتو دي بوندوني" الرسام والمهندس الإيطالي، هو أول رسام منذ العصور القديمة يحاول تصوير واقع ثلاثي الأبعاد، وسمح ثراء فئة التجار برعاية واسعة للفنون، وكان من بين الرعاة في المقام الأول عائلة ميديتشي الإيطالية، ومع تحول مركز الحركة إلى روما، بلغت الفترة ذروتها مع أساتذة فن عصر النهضة "ليوناردو دافنشي"، و"مايكل أنجلو"، و"رافاييل"⁽⁹⁸⁹⁾.

الآداب والفنون

في العصور الوسطى المتأخرة، كان التطور الأكثر أهمية في الأدب هو صعود اللغات المحلية للبلاد، فضلاً عن اللغة اللاتينية، حيث كانت اللغة العامية مستخدمة في إنجلترا منذ القرن الثامن؛ وفرنسا منذ القرن الحادي عشر،

على سبيل المثال: تروبادور والملاحم الرومانسية، وكذلك دمجت الكوميديا الإلهية لـ "دانتي أليجييري"، التي كُتبت في أوائل القرن الرابع عشر؛ وجهة نظر العالم من القرون الوسطى مع المُثل الكلاسيكية⁽⁹⁹⁰⁾، وبرغم كل ذلك، لم يستلزم تطبيق اللغة العامية رفض تطبيق اللاتينية، فقد كتب آخرون مثل: "دانتي" و"بوكاتشيو" بغزارة باللغتين اللاتينية والإيطالية. أما الموسيقى فكانت جزءًا مهمًا من الثقافة العلمانية والروحية، وفي الدراسة الجامعية شكلت جزءًا من رباعي الفنون الليبرالية، ومنذ أوائل القرن الثالث عشر، كان الشكل الموسيقي المقدس السائد هو التوت، تكوين مع نص في عدة أجزاء، ثم منذ ثلاثينيات القرن الثالث عشر وما بعده، ظهر النمط متعدد الأصوات، والذي كان عبارة عن اندماج أكثر تعقيدًا للأصوات المستقلة، كان تعدد الأصوات شائعًا في الموسيقى العلمانية للتروبادور البروفنسالي، وقع العديد من هؤلاء ضحية للحملة الصليبية الأليجينية في القرن الثالث عشر، لكن تأثيرهم وصل إلى المحكمة البابوية في أفينيون⁽⁹⁹¹⁾.

أما المسرح، فقد ظهرت المسرحيات الأخلاقية كشكل درامي متميز حوالي عام ١٤٠٠م؛ وازدهرت حتى عام ١٥٥٠م، وفي نهاية العصور الوسطى المتأخرة، بدأ الممثلون المحترفون في الظهور في إنجلترا وأوروبا، واحتفظ كل من "ريتشارد الثالث" و"هنري السابع" ملوك إنجلترا، بفرق صغيرة من الممثلين المحترفين، كانوا يعرضون مسرحياتهم في القاعة الكبرى بمقر إقامة أحد النبلاء، وكذلك ظهرت المسرحيات الإيمائية، التي يتم أدائها خلال موسم عيد الميلاد، وأقنعة المحكمة.

كانت دراما العصور الوسطى حالة خاصة، انتهت بنهاية العصور الوسطى بسبب ضعف قوة الكنيسة الكاثوليكية، والإصلاح البروتستانتي، وحظر المسرحيات الدينية في العديد من البلدان، فعلى سبيل المثال: حظرت "إليزابيث الأولى" جميع المسرحيات الدينية في عام ١٥٥٨م، وتم حظر المسرحيات الدينية في هولندا عام ١٥٣٩م، والولايات البابوية عام ١٥٤٧م، وفي باريس عام ١٥٤٨م، وقد تسبب ذلك في تدمير المسرح الدولي؛ مما استدعى كل دولة لتطوير شكلها الدرامي المحلي الخاص؛ ليصل إلى تنوعه الحالي في زماننا هذا، كما سمح للمسرحيين بالتوجه إلى الموضوعات العلمانية وإحياء الاهتمام باليونانية⁽⁹⁹²⁾.

عصر الاستكشاف

برغم الحروب العديدة بين الدول الأوروبية والأوبئة والمجاعات، بدأت بوادر هذا العصر على يد البحارة الفرنسيين والإيطاليين في مطلع القرن الرابع عشر، بعد إبحارهم ناحية شواطئ المحيط الأطلسي وإفريقيا، ونتج عن ذلك اكتشاف جزر الكناري وجزر الأزور، وفي القرنين الخامس عشر والسادس

عشر؛ حاول الأوروبيون العثور على طرق تجارية جديدة، بسبب أن نمو الإمبراطورية العثمانية قد قطع عليهم إمكانيات التجارة مع الشرق، وأجبرت أوروبا الغربية على اكتشاف طرق تجارية جديدة، فانطلق "كريستوفر كولومبوس" للاستكشاف من أجل السفر لآسيا عبر طريق أكثر اختصارًا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وقد وصل إلى الأمريكتين في عام ١٤٩٢م⁽⁹⁹³⁾، أما البرتغاليون فقد عثروا على طريق رأس الرجاء الصالح، وتمكن "فاسكو دا جاما" من الوصول إلى المحيط الهندي والهند، وسرعان ما تبعته فرنسا وإنجلترا وهولندا في استكشافات المحيطات، ووصلوا إلى أستراليا في ١٦٠٦م⁽⁹⁹⁴⁾، ونيوزيلندا في ١٦٤٢م.

ثم جاء أيضًا دور القائد والمستكشف البرتغالي "فرناندو ماجلان"، والذي بدأ السفر إلى جميع أنحاء العالم، وبالتالي؛ تمكن من الوصول لاستنتاجات استكشافية ملموسة بشأن التجول حول العالم، وبسبب هذه الاكتشافات ستتحول حياة أوروبا تمامًا، وستتمكن من التمدد القاري مستقبلًا، والسفر لأراضي بعيدة والاستيلاء على ثرواتها واستغلالها من أجل التطور والثراء الأوروبي⁽⁹⁹⁵⁾، لتبدأ فترة الاستعمار بهجرة المستوطنين الأوروبيين لقارات أمريكا الشمالية وآسيا وإفريقيا وأستراليا، وتشكيلهم مستوطنات ووحدات إنتاج في هذه الأراضي، وبعد وقتٍ قليل ستصبح هذه المستعمرات إمبراطوريات استعمارية، مركزها أوروبا وأطرافها ممتدة إلى جميع أنحاء العالم.

أدت التغييرات التي أحدثتها هذه التطورات إلى جعل العديد من العلماء ينظرون إلى هذه الفترة على أنها نهاية العصور الوسطى، وبداية التاريخ الحديث، وأوائل أوروبا الحديثة.

٥٩ - معضلة الاستحمام والنظافة العامة (هل كانت أوروبا مستنقًا عظيمًا؟)

ظهرت بعض العادات والسلوكيات الشخصية والصحية السيئة جدًا والتي لا حصر لها خلال فترة القرون الوسطى، وقد انتشر حولها جدل كبير، من أشهرها: معضلة الاستحمام والنظافة العامة، ورمي فضلات الإنسان من النافذة، وحقيقة أن الشارع كان مستنقًا عظيمًا... إلخ.

أولاً - العصور الوسطى كانت مرحلة تتعدى الألف عام، ومرت بمراحل متعددة ومتفاوتة، فليس من الصواب التعميم، ثانيًا - دعني أقول لك إن هذا كله صحيح (خاصةً في العصور الوسطى المتأخرة بالتحديد)، ولكن ليس بالشكل المعمم، فعلى سبيل المثال: قد أوصى بالفعل بعض المهنيين الطبيين بعدم القيام بالاستحمام بشكل مفرط، لكن الاستحمام لم يكن ممنوعًا بشكل تام، حيث كان الأشخاص الميسورون بشكل معقول في هذه المرحلة يمكنهم في الواقع امتلاك حمام من نوع ما وتزويده بالمياه الساخنة، وهكذا يُعتقد عمومًا أن الفقراء الذين لا يستطيعون الذهاب إلى الحمام العام؛ كان لديهم نظافة شديدة السوء خلال أشهر الشتاء، وربما تصل لشهور طويلة جدًا دون استحمام، أو الاهتمام بالنظافة بأي شكل، الأفضع من ذلك؛ أنه في العصور الوسطى الأخيرة عندما ظهر الموت الأسود كما ذكرنا، كانت الحمامات الشعبية مستنقًا يحتضن الوباء وينقل الأمراض، فمن المحتمل أن هذا ما أدى إلى انتشار المرض، حتى في الحمامات المنزلية الخاصة بالنبلاء، كان الماء يعاد استخدامه ومشاركته بشكل شائع بين العديد من الأشخاص⁽⁹⁹⁶⁾.

مرة أخرى في أوائل القرن السادس عشر ظهرت أمراض بشعة مثل: مرض الزهري ذات الرعوس القبيحة، في نفس الوقت تقريبًا، ظهر مفهوم شائع في بعض مناطق أوروبا؛ مفاده أن الماء يمكن أن يحمل المرض إلى الجسم من خلال مسام الجلد، وخاصة الماء الساخن، لم يتخوف الناس حينها من أمراض المياه نفسها التي كانوا قلقين بشأنها، لكنهم اعتقدوا أيضًا أنه مع اتساع المسام بعد الاستحمام؛ قد يؤدي ذلك إلى التهابات في الهواء مما يسهل الوصول إلى الجسم، وبالتالي، أصبح الاستحمام بشكل عام، مرتبطًا بانتشار الأمراض، وهذا ما ذكره الفيلسوف الهولندي "إيراسموس" عام ١٥٢٦م، حيث ذكر أن الحمامات العامة القليلة حينها، كانت مهجورة ومطمورة.

للتغلب على مشكلة الرائحة الكريهة، احتاج الأثرياء الذين يستطيعون تحمل التكلفة إلى تغيير ملابسهم الداخلية من الكتان بشكل متكرر، بالإضافة إلى فرك أنفسهم بقطعة قماش نظيفة أو خرق معطر، وشاع استخدام العطور

المختلفة، وأصبحت الزجاجات المزينة بشكل متقن رموزًا لمكانة الأثرياء، وانتشر وضع المراهم على القدمين واليدين والفم والأعضاء التناسلية، ومع الوقت أصبح الاستحمام شيئًا منقرضًا نسبيًا، خاصة في ظل ظهور فتاوى للكنيسة التي اعتقدت بشكل خاطئ لفترة قصيرة، أن الاستحمام يسبب للأطفال هشاشة الجسد، ولتحريم نظر الفرد لجسمه وهو عاري جاء بعض رجال الدين يسعون لفرض سيطرة خارجية عن المألوف على مجريات حياة الفرد والمجتمع، وعارضهم رجال دين آخرون. وتم معارضة "الأخلاق الفاسدة" للحمامات التي لم تكن تفصل بين الرجال والنساء، لينتهي الأمر بغلاقها بالكامل.

انتشرت الظاهرة من العامة إلى الملوك، على سبيل المثال، قال أحد السفراء الروس في فرنسا: صاحب الجلالة "لويس الرابع عشر" تتن مثل حيوان بري، ويبدو أن الرائحة الكريهة للملك لويس الرابع عشر جاءت من حقيقة أن أطباءه نصحوه بالاستحمام بشكل غير منتظم قدر الإمكان؛ للحفاظ على صحة جيدة. كما ذُكر أنه وجد فعل الاستحمام مزعجًا، وبسبب ذلك، يُقال إنه استحم مرتين فقط في حياته.

كذلك الملكة "إيزابيل الأولى" ملكة إسبانيا التي اعترفت بأنها استحمت بالكامل مرتين فقط في حياتها، (عندما ولدت، وعندما تزوجت)، الروس أنفسهم وصفهم الرحالة أحمد بن فضلان أنهم: "أقذر خلق الله؛ حيث إنهم لم يكونوا يستنجون من بول ولا غائط".

أما معضلة رمي القمامة والفضلات من النوافذ، فهي حقيقة، لكن لكي نكون منصفين أيضًا؛ فإن التعميم حول ما فعلته مجموعة كبيرة ومتنوعة من الناس على مدار ألف عام هو عمل مراوغ للغاية، فلا يُعقل أن نعتبر هذا أمرًا شاملًا قد حدث على مدار قرون في بقاع كل القارة؛ ولم ينتبه حينها شخص واحد؛ أن هذا قد يؤذي نفسه برائحة لن يتحملها إذا خرج من المنزل أو على الأقل إذا فتح نافذته لرؤية السماء أو الأرض.

وظهر ذلك في واقعة الرائحة العظيمة عام ١٨٥٨م⁽⁹⁹⁷⁾ التي حدثت عندما جفت كل مياه الصرف الصحي؛ التي ضحها سكان لندن في نهر التايمز، وتسببت في رائحة كريهة وصلت لحد موت بعض ممن استنشقوها، حيث كانت أطنان مياه الصرف الصحي غير المفلترة على الأرجح أكثر الأشياء التي يتم ضحها في النهر، فقد كان نهر التايمز مكانًا لمياه الصرف الصحي الخاصة بمصانع الجعة، ومصانع الورق، والفضلات، وانتهى الأمر بإلقاء أطنان من النفايات والفضلات المنزلية النتنة بشكل غير رسمي، وكانت وجهة نظر سكان لندن وصلت إلى درجة الاعتقاد بأن إلقاء أطنان من الفضلات والنفايات في النهر، سيوفر الكثير من مياه الشرب، لكن بسبب أن نهر التايمز نهر مد، انتهى به الأمر إلى دفع مياه الصرف الصحي المتعفنة، وكانت

العواقب حصد الكثير من الأرواح بعد تفشي الكوليرا في ١٨٣٢ و١٨٤٩ و١٨٥٤م، فيما يتعلق بتفشي عام ١٨٤٩م، في ذروته، تم تسجيل أكثر من ٢٠٠٠ من سكان لندن قد ماتوا من المرض كل أسبوع.

لم تكن هذه الواقعة الوحيدة التي حدثت طوال أكثر من ألف عام، لكن إذا فكرنا قليلاً وعممنا الحدث على كل سكان أوروبا طيلة ألف عام، لوجدناهم قد انقرضوا وماتوا من القذارة في أول عام فقط؛ أو ربما أول شهر، لكن من الواضح أن الأمر كان متفاوتاً من حيث الأماكن والتواريخ الزمنية، والمستوى الاجتماعي، والمستوى الثقافي، والمستوى الديني، مما يُفند فكرة أن أوروبا بأكملها كانت مستنقع قاذورات طيلة ألف عام، لاسيما في وجود الجاليات الإسلامية واليهودية الذين اعتمدوا الطهارة والاستحمام في سلوكهم الحياتي، وإذا اعتبرنا أنهم هم من علموا أوروبا الاستحمام؛ فهذا اعتقاد عنصري غير محايد، حيث إنهم كانوا يعيشون في أوروبا منذ بداية القرون الوسطى المبكرة، وهذه الأهوال القذرة قد انتشرت بكثافة في العصور الوسطى المتأخرة، وأن قبل ذلك كان الاستحمام موجوداً بتفاوت كما ذكرنا⁽⁹⁹⁸⁾.

٦٠ - المساهمة الإسلامية في النهضة الأوروبية (من المصادر الغربية)

نقلت المصادر الغربية إسهامات العالم الإسلامي في نهوض أوروبا من العصور المظلمة إلى العصر الحديث بشكل مفصل، ومن أبرز مناطق الاتصال كانت صقلية وإسبانيا، ففي صقلية على سبيل المثال: بعد أن أخذها النورمانديون من المسلمين عام ١٠٩١م، نشأت ثقافة توفيق بين النورمان والعرب والبيزنطيين، مثلها حكام مثل الملك "روجر الثاني"، الذي كان يضم جنودًا وشعراء وعلماء إسلاميين.

على سبيل المثال: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"؛ والمعروفة في الغرب باسم تبولة روجيريانا؛ هي وصف لخريطة العالم جمعها الجغرافي العربي "محمد الإدريسي" عام ١١٥٤م، تم إنتاجها في مدة خمسة عشر عامًا في بلاط الملك النورماندي روجر الثاني، وهي أحد أعظم الرسائل الجغرافية في العصور الوسطى (999).

من ناحية أخرى، كثفت الحروب الصليبية التبادلات بين أوروبا والشام، كذلك خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر؛ سافر العديد من العلماء المسيحيين إلى بلاد المسلمين لاستكمال تعليمهم، كـ"ليوناردو فيبوناتشي"، و"أديلارد من باث"، و"قسطنطين الإفريقي".

الفلسفات

في الشرق الأوسط، تمت ترجمة العديد من النصوص اليونانية الكلاسيكية، وخاصة أعمال أرسطو، إلى السريانية خلال القرنين السادس والسابع من قبل الرهبان النسطوريين أو الملكيين أو اليعقوبيين الذين يعيشون في فلسطين، أو من قبل المنفيين اليونانيين من أثينا أو الرها، الذين زاروا المراكز الإسلامية لنيل تعليم أعلى، ثم احتفظ العالم الإسلامي بالعديد من هذه النصوص وترجمها وطورها، ثم تمت ترجمة هذه النصوص بدورها إلى اللاتينية من قبل علماء مثل "مايكل سكوت" مُترجم شروح ابن رشد (1000)، كذلك اكتشف "بورغونديو من بيزا" نصوصًا مفقودة لأرسطو في أنطاكية وقام بترجمتها إلى اللاتينية.

في إسبانيا الإسلامية تُرجم الأدب الفلسفي العربي إلى العبرية واللاتينية، وكان الفيلسوف اليهودي "موسى بن ميمون"، و"ابن خلدون"، و"قسطنطين الإفريقي"؛ الذي ترجم النصوص الطبية اليونانية؛ ومجموعة الخوارزمي للتقنيات الرياضية من الشخصيات المهمة في العصر الذهبي.

عُمرت آثار "ابن سينا" في وقت لاحق من قبل الرشدية الأكثر تأثيرًا

(الأرسطية لـ "ابن رشد" أحد أكثر الفلاسفة المسلمين نفوذًا في الغرب)⁽¹⁰⁰¹⁾،
اختلف ابن رشد مع تفسيرات ابن سينا لأرسطو في مجالات مثل وحدة
الفكر، وكان تفسيره لأرسطو هو الأكثر تأثيرًا في أوروبا في العصور
الوسطى، كما كان للغزالي أيضًا تأثير مهم على الفلسفة المسيحية في
العصور الوسطى⁽¹⁰⁰²⁾.

العلوم

في ظل الظروف الصعبة التي شهدتها أوروبا كان العالم الإسلامي في
عصره الذهبي، وتم إحراز تقدم ملحوظ في المجالات العلمية، كالرياضيات
وعلم الفلك، وفي الكيمياء، والجغرافيا والتاريخ... إلخ، والتي تم نقلها لاحقًا
أيضًا إلى الغرب⁽¹⁰⁰³⁾.

ترجم "ستيفان البيزي" إلى اللاتينية في حوالي عام ١١٢٧م؛ كتيبًا عربيًا
للنظرية الطبية؛ كذلك طور الخوارزمي طريقته لإجراء الحساب باستخدام
نظام العد الهندوسي العربي في القرن التاسع؛ وقدمها ليوناردو فيبوناتشي
إلى أوروبا، كما ترجم "روبرت من شيلستر" كتاب "المختصر في حساب الجبر
والمقابلة" للخوارزمي نحو عام ١١٤٥م، من ناحية أخرى - كان لـ "ابن
الهيثم" أطروحات في العلوم البصرية، والتي استخدمها "نيوتن" و"رينيه
ديكارت" كمراجع⁽¹⁰⁰⁴⁾.

كان علماء أوروبا مهتمين بالنصوص الفلسفية والعلمية اليونانية القديمة
(ولاسيما المجسطي - وهي رسالة دراسة النجوم مسارات الكواكب) التي لم
تكن متوفرة باللغة اللاتينية في أوروبا الغربية، ولكنها نجت وترجمت إلى
العربية في العالم الإسلامي، وقيل: إن العالم "جيرارد الكريموني" شق
طريقه إلى طليطلة في الأندلس؛ وتعلم اللغة العربية؛ بسبب "حبه
للمجسطي"، وأثناء وجوده هناك استغل وفرة الكتب العربية لدراسة
موضوعات علمية أكبر⁽¹⁰⁰⁵⁾.

أما إسبانيا وصقلية عندما كانوا مناطق مسلمة؛ كان فيهم علماء متعدّدو
اللغات، ترجم هؤلاء العلماء العديد من النصوص العلمية والفلسفية من
العربية إلى اللاتينية، فـ "جيراردو الكريموني" المذكور ترجم وحده ٨٧ كتابًا
من العربية إلى اللاتينية، بما في ذلك كتاب المجسطي الذي جاء من أجله -
وكتاب "الخوارزمي" في حساب الجبر والمقابلة - وكتاب الهيئة في إصلاح
المجسطي لـ "جابر بن أفلح" في علم الفلك - وكتاب البصريات للكندي -
وكتاب "الفرغاني" جوامع علم النجوم والحركات السماوية - وكتاب
"الفارابي" تصنيف العلوم - وكذلك الأعمال الكيميائية والطبية والصيدلية لـ
"الرازي" - وأعمال "ثابت بن قرة" - وأعمال "حنين بن إسحاق" - وأعمال
"الزرقاني" - وباقي أعمال "جابر بن أفلح" - و"شجاع بن أسلم" -

و"الزهراوي"- و"ابن الهيثم"⁽¹⁰⁰⁶⁾.

في الكيمياء

كانت الكيمياء الغربية تعتمد بشكل مباشر على المصادر العربية، على سبيل المثال: كانت الأعمال الكيميائية اللاتينية لـ "جابر بن حيان" نصوصًا قياسية للكيميائيين الأوروبيين، لكن هناك جدل تاريخي عما إذا كانت جميعها خاصة بابن حيان أم لغيره، لكنها بلا شك كانت كلها مؤلفات عربية، بما في ذلك: كتاب تكوين الخيمياء، ترجمه "روبرت أوف تشيستر" - وكتاب السبعين ترجمه جيرارد كريمونا - والأعمال الكيميائية لـ "الرازي"، ووجدت عدة كلمات عربية فنية من أعمال الكيمياء العربية مثل القلوي؛ طريقها إلى اللغات الأوروبية وأصبحت جزءًا من المفردات العلمية⁽¹⁰⁰⁷⁾⁽¹⁰⁰⁸⁾.

الفلك والرياضيات

كتب البروفيسور "فيكتور كاتز": "لقد أدركت أن معظم أعمال الجبر المبكرة في أوروبا في الواقع كانت ترجمات لأعمال الخوارزمي وغيره من المؤلفين الإسلاميين، وكذلك يمكن أن يُنسب علم المثلثات الكروية إلى المؤلفين الإسلاميين"⁽¹⁰⁰⁹⁾، وما يؤكد ذلك: أن الخوارزمية مشتقة من اسم الخوارزمي، والجبر، مشتق من عنوان كتابه "المختصر في حساب الجبر والمقابلة"، ومفردات أخرى فلكية ورياضية عربية، كالتي وضعها "ابن جابر البتاني"؛ وقد تمت ترجمة كتابه الزيج إلى اليونانية في القرن الثالث عشر، ودُرس في الإمبراطورية البيزنطية⁽¹⁰¹⁰⁾.

أدت التعديلات الفلكية التي أدخلها البتاني وابن رشد على نموذج مركز الأرض؛ إلى الوصول للنماذج الغير بطلمية؛ التي أنتجها "مؤيد الدين أوردني"؛ و"نصر الدين الطوسي"، و"ابن الشاطر"؛ والتي تم تكييفها لاحقًا في النموذج الكوبرنيكي المتمركز حول الشمس، من ناحية أخرى، "أبو الريحان البيروني" هو الآخر تمت ترجمة أعماله إلى اللاتينية ك: تاريخ الهند، المعروف باسم من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، وكتابه الآخر القانون المسعودي، من ناحية أخرى، قدم فيوناتشي أول حساب أوروبي كامل للأرقام العربية ونظام الترقيم الهندوسي العربي في كتابه Liber Abaci، وفي حوالي عام 1000م، صنع "غيربرت من أوريلاك" بعد أن أتم دراسته في القيروان عددًا محفورًا بالأرقام العربية، قبل أن يُصبح بابا روما، ويُطلق عليه اسم "سيلفستر الثاني"، أما كتاب "ابن معاذ الجياني" المعروف باسم: قياس القسي المجهولة في الكرة، كان له تأثير قوي على الرياضيات الأوروبية، وقد ذكر جيرولامو في القرن السادس عشر، أن "ريجيموتانوس" اعتمد في كتابه On Triangles على المراجع العربية، وأخذ مادته عن علم المثلثات الكروية (بدون اعتراف)، لاسيما الكثير من أعمال ابن أفلح⁽¹⁰¹¹⁾.

كتب ابن الهيثم كتابه الشهير المناظر كواحد من أهم الأعمال الفيزيائية على الإطلاق، كان كتاب المناظر نقطة انطلاق مهمة في تاريخ المنهج العلمي وتاريخ البصريات، وكان لترجمته اللاتينية أثر بالغ في أعمال العديد من العلماء الأوروبيين اللاحقين، بما في ذلك "روجر بيكون" و"يوهانس كيبلر"، والمثير للدهشة، أن كتاب المناظر كذلك أثر في جوانب أخرى من الثقافة الأوروبية، ففي الدين، على سبيل المثال: أشار "جون ويكليف"، (السلف الفكري للإصلاح البروتستانتى القادم)، إلى أفكار ابن الهيثم، في مناقشة الخطايا السبع المميتة عندما شبهها بالتشوهات التي تُرى في أنواع المرايا السبع؛ والتي تم تحليلها في كتاب De partibus، كذلك في الأدب: أشاد "جيوم دي لوريه" بكتاب المناظر في روايته Roman de la Rose، وفي الفن: وضع كتاب المناظر أسس لتقنية الرسم المنظوري، وربما أثر في استخدام الوسائل البصرية في فن عصر النهضة لاحقًا⁽¹⁰¹²⁾، وتم استخدام هذه التقنيات نفسها لاحقًا في الخرائط التي رسمها رسامو الخرائط الأوروبيون مثل "باولو توسكانيلى" خلال عصر الاستكشاف⁽¹⁰¹³⁾.

من ناحية أخرى، ربما تكون نظرية الحركة التي طورها ابن سينا من فيزياء أرسطو؛ قد أثرت على نظرية قوة الدفع الخاصة بـ "جان بوردان" (سلف مفاهيم القصور الذاتي وزخم الحركة)، كذلك تأثرت أعمال "جاليليو جاليلي" في الميكانيكا الكلاسيكية (الذي حل محل الفيزياء الأرسطية) بكتابات الفيزيائيين المسلمين كـ "ابن باجة"⁽¹⁰¹⁴⁾، ومن الأعمال البارزة الأخرى أعمال "نور الدين البتروجي"، و"لاسيميا في حركات السماء - ومقدمة "أبي معشر البلخي" في علم التنجيم - وكذلك أبحاث "أبو كامل شجاع بن أسلم"⁽¹⁰¹⁵⁾.

الطب

تطورت العلوم الطبية بشكل كبير على يد المسلمين بشهادة الصليبيين الذين اعتمدوا على الأطباء العرب مرات عديدة، حيث أفاد "جوينفيل" المذكور سابقًا؛ بأن طبيبًا مسلمًا أنقذه في مصر عام ١٢٥٠م أثناء إصابته في الحملة الصليبية السابعة⁽¹⁰¹⁶⁾.

كان من أهم الأعمال الطبية التي تمت ترجمتها كتاب "ابن سينا" المسمى القانون في الطب، والذي تُرجم إلى اللاتينية، ثم نُشر في شكل مخطوطة مطبوعة في جميع أنحاء أوروبا، وظل كتابًا طبيًا قياسيًّا في أوروبا حتى أوائل العصر الحديث، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر فقط، تم نشر كتاب القانون في الطب أكثر من خمس وثلاثين مرة⁽¹⁰¹⁷⁾.

لاحظ ابن سينا الطبيعة المُعدية لبعض الأمراض، وناقش كيفية اختبار الأدوية

الجديدة بفعالية⁽¹⁰¹⁸⁾، كما كتب كتاب الشفاء، كموسوعة أكثر عمومية للعلوم والفلسفة، والتي أصبحت كتابًا مدرسيًا آخر شائعًا في أوروبا، كما كتب "أبو بكر الرازي" كتاب الطب الشامل المعروف؛ باسم الحاوي في الطب، وقد وصف فيه بمنتهى الدقة الفرق بين الحصبة والجدرى، وكان له تأثير أيضًا في أوروبا، من ناحية أخرى، كتب "أبو القاسم الزهراوي" كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وهو موسوعة طبية اشتهرت بشكل خاص بقسم الجراحة؛ تضمنت أوصافًا ورسومًا بيانية لأكثر من ٢٠٠ أداة جراحية قام بتطوير العديد منها، وتمت ترجمة قسم الجراحة إلى اللاتينية من قبل "جيرولامو الكراموني" في القرن الثاني عشر، واستُخدم في كليات الطب الأوروبية لعدة قرون⁽¹⁰¹⁹⁾. تشمل الأعمال الطبية العربية الأخرى المترجمة إلى اللاتينية خلال العصور الوسطى؛ أعمال الرازي وابن سينا (بما في ذلك كتاب الشفاء والقانون في الطب)، والموسوعة الطبية لـ "علي بن عباس المجوسي"، كما قام الكاهن والطبيب "مارك من طليطلة" بترجمة القرآن، بالإضافة إلى العديد من الأعمال الطبية في أوائل القرن الثالث عشر⁽¹⁰²⁰⁾.

الثورة الزراعية العربية

تم إدخال العديد من الفواكه والخضروات إلى أوروبا في هذه الفترة عبر الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وبعضها من مناطق بعيدة مثل الصين والهند، بما في ذلك الخرشوف والسبانخ والبادنجان، بعد أن حدثت ثورة زراعية عربية بين عامي (٧٠٠-١٠٠٠م)، أدت إلى انتشار العديد من المحاصيل والتقنيات الزراعية من الأندلس إلى أوروبا العصور الوسطى، وقد عدّ الباحثون الغربيون ثمانية عشر نوعًا قد وفدوا إلى أوروبا، وانتقال تلك المحاصيل مع التطور في ميكنة الزراعة، أدى إلى قفزات في الاقتصاد والانتشار السكاني؛ والنباتي والإنتاج الزراعي؛ والدخل ومستويات المعيشة؛ والنمو الحضري؛ والصناعات المرتبطة بالزراعة؛ وفنون الطهي والملابس، كما تطورت صناعة الحرير، وزراعة الكتان⁽¹⁰²¹⁾.

فنون المشغولات

كانت الفنون الزخرفية الإسلامية من الواردات ذات القيمة العالية إلى أوروبا طوال العصور الوسطى، ففي الفترة المبكرة، كانت المنسوجات ذات أهمية خاصة، حيث كانت تُستخدم لملابس الكنيسة، والأكفان، وملابس للنخبة، كذلك كان الفخار الإسلامي ذو الجودة العصرية لا يزال مفضلًا على الأواني الأوروبية، فبرغم أن النقوش لم تكن مفهومة؛ إلا أنهم كانوا متأكدين أن الأشياء الإسلامية لم تسمى إلى مشاعر المسيحيين، وكان خليط فن العصور الوسطى في صقلية مثيرًا للاهتمام من الناحية الأسلوبية؛ بسبب مزيج من التأثيرات النورماندية والعربية والبيزنطية في مناطق مختلفة، مثل

الفسيفساء والتطعيمات المعدنية والنحت وغيره⁽¹⁰²²⁾.
كان السجاد من أصل شرق أوسطي، سواء من الإمبراطورية العثمانية أو بلاد الشام أو مصر المملوكية أو شمال إفريقيا؛ علامة مهمة على الثروة والرفاهية في أوروبا، كما يتضح من تواجدها المتكرر كسمات زخرفية مهمة في اللوحات من القرن الثالث عشر.

الكتابة

غالبًا ما تم تقليد الخط الكوفي العربي من أجل التأثير الزخرفي في الغرب خلال العصور الوسطى وعصر النهضة، وأحيانًا ما كان يتم نسخه دون إدراك ما يعنيه الخط، والسبب الدقيق لدمج الخط الكوفي غير معروف، لكن ربما أن الفنان كان يرغب في التعبير عن عالمية ثقافية للإيمان المسيحي، من خلال مزج اللغات المكتوبة المختلفة معًا، في وقت كان للكنيسة طموحات دولية توسعية قوية، والسجاد والخط الكوفي مثال مثير للاهتمام بدمج العناصر الشرقية في الرسم الأوروبي، وخاصة الأشكال التي تصور الموضوعات الدينية⁽¹⁰²³⁾⁽¹⁰²⁴⁾.

الموسيقى والشعر

تأثرت عدد من الآلات الموسيقية المستخدمة في الموسيقى الأوروبية بالآلات الموسيقية العربية، فتأثر الكمان بالربابة والجيتار بالقيثارة، وبعض الآلات النفخية بالزمر والزرنة، ويعتقد بعض العلماء أن التراث الشعري والموسيقى العربية كان لهما تأثير واضح على "شعر الحب اللطيف" الأوروبي، وصرح العلماء بأن ثلاثة أسطر من قصيدة الشاعر المتجول الأول "ويليام التاسع" من أكيتايين؛ كانت عبارة عن شكل من أشكال اللغة العربية، مما يشير إلى أصل أندلسي محتمل لأعماله.

التكنولوجيا والاختراع

وصلت الكثير من تقنيات العالم الإسلامي إلى العصور الوسطى الأوروبية؛ وشملت تقنيات زراعة المحاصيل المختلفة⁽¹⁰²⁵⁾، كذلك أدوات فلكية مختلفة، بما في ذلك الإسطرلاب اليوناني الذي طوره علماء الفلك العرب ليستخدم في أي خط عرض جغرافي، والصفحة الزيجية (إسطرلاب اخترعه الزرقالي)، والسدس الفلكي، والأدوات الجراحية المختلفة، بما في ذلك التحسينات على الأشكال القديمة والاختراعات الجديدة، والتروس المتقدمة في الساعات المائية والساعات الأوتوماتيكية⁽¹⁰²⁶⁾.

كان التقطير معروفًا لدى الإغريق والرومان، ولكن تم اكتشافه من جديد في أوروبا في العصور الوسطى من خلال العرب، وكلمة كحول تأتي من الكحل العربي، وكلمة المبيك مأخوذة من العربية الأنبيك، كذلك يُعتقد أن الأمثلة الإسلامية للساعات المائية المعقدة والأوتوماتيك قد أثرت بشدة على

الحرفيين الأوروبيين الذين أنتجوا أول ساعات ميكانيكية في القرن الثالث عشر⁽¹⁰²⁷⁾⁽¹⁰²⁸⁾.

مع الوقت تعلم الأوروبيون نقل إنتاج السكر من قصب السكر - والساعات المائية - والورق - وصناعة الحرير - والتطورات المختلفة في صناعة العطور، من العالم الإسلامي في عصره الذهبي، ويُعتقد أن طواحين التعبئة والتقدم في تكنولوجيا المطاحن قد انتقلت أيضًا من العالم الإسلامي، جنبًا إلى جنب مع الاستخدام الواسع النطاق للاختراعات مثل مضخة الشفط، والنواعير والمضخات المتسلسلة لأغراض الري، وجعلت هذه الابتكارات من الممكن لبعض العمليات الصناعية التي كانت تُخدم في السابق عن طريق العمل اليدوي أو حيوانات الجر، أن تكون مدفوعة بالآلات في أوروبا في العصور الوسطى⁽¹⁰²⁹⁾⁽¹⁰³⁰⁾.

كذلك تم اختراع عجلة الغزل في العالم الإسلامي بحلول عام ١٠٣٠م، ثم وصلت إلى أوروبا والهند بحلول القرن الثالث عشر، كانت عجلة الغزل أساسية لصناعة المنسوجات القطنية قبل الثورة الصناعية، وكانت مقدمة لجيني الغزل، والذي كان يستخدم على نطاق واسع خلال الثورة الصناعية⁽¹⁰³¹⁾.

وبلخص الغرب كل هذا في اعترافهم بأن استيراد كل من التكنولوجيا القديمة والجديدة من الشرق الأوسط والشرق إلى عصر النهضة في أوروبا؛ واحدة من أكبر عمليات نقل التكنولوجيا في تاريخ العالم⁽¹⁰³²⁾.
أضف إلى كل هذه المجالات أمورًا أخرى فرعية، كتأثر الآداب بالأدب العربي، وكذلك سك العملات التي برغم أنها تقليد روماني قديم؛ إلا أنها خلال العصور الوسطى تم استيحاؤها من الدينار الإسلامي كصورة طبق الأصل نظرًا لتميزه وزهوه، وغيره.

الفصل السادس

أوروبا الحديثة حتى (٢٠٢٢م) ٦١ - أوروبا نحو
النهضة

(الإصلاح البروتستانتى) في واحدة من أشكال
التمرد على الجهل والظلام، على الرغم من
الأزمات؛ نهضت بعض الأماكن في أوروبا من
أجل تحسين الأوضاع واستخدام العقل والعلم،
وكانت أول المبادرات قد جاءت من شبه
الجزيرة الإيطالية التي شهدت طفرة هائلة
في مجال الفنون والعلوم في النصف الثانى
من القرن الخامس عشر، والتي سُميت
بالنهضة، بعد أن تمكنوا من ربط العصور
الأوروبية الغربية المعاصرة وبين العصور
الكلاسيكية اليونانية والرومانية القديمة
المُترجمة، والعلوم الخارجية الوافدة من
الشرق، وقرر علماء أوروبا استخدام العقل،
والتجريب والاجتهاد بدلاً من الاستسلام
للمعتقدات الدينية غير الصحيحة، على سبيل
المثال قام المخترع الألماني "يوهان
غنزفلايش تسر" (١٣٩٨م - ١٤٦٨م) بتطوير
قوالب الحروف التي توضع بجوار بعضها

البعض، ثم القيام بوضع الورق فوقها، ثم الضغط عليه فتصبح مطبوعة، مطورًا بذلك علم الطباعة؛ الذي تم اختراعه قبل ذلك في كوريا في سنة ١٢٣٤م، ليُصبح بذلك مخترع الطباعة الحديثة، ويكون هذا الاختراع هو عنوانًا لفترة جذرية من التغيير؛ وثورة من التقنيات الجديدة التي ظهرت مع تطور الطباعة، والفنون، والشعر، والعمارة⁽¹⁰³³⁾.

وبدون مبالغة أوروبا التي تخلفت منذ العصور الرومانية القديمة لم تشهد مثل هذه الطفرة قبل ذلك، وبتحول سحري تطورت في التجارة والاكتشافات الجغرافية؛ وأصبحت رائدة عالميًا في نهايات العصور الوسطى المظلمة، لتعلن عن فترة النهضة والإصلاح التي افتتحتها إيطاليا.

أما ألمانيا، فقد شهدت عصر نهضة إنسانية لم يسبق له مثيل، وكان لها الفضل في إعادة دراسة العديد من القضايا الدينية، من خلال ترسيخ أفكار الفيلسوف الهولندي "إيراسموس"، الذي كان من رواد الحركة الإنسانية في أوروبا، والمُعلم والناشر للكتب التربوية الذي تناول في مؤلفاته معظم مظاهر التربية وقضاياها الهامة؛ مثل الطريقة والمحتوى وأداب الطفولة وتعليم اللغة، والذي قام بالتعليق على نصوص العهد الجديد، وجاؤل أن يضع مبادئ الحركة الإنسانية حسب التوجهات المسيحية، كما أراد أن يقرب بين أتباع المذهب الكاثوليكي وأتباع الحركات الإصلاحية الجديدة.

كذلك بدأ الراهب الألماني والقسيس وأستاذ اللاهوت "مارتن لوثر" حركة جديدة من الإصلاح البروتستانتي في المسيحية، مُطلقًا عصر الإصلاح في أوروبا⁽¹⁰³⁴⁾، بعد اعتراضه على صكوك الغفران، التي كانت تبيعها الكنيسة الكاثوليكية كإعفاء كامل أو جزئي من العقاب الدنيوي على الخطايا التي تم الصفح عنها، وتبنى بعد ذلك الملوك في فرنسا توطيد حركة النهضة، وانضم إليهم النخبة والصفوة كأمثال: المهندس المعماري الفرنسي "بيير ليسكوت" الذي كان له الفضل في زهاء عصر النهضة المعمارية الفرنسية، فشيّد أعمالًا عظيمة، كينبوع الأبرياء، ونافورة باريس الأكثر شهرةً، وجناح ليسكوت لمتحف اللوفر في باريس.

وكذلك اضطر عالم اللاهوت والقس والمُصلح الفرنسي "جان كالفن" إلى الانفصال عن باريس؛ وذلك بسبب تبنيه أفكار مارتن لوثر الإصلاحية في عام ١٥٣٤م، وبعد إقامته فترة من الوقت في ستراسبورغ وبازل؛ انتقل إلى جنيف في عام ١٥٤١م، واعتنق مذهب الكالفينية، وهو مذهب تناول تعاليم القدر والملكوت المطلق لله في تخليص روح الإنسان من الموت واللعنة الأبدية، وتأثر كالفن في تعاليمه هذه بالتقاليد الأوغسطينية والمسيحية الأخرى وبنى عليها، وقد انتشرت العديد من الكنائس الأبرشانية والإصلاحية؛ التي تنظر إلى كالفن على أنه المفسر الرئيسي لمعتقداتها في أنحاء العالم، وأصبح له دور بارز خلال حركة الإصلاح البروتستانتية، وكان من المساهمين الرئيسيين في تطوير المنظومة اللاهوتية المسيحية التي دُعيت فيما بعد بـ "الكالفينية"، من ناحية أخرى - أعطيت العديد من الحقوق إلى المسيحيين البروتستانت في فرنسا؛ وذلك بموجب فرمان نانت في عام ١٥٩٨م (1035).

علم الأوروبيون قيمة الماضي الكلاسيكي، وبدأ النمو في دراسة النصوص اللاتينية واليونانية، والنظر للعصر اليوناني الروماني كعصر ذهبي، دفع هذا العديد من الفنانين والكتّاب إلى البدء في الرسم من الأمثلة الرومانية واليونانية لأعمالهم، ولكن كان هناك أيضًا الكثير من الابتكارات في هذه الفترة، لاسيما من قبل فنانين متعددي الأوجه، مثل: "ليوناردو دافنشي"، ورأى الإنسانيون في استعادة ممتلكاتهم للماضي العظيم بمثابة عصر نهضة وولادة جديدة للحضارة لنفسها (1036).

ازدهرت أوروبا بشكل أوسع، وفي ألمانيا رسم الفنان الألماني "ألبرخت دورر" الرسوم الدينية، وأظهر موهبته في فن التصوير الزيتي، كما أنجز العديد من الرسومات التخطيطية وبعض الرسومات المائية، بالإضافة إلى الرواشم (تستخرج عن طريق الطباعة بالرسوم البارزة)، وفي إنجلترا ازدهرت الثقافة وتلعل الأدب، وكتب شاعر الوطنية وشاعر آفون الملحمي والكاتب والممثل "وليم شكسبير" روايته الخالدة، وفي إسبانيا تألق وكتب "ثيبرانتس سايبيرا"، الجندي والشاعر والكاتب المسرحي والروائي أعماله الخالدة، حتى انتصر الفكر والذوق، ومع نهاية عصر الإصلاح والنهضة كانت العقول قد تمكنت من هدم المفاهيم المحدودة للكنيسة، وعلى إثر ذلك ظهرت العديد من الحركات الإصلاحية الجديدة، وشرعت في القيام بالتطورات في مجال العلوم والتكنولوجيا، وظهر في أوروبا العديد من المثقفين والفنانين ذي الطبقة البرجوازية.

في هذه الأجواء انقلبت السلطة العامة على رجال الدين واهتزت الكنيسة ومفاهيمها الخاطئة، لئضاء كل الجوانب الاجتماعية في أوروبا من كل اتجاه، وقامت الكنيسة الكاثوليكية بالعديد من المحاولات لمنع انتشار البروتستانتية، وأقيمت الطقوس الدينية المقدسة في ١٥٤٢م، واستردت فرنسا مرة أخرى

مرسوم نانت في عام ١٦٨٥م، ونتيجة منع انتشار البروتستانتية في فرنسا في عام ١٧١٥م، هاجر ما يقرب من ٢٥٠ ألف هوغوتي بروتستانت في فرنسا إلى أمريكا وهولندا، وقد عصى العديد من البروتستانتين السلطة الإسبانية في هولندا، وما بين أعوام ١٥٤٥-١٥٦٣م انتقد مجلس ترينتون بشدة مذهب البروتستانتية، وفي الوقت نفسه وجدت العديد من الجماعات المتشددة أن حركات الإصلاح غير كافية، حيث إن هذه الجماعات غالباً ما كانت تتعرض وتضايق الجماعات البروتستانتية، فهاجرت بعض الجماعات البروتستانتية إلى أمريكا الشمالية وقاموا بتأسيس مستوطنات لهم هناك.

كما تم وضع سوابق سياسية مهمة في هذه الفترة، فقد أثرت الكتابة السياسية لـ "نيكولو مكيافيلي" في كتابه رسالة الأمير، الذي يُعتبر رسالة سياسية كتبها هذا الدبلوماسي الإيطالي والمُنظر السياسي؛ كدليل إرشادي للأمرء وأفراد العائلة المالكة الجدد، مفادها أن أهداف الأمرء - مثل المجد والبقاء - يمكن أن تبرر استخدام وسائل غير أخلاقية لتحقيق تلك الغايات⁽¹⁰³⁷⁾؛ من أجل تمكينهم من الحكم المطلق والسياسة الواقعية، مما سيزرع نبتة الديكتاتورية القادمة.

من ناحية أخرى، حركات الإصلاح التي برزت في المسيحية بأوروبا؛ قد زعزعت من استقرار أوروبا السياسي وأضعفت سلطة الفاتيكان، فظهر الصراع الطائفي بين البروتستانت والكاثوليك.

الحرب الطائفية - حرب الثلاثين عامًا

بدأ الصراع الديني بين البروتستانت والكاثوليك في بوهيميا تحديداً، وسرعان ما تطور إلى حرب عامة شارك فيها الكاثوليك ضد البروتستانت في الغالب، واندلع هذا الصراع لمدة ثلاثين عامًا، على شكل سلسلة من الحروب التي وقعت بين أعوام ١٦١٨ و١٦٤٨م، عبر ألمانيا والمناطق المجاورة، وشاركت فيها معظم القوى الأوروبية الكبرى باستثناء إنجلترا وروسيا⁽¹⁰³⁸⁾.

أدت هذه الحرب إلى تدمير مناطق بأكملها، وأدت نوبات المجاعة والمرض على نطاق واسع؛ إلى تفكك الحياة الأسرية، وتدمير سكان الولايات الألمانية بشكل قاسٍ، وما بين ربع وثلث السكان الألمان لقوا حتفهم لأسباب عسكرية مباشرة أو من المرض والمجاعة، فضلاً عن الولادات المؤجلة، وبدرجة أقل، كان الخراب الواقع بالبلدان المنخفضة، كتاج بوهيميا؛ والأجزاء الشمالية من إيطاليا، بالإضافة إلى إفلاس العديد من القوى الإقليمية المعنية⁽¹⁰³⁹⁾.

وعلى الرغم من أنها تبدو ظاهرياً ك حرب مذهبية، إلا أنها في الحقيقة كانت صراعاً من أجل أغراض سياسية وليست دينية.

انتهت الحرب بصلح وستفاليا، لصالح الدول التي تقرر ولاءها الديني للبروتستانت في عام ١٦٤٨م، وانقسمت الإمبراطورية الرومانية - الألمانية المقدسة، التي تشكلت في ألمانيا إثر الحرب مع صلح وستفاليا، للعديد من

الدول الصغيرة المستقلة، وتقلصت صلاحيات السلطة الإمبريالية⁽¹⁰⁴⁰⁾، أصبح بعد ذلك الحكم المطلق هو القاعدة السائدة في القارة، بينما جرت أجزاء من أوروبا الدساتير التي تنبأت بها الحرب الأهلية الإنجليزية وخاصة الثورة المجيدة، لم يتوقف الصراع العسكري الأوروبي، ولكن كان له تأثير أقل تخريبياً على حياة الأوروبيين، وفي الشمال الغربي المتقدم، أعطى التنوير أساساً فلسفياً للنظرة الجديدة، كما أن الانتشار المستمر لمحو الأمية، الذي أصبح ممكناً بفضل المطبعة، خلق قوى علمانية جديدة في الفكر.

أما أوروبا الشرقية والوسطى، فكانت تحت سيطرة مملكة بولندا ودوقية ليتوانيا الكبرى، وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت أوروبا الوسطى والشرقية ساحة صراع للسيطرة على القارة بين السويد؛ والكومنولث البولندي الليتواني، والإمبراطورية العثمانية، شهدت هذه الفترة انخفاضاً تدريجياً في هذه القوى الثلاث التي تم استبدالها في النهاية بملكيات مطلقة مستنيرة جديدة: روسيا وبروسيا والنمسا (مملكة هابسبورغ)، (بحلول مطلع القرن التاسع عشر، سيصبحون قوى جديدة، بعد أن تم تقسيم بولندا فيما بينهم، وستتسبب السويد وتركيا في خسائر إقليمية كبيرة لروسيا والنمسا على التوالي، بالإضافة إلى الفقر).

٦٢ - إمبراطوريات استعمارية كبرى
(صراع الإمبريالية التوسعية) بعد توحيد إسبانيا
كدولة مسيحية، وبعد انتهاء مشروع محاكم
التفتيش، وإجبار المسلمين واليهود على
اعتناق المسيحية، ومصادرة أموال المسلمين
واليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية في
البرتغال وإسبانيا وطردهم، أصبحت
إمبراطورية إسبانيا التي استولت على قارات
أمريكا الوسطى والجنوبية وقارة إفريقيا
وجنوب شرق آسيا لأجل تأسيس إسطول
كبير؛ هي أول إمبراطورية استعمارية في
التاريخ الإنساني⁽¹⁰⁴¹⁾، تلاها إمبراطوريات
البرتغال وهولندا، فالهولنديون قد أسسوا
مستعمرات في أمريكا الشمالية وأمريكا
الجنوبية وإفريقيا وجنوب شرق آسيا، وعلى
إثر ذلك تبعتهم إنجلترا التي كانت قبل عام
١٥٨٨ أضعف بكثير من تلك الدول، لكن تم
الإعلان عن المملكة المتحدة البريطانية في
عهد أسرة تيودور وغادرت إسكتلندا، وقد
وضعت "إليزابيث الأولى" ملكة بريطانيا أسس
الإمبراطورية البريطانية بعد الانتصار على

الأرمادا الإسبانية التي تُعد أقوى أسطول بأوروبا في عام ١٥٨٨م [\(1042\)](#)، ناهية بذلك الهيمنة الإسبانية على المستعمرات الأمريكية، تلا ذلك، استيلاء القوات الهولندية والإنجليزية واحدة تلو الأخرى على المستعمرات التي توجد في أمريكا، لكن إنجلترا تمكنت من إجبار هولندا على الانسحاب من أمريكا الشمالية بعد الانتصار عليها في معركتين بحريتين في عام ١٦٦٧م، وتم تأسيس مملكة بريطانيا العظمى رسميًا، من خلال توحيد إنجلترا وإسكتلندا في عام ١٧٠٧م، أما فرنسا، فقد تركت كل مستعمراتها في أمريكا الشمالية لإنجلترا بمعاهدة باريس؛ التي أبرمت في نهاية حرب الأعوام السبع عام ١٧٦٣م، وبهذا الشكل استولت إنجلترا على كل المستعمرات التي توجد في أمريكا الشمالية، وبعدها تم تأسيس المملكة المتحدة البريطانية والأيرلندية العظمى من خلال ضم أيرلندا لاتحادها في عام ١٨٠٠م، لتُصبح المملكة المتحدة في العصر الفيكتوري؛ التي حكمت ما بين أعوام ١٨٣٧ و ١٩٠١م إمبراطورية لا تغرب

الشمس عنها⁽¹⁰⁴³⁾، ومع حلول عام ١٩٢١م؛ استولت بريطانيا على عدة مناطق شاسعة للغاية؛ تبلغ مساحتها ٣٦.٦ مليون كم، بما في ذلك الهند وأمريكا الشمالية والشرق الأوسط وأستراليا، وكانت تحكم في آنٍ واحد أكثر من ٤٥٨ مليون شخص، أي أن ربع سكان العالم كانوا تحت سيطرة بريطانيا العظمى.

أما في مملكة بروسيا، ففيها قام الملك "فريدريك العظيم" (١٧٤٠-١٧٨٦م)، بتحديث الجيش البروسي، بعد إدخال مفاهيم تكتيكية وإستراتيجية جديدة، بسبب ذلك نجح في معظم الحروب التي خاضها (حروب سيليزيا، وحرب السبع سنوات)، وعلى يديه تم مضاعفة حجم بروسيا، وكان لدى فريدريك أساس منطقي قائم على فكر التنوير، فقد خاض حروبًا شاملة لأهداف محدودة، كان الهدف إقناع الملوك المتنافسين بأن التفاوض وصنع السلام أفضل من الصدام معه في الحرب⁽¹⁰⁴⁴⁾(1045).

وأما مملكة روسيا، فقد خاضت حروبًا عديدة لتحقيق توسع سريع نحو الشرق؛ لتصل إلى سيبيريا والشرق الأقصى والجنوب والبحر الأسود والجنوب الشرقي وآسيا الوسطى، أصبح جيشها قويًا، وأصبح لديها بيروقراطية داخلية كبيرة ومعقدة للغاية، وكذلك محكمة رائعة تنافس باريس ولندن، وقد تمكنت من تقويض القوة العثمانية في أوروبا، وبرغم كل هذا؛ كانت الحكومة تعيش بما هو أبعد من إمكانياتها؛ واستولت على أراضي الكنيسة، تاركة الدين المنظم في حالة ضعيفة، وظلت روسيا طوال القرن الثامن عشر من الدول الفقيرة المتخلفة، والزراعية بأغلبية ساحقة لا صناعية، وكذلك أمية⁽¹⁰⁴⁶⁾، حتى بدأت الإمبراطورية الروسية التي أسسها "بطرس الأول" في عام ١٧٢١م بدلًا من روسيا القيصرية، والتي لعبت فيما بعد دورًا هامًا في التاريخ الأوروبي حتى الثورة البلشفية في عام ١٩١٧م. من ناحية أخرى ظهر التحالف العثماني المقدس الذي تحقق ما بين أعوام ١٦٨٣-١٦٩٩م، وهو تحالف فرنسي عثماني، قد بدأ في فقد هيمنته العسكرية بسبب هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحروب، وقد عانت الهيمنة في أوروبا من الانقلابات والكوراث ودخلت مرحلة الانحدار، وهو أول تحالف غير

أيدولوجي دبلوماسي من نوعه بين إمبراطوريتين مسيحية ومسلمة⁽¹⁰⁴⁷⁾، تعرضت فرنسا للانتقادات من قبل العالم المسيحي بسبب هذا التحالف⁽¹⁰⁴⁸⁾، وتم تسميته بـ التحالف الأثيم، وبرغم الاعتراضات، خدم هذا التحالف مصالح الإمبراطوريتين، وكان مؤثرًا بشكل خاص خلال الحروب الإيطالية، واستمر هذا التحالف لأكثر من قرنين ونصف القرن من الزمان⁽¹⁰⁴⁹⁾، حتى انتهى مع قيام الحملة الفرنسية على مصر بين عامي ١٧٩٨ - ١٨٠١م؛ بسبب أنها كانت ولاية عثمانية.

إعادة هيكلة أوروبا

بعد انتصارها على فرنسا في حرب السنوات السبع مع بريطانيا، وانسحاب فرنسا من كل مستعمراتها في أمريكا الشمالية؛ من خلال توقيع معاهدة باريس في عام ١٧٦٣م، حاولت بريطانيا تعويض خسارات الحرب من خلال فرض الضرائب الجبرية على مواطنيها الذين يعيشون في مستعمراتها، أدى ذلك إلى نشوب ثورات كبيرة في مستعمرات أمريكا الشمالية، وقد تمردت عشر مستعمرات أمريكية على الحكم البريطاني ١٧٧٤م، فاندلعت حرب الاستقلال الأمريكية، والتي انتهت بإجبار بريطانيا بمقتضى معاهدة باريس التي وقعت في عام ١٧٨٣م؛ على الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وترتب على ذلك فقدان بريطانيا لجزء كبير من مستعمراتها في أمريكا الشمالية⁽¹⁰⁵⁰⁾.

أما فرنسا، فقد دعمت حركات الاستقلال الأمريكية بالمال، وترتب على ذلك ظهور أزمة مالية كبرى، وقتها كان رجال الدين والنبلاء في النظام القديم يتم اغفأؤهم من الالتزامات الضريبية، وفي عام ١٧٨٩م جمع ملك فرنسا "لويس السادس عشر" النبلاء، واقترح إجراء تغيير في نظام الضرائب، لكن هذا المجلس البرجوازي القائم على الطبقة المتوسطة تحول لمجلس قومي، فتوتر الملك وأصابه القلق بسبب هذه التوترات، وعلى إثر ذلك قام بإقالة "جاك نيكير" وزير المالية الموالي بدوره للطبقة الوسطى، حينها شعرت الطبقة المتوسطة أن الملك يخطط لاسترداد حقوقهم التي اكتسبوها، فتمردت عليه، واستعانوا بعناصر مرتزقة من الشعوب الأخرى، واقتحموا سجن الباستيل في ١٤ يوليو ١٧٨١م⁽¹⁰⁵¹⁾، واستولوا على السجن وأخرجوا كل السجناء. وبهذا الشكل، دامت الثورة الفرنسية التي بدأت لفترة تقدر بخمس سنوات مختلفة بين أعوام ١٧٨٩ - ١٧٩٩م.

انتهت الثورة الفرنسية، وتركت تأثيرات عميقة على أوروبا والعالم الغربي كله، وقد أعلن انتهاءها عن انتصار السيطرة البورجوازية خلال التحالف مع نابليون، وتصدير الأزمة من خلال الاستعمار بالتوسع للإمبراطورية الفرنسية لاحقًا، وتمكنت من إسقاط الملكية وتأسيس الجمهورية، ورفعت "نابليون

بونابرت" على السلطة كديكتاتور، وقد استوحت الثورة الفرنسية أفكارًا راديكالية وليبرالية، غيرت بشكل عميق وكبير مسار التاريخ الحديث، وأطلقت الانحدار العالمي للملكيات المطلقة واستبدالها بالجمهوريات، وقد اعتبرها المؤرخون بالإجماع أنها واحدة من أهم الأحداث في التاريخ البشري كله⁽¹⁰⁵²⁾.

بعد انتهاء الثورة الفرنسية، دخلت فرنسا بقيادة نابليون في سلسلة من الحروب ضد دول قوية أخرى بأوروبا، بين أعوام ١٨٠٠-١٨١٥، وقد سُميت بالحروب النابليونية⁽¹⁰⁵³⁾، في المقابل، انتفضت مجموعة من الدول كبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا؛ من أجل صد هذه القوة المتعمقة، وكونت تحالفًا ضد فرنسا في ٩ مارس عام ١٨١٤م؛ بغرض إعادة ترتيب ميزان القوى الجغرافيا السياسية في أوروبا، فقد قرر المندوبين المسئولين إرسال كل الدول المشاركة في الحرب وفي معاهدة السلام التي أبرمت في باريس بتاريخ ٣٠ مايو ١٨١٤م، بمشاركة السويد والبرتغال؛ للمؤتمر الذي عقد في فيينا، وقد شارك فيه كل الدول الأوروبية ما عدا الإمبراطورية العثمانية، ومرة أخرى تم إعادة قضية توازن القوى والخريطة السياسية المتدهورة في أوروبا؛ بسبب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية، وفي مؤتمر فيينا الذي عُقد في عام ١٨١٥م، ظهرت محاولة إعادة هيكلة أوروبا مرة أخرى، ولوحت بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا وبروسيا باستخدام مذهبٍ يسمى بنظام مترنيخ، بمقتضاه سيفكرون حتمًا في الحماية باستخدام قوة السلاح⁽¹⁰⁵⁴⁾، وبرغم هذا التحدي الصلب، لم يدم هذا النظام طويلًا، وانهار نظام مترنيخ في نهاية الثورات عام ١٨٤٨م.

٦٣ - عصر التنوير (ثورة صناعية عظيمة)

ظهرت ثورة صناعية في أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، بسبب تأثيرات التغييرات الرئيسية في الزراعة والتصنيع والنقل على بريطانيا، ثم انتشرت لاحقًا لتصل أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، وهي طفرة صناعية عظيمة؛ ظهرت فيها التطورات التكنولوجية لأول مرة، وأبرزها استخدام المحرك البخاري في المصانع، فالمحرك البخاري كان له مفعول السحر في التحول الصناعي المفاجئ بأوروبا، فقد بدأ استخدام المحرك البخاري بدلًا من القوة البشرية في المصانع، ومن ناحية أخرى قد سمح بتنقل الإنسان والبضائع بشكل أسرع، حيث إنه هيا تحرك السفن والقاطرات، وقد ازدهرت هذه الطفرة في إنجلترا وإسكتلندا في منتصف القرن الثامن عشر، مع ظهور ميكنة صناعات النسيج بدلًا من استخدام الأيدي العاملة، وكذلك تطوير تقنيات صنع الحديد، وزيادة استخدام الفحم كوقود رئيسي، وغيرها من التطورات التكنولوجية، وترتب على ذلك تمكين التوسع التجاري من خلال إدخال القنوات؛ وتحسين الطرق والسكك الحديدية، وكذلك إدخال الطاقة البخارية المعتمدة على الفحم، والآلات التي تعمل بالطاقة، التي عززت الزيادات الهائلة في الطاقة الإنتاجية⁽¹⁰⁵⁵⁾.

بالإضافة إلى أن تطوير أدوات الآلات المصنوعة من المعدن بالكامل في العقدين الأولين من القرن التاسع عشر؛ سهل تصنيع المزيد من آلات الإنتاج التطور في الصناعات الأخرى، وخلال سنوات بسيطة؛ انتشرت التأثيرات في جميع أنحاء أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية خلال القرن التاسع عشر، وأثرت في النهاية على معظم العالم، وأحدثت هذه الثورة الصناعية تغيرًا وتطورًا هائلًا في حياة الإنسان البشري⁽¹⁰⁵⁶⁾.

في الماضي؛ بعد أن ازدهرت أن ازدهرت الحركات الحضرية والعصرية في القرن الخامس عشر بأوروبا، امتدت للموضوعات العلمية والدينية والفلسفية في القرن الثامن عشر، وتبنت أوروبا البنات التحررية والعقائدية والعلمية بدلًا من المعتقدات التقليدية والخرافية كنتاج لعصر التنوير⁽¹⁰⁵⁷⁾، ومن رواد هذه الفترة، الفيلسوف والعالم الرياضي والفيزيائي الفرنسي "رينيه ديكارت" الملقب بـ "أبو الفلسفة الحديثة"، وكذلك استهل كل من "إسحاق نيوتن" و"نيكولاس كوبرنيكوس" حقبة جديدة في العلوم؛ بتفسيرات عقلانية؛ نقلت الأحداث الفيزيائية والفلكية بموضوعية علمية، أما رينيه و"إيمانويل كانط" فكان دورهما إعداد البنية الفلسفية لهذه التطورات العلمية. الثورة الفرنسية نفسها، تُعد تطورًا تأثرت به الأفكار الجديدة؛ التي برزت

في الفن والدين والعلوم والفلسفة، على الحياة اليومية للأشخاص لأول مرة، وقد أدى تصنيع المنتجات الاستهلاكية من خلال استخدام قوة الآليات إلى النهضة المفاجئة بمستوى الرفاهية للشعوب الأوروبية؛ فقد تزايد الدخل القومي للأفراد أضعافًا مضاعفة فجأة⁽¹⁰⁵⁸⁾، وقد أدى إلى الانفجار السكاني. وفي المُجمل، شهد "القرن التاسع عشر الطويل"، وتحديدًا من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٩١٤م، تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية جذرية، والتي بدأتها الثورة الصناعية والثورة الفرنسية والحروب النابليونية، وبعد إعادة تنظيم الخريطة السياسية لأوروبا في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م، شهدت أوروبا صعود القومية.

٦٤ - نهضة الأمم وصراع القوميات الناشئة
(نحو حربٍ أوروبيةٍ شاملة) بعد انعقاد مؤتمر
فيينا بعد حروب نابليون في عام ١٨١٥م، كانت
القرارات الصادرة هدفها إقامة توازن فيما بين
القوى العظمى بأوروبا، ولم يكن يعلم
المشاركون في هذا المؤتمر أن المشاكل
الناجمة عن الثورة الصناعية وعن الشجاعة
التي منحتها الثورة الفرنسية لشعب أوروبا؛
ستسمح لهذا التوازن بتشكيل وعي شعبي،
فقد انتبعت الشعوب لأزماتها؛ ووقعت العديد
من الثورات بأوروبا فيما بين أعوام ١٨١٥-
١٨٧١م، وظهرت حركات الوحدة الوطنية،
والحركات الاشتراكية: التي تهدف إلى ترسيخ
نظام اقتصادي يمتاز بالملكية الجماعية
لوسائل الإنتاج والإدارة التعاونية للاقتصاد؛
كفلسفة سياسية تدافع عن هذا النظام
الاقتصادي، وكذلك الحركات الأناركية
اللاسلطوية: التي تهدف إلى نشر فلسفة
سياسية، فكرتها أن الدولة غير مرغوب فيها،
وغير مهمة بل مُضرة للمجتمع، وتدعو لمجتمع
بلا دولة، وتسعى لتحجيم أو إلغاء تدخل

السلطة في سلوك العلاقات الإنسانية.

انتقد الفيلسوف الألماني "كارل ماركس" الرأسمالية الملكية الخاصة في البيان الشيوعي الذي كتبه في عام ١٨٤٨م، وحدثت انتفاضات ومظاهرات وأعمال شغب باسم ثورات ١٨٤٨ في أفلاق⁽¹⁰⁵⁹⁾، ووصلت تبعياتها إلى فرنسا والنمسا وبولندا وباقي أراضي الإمبراطورية العثمانية، وكذلك المناطق الألمانية والإيطالية، الذين كانوا دويلات منفصلة بأوروبا وقتها⁽¹⁰⁶⁰⁾، وخلال الحروب النابليونية انهدمت تلك الدويلات في شبه الجزيرة الإيطالية، واحتلت النمسا جزءًا كبيرًا من إيطاليا.

كان مؤتمر فيينا يفكر في إعادة تأسيس الدول القديمة في شبه الجزيرة الإيطالية مرة أخرى، وبرغم ذلك، بدأ ينتشر بين الشعب فكرة إنشاء دولة واحدة في شبه الجزيرة بدلًا من إعادة تأسيس هذه الدول، وشعرت سردينيا بأمس الحاجة لدعم بريطانيا وفرنسا لطرد النمساويين من إيطاليا، وانضمت لحرب القرم ولكنها لم تجد أي جدوى من هذا، ولم تتمكن النمسا من تحمل الصمود أمام التمردات الجارية، وفي نهاية المطاف تخلت عن إيطاليا باستثناء البندقية، وتم الإعلان عن قيام مملكة إيطاليا في عام ١٨٦١م⁽¹⁰⁶¹⁾.

في غضون ذلك تم توحيد مناطق ألمانيا فيما حول بروسيا، وتولى "فيلهلم أوتو فون بسمارك" رئاسة الوزراء في عام ١٨٦٢م، وقام بحل مجلس بروسيا، وكذلك أعلن الحرب على الدنمارك، واستولى على الدويلات الألمانية واحدة تلو الأخرى باستخدام قوة بروسيا العسكرية، ثم قام بتأسيس الاتحاد الألماني الشمالي، وجعل عاصمة هذا الاتحاد برلين، وهزم الجيش الفرنسي بقيادة "نابليون الثالث" وضم منطقتي الألزاس واللورين، وكان هذا هو الإعلان عن تأسيس الإمبراطورية الألمانية في ٨ يناير ١٨٧١م، وكان إمبراطور ألمانيا هو المستشار "فيلهلم الأول بسمارك" ملك بروسيا⁽¹⁰⁶²⁾.

وأصبحت الإمبراطورية البريطانية أكبر إمبراطورية في التاريخ؛ بسبب أن تقنيات النقل البحري المحسنة في ذلك الوقت، وكذلك الاتصالات الإلكترونية من خلال التلغراف والكابل والراديو، كانت في أوجها حتى عام ١٩٢٠م، وغطت الإمبراطورية البريطانية ربع مساحة الأرض وشكلت ربع سكانها، وتابعت دول أوروبية أخرى، مثل بلجيكا وألمانيا وإيطاليا، توسعاتهم خاصة في إفريقيا، وبتجاهل المحيطات، قامت روسيا ببناء الإمبراطورية الروسية من خلال الفتح البري في أوروبا الشرقية وآسيا، وشهدت أوروبا صعود القومية، وعلى إثر ذلك، صعود الإمبراطورية الروسية، وذروة الإمبراطورية البريطانية، فضلًا عن انهيار قوة الإمبراطورية العثمانية بشكل ملحوظ، وكذلك أدى صعود الإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية النمساوية المجرية؛ إلى بدء مسار

الأحداث التي بلغت ذروتها في اندلاع حرب القرم، ثم الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م.

حرب القرم وضعف القوة العثمانية (الطريق نحو الحرب العالمية) في الماضي وتحديداً في منتصف القرن التاسع عشر منتصف القرن التاسع عشر، تدهورت الإمبراطورية العثمانية بشكل واضح؛ وأصبحت هدفاً للقوى العالمية الأخرى، تابعت روسيا سياسة تدهور الدولة العثمانية حتى عام ١٨٥٣م، وفي تلك الوقت قررت إبادة الإمبراطورية العثمانية تمامًا، واستخدمت قضية الأراضي المقدسة لتلك الغرض، فأرسلت طلباً بتحويل رعاية الأقلية الأرثوذكسية من الدولة العثمانية لروسيا، وبناءً على ذلك تدخلت الحكومة البريطانية وأرسلت طلباً لإسطنبول برفض مطالب روسيا، فأرسلت روسيا جيشها دون إعلان الحرب لأفلاق وموالديا في ٢ يوليو ١٨٥٣، ردًا على ذلك عقد كلٌّ من بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا؛ مؤتمرًا في فيينا، وحاولوا منع الحرب؛ لكنهم فشلوا في ذلك، استمرت روسيا في تنفيذ الاجتياح، فأعلنت الإمبراطورية العثمانية الحرب على روسيا في ٢٣ أكتوبر ١٨٥٣، وطالبت كلًّا من بريطانيا وفرنسا بمشاركتها بشن الحرب على روسيا في ٢٨ مارس ١٨٥٤م⁽¹⁰⁶³⁾، أدى ذلك إلى اندلاع حرب القرم في عام ١٨٥٤، وبدأت الحرب بين إمبراطوريات أوروبا المنتشرة على الكرة الأرضية، والتي مهدت الطريق في النهاية للحرب العالمية الأولى، وحاصرت فرنسا والمملكة المتحدة ميناء سيفاستوبول؛ الذي يقع على البحر الأسود بروسيا في ١٧ أكتوبر ١٨٥٤، وقد دام الحصار لنحو عام، حتى أدى إلى سقوطه في ١١ سبتمبر ١٨٥٥م، وانضم أيضًا الإيطاليون للحرب كما ذكرنا، وفي النهاية، وافقت روسيا على إبرام اتفاقية في ٣٠ مارس ١٨٥٦م، وبموجب اتفاقية باريس التي أبرمت بين فرنسا وبريطانيا والإمبراطورية العثمانية وسردينيا؛ فقد اعترفت روسيا بوحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية⁽¹⁰⁶⁴⁾.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شنت مملكة سردينيا ومملكة بروسيا سلسلة من الحروب؛ أسفرت عن إنشاء إيطاليا وألمانيا كدولتين قوميتين؛ مما أدى إلى تغيير كبير في ميزان القوى في أوروبا، ومن عام ١٨٧٠م، أوتو فون بسمارك سعى لهيمنة ألمانية على أوروبا، وضعت فرنسا الخصم القديم في موقف حرج، فأجبرت على بناء علاقاتها ببطاء، وسعت إلى تحالفات مع روسيا وبريطانيا للسيطرة على القوة المتنامية لألمانيا، وبهذه الطريقة، تم تشكيل جانبيين متعارضين - التحالف الثلاثي لعام ١٨٨٢م (ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا)، والوفاق الثلاثي لعام ١٩٠٧م (بريطانيا وفرنسا وروسيا)؛ مما أدى إلى تحسين قواتهم العسكرية وتحالفاتهم عامًا تلو الآخر، حتى جاءت ساعة المواجهة بينهما في الحرب العالمية الأولى.

٦٥ - الحروب العالمية (رعونة الإمبريالية)



خريطة أوروبا قبل الكارثة

ظهر التنافس بين القوى الأوروبية، الذي تفاقم بسبب القومية المتصاعدة بين المجموعات العرقية (1065)، وتعتبر الإمبريالية التوسعية هي من أهم أسباب احتدام النزاع بين القوى الغربية في الحروب العالمية، فعلى سبيل المثال: ألمانيا التي أنشئت حديثاً لم يكن لديها مستعمرات في آسيا وإفريقيا بعكس الدول الأوروبية الباقية، في نفس الوقت كانت تسعى فرنسا لاسترداد الألباس واللورين من ألمانيا نفسها، وكانت مصالح روسيا والنمسا تحتك بالدول السلافية في البلقان، وفي هذا الوقت كانت القوى الأوروبية تتمتع بالرعونة والغرور، في النهاية بدأت شرارة الحرب في النمسا، عندما قام الصربي "جافريلو برنيسيب" باغتيال "فرانتس فرديناند"، الوريث المفترض لعرش الإمبراطورية النمساوية المجرية المتحدة في سراييفو (1066).

الحرب العالمية الأولى (1067) بدأت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ يوليو ١٩١٤م، واستدرجت الحرب القوى الغربية واحدة تلو الأخرى، وكأنهم كانوا يريدون هذه الحرب بتعطش، وشكلت ألمانيا والنمسا

وبلغاريا والإمبراطورية العثمانية التحالف المعروف باسم دول المحور، أما بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وروسيا، والولايات المتحدة، وبلجيكا، وأستراليا، فقد شكلوا التحالف المعروف بدول الحلفاء، وقد اشتعلت الحرب في العديد من الجبهات، مثل الجبهة الغربية وجبهة القوقاز وجبهة تشانكالي والجبهة الجاليكية وسوريا وسيناء والعراق ومقدونيا، بعد أن تم حشد أكثر من ٦٥ مليون جندي أوروبي من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨م، قُتل ٢٠ مليون جندي ومدني، وأصيب ٢١ مليونًا بجروح خطيرة (1068)، واشتبكت الجبهة الغربية بشكل خاص في قتال وحشي دون أي مكاسب إقليمية لأيٍّ من الجانبين، قتلت المعارك الفردية مثل فردان والسوم مئات الآلاف من الرجال، وتسببت المدفعية الثقيلة والرشاشات في معظم الإصابات، إضافة إلى الغازات السامة، حلفاء ألمانيا (النمسا والمجر والإمبراطورية العثمانية) استسلمتوا، وتبعتهم ألمانيا في ١١ نوفمبر ١٩١٨م (1069)، وأجبر المنتصرون ألمانيا على تحمل مسؤولية الصراع ودفع تعويضات الحرب.

اضطرابات جديدة

كانت الخسارة لها تبعات صاعقة، فقد انهارت وتفككت ثلاث إمبراطوريات كبيرة بأوروبا، وهي: الإمبراطورية الروسية، والإمبراطورية النمساوية - المجرية، والإمبراطورية العثمانية، فقد قامت ثورة البلاشفة في روسيا في ٧ نوفمبر ١٩١٧م، وبناء عليها انسحبت روسيا من الحرب بتوقيع معاهدة السلام "بريست ليتوفسك" مع القوى المركزية في ٣ مارس ١٩١٨م (1070)، وظهر الاتحاد السوفيتي كنظام اقتصادي، وكذلك أنهت الإمبراطورية العثمانية الحرب في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨م بتوقيع هدنة "مودروس" وأعلنت الجمهورية التركية بدلًا من الإمبراطورية العثمانية التي انتهت للأبد في ١٩ أكتوبر ١٩٢٣م، أما ألمانيا فقد انسحبت من الحرب بتوقيع معاهدة السلام "فرساي" المذلة في ٢٨ يونيو ١٩١٩م.

كان أحد العوامل في تحديد نتيجة الحرب هو أن الحلفاء كان لديهم موارد اقتصادية أكبر بكثير يمكنهم إنفاقها على الحرب (1071).

بعد انهيار وول ستريت عام ١٩٢٩م، غرق العالم كله تقريبًا في الأزمة العالمية المعروفة بالكساد الكبير، حيث توقف تدفق الأموال من نيويورك إلى أوروبا، وعلى إثر ذلك انخفضت أسعار الأسهم، وانخفضت الأرباح، وكذلك ارتفعت معدلات البطالة، ووصل الضرر إلى الصناعات الثقيلة، والزراعة الموجهة للتصدير، والتعدين، وقطع الأخشاب والبناء، وتشير الإحصائيات إلى أن التجارة العالمية انخفضت بنسبة الثلثين (1072).

بسبب ذلك، فقدت الليبرالية والديمقراطية مصداقيتها في معظم أنحاء أوروبا، وتحول نظام الحكم للدول إلى دكتاتوريين وأنظمة استبدادية، وكانت المؤسسة الرئيسية التي كان من المفترض أن تحقق الاستقرار هي عصبة الأمم (فيما يشبه الأمم المتحدة الآن)، التي أنشئت في عام ١٩١٩م، ومع ذلك فشلت العصبة في حل أي أزمات كبرى، وبحلول عام ١٩٣٨م تم تقويض

العصبة بسبب عدوانية ألمانيا النازية وإمبراطورية اليابان والاتحاد السوفيتي وإيطاليا موسوليني، وبسبب عدم مشاركة الولايات المتحدة، وبحلول عام ١٩٣٧م تم تجاهل عصبة الأمم وكأنها لم تعد موجودة⁽¹⁰⁷³⁾.

أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية قوة اقتصادية كبرى في العالم، وحدثت من قوة بريطانيا بعد أن أخرجت ألمانيا من الحرب بخسارة فادحة، وارتفعت معدلات البطالة والتضخم باستمرار في إيطاليا، وشعرت كل دول أوروبا بالآزمة الاقتصادية العالمية في عام ١٩٢٩م⁽¹⁰⁷⁴⁾، في نفس الوقت، اندلعت حرب أهلية كبرى في إسبانيا، انتصر فيها القوميون، وكالمعتاد وقفت عصبة الأمم عاجزة عندما غزت إيطاليا إثيوبيا، وعندما استولت اليابان على منشوريا عام ١٩٣١م، وعلى معظم الصين بدءًا من عام ١٩٣٧م⁽¹⁰⁷⁵⁾.

انتصر الفصيل القومي المتمرد بقيادة الديكتاتور "فرانسيסקو فرانكو" في عام ١٩٣٩م، وكانت إسبانيا عبارة عن ساحة نزاع مصغرة بين فصليين مختلفين، فقد تدخلت إيطاليا موسوليني عسكريًا، وأرسلت قوات برية للقوميين، وكذلك أرسلت ألمانيا هتلر نخبة أصغر من القوات الجوية والوحدات المدرعة إلى القوميين، من ناحية أخرى، باع الاتحاد السوفيتي أسلحة للفصيل الجمهوري اليساري، بينما أرسلت الأحزاب الشيوعية في العديد من الدول جنودًا إلى الكتائب الدولية، وبهذا الشكل أصبحت الحرب الأهلية ساحة معركة أيديولوجية عالمية، وحرص اليسار والحركة الشيوعية والعديد من الليبراليين ضد الكاثوليك والمحافظين والفاشيين، من ناحية أخرى - ظلت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة (الدول الديمقراطية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى) على الحياد، بل رفضوا بيع الإمدادات العسكرية إلى أيٍّ من الجانبين.

كان هناك انخفاض في النزعة السلمية في جميع أنحاء العالم، وشعور متزايد بأن هناك حربًا عالمية أخرى وشيكة.

الحرب العالمية الثانية

بسبب شعور بريطانيا وفرنسا بتوتر المنطقة؛ تبنت الدولتان سياسة الإرضاء في اتفاقية ميونيخ لعام ١٩٣٨م، وأعطت هتلر ما يريده من تشيكوسلوفاكيا؛ على أمل أن يؤدي ذلك إلى إحلال السلام، لكن في عام ١٩٣٩م؛ استولت ألمانيا على بقية تشيكوسلوفاكيا، وأصبح من الواجب إعادة التسلح على عجل؛ حيث حوّل هتلر انتباهه بعد ذلك إلى بولندا، في خطوة تعتبر إيدانًا بدء حرب جديدة، وبعد التحالف مع اليابان، وبعدها مع إيطاليا، والتوقيع أخيرًا على معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفيتي في أغسطس ١٩٣٩م، أطلق هتلر الحرب العالمية الثانية في ١ سبتمبر ١٩٣٩م بمهاجمة بولندا، وردًا على ذلك أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا، ولكن كان هناك القليل من القتال الوهمي، وقد سميت هذه الفترة بـ "الحرب الزائفة"، لكن بدأت

الحرب بشكل جدي بعد ذلك في ربيع عام ١٩٤٠م بغزوات هتلر الخاطفة الناجحة للدنمارك والنرويج والبلدان المنخفضة وفرنسا، بقيت بريطانيا وحيدة لكنها رفضت التفاوض، وهزمت الهجمات الجوية الألمانية في معركة لندن الشهيرة، وبسبب فشل هتلر في مهاجمة بريطانيا، بالإضافة إلى الإخفاقات الإيطالية في شمال إفريقيا والبلقان، تعطل هدف هتلر الأساسي من الحرب، وهو السيطرة على أوروبا الشرقية، لذلك تأخر الهجوم الكبير على الاتحاد السوفيتي حتى يونيو ١٩٤١م، على الرغم من النجاحات الأولية، تم إيقاف الفيرماخت النازي بالقرب من موسكو في ديسمبر ١٩٤١م⁽¹⁰⁷⁶⁾.

مع حلول العام الثاني، انقلب المد وبدأ الألمان يعانون من سلسلة من الهزائم، وفي نفس الأثناء هاجمت اليابان (المتحالفة مع ألمانيا وإيطاليا منذ سبتمبر ١٩٤٠م) بريطانيا والولايات المتحدة في ٧ ديسمبر ١٩٤١م، ثم أكملت ألمانيا تهديداتها المفترطة وتوسيع نطاق النزاع بإعلان الحرب على الولايات المتحدة، واکتملت الحرب بين دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) وقوات الحلفاء (الإمبراطورية البريطانية والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة)، وعلى التو انتصرت قوات الحلفاء في شمال إفريقيا، وغزت إيطاليا عام ١٩٤٣م، واستعادت فرنسا من ألمانيا عام ١٩٤٤م، وفي ربيع عام ١٩٤٥م غزا الاتحاد السوفيتي ألمانيا نفسها من الشرق، ومن الغرب غزاها الحلفاء الآخرون، واستسلمت ألمانيا في أوائل مايو⁽¹⁰⁷⁷⁾، وبعد الحرب، قسم كلٌّ من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي ألمانيا إلى أربع مناطق محتلة⁽¹⁰⁷⁸⁾، وأصبحت المنطقة التي احتلها الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٤٩م جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وكونت الثلاث مناطق الأخرى؛ جمهورية ألمانيا الاتحادية، وخرجت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي من الحرب كدول عظمى، لتنتهي أكثر النزاعات دموية في تاريخ البشرية، الحرب التي قتلت ما بين ٥٠ و ٨٠ مليونًا، منهم حوالي من ٣٨ إلى ٥٥ مليون مدني⁽¹⁰⁷⁹⁾، بالإضافة إلى المذابح النازية العرقية- على رأسهم اليهود والغجر، والسلاف البولنديون والسوفيت، وكذلك المعاقون، والمرضى، والمثليون جنسيًا، وشهود يهوه، وغير الأسوياء، والأعداء السياسيون، وفي نفس وقوع هذه المذابح، أي في الثلاثينيات من القرن الماضي، كان النظام السوفيتي هو أيضًا قد أجبر الناس على العمل الجبري والطرده والمجاعة المدبرة المزعومة، وكان عدد الضحايا كبيرًا جدًّا، وخلال الحرب وبعدها، تأثر ملايين المدنيين من جراء عمليات النقل القسري للسكان⁽¹⁰⁸⁰⁾.

٦٦ - الحرب الباردة (تداعيات تفكك الاتحاد السوفيتي)



هكذا كان حجم الاتحاد السوفياتي اثناء الحرب الباردة انتهت سياسات الإمبراطوريات الإمبريالية العظمى لبريطانيا وفرنسا وألمانيا في أوروبا والعالم؛ بسبب الحرب العالمية، وفي مؤتمر يالطا (مؤتمر القرم)، تم تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ بين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، وسرعان ما أصبحت منطقة الخلاف الرئيسية في الحرب الباردة بين كتلتين قويتين من الناحية السياسية والاقتصادية، وشكلت: ألمانيا الشرقية

الواقعة في أوروبا الشرقية، وبولندا ورومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا حلف وارسو تحت قيادة الاتحاد السوفيتي⁽¹⁰⁸¹⁾، من ناحية أخرى شكلت دول أغلبيتها من الديمقراطيات الليبرالية الأوروبية كـ: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان وتركيا حلف شمال الأطلسي (الناتو) بقيادة الولايات المتحدة، وتُعرف دول حلف وارسو بالكتلة الشرقية، ودول حلف الأطلسي بالكتلة الغربية، وكان لدى حلف وارسو قوة برية أكبر بكثير، لكن المظلات النووية الأمريكية والفرنسية والبريطانية كانت تحمي الناتو.

كان هناك بعض الدول التي رجحت أن تكون على الحياد، مثل: الجمهورية الاتحادية الاشتراكية اليوغوسلافية، والدول الاشتراكية الألبانية، برغم أنهم يتشابهون مع دول حلف وارسو، ف يوغوسلافيا هي من مؤسسي حركة عدم الانحياز، وظلت على الحياد خلال الحرب الباردة، وعلى نفس الخطى، الدول الأوروبية الكبرى الأخرى مثل سويسرا والنمسا وأيرلندا والسويد وفنلندا.

فرض الجيش الأحمر الدول الشيوعية في الكتلة الشرقية، بينما أصبحت الديمقراطية البرلمانية الشكل السائد للكتلة الغربية، يشير معظم المؤرخين إلى نجاحها على أنه نتاج الإرهاق من الحرب والديكتاتورية، كوعد بالازدهار الاقتصادي المستمر، بالإضافة إلى الائتلافات السياسية المناهضة للنازية في زمن الحرب⁽¹⁰⁸²⁾.

ظهر صراع متصاعد بين الكتلتين ابتداءً من عام ١٩٥٠م مع الأخذ في الاعتبار عدم إعادة ما مضى وتجنب الحرب المباشرة، فيما يُعرف بالحرب الباردة⁽¹⁰⁸³⁾، وكانت هذه الحرب في ظاهرها باردة لكن في باطنها ساخنة، فكان كل حلف متأهبًا ومستعدًا لأي صراع عسكري في أي لحظة، وخلال هذه الفترة، كان هناك حدث مهم جدير بالذكر في تاريخ حلف شمال الأطلسي؛ وهو استبعاد فرنسا من الجناح العسكري لحلف شمال الأطلسي في مارس ١٩٦٦م، وثاني أهم حدث في حلف وارسو هو قمع جيوش الاتحاد السوفيتي للثورة الهنغارية ولربيع براغ في عام ١٩٥٦م بوحشية.

وتعتبر الحرب الكورية من أول مراحل الحرب الباردة، وتعد إحدى نقاط التحول الأخرى هي حرب جدار برلين، التي قامت لتجنب هروب مواطني ألمانيا الشرقية للغرب في عام ١٩٦١م، والجدير بالذكر أن قمع دول وارسو لربيع براغ بالقوة في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨م، قد زود أكثر من حدة التوتر بين الجانبين.

الإخفاق الذي تحمله الاتحاد السوفيتي في أعقاب احتلال أفغانستان قد أضعف الكتلة الشرقية، تلاه توتر كبير جدًا في الداخل السوفيتي، خاصة بعد عدم مصداقية وعود رئيسه "ميخائيل غورباتشوف"، ورغبة الأمم الداخلية في إنهاء التوترات السوفيتية الأمريكية، وبسبب الانقسامات الداخلية التي لحقت بجيوش الاتحاد السوفيتي الذي استنزف في أفغانستان، وضعف الحكومة

المركزية، وانهيار جدار برلين، وسيطرة الجوانب العسكرية على الاقتصاد، مما أدى إلى الانقلاب على الحاكم بعد ذلك، وتفكيك الاتحاد، وبالتالي انتهت الحرب الباردة⁽¹⁰⁸⁴⁾.

تداعيات تفكك الاتحاد السوفيتي

شهد الاتحاد السوفيتي ركودًا داخليًا وانفصالية عرقية، على الرغم من أن البلاد كانت مركزية للغاية حتى سنواتها الأخيرة، إلا أنها كانت تتكون من خمس عشرة جمهورية؛ كانت بمثابة أوطان لأعراق مختلفة، في النهاية، تطور الأمر إلى صراع سياسي وتشريعي مستمر، وكانت إستونيا أول جمهورية سوفيتية تعلن سيادة الدولة داخل الاتحاد في ١٦ نوفمبر ١٩٨٨م، وكانت ليتوانيا أول جمهورية تعلن استقلالها الكامل عن الاتحاد السوفيتي بموجب قانون ١١ مارس ١٩٩٠م مع جيرانها في البلطيق وجمهورية جورجيا الجنوبية القوقازية، ومع نهاية الحرب الباردة ظهرت بعض الحركات القومية مرة أخرى؛ حيث إنها ظلت تحت وطأة أوروبا الشرقية، وظهرت الانقسامات الدموية في دول الاتحاد السوفيتي السابق بسبب التنوع العرقي، ووقعت حروب عديدة كحرب البوسنة بين أعوام ١٩٩٢-١٩٩٥م، وكذلك حرب كوسوفو بين عامي (١٩٩٨-١٩٩٩م)، وفي عام ١٩٨٨م أشعلت كارباخ الحرب بين الأرمن الذين يرفضون ارتباط أرمينيا الاشتراكية السوفيتية بأبلاست ناغورني كاراباخ المستقلة والوثيقة الصلة بجمهورية أذربيجان السوفيتية الاشتراكية؛ وبين الأذربيجان الذين لم يتقبلوا ذلك⁽¹⁰⁸⁵⁾، وعلى إثرها وقعت الحرب بين جمهورية أرمينيا وجمهورية أذربيجان، وقد وقعت مذابح مثل: مذبحه سومغايت، ومذبحه كيروفاد، ومذبحه باكو، ومذبحه خوجالي، ومذبحه مراغا، بسبب تحول الصراعات العرقية، وكذلك خاضت ترانسنيستريا الحرب في مولودوفا في عام ١٩٩٢م، وحدث صراع أوسيتيا - إنغوشيا في نهاية عام ١٩٩٢، وكذلك الحرب الشيشانية الأولى فيما بين أعوام (١٩٩٤-١٩٩٦م)، وأيضًا الحرب الشيشانية الثانية في عام ١٩٩٩م، والحرب الأهلية الجورجية، وبعدها صراعات جورجيا وأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية فيما بين أعوام (١٩٩٨-٢٠٠٤م).

احتفظت العديد من الجمهوريات السوفيتية السابقة بصلات وثيقة مع روسيا، وتشكلت منظمات متعددة الأطراف، مثل: رابطة الدول المستقلة، ومنظمة معاهدة الأمن الجماعي (CSTO)، والاتحاد الاقتصادي الأوراسي (EAEU)، ودولة الاتحاد للتعاون الاقتصادي والعسكري، من ناحية أخرى، أصبحت دول البلطيق ومعظم دول حلف وارسو السابقة جزءًا من الاتحاد الأوروبي وانضمت إلى الناتو، بينما بعض الجمهوريات السوفيتية السابقة الأخرى مثل: أوكرانيا وجورجيا ومولدوفا، عبّروا علنًا عن اهتمامهم البالغ ورغبتهم في الانضمام للناتو منذ التسعينيات.

٦٧- أوروبا المتقدمة

(التكامل الأوروبي) ظهرت الأسس الفكرية للاتحاد الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية، والتي نصّت على دمج الدول الأوروبية سياسيًا واقتصاديًا، وكانت بلجيكا وألمانيا وفرنسا وهولندا ولوكسمبورغ؛ وإيطاليا أعضاء مؤسسين للجماعة الأوروبية للفحم والصلب؛ وبعد ٦ أعوام، أبرموا معاهدة روما في ٢٥ مارس عام ١٩٥٧م، وقاموا بتشكيل الجماعة الأوروبية للطاقة الذرية؛ والتي تُسمى أيضًا بيوراتوم⁽¹⁰⁸⁶⁾، وفي ذلك الوقت أيضًا، تأسست المجموعة الاقتصادية الأوروبية بمقتضى هذه الاتفاقية، من أجل التداول والبيع بحرية؛ من خلال الاتحاد الجمركي بين الدول الأعضاء؛ بدون دفع الرسوم الجمركية للسلع، وانضم بعد ذلك كلٌّ من إنجلترا والدنمارك وأيرلندا للمجموعة كعضو كامل العضوية⁽¹⁰⁸⁷⁾، وفي عام ١٩٨١م انضمت اليونان للمجموعة، وفي عام ١٩٨٥م انضمت أيضًا البرتغال وإسبانيا، وأبرموا جميعًا اتفاقية شنغن؛ التي تهدف

لإلغاء الرقابة على الحدود فيما بين الخمس دول الأعضاء في ١٤ يونيو عام ١٩٨٥م، وتبع ذلك أهداف جديدة؛ كخلق سياسات مشتركة في العديد من المجالات الأخرى، مثل: الزراعة والنقل والمنافسة والتقارب في السياسات الاقتصادية، وإنشاء الاتحاد الاقتصادي والنقدي، وخلق سياسة خارجية مشتركة وسياسة أمنية.

أما في الشرق، فبعد سلسلة من الأحداث العصيبة من ١٩٧٩ إلى ١٩٩١م، تم تقسيم الاتحاد السوفيتي إلى ١٥ دولة غير شيوعية في عام ١٩٩١م⁽¹⁰⁸⁸⁾، وتلاشت المواجهة النظامية والأيدولوجية بين الرأسمالية والشيوعية، وانتهى التنافس بين القوى العظمى بسرعة بتأثيرات متتالية في مناطق مختلفة من العالم⁽¹⁰⁸⁹⁾.

وفي ظل هذا الهدوء مضت المجموعة الاقتصادية الأوروبية نحو ترسيخ الاتحاد من أجل تكامل أوثق، وتعاون في الشؤون الخارجية والداخلية، وفتحت أيديها وبدأت في زيادة عضويتها للدول الشيوعية المحايدة السابقة، وفي عام ١٩٩٣م أنشأت معاهدة ماستريخت الاتحاد الأوروبي الحالي⁽¹⁰⁹⁰⁾، خلقًا للجماعة الاقتصادية الأوروبية، وعززت التعاون السياسي بين الدول المتحدة، ثم انضمت الدول المحايدة مثل النمسا وفرنلندا والسويد إلى الاتحاد الأوروبي، وتلك التي لم تنضم تم ربطها بالسوق الاقتصادي للاتحاد الأوروبي عبر المنطقة الاقتصادية الأوروبية، دخلت هذه الدول أيضًا في اتفاقية شنغن التي رفعت الضوابط الحدودية بين الدول الأعضاء⁽¹⁰⁹¹⁾.

أنشأت معاهدة ماستريخت عملة موحدة لمعظم أعضاء الاتحاد الأوروبي، وهي عملة اليورو في عام ١٩٩٩م، ليتم استبدال جميع العملات السابقة للدول المشاركة في عام ٢٠٠٢م، وكان الاستثناء الأكثر بروزًا لاتحاد العملات أو منطقة اليورو هو المملكة المتحدة، والتي لم توقع أيضًا على اتفاقية شنغن.

لم يشارك الاتحاد الأوروبي في الحروب اليوغوسلافية، وانقسم حول دعم الولايات المتحدة في حرب العراق (٢٠٠٣-٢٠١١م)، من ناحية أخرى - كان الناتو جزءًا من الحرب في أفغانستان، ولكن بمشاركة أقل بكثير من مشاركة

الولايات المتحدة.

ومع مطلع الألفينيات اكتسبت عملية إسهاب الاتحاد الأوروبي زخمًا مرة أخرى، وانضمت دول الكتلة الشرقية للاتحاد في عام ٢٠٠٤م، حيث حصل أغلبهم على الاستقلال⁽¹⁰⁹²⁾، وبعد ثلاثة أعوام، انضمت بلغاريا ورومانيا للاتحاد، ففي عام ٢٠٠٤م، حصل الاتحاد الأوروبي على ١٠ أعضاء جدد: إستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا، (التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي)، وجمهورية التشيك والمجر وبولندا وسلوفاكيا وسلوفينيا، ودول شيوعية سابقة: مالطا وجزيرة قبرص المقسمة، ورومانيا في عام ٢٠٠٧م.

اعترض الدب الروسي على هذه التوسعات، وفسرها بأنها انتهاكات ضد وعد الناتو في عام ١٩٩٠م، بعدم التوسع "بوصة واحدة إلى الشرق"⁽¹⁰⁹³⁾، وانخرطت روسيا في عدد من الخلافات الثنائية حول إمدادات الغاز مع بيلاروسيا وأوكرانيا، التي عرّضت إمدادات الغاز لأوروبا للخطر، كما انخرطت روسيا في حرب صغيرة مع جورجيا في عام ٢٠٠٨م، وبدعم كبير من الولايات المتحدة الأمريكية؛ وبعض الدول الأوروبية، أعلنت حكومة كوسوفو الاستقلال من جانب واحد عن صربيا في ١٧ فبراير ٢٠٠٨م، انقلب الرأي العام في الاتحاد الأوروبي ضد التوسع، ويرجع ذلك جزئيًا إلى ما كان يُنظر إليه على أنه توسع مفرط، بما في ذلك حصول تركيا على وضع مرشح.

اعتبارًا من عام ٢٠١٤م، كانت أوكرانيا في حالة ثورة واضطراب حيث تحاول منطقتان منفصلتان (دونيتسك ولوغانسك) الانضمام إلى روسيا كمواطنين فيدراليين كاملين، وفي ١٦ مارس؛ تم إجراء استفتاء متنازع عليه في شبه جزيرة القرم؛ مما أدى للانفصال الفعلي لشبه جزيرة القرم وضمها (غير المعترف به دوليًا) إلى الاتحاد الروسي باسم جمهورية القرم.

ومن الأحداث التاريخية الهامة في الاتحاد الأوروبي: الاستفتاء الذي تم في يونيو ٢٠١٦م؛ في المملكة المتحدة على عضوية البلاد في الاتحاد الأوروبي، حيث صوت ٥٢٪ من الناخبين من أجل مغادرة الاتحاد الأوروبي؛ مما أدى إلى عملية معقدة ومفاوضات بشأن خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي؛ وترتب على ذلك تغييرات سياسية واقتصادية لكل من دول الاتحاد الأوروبي، وبالفعل غادرت المملكة المتحدة الاتحاد الأوروبي في ٣١ يناير ٢٠٢٠م، وبعدها بأيام، تأثرت أوروبا بفيروس COVID-19.

وبعدما استفاقت أوروبا من شبح كورونا؛ بدأت روسيا غزو أوكرانيا في ٢٤ فبراير ٢٠٢٢م، في تصعيد كبير للحرب الروسية الأوكرانية؛ التي بدأت في عام ٢٠١٤م، وهو أكبر هجوم عسكري تقليدي في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية.

الخاتمة

في محاولة تأريخ أهم الحقب التاريخية على مر العصور، اعتمد هذا الكتاب على مصادر عديدة غربية وعربية؛ ليخرج بشكلٍ مختصرٍ ووافٍ، شارحًا تاريخ أوروبا منذ التكوين، وحتى اكتمال الخطة والهدف وتحقيق التقدم المرجو. وقد ركز هذا الكتابُ بالتحديد على التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى، ودراسة الأحوال الاجتماعية؛ لأنها تُعتبر الحِقبة الأهم في تاريخ القارة العجوز.

هذا الكتاب كُتب بشكلٍ واصلٍ لكل الوقائع والحروب والأحداث التي أثرت في مصير قارة أوروبا، وتحولها من البدائية إلى أهم القارات التي تتحكم بشكلٍ أو بآخر في مسار العالم اقتصاديًا وسياسيًا وفكريًا واجتماعيًا؛ فالأوروبيون أرادوا أن ينجحوا، ولهذا استطاعوا القفز من بئر الحروب العالمية التي هدمت بلادهم لفتراتٍ طويلة، حيث عادوا إلى مضمار العلوم وإعمال العقل؛ لاستكمال النهضة التي كادت تضع منهم بعد سنواتٍ من اللحاق بها. لكن الصراعات لا تنتهي، والحروب قد تأخذ أشكالًا مختلفة في كل عصر، والتاريخ قد يُعيد نفسه في أي وقت.

أما هنا، أردنا أن نشير إلى كل إمبراطورية قامت واستمرت، وكل إمبراطورية سقطت، وأسباب سقوطها؛ كي نبين ونعكس الفكر الأوروبي كيف بدأ، وكيف تَغَيَّر على مدار السنين، وكيف أنه في كثيرٍ من الأحيان كان الأوروبيون سببَ تقدُّمِ لأنفسهم وسببِ اضمحلالِ أيضًا؛ حيث مرت عليهم الكثير من اللحظات التي كان فيها قراؤ واحد قادرًا على تغيير مصير أمة، أو إخراجها من نفق مظلم. وفي النهاية، أتمنى أن يكون هذا العمل بمثابة النسخة الكاملة من صورة مليئة بالتفاصيل والخبايا والأسرار، التي تبلور منها الكثير وتبدد الكثير أيضًا، على مدار التاريخ القديم والحديث منه.

التواصل مع الكاتب

يمكنك تقييم الكتاب على موقع جود ريدز من هنا
www.goodreads.com/sherif_samy

الصفحة الرسمية للكاتب على الفيس بوك من هنا
www.facebook.com/mfsherifsherif_samy

الحساب الشخصي للكاتب على الفيس بوك من هنا
www.facebook.com/sherif_samy_92

القناة الرسمية للكاتب على اليوتيوب من هنا
www.youtube.com/mfsherifsherif_samy

حساب الكاتب على انستجرام من هنا
www.tiktok.com/@sherifsamy111

حساب الكاتب على انستجرام من هنا
www.instagram.com/shereef_samy

الهوامش

RYAN KISIEL FOR THE DAILY MAIL (5-11-2012), "The British are coming! Over the centuries, we've invaded a staggering nine out of 10 of the world's nations",
.www.dailymail.co.uk

Gross Domestic Product, Current Prices and Gross Domestic Product Based on Purchasing Power Parity (PPP) Assessment of Country Gross Domestic Product", World Economic Prospects Database, October 2015,
.International Monetary Fund, October 2015

المقصود: النسبة المرتفعة لكبار السن مقارنةً بالتعداد الكلي لعدد سكان القارة، ويُبرر المؤرخون أن
السبب في ذلك التطور الطبي الموجود فيها.

World Population Prospects 2022". population.un.org. United Nations Department of Economic and Social Affairs,
.Population Division

.Henry George Liddell, Robert Scott, A Greek-English Lexicon, on Perseus

The previous reference

الإله زيوس في معتقدات الإغريق هو أب الآلهة والبشر، الذي يحكم آلهة جبل الأوليمب باعتبارها الأب الوريث، وهو إله السماء والصاعقة في الميثولوجيا الإغريقية، ولديه من القوة ما يمكنه من إخضاع الطبيعة، التي كان الإغريق يخشونها كالبرق والرعد والسماء الواسعة.

حنا عبود، (٢٠١٨)، موسوعة الأساطير العالمية، ص٣٦.

راغب العلي، "أوروبا (تاريخياً)"، الموسوعة العربية.

هو ملك فينيقي ابن يوسيدون، وأمه ليبيا.

منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، بيروت: دار العلم للملايين، ص٧٣.

حنا عبود (٢٠١٨)، موسوعة الأساطير العالمية، ص٣٦.

هي تلك الكتلة الأرضية التي تبلغ مساحتها ٥٤٠٠٠٠٠٠٠ كم^٢، وهي مكوّنة من قارتي أوروبا وآسيا.

هي الجبال التي تصل بين قارتي آسيا وأوروبا، وتقع في روسيا وكازاخستان.

هي سلسلة جبال على الحدود بين قارتي آسيا وأوروبا، تمتد بين البحر الأسود وبحر قزوين.

موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج ١، من العصور القديمة وحتى الـ١٩، مجموعة باحثين، ترجمة: أنطوان الهاشم، ص١٣.

دائرة الإحصاءات الحكومية الفيدرالية (٢٠١١)، "النتائج الأولية للتعداد السكاني لعموم روسيا لعام ٢٠١٠".

Studies in View, United Nations, December 31, 2009, p. 389-391

.Joshua Calder's World Island Information", Worldislandinfo.com

.Река Волга" 2016-03-05 at the Wayback Machine, Russian State Water Registry"

.Sorokin, Aleksander I.; et al. (1996), "New morphometrical data of Lake Ladoga" Hydrobiologia. 322 (1-3): 65-67

Convention on the Legal Status of the Caspian Sea". President of Russia"

Zimnitskaya, Hanna; von Geldern, James (2011-01-01). "Is the Caspian Sea a sea; and why does it matter?".

Journal of Eurasian Studies. 2 (1): 1-14

.The World Book Encyclopedia—P 317

لم يتم كتابتها خلال حياة هوميروس نفسه، إلا أنها تُسبت إليه بشكل غير نقدي.

إله من الآلهة الأولمبية في اليونان الكلاسيكية والأساطير الرومانية، وهو إله للرمية، والرقص، والحقيقة، والنبوة، والشفاء... وأكثر من ذلك بكثير.

فيليسوف إغريقي، كان من فلاسفة ما قبل سقراط، ومُعلّمًا لفيثاغورس، وأوكسيمانس.

مؤرخ يوناني، كتاباته لم تصل إلينا كاملة، لكنه كان عالمًا مؤثرًا في الجغرافية التاريخية.

The history of Herodotus 4. S. James Renell, Herodotus' Geographical System Examined and Explained, Volume 1, Rivington 1830, p. 244

الاسم القديم لجبل طارق.

.Davies, John; Jenkins, Nigel; Baines, Menna, eds. (2008). The Welsh Academy Encyclopedia of Wales. p. 487

Hume, Rev. A. (1849). "Philosophy of Geographical Names". Proceedings of the Literary and Philosophical Society of Liverpool (6): 44

Christoph Pan, Beate Sibylle Pfeil (2002), Minderheitenrechte in Europa. Handbuch der europäischen Volksgruppen, Braumüller

من أنواع الغزلان في المناطق القطبية وشبه القطبية بآسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية.

نوع من أجناس الثدييات الفيلية، وهو فيل ضخم منقرض كان يعيش في أوروبا الوسطى.

موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج ١، من العصور القديمة وحتى الـ١٦، مجموعة باحثين، ترجمة: أنطوان الهاشم، ص٦٢.

سكان عصر الرنة، وسُموا بذلك نسبة إلى كهوف مادلين بفرنسا.

العصر البليستوسيني (العصر الحديث الأقرب).

من أصغر فصائل الغزلان والثدييات الأرضية، وهو الحيوان الوحيد الذي له عظام على رأسه تسمى القرون المتساقطة.

هو جنس حيوان ثديي من فصيلة الأيل.

العصر الباليوثي.

.Borza, EN (1992). In the Shadow of Olympus: The Emergence of Macedon. P 58

.When the First Farmers Arrived in Europe, Inequality Evolved". Scientific American. 1 July 2020"

.Europe's fourth ancestral 'tribe' uncovered". BBC. 16 November 2015"

Wang, Chuan-Chao; Reinhold, Sabine; Kalmykov, Alexey; Wissgott, Antje; Brandt, Guido; Jeong, Choongwon; Cheronet, Olivia; Ferry, Matthew; Harney, Eadaoin; Keating, Denise; Mallick, Swapan (4 February 2019). "Ancient

human genome-wide data from a 3000-year interval in the Caucasus corresponds with eco-geographic regions".
.Nature Communications. 10 (1): 590
هناك مناطق أخرى استمر فيها حتى عام ٣٠٠ ق.م، وعام ١٧٠٠ ق.م، أي أنه تاريخ بحسب أولى المناطق
التي عرفت التعدين.

العصر النيوليتي.

.DNA Deciphers Roots of Modern Europeans". The New York Times. June 10, 2015"

Jacob Bronowski; The Ascent of Man; Angus & Robertson, 1973

.The previous reference

.ibid

Maugh II, Thomas H. (1 November 2012). "Bulgarians find oldest European town, a salt production center". The Los
Angeles Times

La Niece, Susan, (2009). (senior metallurgist in the British Museum Department of Conservation and Scientific
Research), Gold. p. 10

.Durant, Will (1939). "The Life of Greece". The Story of Civilization. Vol. II. p. 21

".Sakoulas, Thomas. "History of Minoan Crete

Manning, Sturt W; Ramsey, CB; Kutschera, W; Higham, T; Kromer, B; Steier, P; Wild, EM (2006). "Chronology for
the Aegean Late Bronze Age 1700–1400 BC". Science. 312 (5773): 565–569

.Knodell, Alex R. (2021). "Societies in Transition in Early Greece: An Archaeological History , Table 1, pp. 7, 65

.Fields, Nic; illustrated by Donato Spedaliere (2004). Mycenaean Citadels c. 1350–1200 BC (3rd ed.). pp. 10–11

Morris, Ian (1996). "Greece: Dark Age Greece". In Fagan, Brian M. (ed.). The Oxford Companion to Archaeology.
pp. 253–256

.Brian Todd Carey, Joshua Alfrey, John Cairns (2006). war in the ancient world. Pen and sword

.Carroll J. Thomas (1988). Paths from ancient Greece. braille. pp. 27-50

.Professor Gerhard Rempel, Hellenistic Civilization (Western New England College)

.Green, Peter. Alexander to Actium: The Historical Evolution of the Hellenistic Age. Berkeley: (1990), p. xvii

.Alexander the Great and the Hellenistic Age". www.penfield.edu"

Art of the Hellenistic Age and the Hellenistic Tradition. Heilbrunn Timeline of Art History, Metropolitan Museum of Art,
2013

.Green, P (2008). Alexander The Great and the Hellenistic Age. p. xiii

.Chanotis, Angelos (2018). Age of Conquests: The Greek World from Alexander to Hadrian. p. 4

.Wayne C. Thompson; Mark H. Mullin (1983). Western Europe, 1983. p. 337

.Cornell, Tim (1995). The beginnings of Rome. p. 215

هذا غير "بروتس" أو "ماركوس يونيوس بروتس"، الذي شارك في اغتيال يوليوس قيصر.

.Claude Nicolet, Space, Geography, and Politics in the Early Roman Empire (1991), pp. 1, 15

.Martin, Ronald H. (1981). Tacitus and the Writing of History. pp. 104-105

كان مؤرخًا ومراقبًا معاصرًا، وعضوًا في مجلس الشيوخ الروماني.

.Dio Cassius 72.36.4, Loeb edition translated E. Cary

.Brown, P., The World of Late Antiquity, London 1971, p. 22

.The previous reference

Oxford Centre for Late Antiquity: The Late Roman Empire". 2012. The late Roman period (which we are defining"
.as, roughly, AD 250–450)

الاستشهاد في المسيحية، موقع الأنبا تكلا هيمانوت.

.Davidson, J. (2005). Birth of the Church: From Jesus to Constantine, AD30-312. Monarch Books

.Lactantius, De Mortibus Persecutorum 34–35

.Diana Powder (1987). The era of Constantine and Julian. p. 28

.R. Gerberding and J.H. (2004), Moran Cruz, Medieval Worlds p. 55

.Diana Powder (1987). The era of Constantine and Julian. p. 28

.Kelly, J N D (1978), Chapter 9, Early Christian Doctrine, San Francisco: HarperCollins

موطن الإيليرين، إقليم جغرافي قديم يقع غرب البلقان.

.Mirbt, Carl Theodor (1911). "Nicaea, Council of". In Chisholm, Hugh (ed.), Vol. 19 (11th ed.). pp. 640–642

مدينة يونانية قديمة كانت تقع على مضيق البوسفور بتركيا حاليًا.

.Gibbon 1906, Volume III, Part IV, Chapter 18, p. 168

.The Cambridge Ancient History: Volume 12, The Crisis of Empire, AD 193-337

.Binns, John. (2002), An Introduction to the Christian Orthodox Churches, p. 30

تمثل حاليًا إسبانيا والبرتغال وأندورا وجبل طارق.

.Lang, David Marshall (1956), Lives and legends of the Georgian saints, pp. 13-39. London: Allen & Unwin

.S. C. Munro-Hay, Aksum: An African Civilization of Late Antiquity (1991), p. 81

حصارة وادي النيل النوبة الكوشية.

الذي هو لوليان.

.Bowersock, G.M. (1997). p. 79. Julian the Apostate

.Gibbon, Regression and Fall, Chapter 27

مصطلح يُطلق على الأشخاص الغير متحضرين، أو البدائيين، أو التابعين للمجتمعات القبلية الغير متحضرة، أو مجموعات ذات ثقافة بدائية، كالبدو الرّجل وقطاع الطرق، في الاستخدام الاصطلاحي: ربما تجده أيضاً إشارة فردية لشخص يتسم بالوحشية والهمجية.

Kulikowski, Michael (2012). p. 41. "The Western Kingdoms". In Fitzgerald Johnson, Scott (ed.). The Oxford Handbook of Late Antiquity. Oxford

شعوب بربرية، ومن أشهر قبائلهم: القوط الشرقيون، والقوط الغربيون، والفاندال، والسكسونيون، والأنجلوسكسونيون، واللومبارد، والفرنجة، والفايكنج.

قبائل إيرانية من العصور الكلاسيكية، عاشت في الأجزاء الوسطى من السهوب الأوراسية، وكانوا جزءاً من الثقافات السكيثية.

.Heather, Peter, 1998, The Goths, pp. 51-93

.Russell, James R. (1987). Zoroastrianism in Armenia. p. 386

أرنولد جوزف توينبي، مؤرخ بريطاني.

.Webster's New Universal Unabridged Dictionary, 1972, pg. 149, Simon & Schuster Publishing

.Friell, Gerard; Williams, Stephen (2005). Theodosius: The Empire at Bay

.Cameron, Averil (2009). Οι Βυζαντινοί (in Greek). Athens: Psychogios. pp. 54, 111, 153

كانت تمتد على مساحة فرنسا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ، ومعظم سويسرا، وألمانيا، وهولندا.

لقب أطلقه الرومان على كامل إيبيريا.

Perkins and Whitby, The Cambridge Ancient History - Volume XIV. Late Antiquity: Empire and Successors, A.D. 425–600 p 48 p. 105

Kulikowski, Michael (2012)."The Western Kingdoms". In Fitzgerald Johnson, Scott (ed.). The Oxford Handbook of Late Antiquity. p. 41

.The previous reference.p. 43

.Russell, James R. (1987). Zoroastrianism in Armenia. p. 386

Kulikowski, Michael (2012)."The Western Kingdoms". In Fitzgerald Johnson, Scott (ed.). The Oxford Handbook of Late Antiquity, p. 41

.The previous reference, p. 41

Meier, William N. (2003).. "Die Inszenierung einer Katastrophe: Justinian und der Nika-Aufstand". Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik. 142 (142): 273–300. p. 290

.M. Whittow, (1990)."Ruling the late Roman and early Byzantine city: a continuous history", Past and Present , p 129

Kitzinger, Ernst (1977) Byzantine art in the making: main lines of stylistic development in Mediterranean art, 3rd–7th century. pp. 2–21

Ghosh, Shami (2009). The Barbarian Past in Early Medieval Historical Narrative (Doctoral thesis). University of Toronto. p. 1

.Binns, John,(2002) An Introduction to the Christian Orthodox Churches, p. 30

.Berndt, Guido M.; Steinacher, Roland (2014). Arianism: Roman Heresy and Barbarian Creed (1st ed)

Ghosh, Shami (2009). The Barbarian Past in Early Medieval Historical Narrative (PDF) (Doctoral thesis). University of Toronto. p. 1

.Kulikowski 2012, p. 32

Parker, Eugene Johan Janssen (2018). Vandalia: Identity, Policy, and Nation-Building in Late-Antique North Africa (Master's thesis). Victoria University of Wellington. pp. 7, 10

كانت سلالة من قبائل السليان من الفرنكيين، أول من حكم الفرنكيين.

.Chisholm, Hugh, ed. (1911). "Clovis". Encyclopædia Britannica. Vol. 6 (11th ed.). pp. 563–564

شمال بلاد الغال.

.Gregory of Tours (1916). II.18. History of the Franks. Vol. book II

Drinkwater, John Frederick (2012). "Alamanni". In Hornblower, Simon; Spawforth, Antony; Eidinow, Esther (eds.). The Oxford Classical Dictionary (4 ed.). Oxford University Press

منطقة تاريخية في شرقي فرنسا، وعاصمتها ستراسبورغ.

.Hitchner, R. Bruce (2005). "Goths". In Kazhdan, Alexander P. (ed.). The Oxford Dictionary of Byzantium مجموعة من شرق ألمانيا، عاشت في رومانيا، هنغاريا، صربيا.

جمهورية مستقلة معترف بها فقط من قبل روسيا الاتحادية وفنزويلا ونيكاراغوا وناورو وتوفالو وسوريا.

Shnirelman, Victor (2006). "The Politics of a Name: Between Consolidation and Separation in the Northern Caucasus

Abaev, V.I.; Bailey, H.W. (1985). pp. 801–803."Alans". In Yarshater, Ehsan (ed.). Encyclopædia Iranica, Volume I/8: Alaf Frank–Alp Arslan

- .Brzezinski, Richard; Mielczarek, Mariusz (2002). pp. 10–11. The Sarmatians, 600 BC–AD 450
 .Luc Kwanten, (1979), Imperial Nomads: A History of Central Asia, 500-1500, p. 35
 .Taşağıl, Ahmet (2021). Türk Model Devleti Gök Türkler. Bilge Kültür Sanat
 .Christopher I. Beckwith, (1993), The Tibetan Empire in Central Asia. p. 209
في دولة قيرغيزستان حاليًا، إلى الشرق من عاصمتها الحالية بيشكيك.
هي باختر أو باختريا، منطقة بين جبال هندو كوش ونهر جيحون، وعاصمتها كانت باخترا (الآن بلخ).
 .Waldman, Carl; Mason, Catherine (2006). Encyclopedia of European Peoples. pp. 46–49
 Curta, Florin (2004). "The Slavic lingua franca (Linguistic notes of an archaeologist turned historian)". East Central
 Europe/L'Europe du Centre-Est. 31: 125–148. Abgerufen am 29. Mai 2015
 Lester K. Little, Editor (2007), Plague and the End of Antiquity: Pandemic 541–750, pp. 15, 24, 116, 118, 125, 286-
 287
 Sneath, David (2007). The Headless State: Aristocratic Orders, Kinship Society, and Misrepresentations of Nomadic
 Inner Asia. p. 25
 .Golden, Peter Benjamin (2011). Central Asia in World History. New Oxford World History. p. 65
 .Akdes, Nimet Kurat (1937). Peçenek Tarihi. pp. 22–26
بحر داخلي يقع في آسيا الوسطى بين أوزبكستان جنوبًا وكازاخستان شمالًا.
أحد أنهار وسط آسيا، وأحد أكبر نهري في أوزبكستان.
 Pritsak, Omeljan (1975). "The Pechenegs: A Case of Social and Economic Transformation". Archivum Eurasiae
 Medii Aevi. pp. 211–212
جبال تصل بين قارة آسيا وقارة أوروبا، وتقع في روسيا وكازاخستان.
 .Blench, Roger; Matthew Briggs (1999). Archaeology and Language. p. 210
منطقة ريفية تقع في كازانتشينسكي سيلسوفيت، روسيا.
أحد الكيانات الفيدرالية الروسية، ومركزها مدينة بيرم.
 .Early History". A Country Study: Hungary. Federal Research Division, Library of Congress"
 Sergey Skorved (2015). Yuri Osipov, ed. Slavic languages. The Great Russian Encyclopedia (in 35 vol.) Vol. 30. pp.
 396-397-389
 Harvey E Meyer. Dacian and thracian as southern bal - toidic lituanus. lituanian quarterly journal of arts and
 sciences. Volume 38, No.2 - Summer 1992
هي السلتية الجزيرية، من اللهجات التي شاعت في منطقة بريطانيا وتُعدُّ السلف للغات السلتية الحديثة.
 .Reid, Struan (1994). P.8. Inventions and Trade
 .Goldsworthy, Adrian (2016). Pax Romana: War, Peace and Conquest in the Roman World. p. 276
 .Philip, Robert (1860). The History of Progress in Great Britain. Vol. 2
أناجيل: - (متى ٢٧: ٥٩) - (مر ١٥: ٤٦) - (يوحنا ١٩: ٣٨-٤٢).
 .Wright, Kevin J (2008). The Christian Travel Planner. p. 143
 .Lehane, Brendan (1968). Early Christian Christianity
مجموعة من الشعوب التي عاشت فيما يُعرف الآن بشمال وشرق اسكتلندا من البحر.
تُعرف تاريخيًا بوثيقة أهات البريطانيين.
 .James, Edward. "Overview: Anglo-Saxons, 410 to 800". BBC
 .Dupuy, R.; Ernst and Al. Harper's Encyclopedia of Military History 3500 B.C. to the Present, Fourth Edition, p. 193
 .Gildas. The Ruin of Britain. II.26 – Mount Badon is referred to as Bath-Hill in this translation of Gildas text
 .Six Old English Chronicles/The Works of Gildas
(البريطانيين السلتيك).
 .Jones, The End of Roman Britain, Ch. 1: Population and the Invasions; particularly pp. 11–12
(معسكر ديرهام).
 Simon T. Loseby, "Power and towns in Late Roman Britain and early Anglo-Saxon England" in Gisela Ripoll and
 .Josep M. Gurt, eds., Sedes regiae (ann. 400–800), (Barcelona, 2000), esp. pp 329f (on-line text
 .Stenton. Anglo-Saxon England. p. 29
سلسلة من أعمال الحفر الدفاعية الخطية المبكرة في العصور الوسطى، في غرب إنجلترا.
 .Swanton, M. (1996). The Anglo-Saxon Chronicles. London: Phoenix. p. 18
 .Wacher, John (1995). The Towns of Roman Britain. London: Batsford
 .Morris. The Age of Arthur. p. 299
 .Wood. The Domesday Quest. pp. 47–48
 .The Christian Tradition". PicturesofEngland.com"
 .Lyon, Bryce Dale (1960). A constitutional and legal history of medieval England. p. 23
 .The Inheritance of Rome, Chris Wickham, Penguin Books Ltd. 2009. p. 90
 Merryman, John Henry; Perez-Perdomo, Rogelio (2007). The Civil Law Tradition: An Introduction to the Legal
 Systems of Europe and Latin America
 .Haldon, John (1990). Byzantium in the Seventh Century: The Transformation of a Culture. p. 17

- .Volume II, p. 279
- Kaegi, Walter E. (2002). "Yarmūk". In Bearman, P. J.; Bianquis, Th.; Bosworth, C. E.; van Donzel, E. & Heinrichs, W. P. (eds.). p. 14. The Encyclopaedia of Islam, p. 291
- Jandora, John W. (1985). "The Battle of the Yarmūk: A Reconstruction". Journal of Asian History. p. 10
- Donner, Fred M. (1981). The Early Islamic Conquests. p. 133
- Kaegi, Walter E. (2002). "Yarmūk". In Bearman, P. J.; Bianquis, Th.; Bosworth, C. E.; van Donzel, E. & Heinrichs, W. P. (eds.). p. 14. The Encyclopaedia of Islam, p. 291
- Jandora, John W. (1985). "The Battle of the Yarmūk: A Reconstruction". Journal of Asian History. p. 19
- Nicolle, David (1994), Yarmuk 636 A.D.: The Muslim Conquest of Syria, p. 19
- .The previous reference
- Kaegi, Walter E. (1995). Byzantium and the Early Islamic Conquests. p. 121
- Jandora, John W. (1985). "The Battle of the Yarmūk: A Reconstruction". Journal of Asian History. pp. 16, 19
- أسقف بيزنطيُّ جمع كتبًا قديمة نادرة، وكتب على إثرها تاريخه سنة ٨١٣ تقريبًا، يسمى اليوم "تاريخ تيوفان".
- Jandora, John W. (1985). "The Battle of the Yarmūk: A Reconstruction". Journal of Asian History. pp. 17–18
- Gil, Moshe; Ethel Broido (1997). A History of Palestine. Press, pp. 634–1099
- Willem Vogelsang (2002), The Afghans, Blackwell Publishing
- Haldon, John (1990). Byzantium in the Seventh Century: The Transformation of a Culture. p. 50
- مقال للدكتور طارق سويدان على موقعه الخاص.
- The Muslim Conquest of Persia By A.I. Akram. Ch: 1
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ١٩٠-١٩١.
- مزهري، تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ١٤٧.
- Hunter, Shireen (2004). Islam in Russia: The Politics of Identity and Security. p. 3
- Carl F. Petry (ed.), (1998), The Cambridge History of Egypt, Volume One, Islamic Egypt 640–1517, p. 67
- إقليم تاريخي في آسيا الصغرى، المنطقة الممتدة من جبال طوروس إلى حدود بحر اليوكسين.
- Salvatore, Cosentino. "Constans II and the Byzantine navy". Byzantinische Zeitschrift. 100 (2)
- Treadgold, Warren (1997). A History of the Byzantine State and Society. p. 314
- Theophanes the Confessor, Chronographia, in J.P. Migne, Patrologia Graeca, vol.108, col.705
- Kaegi, Walter E. (2008). "Confronting Islam: Emperors versus Caliphs (641–c. 850)". In Shepard, Jonathan (ed.). The Cambridge History of the Byzantine Empire c. 500–1492. pp. 365–394
- محمد قباني (٢٠٠٦)، الوجيز في الخلافة الراشدة، ص٦٦-٧٦.
- المرجع السابق، ص٧٢-٧٤.
- يوسف العشي، الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، (٢٢ - ١٩٨٥)، ص١٢١.
- "مقتل علي بن أبي طالب والحسين"، لابن تيمية.
- Treadgold, Warren (1997). A History of the Byzantine State and Society. p. 314
- حسين مؤنث، أطلس تاريخ الإسلام القاهرة، (ط١ - ١٩٨٧م)، ص٢٨٥-٢٨٩.
- عصام محمد شبارو، الدولة العربية الإسلامية الأولى، (ط٣ - ١٩٩٥)، ص٣٤٣.
- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي - ٤: العهد الأموي، (ط١ - ١٩٨٢)، ص١٠٠-١٠١.
- محمد قباني، الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط، (٢٠٠٦)، ص١٦-١٧.
- Barford, Paul M (2001). The Early Slavs: Culture and Society in Early Medieval Eastern Europe. Cornell University Press. p. vii, Preface
- Brzezinski, Richard; Mielczarek, Mariusz (2002). The Sarmatians, 600 BC-AD 450. p. 39
- Sedov, Valentin Vasilyevich (2013) [1995]. Славяне в раннем Средневековье [Sloveni u ranom srednjem veku (Slavs in Early Middle Ages)]. Novi Sad: Akademska knjiga. p. 207–208
- واحدة من تسع مناطق إدارية في جنوب وشرق صربيا.
- Sedov, Valentin Vasilyevich (2013) [1995]. Славяне в раннем Средневековье [Sloveni u ranom srednjem veku (Slavs in Early Middle Ages)]. Novi Sad: Akademska knjiga. p. 208–209
- مدينة رومانية قديمة، كانت تقع في بانونيا في شمال غرب صربيا اليوم، وكانت واحدة من أهم مدن الإمبراطورية في البلقان.
- Baines, Norman H.; (1913), "Chapter IX. Justinian's Successors", The Cambridge Medieval History, Vol. II: The Rise of the Muslims and Foundations of the Western Empire, pp.269, 275–276
- .The previous reference
- Koder, Johannes (2020). "On the Slavic Immigration in the Byzantine Balkans"p. 83
- Sedov, Valentin Vasilyevich (2013) [1995]. Славяне в раннем Средневековье [Sloveni u ranom srednjem veku (Slavs in Early Middle Ages)]. Novi Sad: Akademska knjiga. p. 212, 215

- .The previous reference. p. 212–218, 382, 413, 444, 458
Živković, Tibor (2013). "On the Baptism of the Serbs and Croats in the Time of Basil I (867–886)". *Studia Slavica et Balcanica Petropolitana* (1): 33–53
- علي محمد الصلابي، الفتوحات والعلاقات في عهد معاوية، موقع هدي الإسلام. تاريخ النشر: ٢٠٠٨-١٠٠٠٥
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الثاني، ص٤٥٨-٤٥٩.
- Pryor, John H.; Jeffreys, Elizabeth M. (2006), *The Age of the ΔΡΟΜΩΝ: The Byzantine Navy ca. 500–1204*, pp. 26–27, 31–32
- .The previous reference
- علي محمد الصلابي، الفتوحات والعلاقات في عهد معاوية، موقع هدي الإسلام. تاريخ النشر: ٢٠٠٨-١٠٠٠٥
- أسقف أرميني ومؤرخ، من منتصف القرن السابع.
- .Hoyland, Robert G. (2014). In *God's Path: The Arab Conquests and the Creation of an Islamic Empire*. p. 107
- .Haldon, John (1990). *Byzantium in the Seventh Century: The Transformation of a Culture*. pp. 61–62
- .Fouracre, Paul, ed. (2005). *New Cambridge Medieval History, Volume 1: c.500–c.700*. p. 138
- .Koder, Johannes (2020). "On the Slavic Immigration in the Byzantine Balkans". p. 91–95
- .Rashef, Rashhu (2005), *Praboulgart Breeze 5. -7. vek (i. 3rd)*, Sophia: Orbel, p. 127–128
- منطقة تاريخية في الجغرافيا القديمة، يحدّها من الشرق نهر الدنستير، ومن الغرب نهر بروت، بشرق مولودوفا حالياً.
- منطقة تاريخية في الجغرافيا القديمة، وتحيطها من الجنوب جبال هايموس وسكاردوس، ومن الغرب جبال درينوس، ومن الشمال نهر الدانوب، ومن الشرق البحر الأسود، وتشكل الجزء الرئيسي من وسط صربيا وبلغاريا الحديثين.
- Theophanes Confessor. *Chronographia*, pp. 357–360
- .Атанас Пейчев и колектив, 1300 години на стража, оенно издателство, София 1984
- .Йордан Андреев, Милчо Лалков, Българските ханове и царе, Велико Търново, 1996

- Spinei, Victor (2003). The Great Migrations in the East and South East of Europe from the Ninth to the Thirteenth Century, p. 114
- John Van Antwerp Fine: The Early Medieval Balkans, 1991, p. 251
- De Administrando Imperio, XXX. Story of the province of Dalmatia
- "Early History", Country Study: Hungary, Federal Research Division, Library of Congress"
- Kennedy, Hugh (1995). "The Muslims in Europe". In McKitterick, Rosamund, The New Cambridge Medieval History: c. 500 – c. 700, pp. 249–272
- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ج ١، ص ٢٣١.
- محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص ٤، ٢٤.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية (٧ - ٢٠١٠)، ص ١١٦.
- الاسم القديم لمضيق جبل طارق.
- محمد نبيل حسن، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، (١٩٨٣)، ص ٧٤-٧٥.
- مضيق جبل طارق، كما سماه العرب.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس: (٣ - ٢٠١٠)، ص ٣٢.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس: (٣ - ٢٠١٠)، ص ١٩-٢٠.
- محمود شيت خطاب، قادة فتح الأندلس، ج ١، ص ١٣٢.
- Edward Gibbon (1788), The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Volume V. p 473
- پروفنسال، إفرانست ليفي؛ ترجمة: علي عبد الرؤوف البمبي، وعلي إبراهيم منوفي، والسيد عبد الطاهر عبد الله، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القوطية (٣ - ٢٠٠٠)، ص ٤٦.
- ابن القوطية؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، تاريخ افتتاح الأندلس (٢ - ١٩٨٩)، ص ٧٣.
- محمود شيت خطاب، قادة فتح الأندلس، ج ١، ص ١٣٣.
- عاصمة مملكة القوط الغربي آنذاك، جنوب العاصمة الإسبانية مدريد حالياً.
- ابن عذاري؛ تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (٢٠١٣م)، ج ٢، ص ٣.
- محمود شيت خطاب، قادة فتح الأندلس، ج ١، ص ١٣٤.
- المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٥.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، (٣ - ٢٠١٠)، ص ٢٢.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، (٣ - ٢٠١٠) ص ٢١.
- مؤلف مجهول؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها - رحمهم الله - والحروب الواقعة بها بينهم، (٢ - ١٩٨٩)، ص ٧.
- Collins, Roger. (2004), Visigothic Spain, 409–711.. p. 131
- Collins, Roger (1989), The Arab Conquest of Spain 710–797. p. 28
- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج ٦، ص ٢٢٦.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، (٣ - ٢٠١٠)، ص ٣٣.
- ابن عبد الحكم؛ تحقيق: محمد الخجيري، فتوح مصر وأخبارها، (١ - ١٩٩٦م)، ص ٢٠٥.
- مؤلف مجهول؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها - رحمهم الله - والحروب الواقعة بها بينهم، (٢ - ١٩٨٩م)، ص ٥.
- ابن القوطية؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، تاريخ افتتاح الأندلس، (٢ - ١٩٨٩)، ص ٧٦ - ٧٧.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، (٣ - ٢٠١٠)، ص ٣٣-٣٤.
- Collins 1989, pp. 31–32
- پروفنسال، إفرانست ليفي؛ ترجمة: علي عبد الرؤوف البمبي، وعلي إبراهيم منوفي، والسيد عبد الطاهر عبد الله، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القوطية (٣ - ٢٠٠٠)، ص ٤٧.
- ابن الأثير الجزري؛ تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي (١ - ١٩٨٧)، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٤٦.
- ابن عذاري؛ تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (٢٠١٣م) ج ٢، ص ٦.
- مؤلف مجهول؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها - رحمهم الله - والحروب الواقعة بها بينهم، (٢ - ١٩٨٩م)، ص ٦.
- ابن عذاري؛ تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (٢٠١٣م) ج ٢، ص ٥.

- Collins, Roger (1989), *The Arab Conquest of Spain 710-797*, p. 97.
- ابن الأثير الجزري؛ تحقيق: أبو الفداء عبدُ الله القاضي (ط ١ - ١٩٨٧)، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٤٤.
- ابن عبد الحكم؛ تحقيق: مُحَمَّدُ الحُجيري، فُتُوح مصر وأخبارها، (ط ١ - ١٩٩٦م)، ص ٢٠٤.
- ابن عذاري؛ تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (٢٠١٣م) ج ٢، ص ٦.
- المرجع السابق.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، (ط ٣ - ٢٠١٠)، ص ٣٧.
- مؤلف مجهول؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، (ط ٢ - ١٩٨٩م)، ص ٧.
- Saavedra, Eduardo (1892), *Estudio sobre la invasión de los árapes en España*, Madrid: El Progreso Editorial, p. 65
- ابن خلدون؛ تحقيق: خليل شحادة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ج ٤، (ط ٢ - ١٩٨٨م)، ص ١١٧.
- مؤلف مجهول؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، (ط ٢ - ١٩٨٩م)، ص ٨.
- المرجع السابق، ص ٧.
- ابن القوطية؛ تحقيق: إبراهيم الإيباري، تاريخ افتتاح الأندلس، (ط ٢ - ١٩٨٩)، ص ٧٦.
- إبراهيم العدوي، المسلمون والجرمان، الإسلام في غرب البحر المتوسط، (ط ١ - ١٩٦٠)، ص ٨٦.
- الحميري، تحقيق: إحسان عبّاس، (ط ٢ - ١٩٨٠)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١٦٩.
- پروفنسال، إفريست ليقي؛ ترجمة: علي عبد الرؤوف البمبي، وعلي إبراهيم منوفي، والسيد عبد الطاهر عبد الله، (ط ٣ - ٢٠٠٠)، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القُرطبيّة، ص ٥٤-٥٢.
- خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس: الفتح وعصر الوُلاة، (ط ١ - ١٩٨٠)، ص ١١٠.
- Thompson, E. A. (1969), *The Goths in Spain*, p. 250
- Esposito, John L. (2000). *The Oxford History of Islam*. p. 21
- Collins, Roger (1989) , *The Arab Conquest of Spain 710–797*. p. 116
- Lilie, Ralph-Johannes (1976). *Die byzantinische Reaktion auf die Ausbreitung der Araber*. pp. 81–82, 97–106
- Blankinship, Khalid Yahya (1994). *The End of the Jihād State: The Reign of Hishām ibn ‘Abd al-Malik and the Collapse of the Umayyads*. Albany. p. 31
- Jenkins, Romilly (1966). *Byzantium The Imperial centuries AD 610-1071*. p. 56
- Blankinship, Khalid Yahya (1994). *The End of the Jihād State: The Reign of Hishām ibn ‘Abd al-Malik and the Collapse of the Umayyads*. Albany, p. 31
- Lilie, Ralph-Johannes (1976). *Die byzantinische Reaktion auf die Ausbreitung der Araber*. pp. 120–122, 139–140
- Treadgold, Warren (1997). *A History of the Byzantine State and Society*. p. 345
- Hitti, Philip (2002). *History of The Arabs*. Red Globe Press. p. 203
- مصطلح يشير إلى فترتين من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، عارضت فيهما السلطات الدينية والإمبراطورية داخل الكنيسة الأرثوذكسية والهرمية الإمبراطورية الدنيوية استخدام الصور أو الأيقونات الدينية.
- Brooks, E. W. (1899). "The Campaign of 716–718 ". *The Journal of Hellenic Studies*. The Society for the Promotion of Hellenic Studies. XIX: 19–33. p. 23
- Mango, Cyril; Scott, Roger (1997). *The Chronicle of Theophanes Confessor. Byzantine and Near Eastern History, AD 284–813*. p. 545
- Treadgold, Warren (1997). *A History of the Byzantine State and Society*. p. 347
- Mango, Cyril; Scott, Roger (1997). *The Chronicle of Theophanes Confessor. Byzantine and Near Eastern History, AD 284–813*. p. 546
- Guiland 1959, p. 121; Mango & Scott 1997, pp. 546, 548; Lilie 1976, p. 130; Treadgold 1997, pp. 347–348
- Guiland 1959, p. 122; Mango & Scott 1997, p. 546; Lilie 1976, pp. 130–131; Treadgold 1997, p. 348
- Canard, Marius (1926). "Les expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende". *Journal Asiatique (in French)* (208): 61–121. pp. 90–91
- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٨.
- الذي هو ليو الثالث، ليو الإيساوري.
- يقصد تيرفل البلغاري أو أميره المعين على البرجان.
- جمع ميرات ومير: ما يجمعه أو يذخره الإنسان من طعام ونحوه للسفر.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٨.
- M. McCormick, *Origins of the European Economy: Communications and Commerce*, A.D. 300-900, p. 412
- Treadgold, Warren (1997). *A History of the Byzantine State and Society*. p. 349
- Lewis, Bernard (2002). *The Arabs in History (Sixth ed.)*. p. 79

- شرق أنطاكية القديمة (أصنة الحالية، جنوب تركيا).
Blankinship, Khalid Yahya (1994). *The End of the Jihād State: The Reign of Hishām ibn 'Abd al-Malik and the Collapse of the Umayyads*. pp. 33–34.
- في مقاطعة فريجيا باكاتيانا في آسيا الصغرى، وكانت لاودكية تحت قبضة الأمويين من قبل ذلك.
كانت مدينة مصرية من العصور الوسطى ولم تعد موجودة، كانت الأكثر ازدهارًا من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، وكانت واقعة على جزيرة في بحيرة المنزلة، جنوب غرب محافظة بورسعيد.
Treadgold, Warren (1997). *A History of the Byzantine State and Society*. pp. 347, 348.
Foss, Clive F.W. (1991). "Akroinon". In Kazhdan, Alexander (ed.). *The Oxford Dictionary of Byzantium*. p. 48.
Kaegi, Walter Emil (1982). *Army, Society, and Religion in Byzantium*. p. 167.
Morrisson, Cécile; Cheynet, Jean-Claude (2006). *Le monde byzantin, Tome II: L'Empire byzantin, 641–1204* (in French). pp. 14–15.
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، المجلد الرابع، ص ٣١١.
ابن كثير، البداية والنهاية - ذكر خبر أبي مسلم الخراساني/ ذكر أحداث سنة اثنين وثلاثين ومائة.
Cameron, Averil (2009). *Oi Byzantioi*. pp. 67–68.
Theophanes Confessor. *Chronographia*, p.429
The previous reference, p.431
Nicephorus. *Opuscula historica*, pp. 69–70.
Theophanes Confessor. *Chronographia*, p. 437.
Theophanes Confessor. *Chronographia*, pp. 484–486.
Chronique de Michel de Syrien, p.17.
Theophanes Confessor. *Chronographia*, pp. 489–492.
- محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، (ط ٧ - ٢٠١٠م)، ص ١٦٠-١٦١.
جبال البرانس.
Pfister, Christian (1911). "Charles Martel". In Chisholm, Hugh (ed.). *Encyclopædia Britannica*. Vol. 5 (11th ed.). pp. 942–943.
Cawthorne, Nigel (2004). *Military Commanders: The 100 Greatest Throughout History*. pp. 52–53
- عبد الرحمن الحجى، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ (٧١١-١٤٩٢م)، (١٩٨١)، ص ١٩٣.
مؤنس حسين، فجر الأندلس، (٢٠٠٢)، ص ٣٠٣.
أقطنانية كانت دوقية تاريخية، حكمت المنطقة التاريخية آكيتاين في المناطق الغربية والوسطى والجنوبية من فرنسا الحالية إلى الجنوب من نهر لوار.
Tom oberhofer. "battle of poitiers 729 battle of Moussais, battle of Tours, Charles Martel Eudes of Aquitaine, Abd. er-Rahman, medieval warfare".
- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، معركة بلاط الشهداء في التاريخ الإسلامي والأوروبي (١٩٩٦)، ص ٦٤.
مؤنس حسين، فجر الأندلس، (٢٠٠٢)، ص ٢١٦.
شوقي أبو خليل، بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي، (١٩٩٨)، ص ١٨.
غانديا هي مدينة في إسبانيا، تقع في الصخور، في إقليم فالينسيا.
عبد الرحمن الحجى، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ (٧١١-١٤٩٢م)، (١٩٨١)، ص ٢٠٢.
مؤنس حسين، فجر الأندلس، (٢٠٠٢)، ص ٢١٦.
محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج ١، (١٩٩٧)، ص ٩٩-١٠٠.
عبد الفتاح مقلد الغنيمي، معركة بلاط الشهداء في التاريخ الإسلامي والأوروبي (١٩٩٦)، ص ٦٦-٦٧.
Davis, Paul K. (1999) page 105
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (١٩٩٧)، ص ٩٩-١٠٠.
خليل إبراهيم السامرائي، وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (٢٠٠٠)، ص ٥٨.
Wolf, p. 145 (trans) *Chronicle of 754*.
White, Jr., Lynn (1962). *Medieval technology and social change*. pp. 2–14.
Magill, Frank (1998), *Dictionary of World Biography: The Middle Ages, Volume Two*, p. 228
- مؤرخ إنجليزي، صاحب كتاب "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" الذي يُعد من أهم مراجع هذه الحقبة.
في جنوب غرب فرنسا، ينبع من الجانب الإسباني لجبال البرانس.
Cantor, Norman. "The Civilization of the Middle Ages". p 102
McKitterick, Rosamond (1995). *The New Cambridge Medieval History: Volume 2, C.700-c.900*. pp. 87–90
Cantor, Norman. "The Civilization of the Middle Ages". p 102

Muldoon, James (1999). *Empire and Order: The Concept of Empire, 800–1800*. Springer. p. 47
Kulikowski 2012, p. 50

The previous reference, pp. 32, 34

الهيكل الرئيسي لقانون الفرنجة القدامى.

التمسائي، تحقيق: إحسان عباس، نوح الطيب، ج ٤، (ط ١ - ١٩٦٨م)، ص ٢٣.

السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (٢٠٠٠)، ص ٩٠.

محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، (١٩٩٠)، ص ٢٤٣.

بلدية تقع في مقاطعة غرناطة التابعة لمنطقة أندلوسيا جنوب إسبانيا حاليًا.

مؤلف مجهول، تحقيق: إبراهيم الإياري، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، (١٩٨٩)، ص ٨٠-٨٣.

السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (٢٠٠٠)، ص ١٠١.

Jean-Pierre Barraqué, Bulletin du musée basque No. 165, 1er semestre 2005, p. 3 à 20

في الجزء الشرقي من ولاية شمال الراين - وستفاليا الألمانية.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ - أحداث سنة ١٦٤هـ.

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول: من الفتح إلى بداية عهد الناصر،

ص ١٨٠.

Lewis, David L. (2008). *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570 to 1215* (1st ed.). p. 246

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول: من الفتح إلى بداية عهد الناصر،

ص ١٧٣.

Lewis, David L. (2008). *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570 to 1215* (1st ed.). p. 253

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول: من الفتح إلى بداية عهد الناصر،

ص ١٧٥.

Lewis, David L. (2008). *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570 to 1215* (1st ed.). p. 249

Hamm, Jean Shepherd. (2009). *Term Paper Resource Guide to Medieval History*, pp. 88

Butt, John J. (2002). *Daily Life in the Age of Charlemagne*, pp. 40–51

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول: من الفتح إلى بداية عهد الناصر،

ص ١٧٦.

Cline, Austin. "Charlemagne's Commander Roland Killed by Basques at Battle of Roncevaux Pass", *Skepticism in History*

Narbaitz, Pierre. Orria, o la batall de Roncesvalles. 778. *Elkar* (1979). pp. 105–114

Hamm, Jean Shepherd. *Term Paper Resource Guide to Medieval History*. Greenwood (November 25, 2009). pp. 88

محمد محمد زيتون (١٩٩٠)، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٦٤.

Kearney, Milo. *Further Studies in Rio Grande Valley History*

Narbaitz, Pierre. Orria, o la batall de Roncesvalles. 778. *Elkar* (1979). pp. 105–114

محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، (ط ٣ - ٢٠١٠م)، ص ١٩٦.

Cline, Austin. "Charlemagne's Commander Roland Killed by Basques at Battle of Roncevaux Pass". *Skepticism in History*

William of Aquitaine, St.". *Encyclopedia.com*"

جنوب شرق ألمانيا حاليًا.

Davis, Jennifer (2015). *Charlemagne's Practice of Empire*. p. 25

Andrew H. Weaver (2020), *A Companion to Music in the Habsburg Courts in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, p. 68

McKitterick, Rosamond (2008), *Charlemagne: the formation of a European identity*, p. 23

Nelsen, Brent F.; Guth, James L. (2003). p. 5. "Roman Catholicism and the Founding of Europe: How Catholics Shaped the European Communities". *The American Political Science Association*

إقليم يبدأ من أقطانية إلى قناة المانش الإنجليزية، وهو في الوقت الحاضر فرنسا، وباريس وسواسون،

وهي المدن الرئيسية فيها (وهو تقريبًا نفس الحجم الحالي لإنجلترا وويلز)، وهكذا شكلت نيوستريا

الجزء الغربي من مملكة الفرنجة.

المنطقة التاريخية أكتاين في المناطق الغربية والوسطى والجنوبية من فرنسا الحالية إلى الجنوب من

نهر لوار.

Joanna Story, *Charlemagne: Empire and Society*, 2005

Lewis, Archibald R. (1965). *The Development of Southern French and Catalan Society, 718–1050*. pp. 38–50

Ducado de Vasconia (Auñamendi Encyclopedia)

إلى الشمال من أدرنة (الآن بتركيا، بالقرب من الحدود مع اليونان وبلغاريا) في مقاطعة تراقيا.

Scriptor Incertus. *Historia*. pp. 337–339

- .Georgius Monachus. Chronicon, col.981
 ثاني أكبر مدن بلغاريا حاليًا، وكانت وقت الصراع أهم وأكبر مدن منطقة تراقيا التاريخية.
 مؤرخ إنجليزي كبير التخصص في فترة العصور الوسطى.
- .Runciman, Steven (1929) The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign. p. 152
 .Fine, John V. A. Jr. (1983), The Early Medieval Balkans, p. 112
 .Gjuzelev, V. (1988), Medieval Bulgaria, Byzantine Empire, Black Sea, Venice, Genoa, Verlag Baier p. 130
 .Bulgarian historical review, v. 33 :no. 1– 4, p. 9
 .Fine, John V. A. Jr. (1983), The Early Medieval Balkans, pp. 118–119
 .Runciman, Steven (1929) The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign, pp. 53–56
 .The previous reference, pp. 85–89
 .Fine, John V. A. Jr. (1983), The Early Medieval Balkans, p. 157
 .Runciman, Steven (1929) The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign. p. 96
 .Fine, John V. A. Jr. (1983), The Early Medieval Balkans, pp. 160–161
 .Swanton, Michael (1998). The Anglo-Saxon Chronicle. p. 57, n. 15
 .Jesch, Judith (2015). The Viking Diaspora. p. 8
 .Williams, Gareth (2008). Brink, Stefan; Price, Neil (eds.). Raiding and Warfare. p. 195
 الإسكندنافية القديمة اللغة الأم للغات الإسكندنافية الحالية.
- Wicker, Nancy (1998). Hallsal, Guy (ed.). Selective female infanticide as partial explanation for dearth of women in
 .Viking Age Scandinavia. pp. 205–21
 .Decaux, Alain and Castellet, André (1981) Dictionnaire d'histoire de France. pp. 184–185
 .Sturlusson, Snorri (2000) History of the Kings of Norway. pp. 15–16, 18, 24, 33–34, 38
 .Ferguson, Robert. The Vikings: A History. New York: Viking, 2009. Print., 58
 .Winroth, Anders (2016). The age of the Vikings. p. 72
 .The previous reference
 .Howard, Ian (2003). Swein Forkbeard's Invasions and the Danish Conquest of England, 991– 1017. p. 26
 نرمندية أو نورماندي إحدى المناطق الإدارية في شمالي فرنسا حاليًا.
- Bagge, Sverre (2014). Cross and Scepter: The Rise of the Scandinavian Kingdoms from the Vikings to the
 .Reformation. pp. 21–22
 هي لغة جرمانية شمالية كان يتحدثها سكان إسكندنافيا وما وراء بحارها خلال عصر الفايكنج، وحتى
 القرن الرابع عشر.
- .)Christian Ravensberger and Norman W. Ingham, "Rurik and the First Rurikids", American Genealogist (2007
 .Janet Martin, (2003), Medieval Russia, 980–1584 pp.2–4
 .Carl Waldman & Catherine Mason, (2006), Encyclopedia of European Peoples, p.415
 .John Channon & Robert Hudson, (1995), Penguin Historical Atlas of Russia, p.14–16
 .Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. New York: Vintage. p. 177
 .The previous reference
 .Bushkovitch, Paul. A Concise History of Russia. Cambridge University Press. 2011
 .John Channon & Robert Hudson, Penguin Historical Atlas of Russia (Penguin, 1995), p.14–16
 Plokhly, Serhii (2006). The Origins of the Slavic Nations: Premodern Identities in Russia, Ukraine, and Belarus. New
 .York: Cambridge University Press. pp. 10–15
 Noonan, Thomas S. (1999). "European Russia c500-c1050". In Reuter, Timothy; McKitterick, Rosamond (eds.). The
 .New Cambridge Medieval History: Volume 3, C.900-c.1024. pp. 499, 502–503
 .Whittow, Mark (1996). The Making of Byzantium, 600–1025. pp. 317–326
 Stephenson, Paul (2000), Byzantium's Balkan Frontier: A Political Study of the Northern Balkans, 900–1204, pp.
 .30–31
 .Fine, John V. A. Jr. (1991) [1983]. The Early Medieval Balkans. p. 181
 .Haldon, John F. (2001), The Byzantine Wars, Stroud: Tempus, p. 97
 .Whittow, Mark (1996). The Making of Byzantium, 600–1025. pp. 260, 294–295
 .Stephenson, Paul (2000), Byzantium's Balkan Frontier: A Political Study of the Northern Balkans, 900–1204, p. 49
 .Obolensky, Dimitri (1971), The Byzantine Commonwealth: Eastern Europe, 500–1453, p. 128
 Stephenson, Paul (2000), Byzantium's Balkan Frontier: A Political Study of the Northern Balkans, 900–1204, pp.
 .49–51
 Fine, John V. A. Jr. (1991) [1983]. The Early Medieval Balkans: A Critical Survey from the Sixth to the Late Twelfth
 .Century. Ann Arbor: University of Michigan Press. pp. 185–186
 .Stephenson, Paul (2000), Byzantium's Balkan Frontier: A Political Study of the Northern Balkans, 900–1204, p. 51
 .Obolensky, Dimitri (1971), The Byzantine Commonwealth: Eastern Europe, 500–1453, p. 129
 .Haldon, John F. (2001), The Byzantine Wars, Stroud: Tempus, pp. 99–100
 .Treadgold, Warren (1997). A History of the Byzantine State and Society. p. 509
 .Whittow, Mark (1996). The Making of Byzantium, 600–1025. p. 296

نهر بجنوب كرواتيا.

- .Ivo Goldstein (1995): Hrvatski rani srednji vijek, Zagreb, p. 212
.De Administrando Imperio, XXX. Story of the province of Dalmatia
John Van Antwerp Fine: The Early Medieval Balkans: A Critical Survey from the Sixth to the Late Twelfth Century, 1991, p. 251-255
.Florin Curta: Southeastern Europe in the Middle Ages, 500-1250, p. 135
.Vladimir Posavik (1998), "Povijesni zemljovid i granice Hrvatske u Tomislavovo doba, 29 (1): 11-20
Curta, Florin (2001). The Making of the Slavs: History and Archaeology of the Lower Danube Region, c. 500–700. p. 64-66
.Ćirković, Sima (2004). The Serbs. p. 10-19
Krsmanović, Bojana (2008). The Byzantine Province in Change: On the Threshold Between the 10th and the 11th Century. p. 135
.Drulák, Petr (2012). "Czech geopolitics: struggling for survival. p. 91
نص تم اختراعه للغات السلافية حوالي ٨٦٠م من قبل المبشرين المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين
قسطنطين (المعروف لاحقًا باسم سانت سيريل)، وشقيقه ميثوديوس (لاحقًا القديس ميثوديوس).
Róna-Tas, András (1999). Hungarians and Europe in the Early Middle Ages: An Introduction to Early Hungarian History. p. 338
Spinei, Victor (2003). The Great Migrations in the East and South East of Europe from the Ninth to the Thirteenth Century. p. 69
Spiesz, Anton; Caplovic, Dusan (2006). Illustrated Slovak History: A Struggle for Sovereignty in Central Europe. p. 25
Štefan, Ivo (2011). "Great Moravia, Statehood and Archaeology: The "Decline and Fall" of One Early Medieval Polity". In Macháček, Jiří; Ungerman, Šimon (eds.). Frühgeschichtliche Zentralorte in Mitteleuropa, p. 344
.Peter F. Sugar, Peter There, Tibor Frank, (1994) A History of Hungary, p. 11
.Csorba, Csaba (1997). Árpád népe [The people of Árpád] (in Hungarian)
.Early History". A Country Study: Hungary. Federal Research Division, Library of Congress"
Charles R. Bowlus, The Battle of Lechfeld and Its Aftermath, August 955: The End of the Age of Migrations in the Latin West, 2006, p. 166
.Baron Edward Francis Twining Twining, A history of the crown jewels of Europe, 1960, p. 387
.Early History". A Country Study: Hungary. Federal Research Division, Library of Congress"
.Whittow, Mark (1996). The Making of Byzantium, 600–1025. p. 213
Dadoyan, Seta B. (2011). The Armenians in the Medieval Islamic World: The Arab Period in Arminiyah, Seventh to Eleventh Centuries. p. 85
.Whittow, Mark (1996). The Making of Byzantium, 600–1025. p. 213
في شمال سوريا، على الضفة الشرقية لنهر الفرات.
كان مصطلحًا عربيًا مستخدمًا للإشارة إلى الجانب الإسلامي من المنطقة الحدودية بين الإمبراطورية البيزنطية والأموية والخلافة العباسية في قليقية وشمال سوريا وبلاد ما بين النهرين.
Brooks, E. W. (1923). "Chapter V. (A) The Struggle with the Saracens (717–867)". In Bury, J.B. (ed.). The Cambridge Medieval History, Vol. IV: The Eastern Roman Empire (717–1453). p. 124
منطقة جغرافية ثقافية في جنوب الأناضول، تمتد داخليًا من السواحل الشمالية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.
.Treadgold, Warren (1988). The Byzantine Revival, 780–842. p. 125
كليسيان جيتس، أو البوابة القليقية، ممر عبر جبال طوروس يربط السهول المنخفضة بهضبة الأناضول، كانت شريانًا تجاريًا وعسكريًا رئيسيًا لآلاف السنين.
.Treadgold, Warren (1988). The Byzantine Revival, 780–842. p. 91
.Lilie, Ralph-Johannes (1996). Byzanz unter Eirene und Konstantin VI. (780–802). p. 156
.Treadgold, Warren (1988). The Byzantine Revival, 780–842. Stanford, California: Stanford University Press. p. 91
.Lilie, Ralph-Johannes (1996). Byzanz unter Eirene und Konstantin VI. (780–802). p. 167
.Kennedy (2004), p. 146
.John Julius Norwich (1998). A Short History of Byzantium. Penguin
.Magdalino, Paul (2002). The Oxford History of Byzantium. p. 171
.Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. p. 134
مدينة تركية تقع بالجنوب، تابعة لمحافظة مرسين حاليًا.
.Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. p. 137
.DK (16 April 2012). The Illustrated Encyclopedia of Warfare: From Ancient Egypt to Iraq. p. 375
كانت مدينة تقع في فريجيا بأسيا الصغرى.
.Mark Whittow (1996). The Making of Byzantium, 600–1025. p. 311
.Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. New York: Vintage p. 149

حسين الكتاني (٨ نوفمبر ٢٠١٩). السكان المسلمون في العالم: التحليلات المكانية والزمانية.

Rački, Odlomci iz državnoga práva hrvatskoga za narodne dynastie, p. 15

Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. p. 155

Rački, Odlomci iz državnoga práva hrvatskoga za narodne dynastie, p. 15

Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. p. 161

مدينة يونانية حالية، ومركز لبلدية تقع في شمال البلاد، وهي عاصمة لمنطقة مقدونيا الوسطى الإدارية.

تاورمينا التي هي طَبْرَمِين؛ مدينة في جزيرة صقلية بإيطاليا حاليًا.

Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. New York: Vintage p. 164

The previous reference. p. 177

مدينة تاريخية قديمة من مدن الأناضول تقع غربي نهر الفرات جنوبي ملطية وشرقي مرعش، عندها

ينعطف نهر الفرات إلى الغرب.

Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. New York: Vintage. p. 181- 186

The previous reference

Norwich, John Julius (1997). *A Short History of Byzantium*. New York: Vintage. p. 192 - 202

The previous reference

Ibid

Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. New York: Vintage. p. 203

The previous reference. p. 212

The previous reference. p. 212

Norwich, John Julius (1997). A Short History of Byzantium. New York: Vintage. p. 212

Stevenson (1926), p. 252

مقاطعة بلاغوفغراد الحالية، جنوب شرق بلغاريا.

.Catherine Holmes, the Governance of Basil II

.Read (2001), p 65–66

إبراهيم محمد آل مصطفى، سفارات الأندلس إلى ممالك أوروبا المسيحية الكاثوليكية.

محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس: (ط ٣ - ٢٠١٠م)، ص. ٣٣٨ - ٣٣٩.

المرجع السابق

مقاطعة فرنسية سابقة أصبحت الآن ضمن إقليم أوكسيتاني في جنوب فرنسا. كانت عاصمتها تولوز.

محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس: (ط ٣ - ٢٠١٠م)، ص. ٣٠٥-٣٠٦.

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، (١٩٩٧)، ص. ٤٤٧.

المرجع السابق

أبو العباس المقري، نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (١٩٨٨)، ص. ٣٩٥.

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، (١٩٩٧)، ص. ٥١٧-٥٢٠

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج ٢، (ط. الثالثة

-١٩٨٣)، ص. ٢٧٩.

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، (١٩٩٧)، ص. ٦٢٥

المرجع السابق، ص. ٦٣٢-٦٣٤

المرجع نفسه، ص. ٦٣٢-٦٣٤

المرجع نفسه، ص. ٦٤٣-٦٤٤

المرجع نفسه، ص. ٦٤٦-٦٤٧

رينهارت دوزي (١٩٩٤)، المسلمون في الأندلس - الجزء الثاني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة،

ص. ٢٢٣.

Backman Worlds of Medieval Europe p. 141–144

Ibid. 147–149

.Cantor, Norman F. (1993). The Civilization of the Middle Ages. Harper Perennial. p. 212–215

.Davies, Norman (1996). A History of Europe. p. 317, 1246

.Holt, Andrew (5 June 2019). The World of the Crusades: A Daily Life Encyclopedia [2 volumes]. p. 360

.Lewis, Archibald Ross (1988). Nomads and Crusaders, A.D. 1000-1368. p. 83

.Fried, Johannes (13 January 2015). The Middle Ages. p. 138

منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى، وكانت مملكتها تحتل الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى من

جمهورية التشيك حاليًا.

كانت مملكة واقعة في منطقة برغونية الفرنسية التاريخية، وهي الآن محافظة في وسط شرق فرنسا.

.Barraclough, Geoffrey (1984). The Origins of Modern Germany. p. 101–134

.Gascoigne, Bamber. "History of the Holy Roman Empire". HistoryWorld

كانوسا حاليًا هي بلدية في مقاطعة ريدجو إميليا في إقليم إميليا رومانيا الإيطالي.

.Barraclough, Geoffrey (1984). The Origins of Modern Germany. p. 123

موقعها الآن: صخرة بلاي، كانغاس دي أونيس، منطقة أستورياس، إسبانيا.

Deyermond, Alan (1985). "The Death and Rebirth of Visigothic Spain in the Estoria de España". Revista

.Canadiense de Estudios Hispánicos. p. 346; Collins, Roger (1989). The Arab conquest of Spain 710-797. p. 49

هي نفسها مدينة أبيب التي تقع في شمال غرب إسبانيا، وهي عاصمة منطقة أستورية.

نفس الجبل المسمى أو جبل المعدن أو سييرا مورينا، وهو أحد السلاسل الجبلية الرئيسية في إسبانيا

الحالية.

تقع في منطقة قشتالة وليون، وهي عاصمة مقاطعة برغش في وسط شمال إسبانيا.

Menéndez Pidal, Ramón. "El Dialecto Leonés" p 33–37.1906

.Herbermann, Charles, ed. (1913). "Spain". Catholic Encyclopedia

محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس: (ط ٣ - ٢٠١٠م)، ص. ٤٢٧ - ٤٢٨.

.G. Stewart, Is the Caliph a Pope?, in: The Muslim World, Volume 21, Issue 2, p 185–196

Department of Islamic Art (October 2001). "The Art of the Almoravid and Almohad Periods (ca. 1062–1269)".

- .www.metmuseum.org. New York: The Metropolitan Museum of Art
- .Herbermann, Charles, ed. (1913). "Spain". *Catholic Encyclopedia*
- .Cameron, Averil (2009). *Οι Βυζαντινοί* (in Greek). Athens: Psychogios. p. 83
- .Treadgold, Warren (1997). *A History of the Byzantine State and Society*. p. 548–549
- "Markham, "The Battle of Manzikert
Vasiliev 1928–1935, "Relations with Italy and Western Europe
- Hooper, Nicholas; Bennett, Matthew (1996). *The Cambridge Illustrated Atlas of Warfare: The Middle Ages*. p. 82
- بارتولد، تاريخ الترك ودائرة المعارف الإسلامية: مجلد 5، ص. 38-40
- Baynes, T.S., ed. (1878). "Anni". *Encyclopædia Britannica*. Vol. 2 (9th ed.). p. 72
- .Grant, R.G. (2005). *Battle a Visual Journey Through 5000 Years of Combat*. p. 77
- ."?Markham, Paul. "Battle of Manzikert: Military Disaster or Political Failure
- .Grant, R.G. (2005). *Battle a Visual Journey Through 5000 Years of Combat*. p. 77
- Hillenbrand, Carole (2007). *Turkish Myth and Muslim Symbol: The Battle of Manzikert*. p. 214
- J. Norwich, *Byzantium: The Apogee*, 238
- .Konstam, Angus (2004). *The Crusades*. p. 41
- .Norwich, John Julius (1997). *A Short History of Byzantium*. p. 239
- .Nicolle, David (2013). *Manzikert 1071. The Breaking of Byzantium*. p. 73
- .Grant, R.G. (2005). *Battle a Visual Journey Through 5000 Years of Combat*. p. 77
- .Norwich, John Julius (1997). *A Short History of Byzantium*. p. 240
- .Grant, R.G. (2005). *Battle a Visual Journey Through 5000 Years of Combat*. p. 77
- .Norwich, John Julius (1997). *A Short History of Byzantium*. p. 240
- Holt, Peter Malcolm; Lambton, Ann Katharine Swynford & Lewis, Bernard (1977). *The Cambridge History of Islam*. p. 231–232
- .Haldon, John (2000). *Byzantium at War 600–1453*. p. 46
- .Mikaberidze, Alexander (2011). *Conflict and Conquest in the Islamic World: A Historical Encyclopedia*. p. 563
- .Norwich, John Julius (1997). *A Short History of Byzantium*. New York: Vintage Books. p. 242
- Williams, Ann (2003). *Æthelred the Unready: The Ill-Counselled King*. p. 54
- Huscroft, Richard (2005). *Ruling England 1042–1217*. p. 3
- Stafford, Pauline (1989). *Unification and Conquest: A Political and Social History of England in the Tenth and Eleventh Centuries*. p. 86–99
- Higham, Nick (2000). *The Death of Anglo-Saxon England*. p. 167–181
- Bates, David (2001). *William the Conqueror*. Stroud, UK: Tempus. p. 73–77
- Higham, Nick (2000). *The Death of Anglo-Saxon England*. p. 188–190
- Thomas, Hugh (2007). *The Norman Conquest: England after William the Conqueror*. *Critical Issues in History*. p. 33–34
- Walker, Ian (2000). *Harold the Last Anglo-Saxon King*. p. 158–165
- Carpenter, David (2004). *The Struggle for Mastery: The Penguin History of Britain 1066–1284*. p. 72–74
- Stafford, Pauline (1989). *Unification and Conquest: A Political and Social History of England in the Tenth and Eleventh Centuries*. p. 102–105
- The previous reference. p. 82–83
- Ibid. p. 75–76
- Ibid. p. 110–112
- Prestwich, J. O. (1992). "The Military Household of the Norman Kings". In Strickland, Matthew (ed.). *Anglo-Norman Warfare*. p. 70–74
- Carpenter, David (2004). *The Struggle for Mastery: The Penguin History of Britain 1066–1284*. p. 129
- .Norwich, John Julius (1997). *A Short History of Byzantium*. p. 243
- Paul K. Davis,)1999), *100 Decisive Battles from Ancient Times to the Present: The World's Major Battles and How They Shaped History*, p. 118
- Delbrück, Hans (1923). "7. Kapitel: Byzanz" [Chapter 7: Byzantium]. *Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte* (in German). Vol. 3. Teil: Das Mittelalter (2nd ed.). p. 209–210
- Byzantine Empire". *Encyclopædia Britannica*. 2002.; Markham, "The Battle of Manzikert MacEvitt, Christopher" (2007). "The Chronicle of Matthew of Edessa: Apocalypse, the First Crusade, and the Armenian Diaspora". *Dumbarton Oaks Papers*. 61: 157–181
- .Browning, Robert (1992). *The Byzantine Empire*. The Catholic University of America. p. 190
- .Byzantine Empire". *Encyclopædia Britannica*
- .Watson, Bruce (1993). *Sieges: A Comparative Study*. p. 12
- Read, Piers Paul (2000) [1999]. *The Templars: The Dramatic History of the Knights Templar, The Most Powerful Military Order of the Crusades*. p. 124
- .Munro, Dana Carleton. (1906). *The speech of Pope Urban II. at Clermont, 1095*. (New York)
- Tyerman, Christopher (2006). *God's War: A New History of the Crusades*. Belknap Press, Summons to Jerusalem,

- .Barker, Ernest (1911). "Crusades". In Chisholm, Hugh (ed.). *Encyclopædia Britannica*. Vol. 7 (11th ed.). p. 526
.Timeline: Crusades, 1095–1303. Oxford Reference (2012)
- .Asbridge, Thomas (2012). *The Crusades: The War for the Holy Land*. Simon & Schuster, p. 26–29
.Murray, Alan V. (2006). "Peoples Crusades (1096)". In *The Crusades*. p. 939-941
- Runciman, Steven (1951). *A History of the Crusades, Volume One: The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem, The Peoples Expedition*, p. 121–133
.Asbridge, Thomas (2004). *The First Crusade: A New History*, p. 89–95, The Main Armies of the First Crusade
- Runciman, Steven (1951). *A History of the Crusades, Volume One: The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem*, p. 336–341, Appendix II: The Numerical Strength of the Crusaders
.Oman (1097).1924, p. 273–278, Battle of Dorylaeum
- .Robson, William (1855). *The Great Sieges of History*. Routledge, p. 368–371, Fourth siege of Edessa, A.D. 1097
.Asbridge, Thomas (2012). *The Crusades: The War for the Holy Land*, p. 82–83, 87, 89
- .France, John (2006). "Jerusalem, Siege of (1099)". In *The Crusades: An Encyclopedia*. p. 677–679
- Runciman, Steven (1951). *A History of the Crusades, Volume One: The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem*, p. 289–314
.Asbridge, Thomas (2004). *The First Crusade: A New History*. Oxford, p. 232–327, The Last Battle
.Mulinder, Alex (2006). "Crusade of 1101". In *The Crusades*. p. 304–307
.Komnene 1928, *Alexiad*, 13.348–13.358; Birkenmeier 2002, p. 46
- أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، (٢٠٠٦)، ص ١٢٣ – ١٤٢.
المرجع السابق، ص. ١٠٩-١٢٢.
- .Norwich, John Julius (1998). *A Short History of Byzantium*. Ringwood, Vic. p. 267
Ostrogorsky, George (1969). *History of the Byzantine State*. p. 377
- .Birkenmeier, John W. (2002). *The Development of the Komnenian Army: 1081–1180*. Leiden: Brill. p. 90
.Douglas, David. *The Norman Fate, 1100-1154*, 1976
- جزيرة مالطة وباقي الجزر.
.Cinnamus, Ioannes (1976). *Deeds of John and Manuel Comnenus*. p. 74–75
.Harris, Jonathan (2014). *Byzantium and the Crusades* (2nd ed.). p. 84
- Runciman, Steven (1952). *A History of the Crusades, Volume Two: The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East, 1100-1187*, p. 214–216, The Christians lay siege to Shaizar (1138)
- Baldwin, Marshall W. (1969). "Chapter XVII. The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143-1174". In Setton, Kenneth M.; Baldwin, Marshall W. (eds.). *A History of the Crusades: Volume One*. p. 528-563
- Runciman, Steven (1952). *A History of the Crusades, Volume Two: The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East, 1100-1187*. p. 225–246, The Fall of Edessa
- Asbridge, Thomas (2012). *The Crusades: The War for the Holy Land*. p. 225–232, Zangi—Champion of Islam, The Advent of Nūr-ad-Din
.Magdalino, Paul (2002a). *The Empire of Manuel I Komnenos, 1143–1180*. p. 74
.Sedlar, Jean W. (1994). *East Central Europe in the Middle Ages, 1000–1500*. Vol. III. p. 372
.Magdalino, Paul (2002a). *The Empire of Manuel I Komnenos, 1143–1180*. p. 67
.Birkenmeier, John W. (2002). *The Development of the Komnenian Army: 1081–1180*. p. 196
- Day, Gerald W. (1977). "Manuel and the Genoese: A Reappraisal of Byzantine Commercial Policy in the Late Twelfth Century". *The Journal of Economic History*. 37 (2), p. 289–290
- .Kristó Gyula – Barta János – Gergely Jenő: Magyarország története előidőktől 2000- p. 687, p. 37- 113
.Hóman, Bálint (1983). *King Stephen the Saint*. p. 18
- John Van Antwerp Fine: *The Early Medieval Balkans: A Critical Survey from the Sixth to the Late Twelfth Century*, 1991, p. 288
- Kristó Gyula – Barta János – Gergely Jenő: Magyarország története előidőktől 2000, p. 687, p. 37, p. 113
.Viking Woman Warrior May Have Been Slavic". *Smithsonian*"
- .Lindqvist, Herman (2006). *Historien om alla Sveriges drottningar*. p. 24, 35, 536
.Canute (I) king of England, Denmark, and Norway". *Britannica*"
- Nora Berend, *Christianization and the Rise of Christian Monarchy: Scandinavia, Central Europe and Rus* c.900–1200 (2010)
- المعروف أيضًا باسم الدولة الأيسلندية الحرة، كانت الوحدة السياسية الموجودة في أيسلندا حينها، وكان نظام سياسي فريد أنشأه زعماء القبائل.
- Jerzy Wyrozumski – *Historia Polski do roku 1505* (History of Poland until 1505), Państwowe Wydawnictwo Naukowe (Polish Scientific Publishers PWN), Warszawa 1986
- .Baranauskas, Tomas (2000). "Lietuvos valstybės ištakos" [The Lithuanian State], Vilnius: viduramziu.istorija.net
.Ch. Allmand, 1998(, *The New Cambridge Medieval History*, p. 731
.Rowell, Lithuania Ascending, p. 289

- .Javakhishvili, Ivane (1982), *kaartveli eris istoria* (The History of the Georgian Nation), vol. 2, p. 184-187
- Scholtbach, Alvaro. Nodia, Gia. *The Political Landscape of Georgia: Political Parties: Achievements, Challenges and Prospects*, 2006, p. 7
- .Barraclough, Geoffrey (1984). *The Origins of Modern Germany*. 123–134
- .Berry, Virginia G. (1969). "Chapter XV. The Second Crusade". p. 463-512
- .Beverly Mayne Kienzle and James Calder Walton (2006). *Second Crusade (1147–1149)*. p. 1083-1090
- .Tyerman, Christopher (2006). *God's War: A New History of the Crusades*. p. 268–303
- أفسس أو إفسوس، في الأناضول، وتقع في منطقة ليديا – منطقة تاريخية في غرب الأناضول.**
- بالقرب من لاوديكيّا، بإقليم بيسيديا في جنوب آسيا الصغرى.**
- Runciman, Steven (1952). *A History of the Crusades, Volume Two: The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East, 1100-1187*. p. 268–274
- Gibb, Hamilton A. R. (1969). "Chapter XVI. The Career of Nūr-ad-Din". In Setton, Kenneth M.; Baldwin, Marshall W. (eds.). *A History of the Crusades: Volume One*. p. 513-528
- أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، (٢٠٠٦)، ص ١٤٣ – ١٥٨.**
- Runciman, Steven (1952). *A History of the Crusades, Volume Two: The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East, 1100-1187*, p. 278–288, **Fiasco**
- قرية عناب، منطقة الغاب - حماة - سوريا.**
- Barker, Ernest (1911). "Raymund of Antioch". In Chisholm, Hugh (ed.). *Encyclopædia Britannica*. 22. (11th ed.). p. 934
- .Winifred Frances Peck (1911). "Saladin". In Chisholm, Hugh (ed.). *Encyclopædia Britannica*. 24. (11th ed.)
- بلبيس هي إحدى مدن محافظة الشرقية بمصر.**
- .Barber, Malcolm (2012). *The Crusader States*, p. 240, **The Zengid Threat**
- .Bird, Jessalynn (2006). *Damietta*. In *The Crusades*. p. 343–344
- وقعت بالقرب من الرملة بفلسطين.**
- وقعت على تل القاضي بانياس على الساحل السوري.**
- Barker, Ernest (1911). "Raynald of Châtillon". In Chisholm, Hugh (ed.). *Encyclopædia Britannica*. 22. (11th ed.). p. 936
- Lewis, Kevin James (2017). *The Counts of Tripoli and Lebanon in the Twelfth Century*, p. 233–284, **The Regent Thwarted: Count Raymond III (1174–1187)**
- .Asbridge, Thomas (2012). *The Crusades: The War for the Holy Land*. p. 367
- Baldwin, Marshall W. (1969). "Chapter XIX. The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189". In Setton, Kenneth M.; Baldwin, Marshall W. (eds.). *A History of the Crusades: Volume One. The First Hundred Years*. p. 590-621
- .Houben, Hubert (2002). *Roger II of Sicily: A Ruler between East and West*. p. 7, 148
- .Donald Matthew (1992). *The Norman Kingdom of Sicily*. p. 4–6, 71–74, 86–92, 285, 286, 304
- بلدة وبلدية في مقاطعة كامبواسو في إقليم موليزي الإيطالي.**
- .Malcolm Barber (2004). *The Two Cities: Medieval Europe, 1050–1320*. p. 211
- .Houben, Hubert (2002). *Roger II of Sicily: A Ruler between East and West*. p. 7, 148
- بنو زيري، هم تلك السلالة الصنهاجية من منطقة المغرب الأوسط، حكمت هذه السلالة في شمال إفريقيا: الجزائر وتونس وأجزاء ليبيا ومناطق في الأندلس ما بين ٩٧١-١١٥٢م.**
- .Houben, Hubert (2002). *Roger II of Sicily: A Ruler between East and West*. p. 7, 148
- Jordan Europe in the High Middle Ages*, p. 143–147
- The previous reference. 250–252
- .Donald Matthew (1992). *The Norman Kingdom of Sicily*. p. 4–6, 71–74, 86–92, 285, 286, 304
- Hunyadi, Zsolt; Laszlovszky, József (2001). *The Crusades and the Military Orders: Expanding the Frontiers of Medieval Latin Christianity*. p. 129
- سلالة من الملوك الألمان، توج العديد منهم كإمبراطورين للإمبراطورية الرومانية المقدسة ودوقات لشوايبيا.**
- .Donald Matthew (1992). *The Norman Kingdom of Sicily*. p. 4–6, 71–74, 86–92, 285, 286, 304
- Carpenter, David (2004). *The Struggle for Mastery: The Penguin History of Britain 1066–1284*. p. 134–135
- Huscroft, Richard (2009). *The Norman Conquest*. p. 65, 69–71
- Schama, Simon (2000). *A History of Britain – At the edge of the world*. BBC. p. 117
- Ashley, Mike (2003). *A Brief History of British Kings and Queens*. p. 73
- Aurell, Martin (2003). *L'Empire de Plantagenêt, 1154–1224*. Paris. p. 15
- Davies, R. R. (1990). *Domination and Conquest: The Experience of Ireland, Scotland and Wales, 1100–1300*. p. 76
- Warren, W. Lewis (2000). *Henry II*. p. 194
- Carpenter, David (2004). *The Struggle for Mastery: The Penguin History of Britain 1066–1284*. p. 215
- Bull, Marcus (2007). "Criticism of Henry II's Expedition to Ireland in William of Canterbury's *Miracles of St Thomas*

- Becket". Journal of Medieval History. p. 124
- Davies, R. R. (1990). Domination and Conquest: The Experience of Ireland, Scotland and Wales, 1100–1300. p. 64–65 -78
- Jones, Dan (2012). The Plantagenets: The Kings Who Made England. p. 82–92
- التهاب المعدة والأمعاء، وينتج عنه إسهال دموي.
- Heiser (2000), The Reign of Richard Lionheart, Ruler of the Angevin empire, p 71, Ackroyd, Peter (2000). :Turner London – A Biography. Vintage. p. 54
- Flori, Jean (1999). Richard Coeur de Lion: le roi-chevalier. p. 116
- .Tyerman, Christopher (2006). God's War: A New History of the Crusades, p. 375–401, The Call of the Cross
- Asbridge, Thomas (2012). The Crusades: The War for the Holy Land, p. 420–422, The Fate of the German Crusade
- Oman, Charles (1924). A History of the Art of War in the Middle Ages. Metheun, p. 306–319, Tactics of the Crusades: Battles of Arsouf and Jaffa (Volume I)
- Runciman, Steven (1954). A History of the Crusades, Volume Three: The Kingdom of Acre and the Later Crusades, p. 70–72, Richard's Last Victory (1192)
- .von Sybel, Heinrich (1861). The History and Literature of the Crusades, p. 89–91, Treaty with Saladin
- Jones, Dan (2012). The Plantagenets: The Kings Who Made England. p. 128
- Carlton, Charles (2003). Royal Warriors: A Military History of the British Monarchy. Pearson Education. p. 42
- جزيرة يونانية تقع في البحر الأيوني في شمال غرب اليونان.
- إيكلاية أو أنكلاية أو أكوليا، مدينة رومانية قديمة في إيطاليا على رأس البحر الأدرياتيكي.
- Madden, Thomas F. (2005), Crusades: The Illustrated History, p. 96
- .Purser, Toby (2004), Medieval England 1042–1228, p. 161
- في مقاطعة هوت فيين، فرنسا حاليًا.
- Jones, Dan (2012). The Plantagenets: The Kings Who Made England. HarperPress. p. 146
- .Norwich, John Julius (1998). A Short History of Byzantium. p. 291
- .Norwich, John Julius (1998). A Short History of Byzantium. p. 292
- .Harris, Jonathan (2014). Byzantium and the Crusades (2nd ed.). p. 118
- .Ostrogorsky, George (1969). History of the Byzantine State. p. 397
- .Norwich, John Julius (1998). A Short History of Byzantium. p. 294–295
- مصطلح تاريخي واسم أجنبي مستخدم من العصور الوسطى، لتحديد المجموعات الفرعية الناطقة بالرومانية في أوروبا الوسطى والشرقية، والرومانيين ميلينيو والرومانيين والإسترو الرومانيين وغيرهم من المجموعات الفرعية الناطقة بالرومانسية الشرقية.
- .Vasiliev, Alexander Alexandrovich (1928–1935). History of the Byzantine Empire
- .Norwich, John Julius (1998). A Short History of Byzantium. p. 299
- Jotischky, Andrew (2004). Crusading and the Crusader States, p. 168
- .Norwich, John Julius (1998). A Short History of Byzantium. p. 301
- .Tyerman, Christopher (2019). The World of the Crusades, p. 240–242
- .Britannica Concise, Siege of Zara
- .Tyerman, Christopher (2019). The World of the Crusades, p. 249–250
- كان مسئولًا ومؤرخًا بالحكومة البيزنطية، وقد كتب تاريخًا للإمبراطورية الرومانية الشرقية من ١١١٨ إلى ١٢٠٧.
- .Choniates 1912, The Sack of Constantinople
- .Norwich, John Julius (1982). A History of Venice. New York: Alfred A. Knopf Inc. p. 127–143
- .A. A. Vasiliev, "The Foundation of the Empire of Trebizond (1204–1222)" (1936), p. 18
- .Koenigsberger, H. G. (14 January 2014). Medieval Europe 400 - 1500. p. 105
- .Bridge, Antony. 1980. The Crusades. London
- .Tyerman, Christopher (1996). England and the Crusades, 1095-1588, p. 97, The Fifth Crusade
- Runciman, Steven (1954). A History of the Crusades, Volume Three: The Kingdom of Acre and the Later Crusades, p. 132–179
- .Paschal Robinson (1909). "St. Francis of Assisi". In Herbermann, Charles (ed.). Catholic Encyclopedia. 6
- أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، (٢٠٠٦)، ص ٢١٨ – ٢٢٦.
- Christie, Niall (2014). Muslims and Crusaders: Christianity's Wars in the Middle East, 1095-1382, Document 16: Al-Kamil Muhammad and the Fifth Crusade
- Richard, Jean C. (1999). The Crusades, c.1071 – c.129, p. 299–307, The Egyptian Campaign of the Legate Pelagius
- Gibb, H. A. R. (1969). The Aiyūbids (PDF). A History of the Crusades (Setton), Volume II, p. 700–702, The Ayyubids from 1221–1229
- أمين معلوف، الحروب الصليبية بعيون العرب، (٢٠٠٦)، ص ٢٢٦–٢٢٧.

- Van Cleve, Thomas C. (1977). "The Crusade of Frederick II". In Setton, K. A History of the Crusades: Volume II. p. 377-448.
- مدينة إيطالية في إقليم بولية.
- .Tyerman, Christopher (1996). England and the Crusades, 1095-1588, p. 99–101, The Crusade of 1227–1229
- Runciman, Steven (1954). A History of the Crusades, Volume Three: The Kingdom of Acre and the Later Crusades, p. 183–184, Frederick at Acre (1228)
- .Richard, Jean C. (1999). The Crusades, c.1071 – c.1291, p. 312–318, The Sixth Crusade and the Treaty of Jaffa
- .Asbridge, Thomas (2012). The Crusades: The War for the Holy Land, p. 562–571, Frederick II's Crusade
- Christie, Niall (2014). Muslims and Crusaders: Christianity's Wars in the Middle East, 1095-1382, Document 17: Two sources on the Handover of Jerusalem to Frederick II
- Runciman, Steven (1954). A History of the Crusades, Volume Three: The Kingdom of Acre and the Later Crusades, p. 205–220, Legalized Anarchy
- .Burgturf, Jochen. "Crusade of 1239–1241". The Crusades. p. 309-311
- .Asbridge, Thomas (2012). The Crusades: The War for the Holy Land, p. 574–576, The Bane of Palestine
- Peter Turchin, Thomas D. Hall and Jonathan M. Adams, "East-West Orientation of Historical Empires", Journal of World-Systems (no. 2), p. 219-229 (2006)
- .Michell, Robert; Forbes, Nevell (1914). "The Chronicle of Novgorod 1016–1471. p. 64
- .Eddie Austerlitz (2010). History of the Ogus. p. 27
- Bitwa pod Legnicą Chwała Oręża Polskiego Nr 3. Rzeczpospolita and Mówią Wieki. Primary author Rafał Jaworski. p. 8
- The previous reference, p. 4
- .Trawinski, Allan. The Clash of Civilizations. Section 15
- .Hartog, Leo. Genghis Khan, (2004): Conqueror of the World. Tauris Parke, p. 173
- في محافظة أوبول – بولندا حالياً.
- .Hildinger, Eric. Warriors Of The Steppe (1997): Military History Of Central Asia, 500 Bc To 1700 Ad, (3rd) p. 144
- في الطريق إلى الممرات الجبلية باتجاه بوهيميا.
- .Hartog, Leo. Genghis Khan, (2004): Conqueror of the World. Tauris Parke, p. 173
- "Hungary – Culture, History, & People". britannica.com"
- .Frank Lynn, "Genghis Khan: his conquest, his empire, his legacy
- Michael Prawdin, Gerard Chaliand, The Mongol Empire, p.268
- .750th Anniversary of the Golden Bull Granted by Bela IV
- .Klaić V., Povijest Hrvata, Knjiga Prva, Druga, Treća, Četvrta i Peta Zagreb 1982
- .Thomas of Split, Historia Salonitana
- .Klaić V., Povijest Hrvata, Knjiga Prva, Druga, Treća, Četvrta i Peta Zagreb 1982
- .Saunders, J. J. (1971). The History of the Mongol Conquests. p. 85
- McLynn, Frank. Genghis Khan: his conquest, his empire, his legacy. p.270
- .Saunders, J. J. (1971). The History of the Mongol Conquests
- .Jackson, Peter. (2005). The Mongols and the West: 1221–1410. Routledge, p. 67
- .Hildinger, Erik. (1997). Mongol Invasions: "The Mongol Invasion of Europe" in Military History
- Strayer, Joseph R. (1977). "Chapter XIV. The Crusades of Louis IX". A History of the Crusades: Volume II, The Later Crusades 1187-1311. p. 487-521
- Runciman, Steven (1954). A History of the Crusades, Volume Three: The Kingdom of Acre and the Later Crusades, p. 256–257, King Louis sails from Agues-Mortes (1248)
- .The previous reference, p. 259–260, Negotiations with the Mongols
- .Gibb, H. A. R. (1969). The Aiyūbids. A History of the Crusades (Setton), Volume II, p. 712, as-Salih Ayyub
- .Nicolle, David (2006). Mansurah. In The Crusades–An Encyclopedia. p. 794–795
- Tyerman, Christopher (2006). God's War: A New History of the Crusades, p. 793_802, Defeat, February–March 1250
- Runciman, Steven (1954). A History of the Crusades, Volume Three: The Kingdom of Acre and the Later Crusades, p. 268–269, Turanshah takes Command
- Strayer, Joseph R. (1977). "Chapter XIV. The Crusades of Louis IX". A History of the Crusades: Volume II, The Later Crusades 1187-1311. Madison. p. 487-521
- .Asbridge, Thomas (2012). The Crusades: The War for the Holy Land, p. 606–608
- .The previous reference, p. 616–62
- .Henry Summerson (2005). "Lord Edward's Crusade (1270–1274)". Oxford Dictionary of National Biography
- .Asbridge, Thomas (2012). The Crusades: The War for the Holy Land, p. 643–644
- .Jotischky, Andrew (2004). Crusading and the Crusader States, p. 131
- Jamal Kavdar (1995). Between Two Worlds: Building the Ottoman Empire. p 122
- Madden, Thomas F. (2005). Crusades: The Illustrated History. p. 179
- Reinert, Stephen W. (2002). "Fragmentation (1204–1453)". In Cyril Mango (ed.). The Oxford History of Byzantium.

- .p. 257
 Reinert, Stephen W. (2002). "Fragmentation (1204–1453)". In Cyril Mango (ed.). *The Oxford History of Byzantium*.
 .p. 257
 .The previous reference. p. 261
 .Vasil'ev, Aleksandr Aleksandrovich (1964). *History of the Byzantine Empire, 324–1453*
 Favier, Jean (1993). *Dictionnaire de la France médiévale*. p. 176
 Smedley, Edward (1836). *The History of France, from the final partition of the Empire of Charlemagne to the Peace
 of Cambray*. Baldwin and Craddock. p. 72
 .Jones, Dan (2012). *The Plantagenets: The Kings Who Made England*. p. 221–222
 .Turner (2009), p. 195; Barlow (1999), p. 357
 .Katherine Fisher (2004). *Magna Carta*. p. 53, 84–85
 Steve Runciman (1958). *The Sicilian Vespers: A History of the Mediterranean World in the Later Thirteenth Century*.
 .p. 32–34, 209, 274
 Steve Runciman (1958). *The Sicilian Vespers: A History of the Mediterranean World in the Later Thirteenth Century*.
 .p. 32–34, 209, 274
 .The previous reference
 Loud, G. A. (2016) [2011]. "The Papal <Crusade> against Frederick II in 1228–1230". In Michel Balard (ed.). *La
 Papauté et les croisades / The Papacy and the Crusades*. p. 91–103
 .David Nicolle (2002). *Italian Medieval Armies 1000–1300*. p. 5–10, 18–19, 34
 Stephen Pow, Lindsay, *Deep Ditches and Well-built walls*, p. 59, 76
 Z. J. Kosztołnyik (1996), *Hungary in the 13th Century, East European Monographs*, p. 286
 Anchalabze, George, *The Vainakhs*. p 24
 Büntgen, Ulf; Di Cosmo, Nicola (May 26, 2016). "Climatic and environmental aspects of the Mongol withdrawal from
 Hungary in 1242 CE". *Scientific Reports*. 6 (1): 25606
 .Denis Sinor, (1999), *The Mongols in the West, Journal of Asian History* v.33. n.1
 .Victor Spinei. (1986), "Moldavia in the 11th–14th centuries.". p. 121–122
 .۳۵ .p , ۱۹۹۷ ,D. Kldiashvili, *History of the Georgian Heraldry, Parliamentis utskebani*
 على ضفاف نهر سينيوخا، أحد روافد نهر البق الجنوبي.
 في بولتافا – أوكرانيا حاليًا.
 .Sedlar, Jean W. (1994). *East Central Europe in the Middle Ages, 1000–1500*. p. 380
 Kortüm, Hans-Henning. (2006). *Transcultural Wars: from the Middle Ages to the 21st Century*, p. 227
 Wheelis, Mark (September 1, 2002). "Biological Warfare at the 1346 Siege of Caffa". *Emerging Infectious Diseases*.
 .8 (9): 971–975
 .Lucas, Henry S. (1930). "The great European Famine of 1315, 1316, 1317". 5 (4): p. 343–377
 .Cantor, Norman L. (2001). *In the wake of the plague: the Black Death and the world it made*. p. 74
 W. Mark Ormrod (2008). "England: Edward II and Edward III". In Michael Jones (ed.). *The New Cambridge
 Medieval History*. Vol. 6. p. 273
 .Ruiz, Teofilo F. "Medieval Europe: Crisis and Renewal". *An Age of Crisis: Hunger*. The Teaching Company
 Cohn, Samuel K.(2002). *The Black Death: End of a Paradigm*. *American Historical Review*, vol 107, 3, p. 703–737
 Echenberg, Myron (2002). *Pestis Redux: The Initial Years of the Third Bubonic Plague Pandemic, 1894–1901*.
Journal of World History, vol 13,2
 Wheelis, Mark (2002). "Biological Warfare at the 1346 Siege of Caffa". *Emerging Infectious Diseases*. 8 (9): 971–
 .975
 .Echenberg M (2007). *Plague Ports: The Global Urban Impact of Bubonic Plague, 1894-1901*. p. 9
 Peter Blickle, *Unruhen in der ständischen Gesellschaft 1300–1800*, 1988
 Teofilo F. Ruiz. *Medieval Europe: Crisis and Renewal*, Ch. "An Age of Crisis: Popular Rebellions", Course No. 863
 The Teaching Company The previous reference

Ibid

- .Johannes Fried (2015), "Chapter 7: The Long Century of Papal Schisms", in: *The Great Middle Ages*. p. 167–237
."Western Schism: Roman Catholic history"
- Guizot, Francois (1997). *The History of Civilization in Europe*; translated by William Hazlitt 1846. Indiana, USA:
.Liberty Fund. p. 204, 205
- The New Encyclopædia Britannica, Volumen 25 Encyclopædia Britannica, inc Encyclopædia Britannica, 2003, page
.941 "The massacre the Knights perpetrated in Gdańsk in 1308 entered Polish folklore
.Christiansen, Eric (1997). *The Northern Crusades* (2nd ed.). p. 228, 230–231
- Ekdahl, Sven (2008), "The Battle of Tannenberg-Grunwald-Žalgiris (1410), *The Military Orders: History and
Heritage*, vol. 3, p. 175
.Turnbull, Stephen (2003). *Tannenberg 1410: Disaster for the Teutonic Knights*. p. 83
.Biskup, Marian (1967). "Najazd krzyżacki na Polskę i bitwa pod Dąbkami 1431", *Historia* (15)
Jack Repcheck, "Copernicus Secret, (2008): How the Scientific Revolution Began", p. 66
- Robert Durand, in *Encyclopedia of the Middle Ages* (Routledge, 2000), s.v. "Portugal", p. 1173; see also Armindo de
.Sousa, "Portugal" in *The New Cambridge Medieval History 2004*, vol. II p. 629
.Stein, Robert (2017). *Magnanimous Dukes and Rising States*
.Parker, Geoffrey (2005). *Compact history of the world*. London: Times Books. p. 70–1
هو لقب شرفي تركي للزعيم القبلي.
- .Grant, R.G. (2005). *Battle a Visual Journey Through 5000 Years of Combat*. London: Dorling Kindersley. p. 122
.Macfie, Alexander Lyon (1996). *The Eastern Question 1774-1923* (2nd ed.)
.Cantor, Norman (1994). *The Civilization of the Middle Ages*. New York: Harper Perennial. p. 594
- Allmand, Christopher, ed. (1998). *The New Cambridge Medieval History, Volume 7, c.1415–c.1500*. p. 3
.Gabriel, Richard A. (2002). *The Great Armies of Antiquity*. Westport. p. 277
- Kaldellis, Anthony (2022). "From "Empire of the Greeks" to "Byzantium"". In Ransohoff, Jake; Aschenbrenner,
.Nathanael (eds.). *The Invention of Byzantium in Early Modern Europe*. p. 349–367
.Gabriel, Richard A. (2002). *The Great Armies of Antiquity*. p. 277
Runciman, Steven (1990). *The Fall of Constantinople, 1453*. p. 84–85
- Greatrex, Geoffrey; Lieu, Samuel N.C. (2002). *The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars (Part II, 363–630
AD)*. p. 1
- Greatrex, Geoffrey; Lieu, Samuel N.C. (2002). *The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars (Part II, 363–630
AD)*. p. 1
.Friell, Gerard; Williams, Stephen (2005). *Theodosius: The Empire at Bay*. p. 105
.Bowersock, G.M. (1997). *Julian the Apostate*. p. 79
- Postan, Michael Moissey; Miller, Edward; Postan, Cynthia (1987). *The Cambridge Economic History of Europe
(Volume 2)*. p. 140
.Gabriel, Richard A. (2002). *The Great Armies of Antiquity*. p. 277

The previous reference

- Ibid
- .Cameron, Averil (2009). *Οι Βυζαντινοί* (in Greek). Athens: Psychogios. p. 113, 128
- .Gabriel, Richard A. (2002). *The Great Armies of Antiquity*. p. 277
- Fine, John V. A. Jr. (1991) [1983]. *The Early Medieval Balkans: A Critical Survey from the Sixth to the Late Twelfth Century*. p. 33
- Meier, William N. (2003). "Die Inszenierung einer Katastrophe: Justinian und der Nika-Aufstand". *Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik*. 142 (142): 273–300. p. 297–300
- .Friell, Gerard; Williams, Stephen (2005). *Theodosius: The Empire at Bay*. p. 105
- .Hindley, Geoffrey (2004). *A Brief History of the Crusades*. p. 300
- Hollister, C. Warren (2005). *Medieval Europe: A Short History* (10th ed.). p. 366
- Allmand, Christopher, ed. (1998). *The New Cambridge Medieval History, Volume 7, c.1415–c.1500*. p. 703
- .Alan Cutler (1997-08-13). "The Little Ice Age: When global cooling gripped the world". *The Washington Post*
- .McKisack, May (1959). *The Fourteenth Century: 1307–1399*. p. 40
- .Koenigsberger, H.G. *Medieval Europe 400 - 1500* (1987) p. 309
- Allmand, Christopher, ed. (1998). *The New Cambridge Medieval History, Volume 7, c.1415–c.1500*. p. 458
- .McKisack, May (1959). *The Fourteenth Century: 1307–1399*. p. 228–9
- Duby, Georges (1993). *France in the Middle Ages, 987–1460: From Hugh Capet to Joan of Arc*, p. 288-93
- .Koenigsberger, H.G. (1987), *Medieval Europe 400 – 1500*, p. 306-7
- في منطقة بروفانس ألب كوت دازور في جنوب شرق فرنسا.**
- .Hollister, C. Warren (2005). *Medieval Europe: A Short History* (10th ed.). McGraw-Hill Higher Education. p. 338
- .Holmes, George, ed. (2001). *The Oxford History of Medieval Europe*. p. 260
- Allmand, Christopher, ed. (1998). *The New Cambridge Medieval History, Volume 7, c.1415–c.1500*. Cambridge: Cambridge University Press. p. 547
- .Hollister, C. Warren (2005). *Medieval Europe: A Short History* (10th ed.). p. 264
- Koenigsberger, H.G. *Medieval Europe 400 - 1500* (1987) p. 314
- .Pigna, Felipe (February 6, 2018). "La Reconquista española". *El Historiador* (in Spanish)
- .Holmes, George, ed. (2001). *The Oxford History of Medieval Europe*. p. 280
- Allmand, Christopher, ed. (1998). *The New Cambridge Medieval History, Volume 7, c.1415–c.1500*. p. 152–153
- .Jones, Michael, ed. (2000). *The New Cambridge Medieval History, Volume 6, c.1300–c.1415*. p. 7
- Louis A. Waldman; Péter Farbaky; Louis Alexander Waldman (2011). *Italy & Hungary: Humanism and Art in the Early Renaissance*. Villa I Tatti
- .Koenigsberger, H.G. (1987), *Medieval Europe 400 – 1500*, p. 323
- Allmand, Christopher, ed. (1998). *The New Cambridge Medieval History, Volume 7, c.1415–c.1500*. p. 769
- .Jones, Michael, ed. (2000). *The New Cambridge Medieval History, Volume 6, c.1300–c.1415*. p. 875
- .Koenigsberger, H.G. *Medieval Europe 400 - 1500* (1987) p. 339
- مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا: ج ١، ص ١٠٨، ١٠٩، ١١٠.**
- Cantor, Norman. *Middle Civilization*. p. 153
- Cantor, Norman. "The Civilization of the Middle Ages". p. 147
- (أعمال الرسل ١٨:٨-٢١).**
- (أعمال الرسل ٨:٩-٢٤).**
- قاموس الكتاب المقدس، دائرة المعارف الكتابية المسيحية – موقع الأنبا تكلا همانوت.**
- المرجع السابق.**
- Cantor, Norman. "The Civilization of the Middle Ages". p. 148
- Cantor, Norman. "The Civilization of the Middle Ages". p. 147
- Cantor, Norman. "The Civilization of the Middle Ages". p. 153
- The previous reference. p. 153
- Cantor, Norman. "The Civilization of the Middle Ages". p. 153
- .Lyons, Martyn (2011). *Books A Living History*. United States: Getty Publications. p. 15, 38–40
- The previous reference. p. 52
- .Pierre Riché, *Education and Culture in the Barbarian West: From the Jeremy Marcelino II*, (1976), p. 100-129
- Pierre Riché, *Education and Culture in the Barbarian West: From the Sixth through the Eighth Century*, (1976), p. 307-323
- .Philip Schaff: ANF03. *Latin Christianity: Its Founder, Tertullian - Christian Classics Ethereal Library*". www.ccel.org
- .William Stahl, *Roman, Science*, (1962) p. 120-133
- Stephen C. McCluskey, "Gregory of Tours, Monastic Timekeeping, and Early Christian Attitudes to Astronomy," *Isis*, 81(1990):9-22
- .Stephen C. McCluskey, *Astronomies and Cultures in Early Medieval Europe*, (1998), p. 149-57
- الكرمة هي جنس نباتي يضم حوالي ٦٠ نوعًا من الفصيلة الكرمية، أهم أنواعها الكرمة النبيذية.**

- Jellinek, E. M. 1976. "Drinkers and Alcoholics in Ancient Rome." Edited by Carole D. Yawney and Robert E. Popham. *Journal of Studies on Alcohol* 37 (11): 1718–1740
- .Saul, Nigel (2011). *Chivalry in Medieval England*. p. 197
- Joseph Rhys-Strayer (1992). *Albigensian Crusades* n. s. 143. -472 [38]
- .Will and Ariel Durant (1950). *The age of faith*. Chapter XXVIII, *The Early Inquisition: 1000-1300*
- .Franklin, J., "The Renaissance myth", *Quadrant* 26 (11) (1982), 51-60
- Robert Huntington Fletcher, *A History of English literature for Students*: p. 85–88
- Brockett and Hildy (2003, 86)
- Contamine, Philippe (1984). *War in the Middle Ages*. p. 200–7
- .Cantor, Norman (1994). *The Civilization of the Middle Ages*. p. 515
- .Pounds, N.J.P. (1994). *An Economic History of Medieval Europe* (2nd ed.). p. 407
- Jones, Michael, ed. (2000). *The New Cambridge Medieval History, Volume 6*. p. 176–81
- .Pounds, N.J.P. (1994). *An Economic History of Medieval Europe* (2nd ed.). p. 483
- .Cipolla, C.M. (1964). "Economic depression of the Renaissance?". *Economic History Review*. xvi (3): 519–24
- Allmand, Christopher, ed. (1998). *The New Cambridge Medieval History, Volume 7*. p. 243–54
- Grant, Edward (1996). *The Foundations of Modern Science in the Middle Ages: Their Religious, Institutional, and Intellectual Contexts*: p. 100–3, 149, 164–5
- Grant, Edward (1996). *The Foundations of Modern Science in the Middle Ages: Their Religious, Institutional, and Intellectual Contexts*. p. 160
- Brotton, Jerry (2006). *The Renaissance: A Very Short Introduction*. p. 67
- Curtius, Ernest Robert (1991). *European Literature and the Latin Middle Ages*. p. 351, 378
- .Wilson, David Fenwick (1990). *Music of the Middle Ages*. p. 329
- Brockett and Hildy (2003, 86)
- .Christopher Columbus: Explorer". Erişim tarihi: 1 Şubat 2010"
- .MacKnight, CC (1976). *The Voyage to Marege: Macassan Trepangers in Northern Australia*
- .Modern History Sourcebook: John Stuart Mill: *On Colonies and Colonization, 1848*". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- .DID PEOPLE IN MEDIEVAL TIMES REALLY NOT BATHE? www.todayifoundout.com
- .THE GREAT STINK OF 1858, www.todayifoundout.com
- .Virginia Smith, *Clean: A History of Personal Hygiene and Purity*
- Lewis, Bernard (1993), *Les Arabes dans l'histoire*, p.148
- .Herbermann, Charles, ed. (1913). "Michael Scotus". *Catholic Encyclopedia*
- Corbin, *History of Islamic Philosophy* (1993), p.174
- .Ormsby, Eric. "Averroes (Ibn Rushd): His Life, Works and Influence
- Fielding H. Garrison, *An Introduction to the History of Medicine: with Medical Chronology, Suggestions for Study and Bibliographic Data*, p. 86
- Lebedel, Claude (2006), *Les Croisades, origines et conséquences*, p.111
- .C. Burnett, "Arabic-Latin Translation Program in Toledo", p. 255
- .D. Campbell, *Arabian Medicine and Its Influence on the Middle Ages*
- Debus, Allen G. (2002). *The Chemical Philosophy: Paracelsian Science and Medicine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*. Dover Publ. p. 11
- Eric John Holmyard, *Alchemy*, p.100-135
- Katz, Victor J., ed. (2007), *The mathematics of Egypt, Mesopotamia, China, India, and Islam*, p.4
- .David Pingree (1964), "Gregory Chionides and Palaeologan Astronomy", *Dumbarton Oaks Papers* 18, p. 135–160
- .Katz, Victor J., ed. (2007), *The mathematics of Egypt, Mesopotamia, China, India, and Islam*
- Falco, Charles M. (12–15 February 2007), *Ibn al-Haytham and the Origins of Modern Image Analysis*, *International Conference on Information Sciences, Signal Processing and its Applications* Richard Powers (University of Illinois),
- .Best Idea; *Eyes Wide Open*
- Moody, Ernest A. (1951), "Galileo and Avempace: The Dynamics of the Leaning Tower Experiment (I)", *Journal of the History of Ideas* 12 (2): 163–193
- .V. J. Katz, *A History of Mathematics: An Introduction*, p. 291
- Lebedel, Claude (2006), *Les Croisades, origines et conséquences*, Editions, p.112
- National Library of Medicine digital archives
- .David W. Tschanz, MSPH, PhD (August 2003). "Arab Roots of European Medicine", *Heart Views* 4 (2)

- Albucasis Science museum on Albucasis
M.-T. d'Alverny, "Translations and Translators," p. 444–446, 451
- Andrew M. Watson (1974), "The Arab Agricultural Revolution and Its Diffusion, 700–1100", *The Journal of Economic History* 34 (1), p. 8–35
- Aubé, Pierre (2006). *Les empires normands d'Orient*. Editions Perrin. p. 164–165
- :Lessing, Julius (1879) [1877]. *Altorientalische Teppichmuster*
- Mack, Rosamond E. *Bazaar to Piazza: Islamic Trade and Italian Art, 1300–1600*, p.69
- Andrew M. Watson (1974), "The Arab Agricultural Revolution and Its Diffusion, 700–1100", *The Journal of Economic History* 34 (1), p. 8–35

- Albucasis Science museum on Albucasis
Studies in Medieval Islamic Technology: From Philo to Al-Jazari - From Alexandria to Diya Bakr", Donald Routledge"
.Hill and David A. King, p.23
- .Chambers's encyclopaedia: a dictionary of universal knowledge, Volume 1. J.B. Lippincott & Co. 1888. p. 142
- Adam Robert Lucas (2005), "Industrial Milling in the Ancient and Medieval Worlds: A Survey of the Evidence for an
.Industrial Revolution in Medieval Europe", Technology and Culture 46 (1), p. 1–30
- Adam Lucas (2006), Wind, Water, Work: Ancient and Medieval Milling Technology, p. 10
- .Pacey, Arnold (1991) [1990]. Technology in World Civilization: A Thousand-Year History. p. 23–24
.History of Europe". britannica.com"
- .Johannes Gutenberg and the Printing Press". Erişim tarihi: 7 Ocak 2010"
- .English Bible History:Martin Luther". Erişim tarihi: 7 Ocak 2010"
- .Nantes Fermanı 13 Nisan 1598". Erişim tarihi: 14 Ocak 2010"
- .Robert A. Nisbet (1980). History of the Idea of Progress. p. 103
- Strauss, Leo (1987), "Niccolo Machiavelli", in Strauss, Leo; Cropsey, Joseph (eds.), History of Political Philosophy
(3rd ed.)
- Peter H. Wilson, Europe's Tragedy: A History of the Thirty Years War (2009)
- .Kamen, Henry (1968). "The Economic and Social Consequences of the Thirty Years' War
.Treaty of Westphalia". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- .The Spanish Empire". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- The Armada. 1959. Tüzün, Gürel (2004). "I. Elizabeth" (Türkçe). Ölmeden Tarihte Olağanüstü kişiler. Ana "The Sun
.Never Set on the British Empire, "Dominion over palm and pine"". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010
- .Paul M. Kennedy, ed. (1991). Grand Strategies in War and Peace. p. 106
- .Dennis E. Showalter, (1996), The Wars of Frederick the Great
- Nicholas Riasanovsky, A History of Russia (4th ed. 1984), p. 192–194, 284
- .Robert A. Kann, "A History of the Habsburg Empire, 1526-1918" p.62
- William Miller "The Ottoman Empire and Its Successors, 1801-1927", p.2
- Roger Bigelow Merriman "Suleiman the Magnificent 1520-1566 ", p.132
- .The Declaration of Independence". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- .Fransız devrimi gerçekten aristokrasiyi ve monarşileri bitirdi mi?". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- R.R. Palmer and Joel Colton, (1978), A History of the Modern World (5th ed), p. 341
- Oxford Dictionary of English 2e, Oxford University Press, 2003 Napoleonic Wars maddesi
- .Prince Klemens von Metternich: Political Confession of Faith, 1820". Erişim tarihi: 1 Şubat 2010"
- .Business and Economics. Leading Issues in Economic Development
- Robert C. Allen, "Why the industrial revolution was British: commerce, induced invention, and the scientific
revolution" Economic History Review 64.2 (2011): 357–384
- .The Enlightenment". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- .The Topic: Industrial Revolution". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- هي منطقة جغرافية وتاريخية في رومانيا، تقع في شمال نهر الدانوب، وكانت تابعة للدولة العثمانية.
.Devrimleri, Babil Yayınları. 1848- 2000
- .Victor Emanuel II". Erişim tarihi: 1 Şubat 2010"
- .Was Bismarck the Key Factor in the Unification of Germany?". Erişim tarihi: 12 Ocak 2010"
- .Kırım Savaşı". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- .Kırım Savaşı ve Paris Antlaşması". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
- Brian Bond, (1968), "The First World War", Vol. XII: The Changing Balance of World Powers 1898-1945, p. 171-
208
- .I.Dünya Savaşının Başlama Sebebi". Erişim tarihi: 13 Ocak 2010"
- سيكون وصف الحرب العالمية الأولى والثانية هنا مختصرًا؛ لصعوبة شرح كل الأحداث بالتفصيل، ولكنني
قد تحدثت عنها باستفاضة في كتابي الأسبق "٢٦ ساعة فارقة في حياة هتلر".
- Christopher Clark, The Sleepwalkers: How Europe Went to War in 1914 (2013) p xxiii Martin Gilbert, Atlas of World
War I (1995) and Spencer Tucker, ed., The European Powers in the First World War: An Encyclopedia (1996) "The
.Bolshevik Revolution". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010
- Gerd Hardach, The First World War, 1914–1918 (1977) p. 153, using estimated made by H. Menderhausen, The
Economics of War (1941) p. 305
- Charles Kindleberger, The World in Depression, 1929–1939 (2nd ed. 1986) provides a broad survey by an
.economist
- .F.P. Walters, A History of the League of Nations (Oxford UP, 1965)
- .Modern Dünyanın Temel Çizgileri Şekilleniyor: 1929 Bunalımı". Erişim tarihi: 13 Ocak 2010"
- David Clay Large, Between Two Fires: Europe's Path in the 1930s (1991)

.I.C.B. Dear and M.R.D. Foot, eds, (1995), The Oxford Companion to World War II
Norman Davies, No Simple Victory: World War II in Europe, 1939–1945 (2008)
.What is to be done? TIME Magazine 9 Temmuz 1945". Erişim tarihi: 14 Ocak 2010"
.SecondSource List and Detailed Death Tolls for the Twentieth Century Hemoclysm". Users.erols.com"
.Dinah Shelton, ed., (2004), Encyclopedia of Genocide and Crimes Against Humanity, 3 vol
.The Warsaw Pact". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
Martin Conway, "The Rise and Fall of Western Europe's Democratic Age, 1945—1973," Contemporary European
.History (2004) 13#1 p. 67–88
Oxford Dictionary of English 2e, 2003, Oxford University Press, Cold War maddesi
.Fotoğraflarıyla Berlin Duvarı'nın yapılış öyküsü". Erişim tarihi: 11 Ocak 2010"
Armenia, Azerbaijan, and Georgia Country Studies, Area Handbook Series, Federal Reserch Division Library of
.Congress, 1994, p. 20-21
.A decade of further expansion". Europa. Erişim tarihi: 2007-06-25"
.The first enlargement". European NAVigator. Erişim tarihi: 2007-06-25"
.Andreas Rödder: Deutschland einig Vaterland – Die Geschichte der Wiedervereinigung (2009)
.Federico Romero, (2014), "Cold War historiography at the crossroads", Cold War History, 14:4, 685–703
Treaty of Maastricht on European Union". Activities of the European Union. Europa. Erişim tarihi: 2007-10-20.;" ^
.Craig, Paul; Grainne De Burca , P. P. Craig (2006). EU Law: Text, Cases and Materials. ss. p15
.A Europe without frontiers". Europa (web portal)"
.A decade of further expansion". Europa. Erişim tarihi: 2007-06-25"
Spiegel Online, Hamburg (26 November 2009). "NATO's Eastward Expansion: Calming Russian Fears". Der
.Spiegel

الفهرس

قبل أن تقرأ.. ٧

تعريف بالقارة العجوز ٩

الفصل الأول: أوروبا القديمة ١٧

- ١- أوروبا ما قبل التاريخ: (الزمان العتيق) ١٨
- ٢- أوروبا القديمة: (الحضارة اليونانية) ٢٥
- ٣- صعود روما: (من المَلِكِيَّة، إلى الإمبراطورية) ٣١
- ٤- أوروبا نحو الظلام: (ما قبل الكارثة) ٣٦
- الفصل الثاني: العصور الوسطى الأولى (المُبكرة) ٤٤
- ٥- يوم أن سقطت روما: (الإبحار نحو المجهول) ٤٥
- ٦- بداية العصور الوسطى المبكرة: (روما ومحاولات الاستيلاء) ٥١
- ٧- نظرة على شعوب أوروبا الشرقية: (لعبة الكراسي الموسيقية) ٥٦
- ٨- الأنجلوسكسون يلتهمون بريطانيا: (تداعيات فراغ السلطة الرومانية) ٦٥
- ٩- محاولة الخروج من الهزُّولة: (حلم يتبدل بكابوس) ٧٢
- ١٠- استفاقة نحو الشرق: (استعادة صليب المسيح) ٧٧
- ١١- صعود الإسلام: (خطرٌ شرقيٌّ أعظم) ٨٣
- ١٢- محاولة استرداد الهيبة: (اليرموك، نقطة فاصلة) ٨٧
- ١٣- خسارات متتالية في الشرق: (ذات الصواري وتطويع البحر) ٩٣
- ١٤- الصراع على مفاتيح أوروبا الشرقية: (عندما أصبح البلقان سلافيًا) ٩٩
- ١٥- الخطر على أعتاب الدار: (حصار المسلمين الأول للقسطنطينية) ١٠٦
- ١٦- مزاحمة من أجل القيادة: (الإمبراطورية البلغارية الأولى) ١١٢
- ١٧- المسلمون يترصدون: (إيبيريا محل نظر) ١١٨
- ١٨- عرش القوطيين يترنح: (لهيبٌ كامن) ١٢٣
- ١٩- دخول المسلمين الأندلس: (عبور بحر الزقاق) ١٢٧
- ٢٠- تحالف أوروبي مشترك: (الحصار الإسلامي الثاني للقسطنطينية) ١٣٣
- ٢١- نقاهة بيزنطية تفسدها بلغاريا: (تجديد الحرب البلغارية البيزنطية) ١٤٠
- ٢٢- مطرقة الفرنجة: (حائط الصد الفرنجي) ١٤٦
- ٢٣- غريلة عروش البرابرة: (بُزُوج الإمبراطورية الكارولنجية الفرنجية) ١٥٢
- ٢٤- مصيدة رونسفال : (عار شارلمان الوحيد) ١٥٦
- ٢٥- نهاية عروش البرابرة: (ولادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة) ١٦١
- ٢٦- محاولة بلغاريا غزو بيزنطة: (تجديد الحرب البيزنطية البلغارية) ١٦٦
- ٢٧- عهد الفايكنج ومصائبهم: (أوروبا النوردية والغربية حتى عام ١٠٠٠م)

- ٢٨- كيف روس قوة صاعدة : (أوروبا الشرقية حتى عام ١٠٠٠م) ١٨٠
 ٢٩- عرقيات فرضت نفوذها : (أوروبا الوسطى والبلقان حتى عام ١٠٠٠م)

- ٣٠- صراع اقتطاع الأراضي: (تفوق إسلامي نسبي) ١٩٥
 ٣١ - عودة القوة البيزنطية : (حروب النفوذ حتى عام ١٠٠٠م) ٢٠٢
 ٣٢ - الأندلس نحو الأفول: (إيبيريا حتى عام ١٠٠٠م) ٢١١
 الفصل الثالث: العصور الوسطى العليا (المتوسطة) ٢١٨
 ٣٣ - إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة: (توطيد لسلطة بابا الكنيسة)
 ٢١٩

- ٣٤ - تقييد عرش الأندلسيين: (الممالك المسيحية وبداية الاسترداد) ٢٢٢
 ٣٥ - الانشقاق العظيم: (بيزنطة نحو الانتكاسة) ٢٢٦
 ٣٦ - تقويض قوة الإمبراطورية البيزنطية : (السلاجقة وانتصار ملاذكرد) ٢٣٠
 ٣٧ - الغزو النورماني لإنجلترا: (قيام الإمبراطورية الأنجلو نورماندية) ٢٣٤
 ٣٨- استغاثة الشرق بالغرب اللاتيني: (نحو الحروب الصليبية المقدسة) ٢٣٨
 ٣٩ - بداية الحملات الصليبية المقدسة: (حملات: الفقراء - الصليبية الأولى -
 ١١٠١م) ٢٤٣

- ٤٠ - نجاح بيزنطي مؤقت: (ظهور عدو جديد) ٢٤٨
 ٤١ - ممالك بين التنصير والاتحاد: (تفوق كاثوليكي لاتيني) ٢٥٤
 ٤٢ - انتهاء قضية الاستثمار: (الحملة الصليبية الثانية) ٢٥٩
 ٤٣ - ضم صقلية للإمبراطورية المقدسة: (زواج تبعه اتحاد) ٢٦٥
 ٤٤ - الإمبراطورية الأنجوية: (بوادر النزاع الأنجلو فرنسي) ٢٦٩
 ٤٥ - عودة الحملات الصليبية المقدسة: (الحملة الصليبية الثالثة - حملة
 ١١٩٧) ٢٧٥

- ٤٦ - الحملة الصليبية الرابعة : (الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية) ٢٨٠
 ٤٧ - عودة الحملات الصليبية على الشرق: (حملات: الأطفال - الخامسة -
 السادسة - البارونات) ٢٨٦
 ٤٨ - الغزو المغولي لشرق ووسط أوروبا: (أعظم رعب في تاريخ أوراسيا)
 ٢٩٣

- ٤٩- محاولة جديدة لغزو مصر: (الحملة الصليبية السابعة - والثامنة) ٣٠٠
 ٥٠ - أحوال القوى العظمى الأوروبية: (نهاية العصور الوسطى العليا) ٣٠٥
 الفصل الرابع: العصور الوسطى الأخيرة (المتأخرة) ٣١٣
 ٥١ - نهاية تقدم المغول: (التصدي الأوروبي لغزوات المغول) ٣١٤

- ٥٢ - أزمة أواخر القرون الوسطى: (مجاجات - طاعون - ثورات) ٣١٨
- ٥٣ - أزمة أواخر القرون الوسطى: (صراعات وحروب قومية) ٣٢٣
- ٥٤ - نهاية الإمبراطورية البيزنطية للأبد: (سقوط القسطنطينية الأخير) ٣٢٨
- ٥٥ - نظرة على عموم البلاد الأوروبية: (دماء في كل البقاع) ٣٣٥
- الفصل الخامس: الحياة في العصور الوسطى ٣٤٣
- ٥٦ - العصور الوسطى المبكرة: (جوانب حياة الفرد والمجتمع) ٣٤٤
- ٥٧ - العصور الوسطى العالية: (جوانب حياة الفرد والمجتمع) ٣٥٢
- ٥٨ - العصور الوسطى الأخيرة: (جوانب حياة الفرد والمجتمع) ٣٦١
- ٥٩ - معضلة الاستحمام والنظافة العامة: (هل كانت أوروبا مستنقعا عظيما؟) ٣٦٧
- ٦٠ - المساهمة الإسلامية في النهضة الأوروبية: (من المصادر الغربية) ٣٧١
- الفصل السادس: أوروبا الحديثة حتى (٢٠٢٢م) ٣٨٢
- ٦١ - أوروبا نحو النهضة: (الإصلاح البروتستانتى) ٣٨٣
- ٦٢ - إمبراطوريات استعمارية كبرى: (صراع الإمبريالية التوسعية) ٣٨٩
- ٦٣ - عصر التنوير: (ثورة صناعية عظيمة) ٣٩٥
- ٦٤ - نهضة الأمم وصراع القوميات الناشئة: (نحو حربٍ أوروبية شاملة) ٣٩٧
- ٦٥ - الحروب العالمية: (رعونة الإمبريالية) ٤٠١
- ٦٦ - الحرب الباردة: (تداعيات تفكك الاتحاد السوفيتي) ٤٠٧
- ٦٧ - أوروبا المتقدمة: (التكامل الأوروبي) ٤١١
- الخاتمة ٤١٥
- التواصل مع الكاتب ٤٢٣